



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه  
صلى الله عليه وسلم

WWW. **Ghaemiyeh** .com  
WWW. **Ghaemiyeh** .org  
WWW. **Ghaemiyeh** .net  
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

# الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي

١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب ( عليه السلام )

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

|    |  |
|----|--|
| ٥  | الفهرس                                     |
| ٢٧ | الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ١٤ |
| ٢٧ | اشاره                                      |
| ٢٨ | اشاره                                      |
| ٣٤ | سوره فاطر                                  |
| ٣٤ | اشاره                                      |
| ٣٤ | محتوى السوره:                              |
| ٣٥ | فضيله هذه السوره:                          |
| ٣٦ | الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ١ الى ٣]    |
| ٣٦ | اشاره                                      |
| ٣٦ | التفسير                                    |
| ٣٦ | اشاره                                      |
| ٣٦ | فاتح مغاليق الأبواب!                       |
| ٤١ | ملاحظات                                    |
| ٤٣ | «بحث»                                      |
| ٤٣ | اشاره                                      |
| ٤٣ | الملائكه فى القرآن الكريم:                 |
| ٤٨ | الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٤ الى ٧]    |
| ٤٨ | اشاره                                      |
| ٤٨ | التفسير                                    |
| ٤٨ | اشاره                                      |
| ٤٨ | لا يغرنكم الشيطان و الدنيا                 |
| ٥٤ | الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٨ الى ١٠]   |
| ٥٤ | اشاره                                      |

التفسير ..... ٥٤

ملاحظتان ..... ٦٢

اشاره ..... ٦٢

١- العزّه جميعا من الله عزّ اسمه ..... ٦٢

٢- الفرق بين «الكلام الطيّب» و«العمل الصالح» ..... ٦٣

الآيتان [سوره فاطر (٣٥): الآيات ١١ الى ١٢] ..... ٦٤

اشاره ..... ٦٤

التفسير ..... ٦٤

اشاره ..... ٦٤

و ما يستوى البحرين!! ..... ٦٤

تأمل الأمور التاليه: ..... ٦٨

بحث ..... ٧١

اشاره ..... ٧١

العوامل المعنويه المؤثره في طول العمر ..... ٧١

الآيتان [سوره فاطر (٣٥): الآيات ١٣ الى ١٤] ..... ٧٤

اشاره ..... ٧٤

التفسير ..... ٧٤

اشاره ..... ٧٤

الأصنام لا تسمع دعاءكم!! ..... ٧٤

بحوث ..... ٧٧

اشاره ..... ٧٧

١- استقلال آيات القرآن الكريم و تفسيرها المنحرف ..... ٧٧

الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ١٥ الى ١٨] ..... ٨٠

اشاره ..... ٨٠

التفسير ..... ٨٠

اشاره ..... ٨٠

٨٢ ..... شرح برهان الإمكان والوجوب «الفقر والغنى»: .....

٨٧ ..... الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ١٩ الى ٢٣] .....

٨٧ ..... اشاره .....

٨٧ ..... التفسير .....

٨٧ ..... اشاره .....

٨٧ ..... وما تستوى الظلمات ولا النور: .....

٨٩ ..... بحوث .....

٨٩ ..... اشاره .....

٨٩ ..... ١- آثار الإيمان والكفر .....

٩٠ ..... ٢- هل أن الموتى واقعا لا يدركون؟ .....

٩٣ ..... ٣- تنوع التعبيرات جزء من الفصاحة .....

٩٥ ..... الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢٤ الى ٢٦] .....

٩٥ ..... اشاره .....

٩٥ ..... التفسير .....

٩٥ ..... اشاره .....

٩٥ ..... لا عجب من عدم إيمان: .....

٩٩ ..... الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢٧ الى ٢٨] .....

٩٩ ..... اشاره .....

٩٩ ..... التفسير .....

٩٩ ..... اشاره .....

٩٩ ..... العجائب المختلفه للخلقه: .....

١٠٥ ..... الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢٩ الى ٣٠] .....

١٠٥ ..... اشاره .....

١٠٥ ..... التفسير .....

١٠٥ ..... اشاره .....

١٠٥ ..... التجاره المربحه مع الله: .....

١٠٨ ..... تعليقه

١٠٨ ..... اشاره

١٠٨ ..... شروط تلك التجاره العجبيه:

١١٠ ..... الأيتان [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٣١ الى ٣٢]

١١٠ ..... اشاره

١١٠ ..... التفسير

١١٠ ..... اشاره

١١٠ ..... الورثه الحقيقيون لميراث الأنبياء:

١١٧ ..... ملاحظه

١١٧ ..... اشاره

١١٧ ..... من هم حراس الكتاب الإلهي؟

١١٩ ..... الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٣٣ الى ٣٥]

١١٩ ..... اشاره

١١٩ ..... التفسير

١١٩ ..... اشاره

١١٩ ..... الحمد لله الذي أذهب عَنَّا الحزن:

١٢٣ ..... الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٣٦ الى ٣٨]

١٢٣ ..... اشاره

١٢٣ ..... التفسير

١٢٣ ..... اشاره

١٢٣ ..... رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا!

١٢٨ ..... ملاحظتان

١٢٨ ..... اشاره

١٢٨ ..... ١- ما هو المقصود من «ذات الصدور»؟

١٢٨ ..... ٢- لا سبيل للرجوع!

١٣٠ ..... الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٣٩ الى ٤١]



١٣٠ ..... اشارة

١٣٠ ..... التفسير

١٣٠ ..... اشارة

١٣٠ ..... السماوات و الأرض بيد القدره الإلهيه:

١٣٦ ..... ملاحظه

١٣٦ ..... اشارة

١٣٦ ..... الصغير و الكبير سيان أمام قدره الله!

١٣٨ ..... الآيات [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

١٣٨ ..... اشارة

١٣٨ ..... سبب النزول

١٣٩ ..... التفسير

١٣٩ ..... اشارة

١٣٩ ..... استكبارهم و مكرهم سبب شقائهم:

١٤٥ ..... الآيه [سوره فاطر (٣٥): آيه ٤٥]

١٤٥ ..... اشارة

١٤٥ ..... التفسير

١٤٥ ..... اشارة

١٤٥ ..... لو لا لطف الله و رحمته!

١٥٠ ..... سوره يس

١٥٠ ..... اشارة

١٥٢ ..... محتوى السوره:

١٥٢ ..... فضيله سوره «يس»:

١٥٥ ..... الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ١ الى ١٠]

١٥٥ ..... اشارة

١٥٥ ..... التفسير

١٦٣ ..... بحوث

١٦٣ ..... اشارة

١٦٣ ..... ١-فقدان وسائل المعرفه

١٦٥ ..... ٢-السدود من الأمام و الخلف

١٦٥ ..... ٣-الحرمان من السير الأفاقى و الأنفسى

١٦٧ ..... الأيتان [سوره يس (٣٦): الآيات ١١ الى ١٢]

١٦٧ ..... اشارة

١٦٧ ..... التفسير

١٦٧ ..... اشارة

١٦٧ ..... من هم الذين يتقبلون إنذارك؟

١٧١ ..... مسألتان

١٧١ ..... اشارة

١٧١ ..... ١-أنواع الكتب التى تثبت بها أعمال الناس

١٧٢ ..... ٢-كلّ شيء أحصيناه

١٧٥ ..... الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ١٣ الى ١٩]

١٧٥ ..... اشارة

١٧٥ ..... التفسير

١٧٥ ..... اشارة

١٧٥ ..... و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية:

١٨١ ..... الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٢٠ الى ٣٠]

١٨١ ..... اشارة

١٨٢ ..... التفسير

١٨٢ ..... اشارة

١٨٢ ..... المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكف!

١٩٣ ..... بحوث

١٩٣ ..... اشارة

١٩٣ ..... ١-قصه رسل أنطاكيه

٢- ما نتعلمه من هذه القصة ..... ١٩٦

٣- ثواب و عقاب البرزخ ..... ١٩٨

٤- قادة الأمم ..... ١٩٩

الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٣١ الى ٣٢] ..... ٢٠٠

اشاره ..... ٢٠٠

التفسير ..... ٢٠٠

اشاره ..... ٢٠٠

الغفلة الدائمة: ..... ٢٠٠

الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٣٣ الى ٣٦] ..... ٢٠٣

اشاره ..... ٢٠٣

التفسير ..... ٢٠٣

اشاره ..... ٢٠٣

آيات اخرى!! ..... ٢٠٣

الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٣٧ الى ٤٠] ..... ٢١٠

اشاره ..... ٢١٠

التفسير ..... ٢١٠

بحوث ..... ٢١٦

اشاره ..... ٢١٦

١- حركة الشمس (الدورانيه) و(الجريانيه) ..... ٢١٦

٢- تعبير «تدرک» و«سابق» ..... ٢١٨

٣- نظام النور و الظلام في حياه البشر: ..... ٢١٨

الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٤١ الى ٤٤] ..... ٢٢١

اشاره ..... ٢٢١

التفسير ..... ٢٢١

اشاره ..... ٢٢١

حركة السفن في البحار آيه إلهيته: ..... ٢٢١

الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٤٥ الى ٤٧] ----- ٢٢٥

اشاره ----- ٢٢٥

التفسير ----- ٢٢٥

اشاره ----- ٢٢٥

الإعراض عن جميع آيات الله: ----- ٢٢٥

الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٤٨ الى ٥٣] ----- ٢٣٠

اشاره ----- ٢٣٠

التفسير ----- ٢٣٠

اشاره ----- ٢٣٠

صيحه النشور! ----- ٢٣٠

الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٥٤ الى ٥٨] ----- ٢٣٦

اشاره ----- ٢٣٦

التفسير ----- ٢٣٦

اشاره ----- ٢٣٦

أصحاب الجنة فاكهون! ----- ٢٣٦

ملاحظه ----- ٢٤٠

اشاره ----- ٢٤٠

أنواع «السلام» المنتور على أهل الجنة ----- ٢٤٠

الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٥٩ الى ٦٢] ----- ٢٤٢

اشاره ----- ٢٤٢

التفسير ----- ٢٤٢

اشاره ----- ٢٤٢

لماذا عبدتم الشيطان؟! ----- ٢٤٢

الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٦٣ الى ٦٨] ----- ٢٤٧

اشاره ----- ٢٤٧

التفسير ----- ٢٤٧

٢٤٧ ..... اشارة

٢٤٧ ..... يوم تسكت الألسن و تشهد الأعضاء!!

٢٥٤ ..... الأيتان [سوره يس (٣٦): الآيات ٦٩ الى ٧٠]

٢٥٤ ..... اشارة

٢٥٤ ..... التفسير

٢٥٤ ..... اشارة

٢٥٤ ..... أنه ليس بشاعر..بل نذير!!

٢٥٨ ..... بحث

٢٥٨ ..... اشارة

٢٥٨ ..... حياه و موت القلوب:

٢٦٢ ..... الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٧١ الى ٧٦]

٢٦٢ ..... اشارة

٢٦٢ ..... التفسير

٢٦٢ ..... اشارة

٢٦٢ ..... فوائد الأنعام للإنسان!!

٢٦٧ ..... بحث

٢٦٩ ..... الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٧٧ الى ٧٩]

٢٦٩ ..... اشارة

٢٦٩ ..... سبب النزول

٢٦٩ ..... التفسير

٢٧٤ ..... الآية [سوره يس (٣٦): آيه ٨٠]

٢٧٤ ..... اشارة

٢٧٤ ..... التفسير

٢٧٧ ..... مسألتان

٢٧٧ ..... اشارة

٢٧٧ ..... ١-شجر أخضر..لماذا؟

- ٢٧٨ ..... ٢-الفرق بين الوقود و الوقود:
- ٢٨٠ ..... الآيات [سوره يس (٣٦): الآيات ٨١ الى ٨٣]
- ٢٨٠ ..... اشاره
- ٢٨٠ ..... التفسير
- ٢٨٠ ..... اشاره
- ٢٨٠ ..... هو المالك و الحاكم على كل شيء!!
- ٢٨٤ ..... بحوث
- ٢٨٤ ..... اشاره
- ٢٨٤ ..... ١-الإعتقاد بالمعاد أمر فطري:
- ٢٨٤ ..... ٢-أثر الإعتقاد بالمعاد على حياه البشر:
- ٢٨٩ ..... ٣-الدلائل العقلية على المعاد:
- ٢٨٩ ..... اشاره
- ٢٨٩ ..... أ-برهان الحكمة:
- ٢٩١ ..... ب-برهان العدالة:
- ٢٩٢ ..... ج-برهان الهدف:
- ٢٩٣ ..... د-برهان نفي الاختلاف:
- ٢٩٤ ..... ٤-القرآن و مسأله المعاد:
- ٢٩٤ ..... ٥-المعاد الجسماني:
- ٢٩٨ ..... ٦-الجته و النار:
- ٣٠١ ..... سوره الصفات
- ٣٠١ ..... اشاره
- ٣٠٣ ..... محتوى سوره الصفات:
- ٣٠٤ ..... فضيله تلاوه سوره الصفات:
- ٣٠٤ ..... الآيات [سوره الصفات (٣٧): الآيات ١ الى ٥]
- ٣٠٤ ..... اشاره
- ٣٠٤ ..... التفسير

٣٠٦ ..... اشارة

٣٠٦ ..... الملائكة المستعده لتنفيذ المهام:

٣١٣ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٦ الى ١٠]

٣١٣ ..... اشارة

٣١٣ ..... التفسير

٣١٣ ..... اشارة

٣١٣ ..... حفظ السماء من تسلل الشياطين!

٣١٩ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١١ الى ١٥]

٣١٩ ..... اشارة

٣١٩ ..... التفسير

٣١٩ ..... اشارة

٣١٩ ..... الذين لا يقبلون الحق أبدا:

٣٢١ ..... ملاحظتان

٣٢٢ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٦ الى ٢٣]

٣٢٢ ..... اشارة

٣٢٢ ..... التفسير

٣٢٢ ..... اشارة

٣٢٢ ..... هل نبعث من جديد؟

٣٢٩ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٢٤ الى ٣٢]

٣٢٩ ..... اشارة

٣٢٩ ..... التفسير

٣٢٩ ..... اشارة

٣٢٩ ..... الحوار بين القاده و الأتباع الضالين:

٣٣٢ ..... ملاحظتان

٣٣٢ ..... اشارة

٣٣٢ ..... ١-السؤال أيضا عن ولايه أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام:

٢-المتبوعون و التابعون الضالّون:----- ٣٣٥

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٣٣ الى ٤٠]----- ٣٣٧

اشاره----- ٣٣٧

التفسير----- ٣٣٧

اشاره----- ٣٣٧

مصير أئمه الضلال و أتباعهم:----- ٣٣٧

ملاحظه----- ٣٤٠

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٤١ الى ٤٩]----- ٣٤٢

اشاره----- ٣٤٢

التفسير----- ٣٤٢

اشاره----- ٣٤٢

جوانب من النعم لأهل الجنّه:----- ٣٤٢

ملاحظه----- ٣٤٧

اشاره----- ٣٤٧

إلقاء نظره عامّه على ما جاء في الآيات السابقه:----- ٣٤٧

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٥٠ الى ٦١]----- ٣٤٩

اشاره----- ٣٤٩

التفسير----- ٣٤٩

اشاره----- ٣٤٩

البحث عن رفيق السوء:----- ٣٤٩

بحوث----- ٣٥٢

اشاره----- ٣٥٢

١-الرابطه بين أهل الجنّه و أهل النار----- ٣٥٢

٢-بحقّ من نزلت هذه الآيات----- ٣٥٢

٣-لنيل مثل هذه النعم علينا المثاره----- ٣٥٤

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٦٢ الى ٧٠]----- ٣٥٦



٣٥٤ ..... اشارة

٣٥٤ ..... التفسير

٣٥٤ ..... اشارة

٣٥٤ ..... جوانب من العذاب الأليم لأهل النار: -

٣٤٢ ..... الآيات [سوره الصفات (٣٧): الآيات ٧١ الى ٧٤]

٣٤٢ ..... اشارة

٣٤٢ ..... التفسير

٣٤٢ ..... اشارة

٣٤٢ ..... الأمم الضالّه السابقه:

٣٤٥ ..... الآيات [سوره الصفات (٣٧): الآيات ٧٥ الى ٨٢]

٣٤٥ ..... اشارة

٣٤٥ ..... التفسير

٣٤٥ ..... اشارة

٣٤٥ ..... مقتطفات من قصه نوح:

٣٤٩ ..... ملاحظه

٣٤٩ ..... اشارة

٣٤٩ ..... هل أنّ البشر الموجودين على الأرض هم من ذريته نوح؟

٣٧١ ..... الآيات [سوره الصفات (٣٧): الآيات ٨٣ الى ٩٤]

٣٧١ ..... اشارة

٣٧١ ..... التفسير

٣٧١ ..... اشارة

٣٧١ ..... خطّه إبراهيم الذكيه في تحطيم الأصنام:

٣٧٨ ..... ملاحظات

٣٧٨ ..... اشارة

٣٧٨ ..... ١- هل أنّ الأنبياء يستخدمون التوريه؟

٣٨٠ ..... ٢- إبراهيم و القلب السليم:

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٩٥ الى ١٠٠] ..... ٣٨٢

اشاره ..... ٣٨٢

التفسير ..... ٣٨٢

اشاره ..... ٣٨٢

فشل مخططات المشركين: ..... ٣٨٢

بحثان ..... ٣٨٦

اشاره ..... ٣٨٦

١-خالق كل شيء: ..... ٣٨٦

٢-هجره إبراهيم عليه السلام: ..... ٣٨٧

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٠١ الى ١١٠] ..... ٣٨٩

اشاره ..... ٣٨٩

التفسير ..... ٣٨٩

اشاره ..... ٣٨٩

إبراهيم عند المذبح: ..... ٣٨٩

بحوث ..... ٣٩٧

اشاره ..... ٣٩٧

١-من هو ذبيح الله؟ ..... ٣٩٧

٢-هل أن إبراهيم كان مكلفا بذبح ابنه؟ ..... ٣٩٩

٣-كيف يمكن أن تكون رؤيا إبراهيم حجّه؟ ..... ٤٠٠

٤-عدم تأثر روح إبراهيم الكبيره بوساوس الشيطان: ..... ٤٠١

٥-فلسفه التكبيرات في (منى): ..... ٤٠٢

٦-الحج عباده مهمته تبني الإنسان: ..... ٤٠٣

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١١١ الى ١١٣] ..... ٤٠٦

اشاره ..... ٤٠٦

التفسير ..... ٤٠٦

اشاره ..... ٤٠٦

٤٠٦ ..... إبراهيم ذلك العبد المؤمن:

٤١٠ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١١٤ الى ١٢٢]

٤١٠ ..... اشاره

٤١٠ ..... التفسير

٤١٠ ..... اشاره

٤١٠ ..... النعم التي منّ بها الله على موسى و هارون:

٤١٤ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٢٣ الى ١٣٢]

٤١٤ ..... اشاره

٤١٤ ..... التفسير

٤١٤ ..... اشاره

٤١٤ ..... التبيّ إلباس و مواجهته للمشركين:

٤١٨ ..... بحثان

٤١٨ ..... اشاره

٤١٨ ..... ١- من هو إلباس؟

٤١٩ ..... ٢- من هم إلباسين؟

٤٢٢ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٣٣ الى ١٣٨]

٤٢٢ ..... اشاره

٤٢٢ ..... التفسير

٤٢٢ ..... اشاره

٤٢٢ ..... تدمير قوم لوط:

٤٢٦ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]

٤٢٦ ..... اشاره

٤٢٦ ..... التفسير

٤٢٦ ..... اشاره

٤٢٦ ..... يونس في بوتقه الامتحان:

٤٣٥ ..... بحوث

٤٣٥ ..... اشارة

٤٣٥ ..... ١-عرض موجز لحياه يونس عليه السلام

٤٣٦ ..... ٢-كيف بقى يونس حيا فى بطن الحوت؟

٤٣٨ ..... ٣-دروس و عبر كبيره فى قصص صغيره:

٤٣٩ ..... ٤-الجواب على سؤال:

٤٤٠ ..... ٥-القرعه و مشروعيتها فى الإسلام:

٤٤١ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٤٩ الى ١٦٠]

٤٤١ ..... اشارة

٤٤١ ..... التفسير

٤٤١ ..... اشارة

٤٤١ ..... التهم القبيحه:

٤٤٨ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٦١ الى ١٧٠]

٤٤٨ ..... اشارة

٤٤٨ ..... التفسير

٤٤٨ ..... اشارة

٤٤٨ ..... الادعاءات الكاذبه:

٤٥٣ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٧١ الى ١٧٧]

٤٥٣ ..... اشارة

٤٥٣ ..... التفسير

٤٥٣ ..... اشارة

٤٥٣ ..... حزب الله هو المنتصر:

٤٥٣ ..... اشارة

٤٥٥ ..... سؤال مهم:

٤٥٩ ..... الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٧٨ الى ١٨٢]

٤٥٩ ..... اشارة

٤٥٩ ..... التفسير

٤٥٩ ..... اشارة

٤٥٩ ..... تولّ عنهم!

٤٦٢ ..... ملاحظه

٤٦٢ ..... اشارة

٤٦٢ ..... التفكّر فى نهايه كلّ عمل:

٤٦٥ ..... سورة ص

٤٦٥ ..... اشارة

٤٦٧ ..... محتويات السوره:

٤٦٨ ..... فضيله تلاوه سوره(ص)

٤٦٩ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ١ الى ٣]

٤٦٩ ..... اشارة

٤٦٩ ..... أسباب النزول

٤٧٠ ..... التفسير

٤٧٠ ..... اشارة

٤٧٠ ..... انقضاء مهله التجاه:

٤٧٥ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٤ الى ٧]

٤٧٥ ..... اشارة

٤٧٥ ..... أسباب النزول

٤٧٦ ..... التفسير

٤٧٦ ..... اشارة

٤٧٦ ..... هل يمكن قبول إله واحد بدلا من كلّ تلك الآلهه؟

٤٨٠ ..... ملاحظه

٤٨٠ ..... اشارة

٤٨٠ ..... الخوف من الجديد!

٤٨٢ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٨ الى ١١]

٤٨٢ ..... اشارة

٤٨٣ ..... التفسير

٤٨٣ ..... اشاره

٤٨٣ ..... الجيش المهزوم:

٤٨٨ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ١٢ الى ١٦] -

٤٨٨ ..... اشاره

٤٨٨ ..... التفسير

٤٨٨ ..... اشاره

٤٨٨ ..... تكفيهم صيحه سماويه واحده:

٤٩٦ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ١٧ الى ٢٠] -

٤٩٦ ..... اشاره

٤٩٦ ..... التفسير

٤٩٦ ..... اشاره

٤٩٦ ..... تعلم من داود:

٥٠٠ ..... بحث

٥٠٠ ..... اشاره

٥٠٠ ..... الصفات العشر لداود عليه السلام:

٥٠٢ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٢١ الى ٢٥] -

٥٠٢ ..... اشاره

٥٠٢ ..... التفسير

٥٠٢ ..... اشاره

٥٠٢ ..... داود و الامتحان الكبير:

٥٠٦ ..... بحوث

٥٠٦ ..... اشاره

٥٠٦ ..... ١- ما هي حقيقه وقائع قضه داود؟ -

٥٠٧ ..... ٢- التوراه و القصص الخرافيه بشأن داود -

٥٠٧ ..... اشاره

و الآن نسال: ----- ٥١١

٣-الأحاديث الإسلاميه و قسه داود عليه السلام ----- ٥١١

اشاره ----- ٥١١

آراء المفشرين ----- ٥١٤

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٢٦ الى ٢٩] ----- ٥١٧

اشاره ----- ٥١٧

التفسير ----- ٥١٧

اشاره ----- ٥١٧

احكم بالعدل و لا تتبع هوى النفس: ----- ٥١٧

ملاحظتان ----- ٥٢٣

اشاره ----- ٥٢٣

١-التقوى و الفجور أمام بعضهما البعض ----- ٥٢٣

٢-لمن تعنى هذه الآيات؟ ----- ٥٢٤

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٣٠ الى ٣٣] ----- ٥٢٤

اشاره ----- ٥٢٤

التفسير ----- ٥٢٤

اشاره ----- ٥٢٤

سليمان عليه السلام يستعرض قوآته القتاليه: ----- ٥٢٤

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٣٤ الى ٤٠] ----- ٥٣٣

اشاره ----- ٥٣٣

التفسير ----- ٥٣٣

اشاره ----- ٥٣٣

الامتحان الصعب لسليمان و ملكه الواسع: ----- ٥٣٣

هنا يطرح سؤالان: ----- ٥٣٤

اشاره ----- ٥٣٤

١-هل يستشفّ البخل من طلب سليمان عليه السلام ----- ٥٣٤

٥٤٢ ..... ملاحظتان

٥٤٢ ..... اشاره

٥٤٢ ..... ١-الحقائق التي تبينها لنا قصه سليمان

٥٤٣ ..... ٢-سليمان في القرآن و التوراه

٥٤٥ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٤١ الى ٤٤]

٥٤٥ ..... اشاره

٥٤٥ ..... التفسير

٥٤٥ ..... اشاره

٥٤٥ ..... حياه أيوب المليئه بالحوادث و العبر:

٥٥٢ ..... بحوث

٥٥٢ ..... اشاره

٥٥٢ ..... ١-دروس مهمه في قصه أيوب

٥٥٤ ..... ٢-أيوب عليه السلام في القرآن و التوراه

٥٥٥ ..... ٣-إطلاق صفه(أواب)على الأنبياء الكبار

٥٥٧ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٤٥ الى ٤٨]

٥٥٧ ..... اشاره

٥٥٧ ..... التفسير

٥٥٧ ..... اشاره

٥٥٧ ..... الأنبياء الستة:

٥٦٤ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٤٩ الى ٥٤]

٥٦٤ ..... اشاره

٥٦٤ ..... التفسير

٥٦٤ ..... اشاره

٥٦٤ ..... هذا ما وعد به المتقون:

٥٦٨ ..... الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٥٥ الى ٦١]

٥٦٨ ..... اشاره



التفسير ..... ٥٦٨

اشاره ..... ٥٦٨

و هذه هي عاقبه الطغاه! ..... ٥٦٨

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٦٢ الى ٦٤] ..... ٥٧٤

اشاره ..... ٥٧٤

التفسير ..... ٥٧٤

اشاره ..... ٥٧٤

تخاصم أهل النار: ..... ٥٧٤

ملاحظه ..... ٥٧٤

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٦٥ الى ٧٠] ..... ٥٧٧

اشاره ..... ٥٧٧

التفسير ..... ٥٧٧

اشاره ..... ٥٧٧

إتما أنا نذيرا: ..... ٥٧٧

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٧١ الى ٨٣] ..... ٥٨٢

اشاره ..... ٥٨٢

التفسير ..... ٥٨٢

اشاره ..... ٥٨٢

تكبر الشيطان و طرده من رحمه الله! ..... ٥٨٢

بحثان ..... ٥٩٠

اشاره ..... ٥٩٠

١- فلسفه وجود الشيطان ..... ٥٩٠

٢- نيران الأنانيه و الغرور تحرق رأسمال الوجود ..... ٥٩٢

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٨٤ الى ٨٨] ..... ٥٩٣

اشاره ..... ٥٩٣

التفسير ..... ٥٩٣

٥٩٣ ..... اشارة

٥٩٣ ..... آخر حديث بشأن إبليس!

٥٩٤ ..... ملاحظه

٥٩٤ ..... اشارة

٥٩٤ ..... من هو المتكلف؟

٦١٢ ..... تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدید آور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱















سمّيت هذه السوره بـ«فاطر» أو «الملائكته» لابتداء آياتها بآيه ذكر فيها «فاطر» و«الملائكته». و هي من السور المكيه، مع أنّ البعض يستثنى منها الآيات (٢٩ و ٣٢) و يعتبرها مدنيه، إلا أنّنا لم نجد دليلا على صحّه هذا الاستثناء.

و لكونها مكيه التّزول، فإنّ محتواها العام يعكس الملامح العامه للسور المكيه، كالحديث في المبدأ و المعاد و التوحيد، و دعوه الأنبياء، و ذكر نعم الله عزّ و جلّ و مصير المجرمين يوم الجزاء.

و يمكن تلخيص آيات هذه السوره في خمسة أقسام:

١- قسم مهم من آيات هذه السوره يتحدّث حول آثار عظمه الله في عالم الوجود، و أدلّه التوحيد.

٢- قسم آخر من آياتها يبحث في ربوبيه الله و تدبيره لجميع امور العالم، بالأخصّ امور الإنسان، و عن خالقيته و رزاقيته، و خلق الإنسان من التراب و مراحل تكامل الإنسان.

٣- قسم آخر يتحدّث حول المعاد و نتائج الأعمال في الآخرة، و رحمه الله الواسعه في الدنيا، و سنّته الثابته في المستكبرين.

٤- قسم من الآيات يشير إلى مسأله قياده الأنبياء و جهادهم الشديد و المتواصل ضدّ الأعداء المعاندين. و مواساة الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم في هذا الخصوص.

٥- القسم الأخير منها يتعرّض للمواعظ و النصائح الإلهيه فيما يخصّ المواضيع المذكوره أعلاه، و يعتبر مكمّلا لها.

بعض المفسرين لخصّ جميع هذه السوره فى موضوع واحد و هو: هيمنه و قهاريه الله فى جميع الأمور (١).

هذا الإعتبار و إن كان منسجما مع القسم الأعظم من آيات السوره، إلا أنه لا يمكن إنكار وجود موضوعات مختلفه اخرى فيها.

### فضيله هذه السوره:

ورد فى الحديث الشريف عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم «من قرأ سوره الملائكه، دعته يوم القيامه ثلاثه أبواب من الجنه أن ادخل من أى الأبواب شئت» (٢).

و مع الالتفات إلى ما نعلمه من أن أبواب الجنه هى تلك العقائد و الأعمال الصالحه التى سببت الوصول إلى الجنه، كما ورد فى بعض الروايات من أن هناك بابا باسم «باب المجاهدين» أو أمثاله، فيمكن أن تكون الروايه السالف ذكرها إشاره إلى أبواب القاعده الاعتقديه الثلاثيه الأساس «التوحيد-المعاد-النبوّه».

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أن «الحمدين: حمد سبأ، و حمد فاطر، من قرأهما فى ليله لم يزل فى ليلته فى حفظ الله و كلاءته، فمن قرأهما فى نهاره لم يصبه فى نهاره مكروه، و أعطى من خير الدنيا و خير الآخره ما لم يخطر على قلبه و لم يبلغ مناه» (٣).

و نقول كما قلنا سابقا بأن القرآن برنامج عمل، و تلاوته بدايه للتفكر و الإيمان الذى هو بدوره وسيله للعمل بمحتوى الآيات، و كل هذا الثواب العظيم يتحقق بهذه الشروط «فتأمل!!».

\*\*\*

ص: ٨

١-١) - تفسير فى ظلال القرآن، بدايه سوره فاطر.

٢-٢) - مجمع البيان، المجلد ٤، صفحه ٣٩٩.

٣-٣) - نور الثقلين، المجلد ٤، صفحه ٣٤٥، حديث ١.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اللَّهُ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحِهِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)

التفسير

اشاره

فاتح مغاليق الأبواب!

تبدأ هذه السوره- كما هو الحال في سوره الفاتحه و سبأ و الكهف- بحمد الله و الثناء عليه لخلقه هذا الكون الفسيح، يقول تعالى:  
الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

«فاطر» من مادّه «فطر» و أصله الشقّ طولاً، لأنّ خلق الموجودات يشبه شقّ

ظلمه العدم و ظهور نور الوجود، استخدم هذا التعبير فيما يخصّ الخلق، خصوصا إذا لا حظنا ما يقوله العلم الحديث من نظريات تشير إلى أنّ مجموعه عالم الوجود كانت في البدء كومه واحده ثمّ انشقت تدريجيّا عن بعضها.

و إطلاق كلمه «فاطر» على الله سبحانه و تعالى، يعطى للكلمه مفهوما جديدا و أكثر وضوحا. نعم فنحن نحمد الله و نشكره على خالقيته، لأنّ كلّ ما هو موجود منه تعالى، و ليس لأحد ممّن سواه شيء من ذاته (١).

و لأنّ تدبير امور هذا العالم قد نيطت من قبل البارى عزّ و جلّ -بحكم كون عالمنا عالم أسباب- بعهد الملائكه، فالآيه تنتقل مباشرة إلى الحديث فى خلق الملائكه و قدراتها العظيمه التى وهبها الله إياها! **جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.**

هنا تطرح ثلاثة أسئلة:

الأوّل: ما هى رساله الملائكه التى ورد ذكرها فى الآيه؟ هل هى رساله تشريعيه و جلب الأوامر من البارى إلى الأنبياء، أم أنّها رساله تكوينيه، أى تحمّل مسئوليه الأموريات المختلفه فى عالم الخلق، كما سترد الإشارة إليه لاحقا، أم يقصد منه الاحتمالان؟ يتّضح من ملاحظه ما ورد فى الجمله الاولى، من الحديث حول خلق السموات و الأرض، و ما ورد فى الجمله الأخيره من الحديث حول الأجنحه المتعدده للملائكه، و التى تدلّ على قدرتهم، و كذلك بملاحظه إطلاق مفهوم «الرساله» بالنسبه إلى جميع الملائكه (يلاحظ أنّ الملائكه لفظه جمع لاقترانها بالألف و اللام و تدلّ على العموم) يتّضح من ذلك كلّه أنّ المقصود من الرساله

ص: ١٠

١ - ١) - فيما يخصّ معنى «فاطر» و «فطر» تحدّثنا فى ذيل الآيه العاشره من سوره إبراهيم، و كذلك فى تفسير الآيه (١٤) من سوره الأنعام.

مفهوم واسع يشمل كلا من «الرسالة التشريعية» و«الرسالة التكوينية».

إنَّ إطلاقَ لفظه الرسالة على «الرسالة التشريعية» وإبلاغ الوحي إلى الأنبياء ورد في القرآن بكثرة، وإطلاق هذه اللفظة أيضا على «الرسالة التكوينية» ليس بالقليل كذلك.

في الآية (٢١) من سورة يونس نقرأ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ .

و في الآية (٦١) من سورة الأنعام نقرأ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .

و في الآية (٣١) من سورة العنكبوت ورد وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَكَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ .

و في آيات اخرى من القرآن نرى أنه قد عهد إلى الملائكة أيضا بمأموريات مختلفة عدت من رسالاتهم أيضا، و عليه فإن للرسالة مفهوما واسعا.

الثاني: ما هو المقصود بالأجنحة التي عبر عنها ب مثنى و ثلاث و رباع .

ليس من المستبعد أن يكون المقصود بالأجنحة هنا هو قدره على الانتقال و التمكّن من الفعل، بحيث يكون بعضهم أفضل من بعض و له قدره أكبر.

و عليه فقد ذكرت لهم سلسله من المراتب بالأجنحة، فبعضهم له أربعة أجنحة (مثنى اثنان اثنان)، و البعض له ستّة أجنحة، و البعض ثمانية، و هكذا.

«أجنحة» جمع (جناح) ما يستعين به الطائر على الطيران، و هو بمثابة اليد في الإنسان، و لأنّ الجناح في الطائر يستخدم كوسيله مساعده على الانتقال و الحركة و الفعّاليه، فقد استخدمت هذه الكلمه كناية عن وسيله الحركة ذاتها و عامل القدره و الاستطاعه، فمثلا يقال: إنّ فلانا احترقت أجنحته، كناية عن فقدانه قدره الحركة أو الإمكانية، أو أنّ الإنسان يجب أن يطير بجناحي العلم و العمل، و الكثير من هذه التعبيرات التي تشير إلى المعنى المستعار لهذه الكلمه.

كما يلاحظ أنّ المقصود من تعبيرات مثل «العرش» و«الكرسى» و«اللوح» و

«القلم» هي المفاهيم المعنويه لها، وليس واقعها المادى.

من الطبيعي أنه لا- يمكن حمل ألفاظ القرآن على غير معانيها الظاهريه بدون قرينه، و لكن حيثما ظهر أثر لتلك القرائن فليس هناك مشكله.

ورد فى بعض الروايات أن «جبرئيل» رسول الوحي الإلهي، له ستمائه جناح، و كان يملأ ما بين الأرض و السماء حينما يلتقى به الرسول صلى الله عليه و آله و سلم (١).

أو ما

ورد فى «نهج البلاغه» حينما تحدّث أمير المؤمنين عن عظمه الملائكه.

فقال: «و منهم الثابته فى الأرضين السفلى أقدامهم، و المارقه من السماء العليا أعناقهم، و الخارجه من الأقطار أركانهم، و المناسبه لقوائم العرش أكتافهم» (٢).

أو أنّ هناك ملائكه ما بين شحمه آذانهم و عيونهم مسيره خمسمائه عام من الطيران (٣).

و من الواضح أنّ هذه التعبيرات لا يمكن حملها على البعد الجسماني و المادى، بل المراد بيان العظمه المعنويه و أبعاد القدره.

و نعلم أنّ الجناح-عاده-يستفاد منه فى جو الأرض، لأنّ الأخيره محاطه بغلاف غازى من الهواء الضاغط، و الطيور إنّما تستفيد من أمواج الهواء للطيران، و الارتفاع و الانخفاض، و لكن بمجرد خروجنا من المحيط الغازى للأرض حيث ينعدم الهواء فإنّ الجناح ليس له أدنى تأثير فى تحقيق الحركه، و يكون حاله حال سائر الأعضاء.

ناهيك عن أنّ الملك الذى تكون أقدامه فى أعماق الأرض و رأسه أعلى من أعلى السموات، ليس له حاجه إلى الطيران الجسماني!! البحث فى هل أنّ «الملائكه» أجسام لطيفه أو من المجردات بحث آخر،

ص: ١٢

١-١) -نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٤٩-ح ٢٠.

٢-٢) -نهج البلاغه، خطبه رقم ١.

٣-٣) -تفسير على بن إبراهيم طبقاً لما نقله نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحه ٣٤٩.

سنشير له فى البحوث ان شاء الله المقصود الآن هو أن نعلم أن الجناح و الريش بالنسبه لها وسيله الفعاليه و الحركه و القدره، و الذى عبّرت عنه القرائن المشار إليها أعلاه بقدر كاف، بالضبط كما قلناه بالنسبه لـ «العرش» و «الكرسى»، فإن هاتين الكلمتين تشيران إلى قدره الله فى العالم من أبعاد مختلفه!! و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام «الملائكه لا يأكلون و لا يشربون و لا ينعحون، و إنما يعيشون بنسيم العرش» (١).

السؤال الثالث: هل أن عبارته يزيد فى الخلق ما يشاء إشارة إلى زياده أجنحه الملائكه؟ كما قال به بعض المفسرين؟ أم أن لها معنى أوسع من ذلك بحيث يشمل عدا زياده فى أجنحه الملائكه الزيادات التى تحصل فى خلق الموجودات الاخرى؟ إطلاق الجملة من جهه، و دلالة بعض الروايات التى جاءت فى تفسير هذه الآيات من جهه اخرى، يشير إلى أن المعنى الثانى هو الأنسب.

فمن جمله ما

ورد، حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى تفسير هذه الجملة أنه قال:

«هو الوجه الحسن، و الصوت الحسن، و الشعر الحسن».

و نقر

فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله و سلم: «حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» و قرأ يزيد فى الخلق ما يشاء .

بعد الحديث عن خالقيه الله سبحانه و تعالى، و رساله الملائكه الذين هم واسطه الفيض الإلهى، تنتقل الآيات إلى الحديث عن رحمه الله سبحانه، و التى هى الأساس لكل عالم الوجود، تقول الآية الكريمة: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

الخلاصه أن تمام خزائن رحمه عنده، و هو يشمل بها كل من يراه أهلا لها، و يفتح أبوابها حيثما اقتضت حكمته، و لن يستطيع الناس بأجمعهم أن يغلقوا ما

ص: ١٣

١- ١) فى معنى «العرش» راجع شرحنا لهذه الكلمه فى تفسير الآيه (٥٤) من سوره الأعراف.



فتح و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا، أو أن يفتحوا بابا أغلقه سبحانه و تعالى، و هذا المفهوم فى الحقيقه فرع مهم من بحث التوحيد حيث يتفرع عنه فروع اخرى «تأمل».

و قد ورد شبيه هذا المعنى فى الآيات القرآنيه الاخرى، فى الآيه ١٠٧-سوره يونس يقول تعالى: **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .**

## ملاحظات

١-التعبير ب«يفتح»-من مادّه«فتح»-إشاره إلى وجود خزائن الرحمه الإلهيه التى ورد ذكرها أيضا فى آيات اخرى من القرآن الكريم، و الملفت للنظر أنّ هذه الخزائن بمجرد فتحها تجرى الرحمه على الخلائق بلا أدنى حاجه إلى شىء آخر، و بدون أن يستطيع أحد منعها من ذلك.

و تقدّم مفهوم «فتح الرحمه» على «إمساكها»، لأنّ رحمه الله تسبق غضبه دوما.

٢-تعبير «الرحمه» له معنى واسع و شامل، لكلّ المواهب الإلهيه فى الكون، معنويه و ماديه، و لهذا السبب يحسّ المؤمن عند ما توصلد أمامه جميع الأبواب بأنّ الرحمه تنساب فى قلبه و روحه، فىكون مسرورا و قانعا هادئا و مطمئنا، حتّى و إنّ كان مأسورا فى السجن.

و تاره ينعكس الحال، و ذلك حينما تكون جميع الأبواب الظاهريه مفتوحه أمام الإنسان، و مع ذلك يحسّ فى أعماقه بالضيق و الضغط و يرى الدنيا على سعتها سجنا مظلما موحشا، لمجرد عدم انفتاح باب الرحمه الإلهيه فى أعماقه. و هذا أمر محسوس و ملموس للجميع.

٣-استعمال صفتي «العزیز» و «الحكيم» لتوضيح قدره الله سبحانه و تعالى

على «إرسال» و«إمساك» الرحمة، و في عين الحال إشاره إلى أن الفتح و الإغلاق في أى وقت شاء تعالى إنما هو على أساس الحكمة، لأن قدره البارى و حكمته مقرونتان.

و على كل حال فإن الانتفاع من محتوى هذه الآيه، يمنح الإنسان المؤمن هدوءا و سكينه، و يجعله مقاوما لكل أنواع الحوادث، و لا يخاف من المشاكل، و يبعده عن الغرور فى حال النجاح و الفوز.

و تشير الآيه التاليه إلى «توحيد العباده» على أساس «توحيد الخالقيه و الرازقيه» فتقول الآيه الكريمه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .

فكروا مليا ما هو منشأ كل هذه المواهب و البركات و الإمكانيات الحياتيه التى قيضت لكم.. هل من خالقٍ غيرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ . فمن الذى يرسل عليكم من الشمس نورها الذى ينشر الحياه، و حبات المطر التى تحيى الموات، و النسيم الذى ينعش الروح؟ و من الذى يخرج لكم من الأرض معادنها و ذخائرها و غذاءها و أنواع نباتاتها و ثمارها و بركاتها الأخرى؟ فإذا علمتم أن مصدر كل هذه البركات هو الله، فاعلموا أن: لا إله إلا هو .

و عليه فكيف تنحرفون عن طريق الحق إلى الباطل، و تسجدون للأصنام بدلا من السجود لله سبحانه؟ فَأَنى تُؤْفَكُونَ .

«تؤفكون»: من مادّه «إفك»، بمعنى «كلّ مصروف عن وجهه الذى يحقّ أن يكون عليه» و لذا قيل لكلّ حديث ينصرف عن الصدق فى المقال إلى الكذب «إفك» و إن كان البعض يرى أنّ هذه الكلمه تطلق على الكذب الفاحش و التهمه الشيعه.\*\*\*

## الملائكة فى القرآن الكريم:

تعرض القرآن الكريم كثيرا لذكر الملائكة..فقد تحدّث آيات عديده عن صفات، خصائص، مأموريات، و وظائف الملائكة.حتى أنّ القرآن الكريم جعل الإيمان بالملائكة مرادفا للإيمان بالله و الأنبياء و الكتب السماويه، ممّا يدلّل على أهميّه هذه المسأله الأساسيه.

أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . (١)

و ممّا لا- شكّ فيه أنّ وجود الملائكه من الأمور الغيبيه التى لا- يمكن إثباتها بتلك الصفات و الخصائص إلّا بالأدله النقليه، و يجب الإيمان بها على أنه إيمان بالغيب.

و بالجمله يطرح القرآن الكريم خصائص الملائكه كما يلى:

١-الملائكه موجودات عاقله لها شعور، و هم عباد مكرمون من عباد الله بلّ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢) .

٢-مطيعون لأوامر الله و لا يعصونه أبدا: لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٣) .

٣-أنّ لهم وظائف مهمه و كثيره التنوع كلّفوا بها من قبل البارى عزّ و جلّ.

مجموعه تحمّل العرش و المَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ (٤) .

مجموعه تدبّر الأمر فالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) .

ص: ١٦

١-١) -البقره، ٢٨٥.

٢-٢) -الأنبياء، ٢٦.

٣-٣) -الأنبياء، ٢٧.

٤-٤) -الحاقه، ١٧.

٥-٥) -النازعات، ٥.

و اخرى لقبض الأرواح... حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ... (١).

و آخرون يراقبون أعمال البشر وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ \* كِرَامًا كَاتِبِينَ \* يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (٢).

مجموعه تحفظ الإنسان من المخاطر و الحوادث وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُزِيلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْقَرُونَ (٣).

و اخرى مأموره بإحلال العذاب و العقوبه على أقوام معينه وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَتَّىٰ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٤) وَ آخرون يمدّون المؤمنين حال الحرب يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٥).

و أخيرا مجموعه لتبليغ رسالات الوحي و إنزال الكتب السماويه للأنبياء يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ . (٦)

و لو أردنا الاسترسال فى ذكر وظائف الملائكه لطلال البحث و اتسع.

٤-الملائكه دائمو التسيح و التقديس لله سبحانه و تعالى وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ (٧).

٥-و بناء على أنّ الإنسان بحسب استعداده للتكامل يمكنه أن يكون أعلى مقاما و أشرف موضعا من الملائكه فقد سجدت الملائكه بدون استثناء لخلق آدم،

ص: ١٧

١- (١) -الأعراف، ٣٧.

٢- (٢) -الإنفطار، ١٠-١٣.

٣- (٣) -الأنعام، ٦١.

٤- (٤) -هود، ٧٧.

٥- (٥) -الأحزاب، ٩.

٦- (٦) -النحل، ٢.

٧- (٧) -الشورى، ٥.

وعدوا آدم معلماً لهم «الآيات ٣٠-٣٤ سورة البقره».

٦- إن الملائكة يظهرون بصوره الإنسان للأنبياء و غير الأنبياء، كما نقرأ فى الآيه (١٧) من سوره مريم: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا .

كذلك يذكر القرآن الكريم تجليهم بصوره إنسان لإبراهيم و لوط (هود-٦٩ و ٧٧) كما أنه يستفاد من أواخر تلك الآيات أن قوم لوط أيضا رأوهم بتلك الصوره الإنسانيه السويه «هود-٧٨».

فهل أن ذلك الظهور بالشكل الإنسانى، له واقع عينى، أم هو بصوره تمثّل و تصرف فى قوه الإدراك؟ ظاهر الآيات القرآنيه يشير إلى المعنى الأول، و إن كان بعض من كبار المفسرين قد اختار المعنى الثانى.

٧- يستفاد من الروايات أن أعداد الملائكه كثيره بحيث أنه لا يمكن مقايسه أعدادهم بالبشر بأى شكل من الأشكال، فحينما

سئل الإمام الصادق عليه السلام: هل الملائكه أكثر أم بنو آدم؟ قال: «و الذى نفسى بيده لملائكه الله فى السموات أكثر من عدد التراب فى الأرض، و ما فى السماء موضع قدم إلا و فيها ملك يسبحه و يقده، و لا فى الأرض شجره و لا مدر إلا و فيها ملك موكل بها يأتى الله كل يوم بعملها و الله أعلم بها، و ما منهم أحد إلا و يتقرب كل يوم إلى الله بولايتنا أهل البيت، و يستغفر لمحبتنا و يلعن أعداءنا، و يسأل الله أن يرسل عليهم العذاب إرسالا» (١).

٨- الملائكه لا يأكلون و لا يشربون، و لا يتزوجون،

فقد ورد عن الإمام الصادق فى حديث طويل قوله: «إن الملائكه لا يأكلون و لا يشربون و لا ينكحون، و إنما يعيشون بنسيم العرش» (٢).

٩- لا ينامون و لا يضعفون و لا يغفلون،

ففى الحديث عن أمير المؤمنين على

ص: ١٨

١- ١) -بحار الأنوار، الجزء ٥٩، صفحه ١٧٦ حديث ٧.

٢- ٢) -المصدر السابق، صفحه ١٧٤-حديث ٤. و قد نقلت روايات متعدده فى هذا الشأن فراجع.

بن أبي طالب عليه أفضل الصلاه و السلام «و ملائكة خلقتهم و أسكنتهم سماواتك، فليس فيهم فتره و لا عندهم غفله، و لا فيهم معصيه هم أعلم خلقك بك،... و لا يغشاهم نوم العيون و لا سهو العقول، و لا فتره الأبدان، لم يسكنوا الأصلاب و لم تضمتهم الأرحام» الحديث (١).

١٠- إِنَّ لَهُمْ مَقَامَاتٍ، وَ مَرَاتِبَ مُتَفَاوِتَهُ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (٢).

و كذلك نقرأ

فى الحديث المذكور عن الإمام الصادق عليه السلام: «و إنَّ لله ملائكة ركعا إلى يوم القيامة، و إنَّ لله ملائكة سجدا إلى يوم القيامة» (٣).

و لمزيد نقرأ

فى الحديث المذكور عن الإمام الصادق عليه السلام: «و إنَّ لله ملائكة ركعا إلى يوم القيامة، و إنَّ لله ملائكة سجدا إلى يوم القيامة» ٣.

و لمزيد الاطلاع على أوصاف الملائكة و أصنافهم يراجع كتاب «السماء و العالم» من بحار الأنوار، أبواب الملائكة (المجلد ٥٩- الصفحات ١٤٤-٣٢٦) و كذلك نهج البلاغه الخطب (١ و ٩١-خطبه الأشباح- و ١٠٩ و ١٧١).

هل أن الملائكة بتلك الأوصاف التى ذكرناها، موجودات مجردة أم مادية؟ لا شك أن من غير الممكن أن تكون الملائكة بهذه الأوصاف من هذه المادّة الكثيفه، و لكن لا مانع من أن تكون أجساما لطيفه الخلق، أجساما فوق هذه المادّة المألوفه لنا.

إثبات (التجرد المطلق) للملائكة من الزمان و المكان و الجزئيه، ليس بالأمر الهين، و الوصول إلى تلك النتيجة ليس وراءه كثير فائده، المهم هو أن نعرف الملائكة بالصفات التى وردت فى القرآن و الروايات الثابته. و أنها من الموجودات العلويه الراقية عند الله فى مقامها و مكانتها، و لا نعتقد لها بغير مقام العبوديه لله سبحانه، و أن نعلم بأن الإعتقاد بأنها شريكه مع الله فى أمر الله الخلق أو فى العباده كفر

ص: ١٩

١-١) -بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ١٧٥، ج ٦.

٢-٢) -الصفات، ١٦٤-١٦٦.

٣-٣) -بحار الأنوار، المجلد ٥٩، صفحه ١٧٤-حديث ٤.

نكتفى بهذا القدر من التفصيل حول الملائكة و نوكل التفاصيل الأكثر إلى الكتب التي كتبت بهذا الشأن.

و نرى في الكثير من عبارات «التوراه» لدى الحديث عن الملائكة عبارته «الآلهه» و هو تعبير مشرك و من علائم تحريف التوراه الحاليه، و لكن القرآن الكريم نقى من هذه التعبيرات، لأنه لا يرى لها سوى مقام العبوديه و العباده لله تعالى و إطاعه أو امره، و حتى أن القرآن يصرح في بعض آياته يتفوق الإنسان الكامل على الملائكة في المرتبه و المقام.\*\*\*

اشاره

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ  
لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا  
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)

التفسير

اشاره

لا يفرنكم الشيطان و الدنيا

ينتقل القسم الثانى من هذه المجموعه من الآيات-و بعد أن كان الحديث حول توحيد الخالقيه و الرازقيه-إلى الحديث فى تفصيل البرامج العمليه للرسول صلى الله عليه و آله و سلم و يوجه الخطاب إليه أولاً، ثم لعموم الناس و بيان المناهج العمليه لهم بعد تفصيل البرامج العقائديه سابقا.

فى البدايه تقدم الآيات للرسول درس الاستقامه على الصراط السوى، و الذى



هو أهمّ الدروس له، فتقول الآية الكريمة: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَهَؤُلَاءِ الرُّسُلُ الَّذِينَ سَبَقُوكَ قَوْمًا، و لم يهدأ لهم بال في أداء رسالتهم، و أنت أيضا يجب أن تقف بصلابه، و تؤدّي رسالتك، و البقيه بعهدة الله. وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فهو الناظر و الرقيب على كلّ شيء، و سوف يحاسب على جميع الأعمال.

فهو تعالى لا يتغافل عن المشاق التي تتحمّلها في هذا الطريق، كما أنّه لن يترك هؤلاء المكذّبين المخالفين المعاندين يمضون دون عقاب، فقد يكون للقلق محلّ لو لم يكن ليوم القيامة وجود، أمّا مع وجود تلك المحكمه الإلهيه العظيمة، و تلك الكتابه لكلّ أعمال البشر لذلك اليوم العظيم، فأىّ داع للقلق بعد؟ ثمّ تنتقل الآيات لتوضيح أهمّ البرامج للبشريه، فتقول الآية الكريمة: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَالْقِيَامَةُ وَ الْحِسَابُ وَ الْكِتَابُ وَ الْمِيزَانُ وَ الْجَزَاءُ وَ الْعِقَابُ وَ الْجَنَّةُ وَ النَّارُ كُلُّهَا وَ عَوْدُ إِلَهِهِ لَا- يُمْكِنُ أَنْ يَخْلِفَهَا اللَّهُ تَعَالَى.

و مع الانتباه إلى هذه الوعود الحقّه: فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ فلا ينبغي أن تخدعكم الحياه الدنيا، و لا يخدعكم الشيطان بعفو الله و رحمته..

أجل، إنّ عوامل الإثارة، و زخارف الدنيا و زبارجها، إنّما تريد أن تملأ- قلوبكم، و تلهيكم عن تلك الوعود الإلهيه العظيمة، و كذلك فإنّ شياطين الجنّ و الإنس دائمه السعي بوساوسها و إغرائها و بمختلف وسائل الخداع و الاحتيال، و هي أيضا تريد إلفات اهتمامكم إليها، و إلهائكم عن التفكير في ذلك اليوم الموعود، فإنّ تمكّنت أضاليلهم و خدعهم منكم، فقد ضاعت عليكم حياتكم بأكملها، و كانت سعادتكم و آمالكم نقشا على الماء، فالحذر الحذر!! إنّ تكرار التنبيه للناس لكى لا يغتروا بوساوس الشياطين أو بزخارف الدنيا- في الحقيقه- إشاره إلى أنّ للذنوب طريقين للولوج إلى النفس الإنسانيه:

١-مظاهر الدنيا الخداعه، كالجاه و المقام و المال و الكبرياء و أنواع الشهوات.

٢-الاغترار بعفو الله و كرمه، و هنا فإنّ الشيطان يزيّن الدنيا فى نظر الإنسان و يصوّرها له متاعا مباحا و جذّابا و محبّبا و قيما من جهه.

و من جهه اخرى فإنّه كلّما أراد الإنسان أن يتذكّر الآخره و محكمه العدل الإلهى و مقاومه الجاذبيه الشديده للدنيا و خدعها، فإنّه يغريه بعفو الله و رحمته، فيدفعه بالنتيجه إلى التسوييف و الطغيان و ارتكاب الذنوب. غافلا عن أنّ الله سبحانه مع كونه فى موضع الرحمه و «أرحم الراحمين» فهو تعالى فى موضع العقوبه «أشدّ المعاقبين»، فإنّ رحمته لا يمكن أن تكون أبدا باعثا على المعصيه، كما أنّ غضبه لا يمكن أن يكون سببا لليأس و القنوط.

«غرور» صيغه مبالغه بمعنى الخداع أو المضللّ غير العادى، و الظاهر أنّه إشاره إلى جميع عوامل الإغواء و الخداع، كما أنّه قد يكون إشاره إلى خصوص الشيطان. و إن كان المعنى الثانى أكثر مناسبه للآيه الثانيه، خاصّه إذا علمنا أنّ القرآن الكريم نسب «الغرور» إلى الشيطان فى آيات مختلفه.

بعض المفسّرين، لهم تحليل خاص هنا ملخّصه: أنّ الناس الذين يتعرضون لعوامل الخداع و الإغراء ثلاثه أصناف:

١-صنف ضعيف و ليس له قدره بحيث أنّه يخدع بأبسط الحيل.

٢-صنف أقوى من الأوّل، لا يخدعون فقط بزخرف الدنيا و زبرجها، بل مع ضمّ وساوس الشياطين الذين يعملون على تحريك شهواتهم و يهوّنون لهم مفاسد أعمالهم عندها يمكن خداعهم. فالمملدّات الدنيويه من جهه، و الوسواس الشيطانيه من جهه اخرى، تدفعهم إلى ارتكاب أعمال قبيحه و سيئه.

٣-أمّا الصنف الثالث و هو الأقوى و الأعلّم، فهم لا يعترّون بأنفسهم و لا يمكن لأحد خداعهم.

و جمله فلا تَغُرَّنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إشاره إلى الصنف الأوّل، و جمله

إشاره إلى الصنف الثاني، و أما الصنف الثالث فهم مصداق قوله: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (١).

الآية التالية تنذر و تنبه جميع المؤمنين فيما يخص مسأله وساوس الشيطان و مكائده و التي تعرّضت لها الآية السابقة فتقول: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا .

تلك العداوه التي شرع بها الشيطان من أول يوم خلق فيه آدم عليه السلام، و أقسم حين طرد من قرب الله و جواره بسبب عدم تسليمه للأمر الإلهي بالسجود لآدم، أقسم و توعد بأن يسلك طريق العدا لآدم و بنيه، و حتّى أنّه دعا من الله أن يمهلّه و يطيل في عمره لذلك الغرض.

و قد التزم بما قال، و لم يفوت أدنى فرصه لإبراز عداوته و إنزال الضربات بأفراد بنى آدم، فهل يصحّ منكم يا بنى آدم أن لا تعتبروه عدوًّا لكم، أو أن تغفلوا عنه و لو لحظه واحده، فكيف الحال باتباعه و اقتفاء خطواته، أو تعدونه و لتيًا شفيقا و صاحبًا ناصحًا أ فتتخذونه و ذريته أو لبياء من دوني و هم لكم عدوًّا (٢).

مضافا إلى أنّه عدو يهاجم من كلّ طرف و جانب، فهو نفسه «لعنه الله» يقول:

على ما نقله القرآن الكريم: ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ . (٣)

و هو يكمن لكم و يراكم و لا ترونه: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ . (٤)

و مع ذلك، فهذا لا- يعني أنّكم لا- تقدرّون على الدفاع عن أنفسكم أمام مكائده و وساوسه، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه أفضل الصلوات و السلام): أنّ الله

ص: ٢٤

١- ١) - تفسير الفخر الرازي، المجلد ٢٦، ص ٥.

٢- ٢) - الكهف، ٥٠.

٣- ٣) - الأعراف، ١٧.

٤- ٤) - الأعراف، ٢٧.

سبحانه و تعالى أوصى موسى عليه السلام أربع وصايا و طالبه بحفظها:

أولاهنّ ما دمت لا ترى ذنوبك تغفر فلا تشتغل بعيوب غيرك! و الثانيه: ما دمت لا ترى كنوزى قد نفذت فلا تهتم برزقك! و الثالثه: ما دمت لا ترى زوال ملكى فلا- ترج أحدا غيرى! و الرابعه: ما دمت لا ترى الشيطان ميتا فلا تأمن مكره (١) ! على كلّ حال، فقد وردت فى آيات كثيره الإشاره إلى عداوه الشيطان لبني آدم، و أطلقت عليه مرارا و تكرارا عباره عِدُوٌّ مُبِينٌ (٢) لذا يجب الحذر الدائم من هذا العدو.

فى آخر الآيه يضيف تعالى للتأكيد أكثر: **إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ .**

«حزب» فى الأصل بمعنى الجماعه التى لها فعاليه، و لكنّها تطلق عاده على كلّ مجموعه تتبع برنامجا و هدفا خاصا. و المقصود (بحزب الشيطان) أتباعه.

طبيعى أنّ الشيطان لا يمكنه إدخال أى أحد من الناس ليكون عضوا رسميا فى حزبه و يقوده إلى جهنّم، فأعضاء حزبه هم الذين يتصفون بالصفات المذكوره فى بعض الآيات القرآنيه..

\*فهم الذين طوّقوا أنفسهم بطوق العبوديه للشيطان **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ . (٣)**

\*و هم الذين

ص: ٢٥

١-١) -سفينه البحار، المجلد ١، صفحه ٥٠١-ماده ريع.

٢-٢) -لاحظ الآيات ١٦١ و ٢٠٨ من سوره البقره، و الآيه (١٤٢) من سوره الأنعام، و الآيه (٢٢) من سوره الأعراف، و الآيه (٥) سوره يوسف، و الآيه (٦٠) سوره يس، و الآيه (٦٢) من سوره الزخرف.

٣-٣) -النحل، ١٠٠.

إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ . (١)

و الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم ذكر «حزب الله» في ثلاثه مواضع و كذلك ذكر «حزب الشيطان» في ثلاثه مواضع أيضا، حتّى يتّضح من الذين يقيدون أسماءهم في حزب الله، و من هم أعضاء حزب الشيطان؟ و لكن من الطبيعي أنّ الشيطان يدعو حزبه إلى المعاصي و الذنوب و لوث الشهوات.. إلى الشرك و الطغيان و الاضطهاد، و بالنتيجه إلى جهنّم و بئس المصير.

و سوف نستوفى الشرح حول خصائص «حزب الله» و خصائص «حزب الشيطان» في تفسير الآيه (٢٢) من سوره «المجادله» إن شاء الله.

آخر آيه من هذه الآيات توضّح عاقبه «حزب الله» السعيده و خاتمه «حزب الشيطان» المريره، فتقول: الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

من الجدير بالملاحظه هنا أنّ القرآن الكريم اكتفى بذكر «الكفر» كسبب لاستحقاق العذاب، و لكنّه لم يكتف بذكر (الإيمان) وحده كسبب للمغفره و الأجر الكبير بل أردف مضيفا له «العمل الصالح». لأنّ الكفر وحده يكفى للخلود في عذاب السعير، بينما الإيمان بدون العمل لا يكفى لتحقيق النجاه، فإنّهما مقترنان.

و قد ورد في الآيه ذكر (المغفره) ثمّ ذكر «الأجر الكبير» بعدها، باعتبار أنّ (المغفره) تغسل المؤمنين في البدء و تهيوهم لتلقّي «الأجر الكبير».\*\*\*

ص: ٢٤

اشاره

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَمُنَّاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ (١٠)

التفسير

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

:

مِمَّا مَرَّ مِنْ تَقْسِيمِ النَّاسِ إِلَىٰ مَجْمُوعَتَيْنِ «المجموعه المؤمنه» و«المجموعه الكافره» أو «حزب الله» و«حزب الشيطان»، تنتقل هذه الآيات إلى بيان إحدى الخصائص المهمه لهاتين المجموعتين و التي هي في الواقع المصدر لسائر برامجهما.

تقول الآيه الاولى: أَمْ مَنْ زَيَّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا كَمَنْ يَرَى الْحَقَائِقَ كَمَا هِيَ مِنْ حَيْثُ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ؟! فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ هِيَ الْمِفْتَاحُ لِكُلِّ مَصَائِبِ الْأَقْوَامِ الضَّالَّةِ وَالْمَعَانِدَةِ، الَّذِينَ يَرُونَ أَعْمَالَهُمُ الْقَبِيحَةَ أَعْمَالًا جَمِيلَةً، وَذَلِكَ لِأَنْسَجَامِهَا مَعَ شَهَوَاتِهِمْ وَقُلُوبِهِمُ الْمَعْتَمَةِ.

بديهي أنّ شخصا كهذا، لا يتقبل نصيحه، وليس لديه الاستعداد لسماع النقد و ليس بحاضر أبدا لتغيير مسيره. كما أنه لا يناقش أعماله و لا يفكر بعواقبها الوخيمه.

و أدهى من ذلك و أمرّ أنّهم حينما يدور حديث حول المحسنين و المسيئين، يعتقدون بأنّ الضمير في الأوّل يعود عليهم، بينما يعود في المسيئين على المؤمنين الصالحاء! و العجب من هؤلاء الكفّار المعاندين أنّهم عند ما يسمعون هذه الآيات تتلى عليهم و هي تتحدّث عن حزب الشيطان و مصيرهم الأسود طبّقوا ذلك على المؤمنين الصالحين، و عدّوا أنفسهم مصداقا لحزب الله!! و تلك مصيبه و فاجعه عظيمه! أمّا من الذي زَيَّنَ سُوءَ أَعْمَالِ هَؤُلَاءِ فِي أَنْظَارِهِمْ؟ هَلْ هُوَ اللَّهُ، أَمْ هُوَ النَّفْسُ، أَمْ الشَّيْطَانُ؟ مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْعَامِلَ الْأَصْلِيَّ لِذَلِكَ هُوَ الْهُوَى وَالشَّيْطَانُ، وَ لَكِنْ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ لِذَلِكَ الْأَثَرِ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَيُمْكِنُ نَسْبُهُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ وَ فِي بَدَايِهِ طَرِيقَ الْمَعَاصِي يَشْعُرُ بِعَدَمِ الْإِرْتِيَاحِ حِينَ ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ، لِسَلَامَةِ فِطْرَتِهِ وَ حَيَوِيَّةِ وَجْدَانِهِ وَ سَلَامَةِ عَقْلِهِ، وَ لَكِنْ بِتَكَرُّرِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ يَقِلُّ عَدَمُ الْإِرْتِيَاحِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ عَدَمِ الْإِكْتِرَاثِ. ثُمَّ إِذَا اسْتَمَرَّ فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ يَمْسَى الْقَبِيحَ جَمِيلًا فِي نَظَرِهِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَفَاخِرِهِ وَ فَضَائِلِهِ، وَ الْحَالُ أَنَّهُ

يَغْطُ فِي بَرَكَهٖ آسَنَهُ مِنَ التَّعَاسِ وَ الشَّقَاةِ .

و الملفت للنظر أنّ القرآن عند ما يتساءل أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ... .

لا يتعرّض إلى ما يقابل ذلك صراحة، و كأنه يريد أن يفسح المجال أمام المستمع لكي يتصوّر أموراً مختلفه يمكنها أن تكون ما يقابل ذلك و يفهم أكثر و أكثر، و كأنه يريد أن يقول: هل أنّ شخصا كهذا هو كمن أبصر الحقيقة؟ هل أنّ شخصا كهذا كمن هو نقي القلب و مشغول دوماً بمحاسبه نفسه؟.

و هل أنّ هناك أملاً بالنجاه لهكذا شخص (١)؟.

ثم يضيف القرآن موضّحاً علّه الفرق بين الفريقين فيقول: فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مَنْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

فإذا زيّنت الأعمال السيئه بنظر المجموعه الاولى، فإنّ ذلك نتيجه الإضلال الإلهي، فالله سبحانه و تعالى هو الذي جعل تلك الخاصيه في النفس البشريه عند تكرارها للأعمال السيئه، بأن تتطّبع عليها و تعتادها و تنسجم معها و تنطبع بطبيعتها. و هو سبحانه الذي أعطى للمؤمنين الطاهري القلوب نفاذ البصر و البصيره، و سمعا واعيا لإدراك الحقائق كما هي.

و واضح أنّ هذه المشيئه الإلهيه توأم لحكمته تعالى، و إنّما تعطى لكلّ ما يناسبه.

لذا فإنّ الآيه تضيف في الختام: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِرَاتٍ و هذا التعبير يشابه ما ورد في الآيه (٣) من سورة الشعراء: لَعَلَّكَ بِأَعْيُنِنَا نَفْسُكَ الْآيَةُ الْكُوفِيَّةُ . (٢).

التعبير ب«حسرات» الذي هو «مفعول لأجله» لما قبله في الجملة، إشاره إلى أنّه ليس عندك عليهم حسره واحده، بل حسرات:

ص: ٢٩

١-١) -من هنا يتّضح أنّ في الآيه جمله مقدّره يمكن أن تكون... كمن ليس كذلك، أو كمن يحاسب نفسه و يرى سوء عمله سيئاً... أو: هل يرجي له صلاح أو متاب» و هكذا.

٢-٢) -ذكر أيضا لهذه الآيه تفسير آخر، و هو أنّ المقصود منها مخاطبه الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم بأن لا يتألم من شدّه أذى و مخالفات هؤلاء، إذ أنّ الله مطّلع على أعمالهم تماما و سينتقم منهم في الوقت المناسب.



«حسره» على تضييع نعمه الهدايه. «حسره» على تضييع جوهر الإنسانيه، «حسره» على تضييع حاسه التشخيص إلى حدّ رؤيه القبيح جميلاً، وأخيراً «حسره» على الوقوع في نار الغضب و القهر الإلهي.

و لكن لماذا لا ينبغي أن تتحسّر عليهم؟! ذلك لأجل إنّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

واضح من نبره الآيه شدّه تحرّق الرّسول صلّى الله عليه و اله و سلّم على الصّالين و المنحرفين، و كذلك هي حال القائد الإلهي المخلص يتألّم لعدم تقبّل الناس الحقّ و تسليمهم للباطل، و ضربهم بكلّ أسباب السعاده عرض الجدار، إلى حدّ كأنّ روحه تريد أن تفارق بدنه.

و استناداً إلى البحوث التي سبقت حول الهدايه و الضلاله و الإيمان و الكفر، تنتقل الآيه التاليه إلى بحث المبدأ و المعاد بعبارات مضغوطة، و تقرن آيات المبدأ بإثبات المعاد بدليل واحد ملفت للنظر، تقول الآيه الكريمة: وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ السَّحَابَ (١) فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ .

نظام دقيق يتحكّم في حركة الرياح، ثمّ في حركة السحاب، ثمّ في نزول قطرات المطر الباعثه للحياه، ثمّ في حياه الأرض الميتة، و هو أحسن دليل على أنّ يد القدره الحكيمه هي من وراء ذلك النظام تقوم على تدبير أموره.

أولاً- تؤمر الرياح الحاره بالتحرك من المناطق الإستوائيه إلى المناطق الباردة، و في مسيرها تحمل معها بخار الماء من البحار و تطلقه في السماء، بعدئذ تتحرّك بجريانات منظمه للبرد القطبي الذي يعاكس دوماً اتجاه الحركه الأول، و تؤمر بتجميع البخار الحاصل لتشكيل الغيوم.

ص : ٣٠

١ - ١) - ذكر المفسّر رون وجوها مختلفه لتفسير ظاهره التنويع في الأفعال و الضمائر في الجمله، ف«أرسل» فعل ماض في حين «فتثير» فعل مضارع، و الضمير في الأول غائب بينما في «فسقناه» متكلّم، و قد أشحنا عن ذكرها لما بدا من عدم دقّتها، و يمكن أن يكون ذلك للتفنّن في البيان و التنويع في الحديث.

ثم تؤمر نفس تلك الريح بحمل تلك الغيوم وإرسالها إلى الصحارى الميته، لتلقى قطرات المطر الباعثه للحياه فيها.

بعد ذلك-بشروط خاصه-تؤمر الأرض و البذور التى نثرت عليها بقبول الماء و النمو و الاخضرار،و من موجودات حقيره و عديمه القيمه ظاهرا تنبت موجودات حيّه و كثيره الشنوع و الجمال،طريّه خضراء،مفيده و مثمره..تدلل بدورها على قدرته سبحانه و تعالى،و تشهد على حكّمته،و تكون نموذجا من البعث الكبير.

فى الحقيقه إنّ الآيه أعلاه تدعو إلى التوحيد فى عدّه جوانب:

«برهان النظم» دليل على الوحدانيه،و«الحركه»تقتضى وجود محرّك لكلّ متحرّك، و من جانب آخر فإنّ النعم تدعو إلى شكر المنعم فطريا.

و كذلك فهى دليل على مسأله المعاد من جهات أيضا:

فتكامل الموجودات فى حركتها و مسارها و انبعاث الحياه من الأرض الميته تقول للإنسان:أيها الإنسان إنّك ترى مشهد المعاد فى فصول كلّ عام أمام ناظريك و تحت قدميك.

من اللازم أيضا الالتفات إلى أن(تثير)من مادّه(إثاره)بمعنى النشر و التفريق، و هى إشاره إلى أنّ توليد الغيوم ناتج عن هبوب الرياح على سطح المحيطات،لأنّ مسأله حركه الغيوم وردت فى الجمله التى بعدها فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ .

و اللطيف ما نقرأ

فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم حين سأله أحد الصحابه قائلا:يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى،و ما آيه ذلك فى خلقه؟ قال:«أما مررت بوادى أهلك ممحلا ثم مررت به يهتّر خضرا»؟ قلت:نعم!يا رسول الله.

قال:«فكذلك يحيى الله الموتى،و تلك آيته فى خلقه» (١).

ص: ٣١

ولنا بحث آخر حول نفس الموضوع أوردناه عند تفسير الآيه (٤٨) من سوره الروم.

الآن، و بعد هذا المبحث التوحيدى، تشير الآيه إلى الاشتباه الخطير الذى وقع فيه المشركون لاعتقادهم بأنّ العزّه تأتيهم من أصنامهم، و بأنّ الإيمان بالرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم سيكون سببا فى تخطف الناس إياهم إنّ تَبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا. (١) فتقول الآيه: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا.

«العزّه»: على ما يقول الراغب فى مفرداته: حاله مانعه للإنسان من أن يغلب..

من قولهم: أرض عزاز، أى صلبه.

و لأنّ الله سبحانه و تعالى هو الذات الوحيده التى لا- تغلب، و جميع المخلوقات بحكم محدوديتها قابله لأن تغلب، و عليه فإنّ العزّه جميعها من الله، و كلّ من اكتسب عزّه فمن بحر عزّته اللامتناهى.

فى حديث ينقل عن أنس عن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ كُلَّ يَوْمٍ:

أنا العزيز، فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز».

و فى الحقيقة إنّ الإنسان العاقل يجب أن يتزوّد بالماء من منبعه، لأنّ الماء الصافى و الوافر متوفّر هناك، لا فى الأوانى الصغيره المحدوده أو الملوّثه فى يد هذا و ذاك.

و

فى حديث عن الإمام الحسن بن على عليهما السّلام نقرأ بأنّ «جناده بن أبى أميّه» قال:

دخلت على الحسن بن على بن أبى طالب عليهما السّلام فى مرضه الذى توفّى فيه و بين يديه طست يقذف عليه الدم و يخرج كبده قطعته قطعته، من السم الذى سقاه معاويه (لعنه الله)، فقلت: يا مولاي ما لك لا تعالج نفسك؟ فقال: «يا عبد الله، بماذا أعالج الموت؟ قلت: إنّ الله و إنّنا إليه راجعون .

ص: ٣٢

ثم التفت إلى وقال: ضمن وصايا عديده: «..و إذا أردت عزًا بلا عشيره، و هيبه بلا سلطان، فاخرج من ذل معصيه الله إلى عز طاعه الله عز و جل»...الحديث.

□  
و لو لا حظنا بعض الآيات الكريمة في القرآن، فإنها تذكره العزّه لله و لرسوله و للمؤمنين و لله العزّه و لرسوله و للمؤمنين . (1) إذ أن الرسول و المؤمنون اكتسبوا عزّتهم من شعاع عزّه الباري عزّ و جلّ، و ساروا في طريق طاعته.

□  
ثم توضّح الآيه طريق الوصول إلى (العزّه) فيقول تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .**

### الْكَلِمُ الطَّيِّبُ

طيب بمحتواه، و ذلك لأجل المفاهيم التي تنطبق على الواقع العيني الظاهر المشرق، و ما هو أظهر و أكثر واقعيه من ذات الله تعالى، و مرآه حقّه و عدالته، و هؤلاء الصالحاء الذين يسلكون طريق نشر ذلك؟ لذا فقد فسّر «الكلم الطيب» بأنه العقائد الصحيحه فيما يخصّ المبدأ و المعاد و النبوه، نعم.. فعقيدته صحيحه هكذا تصعد إلى الله، و تجعل المعتقد بها يحلق هو الآخر، حتى يكون في قرب جوار الحقّ تعالى، و تغمره في عزّه الله ليكون عزيزا.

بديهي أن ينبت من هذا الجذر الطاهر، ساق و فروع، ثمها العمل الصالح، و كل عمل لائق و بناء و مفيد، سواء كانت دعوه إلى الحقّ، أو حمايه لمظلوم، أو جهادا للظلم و الطغيان، أو تقويم النفس و العباده، أو تعلم، و بالجملة فكل عمل خير يدخل في هذا المفهوم الشامل الواسع، إذا كان لأجله سبحانه- فقط- و لأجل كسب رضاه فهو يصعد إليه، و يعرج في سماء لطفه سبحانه و يكون سببا في تكامل و معراج صاحبه حتى يجعله أهلا للتعزّز بعزّه الحقّ تعالى.

□  
و ذلك هو ما أشارت إليه الآيه (٢٤) من سوره إبراهيم: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذَنُ رَبُّهَا .**

ص: ٣٣

و ممّا ذكرنا، يتّضح أنّ ما قال به بعض المفسّرين من أنّ «الكلمه الطيّبه» هي «لا إله إلاّ الله» أو «سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلاّ الله و الله أكبر» أو «إثبات الرساله للرسول محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم و الولايه و الخلافه لعلّى عليه السّلام بعد التوحيد» أو ما ورد في بعض الروايات من أنّ «الكلم الطيّب» و «العمل الصالح» هو «ولايه أهل البيت عليهم السّلام» أو أمثال هذه التفاسير، فإنّها جميعا من قبيل بيان المصاديق الأكثر وضوحا لذلك المفهوم الواسع الشامل، و ليس من قبيل وضع الحدود لذلك المفهوم. إذ أنّ كلّ كلام طيّب و صالح المحتوى يدخل تحت هذا العنوان.

على كلّ حال هو الله سبحانه و تعالى الذى يحيى الأرض الميتة بقطرات المطر - بمقتضى الآيه السابقه - هو سبحانه الذى ينمى «الكلام الطيّب» و «العمل الصالح» و يوصله إلى جوار قربه تعالى.

ثمّ تنتقل الآيه إلى ما يقابل كلّ ذلك فتقول: **وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرٌ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ .**

فمع أنّ هؤلاء الفاسدين المفسدين توهمون أنّهم بالظلم و الكذب و التروير يستطيعون كسب العزّه و المال و الثروه و القدره، إلاّ أنّهم فى النهايه يضعون أنفسهم فى قبضه العذاب الإلهى من جهه، و كلّ جهودهم تذهب أدراج الرياح من جهه اخرى.

أشخاص قال عنهم القرآن: **وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (١).**

و منافقون اعتقدوا بعزّتهم، و ذلّه المؤمنون يقولون لئن رجّعنا إلى المدينه لئخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ . **(٢)**

و آخرون اعتقدوا بأنّ القرب من الفراعنه سبب لعزّتهم، و أراد غيرهم الكرامه بالظلم و الاضطهاد، لكنّهم يتساقطون دوما، و الإيمان و العمل الصالح فقط هو

ص: ٣٤

١ - ١) - مريم، ٨١.

٢ - ٢) - المنافقون، ٨.

الذى يصعد إلى الله سبحانه! (مكر): مع أنّ هذه الكلمه لغويا بمعنى التفكر فى حلّ المشكل، و لكنّها جاءت فى موارد كثيره بمعنى التفكر بالحلّ مع اقترانها بالإفساد، كما فى هذه الآيه.

(السيئات): كلّ القبائح و المذمومات، أعمّ من القبائح الاعتقاديّه أو العمليّه، و ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ المعنى هو المؤامرات التى قام بها المشركون لقتل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم أو إبعاده عن مكّه، فليس هو إلاّ أحد مصاديق الكلمه دون مفهومها العامّ.

جمله «بيور» من مادّه «بوار» و «بوران» فى الأصل بمعنى الكساد المفرط، و لأنّ مثل هذا الكساد يكون سببا للهلاك، فقد استخدمت هذه الكلمه للتعبير عن الهلاك و الفناء، و كما قيل «كسد حتّى فسد».\*\*\*

## ملاحظتان

### إشارة

#### ١- العزّه جميعا من الله عزّ اسمه

ما هى حقيقه العزّه؟ هل هى سوى بلوغ مرحله المنعه؟ و إن كان كذلك فأين يجب البحث عن العزّه؟ و أى شىء يمكنه أن يعطى للإنسان العزّه؟!

يتّضح لنا بالتحليل أنّ حقيقه العزّه بالدرجه الأولى قدره تتجلى فى قلب و روح الإنسان، و تبعده عن الخضوع و التسليم و الاستسلام أمام الطغاه و العصاه، قدره بامتلاكها لا يخضع الإنسان للشهوات أبدا، و لن يجد الهوى و الهوس طريقا للتسلّط عليه.

قدره ترتقى به إلى مستوى الصلابه أمام تأثير زخارف الدنيا.

فهل أنّ هذه القدره لها منبع آخر غير الايمان بالله، أى الارتباط بالمنبع الأصلي للقدره و العزّه؟

هذا فى مرحله الفكر و الإعتقاد و الروح، أمّا فى مرحله العمل فإنّ «العزّه» تنبع من الأعمال السليمه الأصل و الدقيقه الأسلوب، و بتعبير آخر يمكن تلخيص ذلك بـ «العمل الصالح» هذان الاثنان يعطيان الإنسان العظمه و الرفعه و العزّه و المنعه.

«السحره» المعاصرون لفرعون، شرعوا بحيلهم باسم فرعون و بعزّته و قالوا بعزّه فرعونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ . (١)

و لكنّهم هزموا بسرعه أمام عصى موسى عليه السّلام. و بمجرّد أن خرجوا من ذلك فرعون، و لجأوا إلى ظلّ التوحيد و آمنوا، أصبحوا أقوىاء لا يمكن هزيمتهم بحيث لم تؤثر بهم أشدّ تهديدات فرعون، و قدّموا أيديهم و أرجلهم و حتّى أرواحهم العاشقه الوالهه و تجرّعوا كأس الشهاده، و دلّوا بذلك العمل على عدم استسلامهم أمام الترغيب و الترهيب، و عدم انهزامهم، و أصبح تأريخهم اليوم بالنسبه لنا عالما من الدروس البليغه.

## ٢- الفرق بين «الكلام الطيب» و «العمل الصالح»

قد يطرح سؤال هو: لماذا تقول الآيه السالفه الذكر حول «الكلام الطيب» إِنَّهُ يَصِيحُ عَدُوَّ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ بينما بالنسبه إلى «العمل الصالح» قالت وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ؟ يمكن الإجابة على هذا السؤال بأنّ «الكلم الطيب» إشاره إلى الإيمان و الإعتقاد السليم، و ذلك هو عين الصعود إلى الله، و حقيقه الإيمان ليس سوى ذلك، و لكن «العمل الصالح» الذى يتقبّله الله تعالى و يضاعف الأجر عليه، و يعطيه الدوام و البقاء ثم يرفعه (دقق النظر)!!!\*\*

ص: ٣٦

اشاره

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمِمَّا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۱۱) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَتَّبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلُوكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲)

التفسير

اشاره

و ما يستوى البحرين!!

مع الالتفات إلى ما كان من حديث في الآيات السابقة حول التوحيد و المعاد و صفات الله، تتعرض هذه الآيات أيضا إلى قسم آخر من آيات «الأنفس و الآفاق» التي تدل على قدره الله من جانب، و على علمه من جانب آخر، و قضيه إمكانية المعاد من جانب ثالث.



فى البداهه تشير إلى خلق الإنسان فى مراحلہ المختلفه فتقول: وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا .

و هذه ثلاث مراحل من مراحل خلق الإنسان: الطين - و النطفه - و مرحله الزوجيه.

بديهى أنّ الإنسان من التراب، إذ أنّ آدم عليه السلام خلق من تراب، كما أنّ جميع المواد سواء التى يتشكّل منها جسم الإنسان، أو التى يتغذى عليها، أو التى تتعقد منها نطفته، جميعها تنتهى إلى مواد هى ذاتها التى يحتويها التراب.

احتمل البعض أنّ الخلق من التراب، إشاره إلى الخلق الأول فقط، أمّا الخلق من النطفه فهو إشاره إلى المراحل التاليه التى أولها مرحله الخلقه الإجماليه للبشر (بلحاظ أنّ وجود الجميع يتلخّص بوجود آدم عليه السلام) و ثانيها مرحله التفضيليه بانفصال الإنسان من الآخر.

و على كلّ حال فإنّ مرحله «الزوجيه» هى مرحله إدامه نسل الإنسان و حفظ نوعه، و أمّا ما احتمله البعض من أنّ معنى «أزواجاً» هنا «الأصناف» أو «الروح و الجسم» و أمثالها، فيبدو بعيداً.

ثمّ ينتقل إلى المرحله الرابعه و الخامسه، «حمل النساء» و «الولاده» فيقول تعالى: وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ .

نعم، الحمل و التحوّلات و التغيّرات المذهله و المعقّده فى الجنين، ثمّ بلوغ مرحله وضع الحمل و الاضطرابات و التغيّرات المحيّره للامّ من جهه، و للجنين من جهه ثانيه، بشكل و بمقدار منظمّ و دقيق لا يمكن تعقّله بدون إسناده إلى العلم الإلهى اللامتناهى، فلو أصيب النظام الذى يحكم هذه العمليه باختلال و لو بمقدار رأس الإبره لأدى إلى عسر أو اختلال الحمل أو عمليه الولاده، ثمّ إلى ضياع الجنين و هلاكه.

هذه المراحل الخمس من حياه الإنسان، إحداها أعجب من الاخرى و أكثر

إشاره للدهشه. فأين الثرى من الثرىا.. أين ذلك التراب الميِّت الجامد من الإنسان الحى العاقل الفطن المبتكر؟! و أين تلك النطفه الحقيه التى تتكوّن من بضع قطرات من الماء المتعفن من ذلك الإنسان الراشد الجميل و المجهز بالحواس و الأجهزة العضويه المختلفه (١).

بعد هذه المرحله، تأتى مرحله تقسيم النوع البشرى إلى جنسين «المذكّر» و «المؤنث» بالفروقات الكثيره فى الجسم و الروح، و الأمور الفلسليه التى تبدأ بالتحّدّد منذ اللحظات الاولى لانعقاد النطفه، و اتّخاذ مسيرها الخاص و التكامل فى كلّ جنس باتّجاه الرساله التى انيطت به.

ثمّ تظهر مسأله رساله الامّ فى قبول و تحمّل ذلك الحمل و حفظه و تغذيته و تربيته و التى حيرت العلماء لقرون طويله، حتّى اعترفوا بأنّها من أعجب مسائل الوجود.

و آخر مرحله فى هذا المسير هى مرحله الولاده، و هى مرحله تحوّل كامل تقترن بعجائب كثيره.

فما هى العوامل التى تدفع الجنين إلى الخروج من بطن امّه؟ كيف يتمّ التنسيق بين هذا الأمر و بين إعداد جسم الامّ لتحقيق ذلك الأمر؟ كيف يتمكّن الجنين بعد تعوّده على وضع ما لمدّه تسعه أشهر، أن يلبس وضعا جديدا و يطبق كلّ مفرداته الجديده بلحظه واحده، ففى لحظه واحده يقطع صلته بامّه، و يتنفّس الهواء الطلق! يتناول طعامه من فمه بدلا من الحبل السرى! يخرج إلى محيط غارق فى النور و الإشراق بدلا من محيط بطن امّه المظلم؟! أ ليست هذه أعظم الدلائل على قدره الله و علمه اللامحدودين؟ و هل أنّ هذه المادّه الجامده الميتة و هذه الطبيعه غير الهادفه يمكنها أن تنظّم

ص: ٣٩

---

١ - ١) - «نطفه» كما ذكرنا سابقا، فى الأصل بمعنى «الماء» أو بالأخصّ «الماء القليل الصافى» ثمّ أطلقت لهذا السبب على الماء القليل الذى هو مبدأ انعقاد الجنين.

حلقة واحده صغيره من آلاف الحلقات فى سلسله الخلق بالاستفاده من المصادفات العمياء؟ فيا للأسف كيف يتعقل الإنسان مثل هذا الاحتمال الموهوم فيما يخص خلقته؟! ثم.. تشير الآيه إلى المرحلتين السادسة و السابعة من هذا البرنامج المذهل بانتقالها إلى حلقة اخرى، فتذكرهم مراحل العمر المختلفه و العوامل المؤثره فى زيادته و نقصانه فتقول الآيه الكريمه: **وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ (١)** و يخضع لقوانين و مناهج مدروسه يتحكم فيها علم الله و قدرته المطلقه.

فما هى العوامل المؤثره فى إدامه حياه الإنسان؟ و ما هى العوامل التى تهدد إدامتها؟ و باختصار ما هى العوامل التى يجب أن تتظافر مع بعضها حتى يستطيع الإنسان أن يعمر مائه سنه أو أكثر أو أقل؟ و أخيرا ما هى العوامل الموجبه لتفاوت أعمار الناس؟ كل ذلك له حسابات دقيقه و معقده لا يعلمها إلا الله. و ما نعلمه نحن اليوم حول هذه الموضوعات بالقياس إلى ما لا نعلمه يعتبر شيئا تافها.

«معمر» من مادّه «عمر» فى الأصل من «العمارة» نقيض الخراب، و العمر اسم لمده عماره البدن بالحياه خلال مدّه معينه.

«معمر» أى الشخص الطويل العمر.

و أخيرا تختم الآيه بهذه الجملة إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

فخلق هذا الموجود العجيب من التراب، و بدء خلق إنسان كامل من «ماء النطفه» و كذلك المسائل المرتبطه بتحديد الجنس، ثم الزوجيه، و الحمل، و الولاده،

ص : ٤٠

١ - ١) - المقصود من «الكتاب» هو العلم الإلهى اللامحدود، و ما ذكره البعض من أنه «اللوح المحفوظ» أو «صفحه حياه الإنسان» يعود بالنتيجه إلى ذلك العلم الإلهى.

و زياده أو نقص العمر سواء بلحاظ قدره أو بلحاظ العلم و الحسابات كلها بالنسبه إليه تعالى سهله و بسيطه. و ذلك بمجموعه  
يمثل جانبا من «آيات الأنفس» التي تربطنا ببدايه عالم الوجود و التعرف عليه من جهه، كما تعتبر أدله حيه على مسأله إمكانية  
المعاد من جهه اخرى.

فهل أن القادر على الخلق الأول من التراب و النطفه غير قادر على إعاده الحياه للناس مره اخرى؟! و هل أن العالم بكل دقائق و  
تفاصيل الأمور المرتبطه بتلك القوانين، يواجه مشكله في حفظ أعمال العباد ليوم المعاد.

تشير الآيه التاليه- التي تعتبر قسما آخر من آيات الآفاق الداله على عظمته و قدرته سبحانه و تعالى- إلى خلق البحار و بركاتها و  
فوائدها، فتقول الآيه الكريمه: **وَمَا يَشْتَوِي الْبُحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١).**

فمع أن كلا- البحرين في الأصل كانا بصوره قطرات من الماء الصافي و السائغ نزلت من السماء إلى الأرض، و أن كليهما من  
أصل واحد، إلا أنهما يظهران على هيتين متفاوتين تماما بشكل كامل و بفوائد متفاوته أيضا.

و العجيب أن الإنسان يحصل على السمك الطازج من كل منهما: **وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حَيْهَ تَلْبَسُونَهَا**  
علاوه على إمكانية الإفاده من كليهما للنقل و الانتقال و ترى الفلک فيه مواخر لتبتغوا من فضله و لعلکم تشکرون .

### تأمل الأمور التاليه:

١- «فرات»: على ما ذكر في لسان العرب هو الماء العذب جدا.

ص: ٤١

١ - ١) - «عذب» كما يذكر الراغب في مفرداته بمعنى «الماء النقي البارد» و في لسان العرب بمعنى: «الماء الطيب»، و يمكن أن  
يكون النقي و البارد داخلان في مفهوم «الطيب».

«سائغ»:الماء الذى يستمرأ بسهولة لعذوبته،على عكس الماء المالح-أو الأجاج-و هو الماء المرّ الذى يمّجه الإنسان.

٢-بعض المفسّرين قالوا بأنّ هذه الآيه مثال للفرق بين المؤمن و الكافر،و لكن الآيات السابقه و اللاحقه لها،و التى تتحدّث عن الخلقه،و حتّى نفس هذه الآيه، شاهده على حقيقه أنّ هذه الجملة أيضا تبحث فى أسرار التوحيد،و تشير إلى تنوّع المياه و آثارها المتفاوته و فوائدها المشتركه.

٣-ذكرت الآيه ثلاث فوائد من فوائد البحار الكثيره و هى:المواد الغذائيه، و وسائل الزينه،و مسأله الحمل و النقل.

و نعلم بأنّ البحر يشكّل منبعا مهمّا من المنابع الغذائيه للبشر،و كلّ عام يستخرج منه ملايين الأطنان من اللحوم الطازجه،بدون أن يتحمّل الإنسان فى سبيل ذلك تعباً أو مشقّه،فإنّ نظام التوازن فى الطبيعه يشتمل على برنامج دقيق محسوب بحيث يستطيع الناس الإفاده من تلك المائده الإلهيّه بدون اعتراض و بأقلّ زحمه و مشقّه.

كذلك يستخرج من البحار أيضا وسائل الزينه المختلفه من أمثال(اللؤلؤ- و المرجان-و الصدف-و الدرّ)،و تركيز القرآن على ذكر هذه المسأله لأنّ روح الإنسان تختلف عن الحيوان باحتوائها على أبعاد مختلفه منها«الحسّ الجمالى» الذى هو منبع ظهور جميع المسائل الذوقيه و الفتيه و الأدبيه التى يؤدّى إشباعها بصوره صحيحه بعيدا عن الإفراط و التفريط و الإسراف و التبذير إلى إشاعه السرور فى النفس،و إعطاء الإنسان النشاط و الهدوء،و تساعد الإنسان على إنجاز أعمال الحياه الشاقّه.

و أمّا مسأله الحمل و النقل و التى تعدّ واحده من أهم أسس التمدّن الإنسانى و الحياه الاجتماعيه،فمع ملاحظه أنّ البحار تشكّل القسم الأعظم من الكره الأرضيه و أنّها مرتبطه مع بعضها،فإنّها تستطيع أن تقدّم للإنسان أهمّ الخدمات

بهذا الخصوص. إذ أنّ البضائع التي يتم حملها و نقلها عبر البحار، وكذا أعداد المسافرين الذين يتم نقلهم من مكان إلى آخر، على درجه من الكثره بحيث لا- يمكن مقياستها مع آيه من وسائل النقل الاخرى، و على سبيل المثال فإنّ سفينه واحده تستطيع حمل عشرات الآلاف من السيارات على ظهرها (1).

٤-بديهي أنّ فوائد البحار لا يمكن حصرها بالأمور التي ذكرت أعلاه، و القرآن الكريم لا يريد بذلك أن يحددها ضمن تلك الأقسام الثلاثه المذكوره، فهناك مسأله تكون الغيوم، الأدوية النفط، الألبسه، الأسمده للأراضى البور، التأثير فى إيجاد الرياح.. إلى غير ذلك من بركات البحار الاخرى.

٥-تأكيد القرآن الكريم على مفهوم «لحما طرياً» إشاره عميقه المحتوى لفوائد التغذية بهذه اللحوم فى مقابل أضرار اللحوم القديمه و المعلبه و أمثال ذلك.

٦-هنا يثار سؤال و هو أنّ البحار المالحة تملأ الكره الأرضيه فى انتشارها، فأين تقع بحور الماء العذب؟ و للإجابة يجب القول أنّ بحر و بحيرات الماء العذب أيضا ليست قليله فى الكره الأرضيه مثل بحيرات الماء العذب فى الولايات المتحده و غيرها، إضافة إلى أنّ الأنهر الكبيره تسمى بحارا أيضا فى بعض الأحيان، فقد ورد استعمال كلمه «البحر» ل(نهر النيل) فى قصه موسى، كما فى سوره البقره-الآيه ٥٠ و الشعراء- ٦٣ و الأعراف-١٣٨).

كذلك فإنه يمكن اعتبار مصبات الأنهار فى البحار و المحيطات عباره عن بحيرات عذبه، لأنّ مياه الأنهار عند انصبابها فى المحيط تدفع مياه البحار و تبقى غير قابله للاختلاط لمدّه قصيره.

ص: ٤٣

١-١) -لقد صنعت حاليا سفن حمولتها خمسمائه الف طنّ لنقل النفط، و لا يمكن لأيه وسيله اخرى غير السفينه أن تنقل هذا المقدار الضخم من النفط، كما أنّه لا يمكن لأى طريق أن يحمل مثل هذه الناقله، كما أنّ قدره السفن فى السابق كانت أكثر من قدره الحيوانات.

٧-جملة لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لَهَا معنى واسع و شامل لكلِّ فَعَالِيهِ اقتصاديه تعتمد على البحر.\*\*\*

بحث

أشاره

### العوامل المعنويه المؤثره فى طول العمر

قام المفسرون ببحوث مختلفه بما يتناسب مع البحث الوارد فى هذه الآيات حول إطاله و إقصار العمر بأمر الله، و ذلك بما يتوافق مع الروايات الوارده فى هذا الخصوص.

طبيعى أنّ هناك سلسله من العوامل الطبيعیه التي تؤثر على طول أو قصر العمر، و التي أصبح أكثرها معروفا عند الناس، كالتغذيه الصحيحه بعيدا عن الإفراط و التفریط، العمل و إدامه الحركه، تحاشى المواد المخدّره، و الإدمانات الخطره و المشروبات الكحوليه، الابتعاد عن المهيجات المستمره، التمسّك بإيمان قوى يساعد الإنسان على العيش باطمئنان و هدوء فى الملمات، و يعطيه القدره على مواجهه ذلك.

و إضافه إلى ذلك، فإنّ هناك عوامل اخرى غير واضحه الارتباط ظاهرا بقضيه طول العمر، و لكن الروايات أكّدت عليها، و كنموذج نورد الروايات التاليه:

أ-

عن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ الصدقه و صله الرحم تعمّران الديار و تزيدان فى الأعمار» (١).

ب-

عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من سرّه أن يبسط فى رزقه و ينسئ له فى أجله فليصل رحمه» (٢).

ص: ٤٤

١-١) - تفسير نور الثقلين، مجلد ٤، صفحه ٣٥٤ و ٣٥٥.

٢-٢) - المصدر السابق.

ج- و فيما يخص بعض المعاصي مثل الزنا و أثرها في تقصير عمر الإنسان نقرأ

في الروايه المشهوره عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يا معشر المسلمين إياكم و الزنا فإن فيه ستّ خصال، ثلاث في الدنيا و ثلاث في الآخره، أما التي في الدنيا فإنه يذهب بالبهاء، و يورث الفقر، و ينقص العمر» (١).

-د-

عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «البر و صدقه السرّ ينفيان الفقر و يزيدان في العمر، و يدفعان عن سبعين ميته سوء» (٢).

كذلك فقد وردت الإشارة إلى المعاصي و الذنوب الاخرى كالظلم، بل مطلق المعاصي.

بعض المفسرين الذين لم يتمكنوا من التفريق بين «الأجل المحتوم» و «الأجل المعلق» اعترضوا على مثل هذه الأحاديث و اعتقدوا بأنها مخالفه لنص القرآن و أنّ عمر الإنسان له حدّ ثابت لا يتغير.

توضيح المسأله:- لا شكّ أن للإنسان أجلا محتوما و أجلا معلقا.

الأجل المحتوم الذي هو نهايه استعداد الجسم للبقاء، و بحلوله ينتهي كلّ شيء بأمر الله.

الأجل المعلق أو المخروم الذي ينتفى بانتفاء شرائطه، مثلا إنسان ينتحر فلو أنه لم يقم بتلك الكبيره فإنه سيبقى لسنوات اخرى يواصل حياته. أو أنه نتيجة تعاطي المشروبات الكحوليه و المواد المخدّره و ممارسه الشهوات بدون قيد أو شرط، يفقد الجسم قدراته في مدّه قصيره. في حال أنه بالابتعاد عن هذه الأمور يستطيع أن يعيش لسنوات طويله اخرى.

هذه امور قابله للإدراك و التجربه بالنسبه إلى الجميع، و لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك.

ص: ٤٥

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -سفينه البحار، المجلد ٢، صفحه ٣٣-ماده صدقه.



كذلك فإنه فيما يخصّ الأقدار فإنّ هناك أموراً ترتبط بالأجل المخروم، وهي أيضاً غير قابلة للإنكار.

و عليه فإذا ورد في الروايات أنّ الإنفاق في سبيل الله أو صلة الرحم تطيل العمر و تدفع أنواعاً من البلاء، فهي في الحقيقة تقصد هذه العوامل.

و إذا لم نفصل بين الأجل المخروم و الأجل المحتوم لا يمكننا إدراك كثير من الأمور المتعلقة بالقضاء و القدر، و تأثير الجهاد و السعي و العمل الدائب في الحياه، و سوف تبقى هذه الأمور غير قابلة للحلّ.

هذا البحث يمكن توضيحه بمثال واحد بسيط و هو الآتي:

لو اشترى أحدهم سياره جديده بحيث يتوقّع من صناعتها أن تدوم عشرين عاماً، بشرط المحافظه عليها و صيانتها، و في هذه الحاله فإنّ الأجل الحتمي لهذه السياره هو عشرون عاماً، و لكن لو لم تتحقّق لها الصيانه المطلوبه و قام صاحبها بتسليمها إلى أشخاص لا مبالين و غير عارفين بقياده السيارات، أو أن يحملها فوق طاقتها، أو أن يقودها بعنف في طرق و عره يوماً، فإنّ أجلها المحتوم ذلك يمكن أن يهبط إلى النصف أو العشر، و ذلك هو الأجل المخروم، و نحن نعجب كيف أنّ بعض المفسّرين لم يلتفتوا إلى هذه القضيه الواضحه.\*\*\*

اشاره

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لَا يُبْنِيكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)

التفسير

اشاره

الأصنام لا تسمع دعاءكم!!

تعاود هذه الآيات الإشاره إلى قسم آخر من آيات التوحيد و النعم الإلهيه اللامتناهيه،لكي تدفع الإنسان مع تعريفه بتلك النعم إلى شكرها و معرفه المعبود الحقيقي،و ليرجع عن أى شرك أو عباده خرافيه،يقول تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .

«يولج» من مادّه «إيلاج»بمعنى الدخول فى مضيق.و يمكن أن يكون إشاره إلى أحد المعنيين أو كليهما،أى:الزياده و النقص التدريجى فى الليل و النهار على مدار السنه.مما يؤدى إلى حصول الفصول المختلفه بكل آثارها و بركاتها،أو

الانتقال التدريجي من الليل إلى النهار و بالعكس، و ذلك بواسطة الشفق و الغسق الذي يقلل من مخاطر الانتقال المفاجئ من النور إلى الظلام و بالعكس (١).

ثم يشير إلى مسأله تسخير الشمس و القمر فيقول تعالى: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ . و أى تسخير أفضل من حركه هذين الكوكبين باتجاه تحقيق المنافع المختلفه للبشر، و هذا التسخير يعتبر مصدرا لمختلف أنواع البركات فى حياه البشر، فإنّ السحاب و الريح و القمر و الشمس و الأفلاك فى حركه دائبه لكى يستطيع الإنسان إدامه حياته، و ليفيق من غفلته فيذكر الواهب الأصلى لهذه المواهب بالنسبه إلى تسخير الشمس و القمر عرضنا شرحا فى تفسير الآيه الثانيه من سوره الرعد و الآيه ٣٣ من سوره إبراهيم).

و مع ما تتمتع به الشمس و القمر فى أفلاكها من مسير دقيق و منتظم لتؤدى المنفعه المناسبه و الجيده للبشر، فإنّ النظام الذى يحكمها ليس بخالد، فحتى هذه السيارات العظيمه بكل ذلك النور و الإشراق ستصيبها العتمه فى النهايه. و تتوقف عن العمل. لذا يشير تعالى إلى ذلك بعد ذكر التسخير فيقول: كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى .

فبمقتضى إذا الشمس كورت و إذا النجوم انكدرت (٢)، فإنها جميعا ستواجه مصير الانطفاء و الفناء.

بعض المفسرين ذكر تفسيراً آخر لجمله لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، و ذلك أنها تعبير عن حركه دوران الشمس و القمر حول محوريهما، و التى تتم فى الاولى فى عام، و فى الثانيه فى شهر واحد (٣).

و لكن بملاحظه الموارد التى استعمل فيها هذا التعبير فى القرآن الكريم -بمعنى

ص: ٤٨

١- ١) -بحثنا موضوع التغيير التدريجى لليل و النهار فى تفسير الآيه (٢٧) من سوره آل عمران.

٢- ٢) -سوره التكوير، ١-٢.

٣- ٣) -تفسير «روح البيان» و «أبو الفتوح الرازى».

انتهاء العمر- يتضح أنّ التفسير المشار إليه صحيحا، كما أنّ التفسير الأوّل أيضا- أى نهايه عمر الشمس و القمر-ورد في الآيات (٦١-النحل و ٤٥-فاطر ٤٢- الزمر ٤-النور ٦٧-غافر).

ثم يقول تعالى مسلّطا الضوء على نتيجة هذا البحث التوحيدى ذَلِكُمْ لِلّٰهِ رَبُّكُمْ اللّٰهُ الَّذِى قَرَّرَ نِظَامَ النَّوْمِ وَ الظَّلَامِ وَ الحَرَكَاتِ الدَّقِيقَةَ لِلشَّمْسِ وَ القَمَرِ بِكُلِّ بَرَكَاتِهَا. لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١).

«قطمير»: على ما يقول الراغب: هو الأثر فى ظهر النواه، و ذلك مثل للشىء الطفيف، و يقول «الطبرسى» فى مجمع البيان و القرطبى فى تفسيره: هو العشاء الرقيق الشفاف الذى يغلف نواه التمر بكاملها. و على كل حال فهو كناية عن موجودات حقيره تافهه.

نعم فهذه الأصنام لا- تضرّ و لا- تنفع، لا تدفع عنكم و لا حتّى عن نفسها، لا تحكم و لا تملك حتّى غلاف نواه تمر! إذا كانت حالها كذلك، فكيف تعبدونها أيها المغفلون، و تريدون منها حلا لمشكلاتكم.

ثم تضيف الآية: إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمِعُوا دُعَاءَكُمْ، لَأَنَّهُمْ قَطَعُوا مِنَ الْحَجَرِ وَ الْخَشَبِ لَا أَكْثَرَ، جَمَادَاتٌ لَا شُعُورَ لَهَا، وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ.

إذ اتضح أنّها لا تملك نفعاً و لا ضراً حتّى بمقدار (قطمير) و على هذا فكيف تنتظرون منها أن تعمل لكم شيئاً أو تحلّ لكم عقده.

و أدهى من ذلك وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ. و يقولون: اللهم إنهم لم يعبدونا، بل إنهم عبدوا أهواءهم فى الحقيقة.

هذه الشهادة إمّا بلسان الحال الذى يدركه كل شخص بآذان وجدانه، أو أنّ الله فى ذلك اليوم يعطى فيه جوارح الإنسان و أعضاءه إمكانيه التكلم فتتطرق هذه

ص: ٤٩

١ - ١) - التعبير ب«الذين» الذى هو عاده لجمع المذكر العاقل، ذكرت هنا للأصنام بسبب اعتقاد المشركين الوهمى بهذه الموجودات الجامده، و قد ذكره القرآن هكذا، ثم ردّ عليه بشده.

الأصنام أيضاً، ويشهدن بأن هؤلاء المشركين المنحرفين إنما عبدوا في الحقيقة أو هامهم و شهواتهم.

ما ورد في هذه الآية شبيه بما ورد في الآية (٢٨) من سورة يونس حيث يقول تعالى: **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَزَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ .**

احتمل جمع من المفسرين أن أمثال هذه التعبيرات وردت بخصوص معبودات من أمثال الملائكة أو حضره المسيح عليه السلام، لأن الحديث و التكلم من خصوصيه هؤلاء فقط، و جملة إن تدعوهم لا يشيتموا دعاءكم إشاره إلى أنهم مشغولون بأنفسهم إلى درجه أنكم لو خاطبتموهم لا يسمعون دعائكم (١).

و لكن -مع الالتفات إلى سعه مفهوم الذين تدعون من دونه - يظهر أن المقصود هو الأصنام، و أن جملة إن تدعوهم لا يشيتموا دعاءكم ترتبط بالدنيا خاصه. ثم يقول تعالى في ختام الآية من أجل تأكيد أكثر: أن لا أحد يخبرك عن جميع الحقائق كما يخبرك الله تعالى: **وَلَا يُبَشِّرُكَ مِثْلُ خَيْرٍ .**

فإذا قالت الآية أن الأصنام تتنكر لكم في يوم القيامة، و تتضايق منكم، فلا تتعجبوا من هذا القول، فإن من يخبركم هو الذى يعلم بكل ما فى هذا الكون بالتفصيل، فهو المحيط علما بالمستقبل و الماضى و الحاضر.\*\*\*

**بحوث**

**إشارة**

**١- استقلال آيات القرآن الكريم و تفسيرها المنحرف.**

لقد اتضح لدينا من خلال تفسير الآية الأخيرة بأن الأصنام و الأوثان و ما يعبد من دون الله تعالى ليس لها آذان صاغية لما يطلب منها، و إن كان لها فهى غير قادره على حل مشكله ما، و ليس لها فى هذا العالم أى ملك و لو بقدر رأس الإبره

ص : ٥٠

١- ١) -ورد هذا التفسير فى مجمع البيان، و تفسير الألوسى، و القرطبى.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ

و على هذا الأساس اتّخذ الوهابيون هذه الآية ذريعه لهم للدّعاء بأنّ كلّ شيء ما خلا الله جلّ و علا- وإن كان نبيا- لا يسمع دعاء، وإن سماع فلا- يجيب! كما رفضوا أى نوع من التوسّل بأرواح الأنبياء و الأئمّه و الأولياء. و اعتبروا ذلك مخالفا للتوحيد محتجّين بقوله تعالى: وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَ لَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ .

و لو أمعنا النظر فى الآيات السابقة و اللاحقه لهذه الآية للاحظنا أنّ المقصود من قوله: مِنْ دُونِهِ هى الأصنام لا- غير، و ذلك يصدق على مجموعه الأحجار و الأخشاب و غيرها و التى كانت فى نظر مشركى الجاهليه بأنّها ذات قدره إزاء قدره الخالق الكريم جلّ و علا، كما أنّ الأنبياء و الأولياء و حتّى الشهداء فى سبيل الله أحياء فى البرزخ، و حياه البرزخ- كما هو معلوم- مجردة من الحجب الماديه و متعلّقات الدنيا ممّا يجعلها أوسع منها. يضاف إلى ذلك فإنّ التوسّل بالأرواح الطاهره للأنبياء و الأئمّه عليهم السّلام لا- يعنى إقرارنا لهم بالاستقلاله إزاء الخالق الكريم، بل إنّنا إنّما نطلب العون و المدد من مقامهم و جاههم فى حضره البارئ العزيز، و هذا هو عين التوحيد (تأمّلوا جيدا).

و قد صرّح القرآن الكريم بأنّ الشفيع إنّما يشفع بإذن الله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْ يَسْتَجِيبُ أَنْكَارَ مِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ الصَّرِيحِ غَيْرِ الْجَهْلِ الْمَغْرُورِينَ الَّذِينَ هَتَفُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَدْعَاءِ لَزَرْعِ الْفِرْقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ؟! و فى كثير من الحالات نقرأ فى سيره الصحابه أنّهم حينما تحيق بهم المشكلات يأتون إلى قبر الرّسول صلّى الله عليه و آله و يتوسّلون إليه، و يطلبون العون من الله عزّ و جلّ بشفاعه روحه الطاهره.

مثالنا على ذلك ما ذكره «البيهقى» من محدّثى العامه، قال: فى زمن الخليفه الثّانى مرّ فى الناس قحط و جذب، ممّا حدا ببلال و عدد من الصحابه إلى الذهاب لقبر رسول الله و قالوا عنده: «يا رسول الله، استق لأمّتك... فإنّهم قد هلكوا» (1).

كما نقل «الآلوسى» فى (روح المعانى) الكثير من الأحاديث فى هذا الصدد، و بعد المناقشه لهذه الأحاديث يخرج بالقول: إنّنى لا أرى مانعا من التضرّع لله

ص: ٥١

جلّ و علا- بمقام الرسول الأ-كرم فى حياته أو بعد مماته...ثم أنّ الآخرين الذين يمتلكون مقاما و قربا من الخالق الكريم يجوز التوسّل بالله سبحانه بواسطتهم.

و لمزيد من الاطلاع راجع تفسيرنا هذا، ذيل الآيه ٣٥ من سوره المائده.

ص: ٥٢

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۱۵) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۶) وَمَا ذَلِكُمْ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (۱۷) وَلَا تَزُرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا تَنْزِيلٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۱۸)

التفسير

اشاره

لَا تَزُرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ

بعد الدعوه المؤكده إلى التوحيد و محاربه أى شكل من أشكال الشرك و عباده الأوثان، يَحتمل أن يتوهم البعض فيقول: ما هي حاجه الله لأن يعبد بحيث يصير كل هذا الإصرار، و يؤكد كل هذا التأكيد على عبادته وحده؟ لذا فإن هذه الآيات توضّح هذه الحقيقه و هي أننا نحن المحتاجون لعبادته لا هو سبحانه و تعالى، فتقول الآية الكريمة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .



فيا له من حديث مهمّ و قيم ذلك الذى يوضّح موقعنا فى عالم الوجود من خالق الوجود، و يكشف الكثير من الغموض، و يجب على الكثير من الأسئلة.

نعم، فالقائم بذاته غير المحتاج لسواه، واحد أحد، و هو الله تعالى، و كلّ البشر بل كلّ الموجودات محتاجه إليه فى جميع شؤونها و فقيره إليه و مرتبطه بذلك الوجود المستقل بحيث لو قطع ارتباطها به لحظه واحده لأصبحت عدم فى عدم، فكما أنّه غير محتاج مطلقاً، فإنّ البشر يمثّلون الفقر المطلق، و كما أنّه قائم بذاته، فالمخلوقات كلّها قائمه به تعالى، لأنّه وجود لا متناهى من كلّ ناحيه، و واجب الوجود فى الذات و الصفات.

و مع حال كهذه، ما حاجته تعالى لعبادتنا؟! فنحن المحتاجون و الفقراء إلى الله و نسلك سبيل تكاملنا عن طريق عبادته و طاعته، و نقترّب بذلك من مصدر الفيض اللامتناهى، و نغترف من أنوار ذاته و صفاته.

و فى الحقيقه فإنّ هذه الآيه توضيح للآيات السابقه حيث يقول تعالى: **ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .**

و عليه فإنّ البشر محتاجون له لا- لسواه، لذا فيجب عليهم أن لا- يطأطئوا رؤوسهم لغيره تعالى، و أن لا يطلبوا حاجاتهم إلاّ منه تبارك اسمه، لأنّ ما سوى الله محتاج إلى الله كحاجتهم إليه، و حتّى أنّ تعظيم أنبياء الله و قاده الحقّ إنّما هو لأنهم رسله تعالى و ممثّلوه، لا لدواتهم مستقله.

و عليه فهو «غنى» كما أنّه «حميد» أى إنّّه فى عين استغنائه عن كلّ أحد، فهو رحيم و عطوف و أهل بكلّ حمد و شكر، و فى عين أنّه أرحم الراحمين، فهو غير محتاج لأحد مطلقاً.

الالتفات إلى هذه الحقيقه له أثران إيجابيان على المؤمنين، فهى تستنزلهم من مركب الغرور و الأنانيه و الطغيان من جانب، و تنبههم إلى أنّهم لا يملكون شيئاً من أنفسهم يستقلّون به، و أنّهم مؤتمنون على كلّ ما فى أيديهم من جانب آخر، لكى لا

يتمدّوا يد الحاجة إلى غيره، ولا- يضعوا طوق العبودية لغير الله في أعناقهم، وأن يتحرّروا من كلّ تعلق آخر، ويعتمدوا على همّتهم، وبهذه النظرة الشمولية يرى المؤمنون أنّ كلّ موجود في هذا العالم إنّما هو من أشعّه وجوده تعالى، وأن لا ينشغلوا عن (مسبب الأسباب) بالأسباب ذاتها.

جمع من الفلاسفة عدّوا هذه الآيه إشارة إلى البرهان المعروف «الإمكان و الفقر» أو «الإمكان و الوجوب» لإثبات واجب الوجود، مع أنّ الآيه ليست في مقام بيان الاستدلال على إثبات وجود الله، بل إنّها شرح لصفاته تعالى، ولكن يمكن اعتبار البرهان المذكور من لوازم مفاد هذه الآيه.

### شرح برهان الإمكان و الوجوب «الفقر و الغنى»:

إنّ جميع الموجودات التي نراها في هذا العالم كانت كلّها ذات يوم «عدما»، ثمّ اكتست بلباس الوجود، أو بتعبير أدقّ: كان يوم لم تكن شيئاً فيه، ثمّ صارت وجوداً، وهذا بحدّ ذاته دليل على أنّها معلولة في وجودها لوجود آخر، وليس لها وجود من ذاتها.

و نعلم بأنّ أى وجود معلول، مرتبط و قائم بعلته و كلّه احتياج، و إذا كانت تلك (العلّة) أيضاً معلولة لعلّة اخرى فإنّها بدورها ستكون محتاجه، و لو تسلسل هذا الأمر إلى ما لا- نهايه فسوف تكون الحصيله مجموعه من الموجودات المحتاجه الفقيره، و بديهى أنّ مجموعه كهذه لن يكون لها وجود أبداً، لأنّ منتهى الاحتياج احتياج، و منتهى الفقر فقر، و ما لا نهايه له من الأصفار لا يمكن أن يحصل منه أى عدد، كما أنّه ممّا لا نهايه له من المرتبطات غيرها لا تنتج أى حاله استقلال.

من هنا نستنتج أنّنا فى النهايه يجب أن نصل إلى وجود قائم بذاته، و مستقل من جميع النواحي، و هو علّه لا معلول، و هو واجب الوجود.

هنا يثار السؤال التالى: لماذا تتعرّض الآيه أعلاه للإنسان و حاجته إلى الله

فقط؟ بينما جميع الموجودات تشترك في هذا الفقر؟ والجواب: إذا كان الإنسان-الذي يعتبر سيّد المخلوقات- غارقا في الحاجة و الفقر إلى الله، فإنّ حال بقيه الموجودات واضحه، و بتعبير آخر فإنّ بقيه الموجودات تشترك مع الإنسان في الفقر الذي هو «إمكان الوجود».

و تخصيص الحديث في الإنسان إنّما هو لأجل كبح جماح غروره، و إلفات نظره إلى حاجته إلى الله في كلّ حال، و في كلّ شيء و كلّ مكان، ليكون ذلك أساس الصفات الحسنه و الفضائل و الملكات الأخلاقيه، ذلك الالتفات الذي يؤدّي إلى التواضع و ترك الظلم و الغرور و الكبر و العصبية و البخل و الحرص و الحسد، و يبعث على التواضع أمام الحقّ.

و لتأكيد هذا الفقر و الحاجة في الإنسان يقول تعالى في الآية التاليه: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .**

و عليه فهو سبحانه و تعالى ليس بحاجة إليكم أو إلى عبادتكم، و إنّما أنتم الفقراء إليه.

و هذه الآية شبيهه بما ورد في الآية (١٣٣) من سورة الأنعام حيث يقول تعالى:

**وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ .**

فهو تعالى ليس محتاجا لطاعتكم و لا خائفا من معصيتكم، و في نفس الوقت فإنّ رحمته الواسعه تشملكم جميعا، و لا ينقص من عظمته شيئا ذهاب العالم بأسره، كما أنّ خلق هذا العالم لا يضيف إلى مقام كبريائه شيئا.

و في الآية الثالثه أيضا يعود التأكيد مرّه ثانيه فيقول تعالى: **وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ نَعَمْ، فَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ،** و هذا يصدق على جميع عالم الوجود.

على كلّ حال، فإنّه تعالى إذا أمركم بالإيمان و الطاعه و العباده فإنّما ذلك

لأجلكم أنتم، وكل ما ينشأ عن ذلك من فائده أو بركه إنما يعود عليكم.

الآيه الأخيره من هذه الآيات تشير إلى خمسہ مواضع فيما يتعلّق بما سبق بحثه في الآيات السابقه:

الأول: من الممكن أن يثير ما ورد في الآيه الماضيه من قوله تعالى: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** سؤالا في أذهان البعض من أنّ المقصودين في هذه الآيه ليس المذنبين فقط، إذ أنّ المؤمنين الصالحين موجودون في كلّ عصر و زمان، فهل يمكن أن يكون هؤلاء أيضا معرضين للعقوبات المترتبه على أعمال الطالحين، و يحكمون بالفناء على حد سواء؟ هنا يجيب و لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

«وزر» بمعنى الثقل، و قد أخذ من «وزر» (على زنه كرب) بمعنى الملجأ في الجبل، و أحيانا يأتي بمعنى المسؤوليه و يعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل، و الوزير المتحمّل ثقل المسؤوليه من أميره، و الموازره: المعاونه (1)، لأنّ الشخص عند المعاونه يتحمّل قسطا من الثقل عن رفيقه.

و هذه الجملة تعتبر واحده من الاسس الهامه في الإعتقادات الإسلاميه، و الحقيقه أنّها ترتبط من جانب بالعدل الإلهي، بحيث يرتهن كلّ بعمله. و هو تعالى إنّما يثيب الشخص على سعيه و اجتهاده في طريق الخير، و يعاقبه على ذنبه.

و من جانب آخر فإنّ فيها إشاره إلى شدّه العقوبه يوم القيامه، بحيث لا يكون أحد مستعدّا لتحمل وزر عمل غيره على عاتقه مهما كان قريبا منه.

و الالتفات إلى هذا المعنى له الأثر الفعّال في البناء الروحي للإنسان، حيث يكون مراقبا لنفسه، و لا يسمح لها بالفساد بحجّه فساد الأقران أو المحيط، ففساد المحيط لا يمكن اعتباره مسوغا لإفساد النفس، إذ أنّ كلا يحمل وحده وزر ذنبه.

و من جانب آخر فإنّه يفهم الناس و يبصرهم بأنّ حساب الله للمجتمع لا يكون

ص: ٥٧

حسابا جميعا، بل إن كل فرد يحاسب بشكل مستقل، أي إن الفرد إذا أدى ما عليه من تطهير نفسه، ومحاربه الفساد، فليس عليه أدنى بأس أو خوف إذا كان العالم بأسره ملوثين بالكفر والشرك والظلم والمعصية.

و أساسا فلن يكون لأي برنامج تربوي أثر ما لم يول اهتماما لهذا الأصل المهم (دقق النظر)!! هذه المسألة تطرح في الجملة الثانية من الآية بشكل آخر، يقول تعالى: **وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ** (١).

في حديث عن ابن عباس أو غيره، أن أميا و ابنها يأتيان في يوم القيامة و كلا منهما عليه ذنوب كثيرة، و تطلب الامم من ابنها أن يحمل عنها بعض تلك المسؤوليات في قبال تربيتها له و حملها به، فيقول لها ابتعدى عني فأنا أسوأ منك حالا (٢).

و يبرز هنا السؤال التالي: هل أن هذه الآية تنافي ما ورد في الروايات الكثيره حول السنه السيئه و السنه الحسنه؟ حيث أن الروايات تقول:

«من سنّ سنّه حسنه كان له أجرها و أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجره شيء، و من سنّ سنّه سيئه كان له وزرها و وزر من عمل بها».

و لكننا إذا التفتنا إلى نكته واحده، يتضح الجواب على هذا السؤال، و هي أن عدم تسجيل ذنب أحد على آخر، إنما هو في صورته أن لا يكون له سهم في ذلك

ص: ٥٨

١ - ١) - «مثقله» بمعنى «الحامل لحمل ثقيل» و يقصد بها هنا حامل الوزر على عاتقه، و (حمل): على ما يقوله الراغب: معنى واحد اعتبر في أشياء كثيرة، فسوى بين لفظه في فعل و فرق بين كثير منها في مصادرها، فقليل في الأثقال المحمولة في الظاهر كالشيء المحمول على الظهر (حمل)، و في الأثقال المحمولة في الباطن (حمل) كالولد في البطن و الماء في السحاب و الثمره في الشجره تشبيها بحمل المرأة، و لأن ما ورد في هذه الآية، هو تشبيه للذنب بالحمل المحمول على العاتق، فيجب أن تقرأ بكسر الحاء.

٢ - ٢) - مع أن الحديث ورد في تفاسير مختلفه حيننا عن الفضيل بن عياض، و حيننا عن ابن عباس، و لكن يستبعد أن يكون الحديث عنهما مستقلا، فمن الممكن أن يكون أصل الحديث عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم. راجع تفسير (أبو الفتوح، و القرطبي، و روح البيان) و قد أوردناه بالمعنى.

العمل، و لكن إذا كان له سهم في إيجاد سنّه، أو الإعانه و المساعدة أو الترغيب و التشجيع، فمن المسلم أنه يحسب من عمله و يكون شريكا و مساهما في ذلك العمل.

و أخيرا، في الجملة الثالثه من الآيه، ترفع الستاره عن حقيقه أنّ إندارات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لها أثرها في القلوب المهَيَّأ لذلك فقط، تقول الآيه الكريمة: **إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**.

فإن لم يكن خوف الله متمكنا من القلب، و لم يكن هناك إحساس بمراقبه قوّه غيبية في السرّ أو العلن، و لم تنفع الصلاه التي تؤدّي إلى إحياء القلب و التذكير بالله في تقويه ذلك الإحساس... فلن يكون لإندارات الأنبياء أثر يذكر.

و حين لا يكون الإنسان قد اعتنق عقيدته ما و لم يؤمن، فلو لم تكن لديه روح البحث عن الحقّ، و إحساس بالمسؤوليه تجاه معرفه الحقيقه، فلن يصغى لدعوه الأنبياء، و لن يتفكّر في آيات الله في هذه الدنيا.

و في الجملة الرابعه يعود مرّه اخرى إلى حقيقه (إنّ الله غير محتاج لأحد) فتضيف: **وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ**.

و في الختام يتّبه في الجملة الخامسه إلى أنّ المحسنين و المسيئين إن لم ينالوا جزاء أعمالهم في الدنيا فليس لذلك أهميه ما دام المصير إلى الله وَ إِلَى اللهِ الْمَصِيرُ و بالتالي فانه سيحاسب الجميع على أعمالهم.\*\*\*

اشاره

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)

التفسير

اشاره

و ما تستوى الظلمات و لا النور:

تذكر الآيات مورد البحث-بما يتناسب مع البحوث التي مرّت حول الإيمان و الكفر في الآيات السابقه- أربعه أمثله جميله للمؤمن و الكافر، توضّح بأجلى شكل آثار الإيمان و الكفر.

في المثال الأوّل: شبه «الكافر و المؤمن» ب«الأعمى و البصير» حيث تقول الآيه الكريمه: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ .

الإيمان نور و إشراق، يعطى البصيره و المعرفة للإنسان في النظره إلى العالم، و في الاعتقاد، و العمل و في كلّ الحياه، أمّا الكفر فظلمه كالحه، فلا إعتقاد صحيح و نظره سليمه عن العالم، و لا عمل صالح.

تشير الآية (٢٥٧) من سورة البقره إلى هذا الموضوع فتقول: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

و بما أنّ العين المبصره وحدها لا تكفى لتحقق الرؤية، فيجب توفر النور و الإضاءة أيضا لكي يستطيع الإنسان-الإبصار بمساعده هذين العاملين- تضيف الآية التاليه: وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ .

لأنّ الظلام منشأ الضلال، الظلام سبب السكون و الركود، الظلام مسبب لكل أنواع المخاطر، أما النور و الضياء فهو منشأ الحياه و المعيشه و الحركه و الرشده و النمو و التكامل، فلو زال النور لتوقفت كل حركه و تلاشت جميع الطاقات فى العالم، و لعمّ الموت العالم المادى-بأسره، و كذلك نور الإيمان فى عالم المعنى، فهو سبب الرشده و التكامل و الحياه و الحركه.

ثم تضيف الآية وَلَا الظُّلُّ وَلَا الحَرُّورُ فالْمُؤْمِنُ من يستظلّ فى ظلّ إيمانه بهدوء و أمن و أمان، أنمّا الكافر فلکفره يحترق بالعذاب و الألم.

يقول «الراغب» فى مفرداته: الحرور: (على وزن قبول) الريح الحارّه.

و اعتبرها بعضهم «ريح السموم» و بعضهم قال بأنّها «شده حراره الشمس».

و يقول «الزمخشري» فى الكشاف: «السموم يكون بالنهار، و الحرور بالليل و النهار، و قيل بالليل خاصّه» (١)، على أيّه حال، فأين الحرور من الظلّ البارد المنعش الذى يبعث الارتياح فى روح و جسم الإنسان.

ثم يقول تعالى فى آخر تشبيهه: وَمَا يَشِيْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ. المؤمنون حيويون، سعاه متحرّكون، لهم رشده و نمو، لهم فروع و أوراق و ورود و ثمر، أما الكافر فمثل الخشب اليابسه، لا فيها طراوه و لا ورق و لا ورد و لا ظلّ لها، و لا تصلح إلّا حطباً للنار.

ص: ٦١



في الآيه (١٢٢) من سوره الأنعام نقرأ: أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا .

و في ختام الآيه يضيف تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ لَكِي يَسْمَعَ دَعْوَةَ الْحَقِّ وَ يَلْبِئِي نِدَاءَ التَّوْحِيدِ وَ دَعْوَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ .

فمهما بلغ صراخك، و مهما كان حديثك قريبا من القلب، و مهما كان بيانك معبرا، فإن الموتى لا يسعهم إدراك شيء من ذلك، و من فقد الروح الإنسانية نتيجة الإصرار على المعاصي، و غرق في التعصب و العناد و الظلم و الفساد، فبديهي أن ليس لديه الاستعداد لقبول دعوتك.

و عليه فلا تقلق من عدم إيمانهم، و لا تجزع، فليس عليك من وظيفه إلا الإبلاغ و الإنذار إنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ .

\*\*\*

**بحوث**

**إشارة**

### ١- آثار الإيمان و الكفر

نعلم أن القرآن لا يعير اهتماما للحواجز الجغرافية و العرقية و الطبقيه و أمثالها مما يفرق بين الناس، فالقرآن الكريم يعتبر أن الحدّ هو الحدّ بين [الإيمان و الكفر]

، و عليه فإنه يقسم المجتمع البشري إلى قسمين «المؤمنين» و «الكافرين».

و لتعريف «الإيمان» شبهه القرآن الكريم ب«النور»، كما أنه شبه الكفر ب«الظلام» و هذا التشبيه أحسن مؤشر على ما يستخلصه القرآن الكريم من مسأله الكفر و الإيمان (١).

فالإيمان نوع من الإحساس و النظره الباطنيه، و نوع من العلم و المعرفه متوائمه

ص: ٦٢

(١- ١) - راجع الآيات ٢٥٧: البقره، ١٥: المائده، ١٦: المائده، ١ و ٥: إبراهيم، ٢٢: الزمر، ٩: الحديد، ١١: الطلاق.

مع عقيدته قلبيه و حركه، و نوع من التصديق الذى ينفذ فى أعماق روح الإنسان ليكون منبعاً لكل الفعاليات البناءه.

أمياً الكفر، فجهل و عدم معرفه و تكذيب يؤدى إلى تبلد، بل فقدان الإحساس بالمسؤوليه، كما يؤدى إلى كل أنواع الحركات الشيطانيه و التخريبيه.

كذلك نعلم أيضاً بأن «النور» منشأ لكل حياه و حركه و نمو و رشد فى الحياه، بالنسبه إلى الإنسان و الحيوان و النبات، على عكس الظلام فهو عامل الصمت و النوم و الموت و الفناء فى حال استمراره. لذا فلا عجب حينما يشبه القرآن الكريم «الإيمان و الكفر» «بالنور و الظلمه» تاره و «بالحياه و الموت» تاره اخرى، و فى مكان آخر يشبههما «بالظلّ الظليل و الريح السموم»، أو حينما يشبه (المؤمن و الكافر) (بالبصير و الأعمى). و قد أوضحنا كل ما يتعلق بهذه التشبيها الأربعة.

و لا نبتعد كثيراً، فعند ما نجالس (مؤمناً) نحسّ أثر ذلك النور فى كل وجوده، أفكاره تنير لمن حوله، و حديثه ملئ بالإشراق، أعماله و أخلاقه تعرّفنا حقيقه الحياه و حياه الحقيقه.

أمياً الكافر فكل وجوده ملئ بالظلمه، لا يفكر إلا بمنافعه الماديّه و كيفيه الترقى فى الحياه الماديّه، أفقه و فضاء فكره لا يتجاوز حدود حياهه الشخصيه، غارق فى الشهوات، لا يدفع روح و قلب جليسه إلا إلى أمواج الظلمات.

و عليه فإن ما أوضحه القرآن فى هذه الآيات، قابل للإدراك و التعقّل بشكل محسوس و ملموس.

## ٢- هل أن الموتى واقعا لا يدركون؟

من ملاحظه ما ورد فى الآيات أعلاه، يطرح هنا سؤالان:

الأول: كيف يقول تعالى فى القرآن الكريم مخاطباً الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: **وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ؟** مع أنه جاء فى الحديث المعروف أن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم

أمر يوم بدر بأربعة و عشرين رجلا من صناديد قريش فقفذوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث، و كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصه ثلاث ليال فلما كان يبدر اليوم الثالث أمر براجلته، فشدّ عليها رحلها ثم مشى و اتبعه أصحابه و قالوا: ما نراه ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفه الركي مجفل يناديهم بأسمائهم و أسماء آبائهم: يا فلان بن فلان و يا فلان بن فلان أيسرركم أنكم أطعمتم الله و رسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ قال:

فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

«و الذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» (١).

أو ما ورد في آداب دفن الموتى من تلقينهم عقائد الحق.

فكيف يمكن التوفيق بين هذه الأمور و الآيات مورد البحث أعلاه.

يتضح الجواب على هذا السؤال إذا أخذنا بنظر الإعتبار ما يلي: إن الحديث في الآيات كان حول عدم إدراك الموتى بالشكل الطبيعي و الاعتيادي، أما الروايه التي ذكرناها أو تلقين الميت فإنما ترتبط بظروف خاصه و غير عاديّه، حيث أنّ الله سبحانه مكن حديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم في تلك الحاله من الوصول إلى أسمع الموتى.

و بتعبير آخر فإنّ الإنسان في عالم البرزخ ينقطع ارتباطه مع عالم الدنيا، إلاّ في الموارد التي يأذن الله فيها أن يوصل هذا الارتباط، و لذا فإننا لا نستطيع عادة الاتّصال بالموتى في الظروف العاديه.

السؤال الآخر: هو إذا كان حديثنا غير بالغ أسمع الموتى فما معنى لسلامنا على الرسول الأكرم و الأئمه عليهم السّلام و التوسّل بهم، و زياره قبورهم، و طلب الشفاعة منهم عند الله؟

ص: ٦٤

١ - ١) - تفسير «روح البيان» ذيل الآيات مورد البحث: و ورد هذا الحديث أيضا في صحيح البخارى بتفاوت يسير (صحيح البخارى، الجزء الخامس، ص ٩٧ باب قتل أبى جهل).

وقد استندت جماعه من الوهابيين المعروفين بجمودهم الفكرى على هذا التوهّم الباطل، وبالتمسك بظواهر الآيات القرآنيه، دون الاهتمام بمحتواها العميق، أو الالتفات إلى الأحاديث الشريفه الكثيره الوارده فى هذا المجال، سعوا إلى نفي و ردّ مفهوم «التوسل» و إثبات بطلانه.

الجواب على هذا السؤال أيضا يتّضح ممّا ذكرناه كمقدّمه فى الإجابة على السؤال الأوّل، من أنّ التعامل مع الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم و أولياء الله يختلف عنه مع الآخرين، فهؤلاء كالشهداء (بل إنهم يحتلون الصّف الأوّل أمام الشهداء) وهم أحياء و خالدون، وهم مصداق لقوله: **أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**، و بأمر من الله فإنهم يحتفظون بارتباطهم بهذا العالم، كما أنّهم يستطيعون و هم فى هذه الدنيا أن يتّصلوا بالموتى - كما فى حاله قتلى بدر-.

استنادا إلى ذلك نقرأ فى روايات كثيره وردت فى كتب الفريقين أنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم و الأئمّه عليهم السلام يسمعون سلام من يسلم عليهم سواء كان قريبا أو بعيدا، بل إنّ أعمال الامّه تعرض عليهم (١).

الجدير بالملاحظه أنّنا مأمورون بالسلام على الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم فى التشهد الأخير للصلوات اليوميّه، و هذا اعتقاد المسلمين عامّه، أعمّ من كونهم شيعه أو سنّه، فكيف يمكن مخاطبه من لا يمكنه السماع أصلا؟ كذلك

وردت روايات متعدّده فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى و أبى هريره، عن الرّسول صلّى الله عليه وآله و سلّم أنّه قال: **«لَقِنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»** (٢).

كذلك وردت الإشاره فى نهج البلاغه إلى مسأله الارتباط مع أرواح الموتى، فعند ما كان أمير المؤمنين صلوات الله و سلامه عليه قال راجعا من صفين أشرف

ص: ٦٥

---

١- ١) - كشف الارتباب، ص ١٠٩- كذلك فقد أشرنا إلى روايات (عرض الأعمال) عند تفسير الآية (١٠٥) من سوره التوبه-راجع المجلد السادس من هذا التفسير.

٢- ٢) - صحيح مسلم، كتاب الجنائز، حديث ١ و ٢ (المجلد ٢، صفحه ٦٣١).

«يا أهل الديار الموحشه... إلى أن قال: أما لو أذن لهم فى الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى» (1).

### ٣- تنوع التعبيرات جزء من الفصاحه

لوحظ فى التشبيهات الأربعة الواردة فى الآيات أعلاه، تعبيرات متفاوتة تماما مثلا- (أعمى- بصير) و(ظلّ- حرور) جاءت بصوره المفرد فى حال أنّ (أحياء- أموات) بصوره الجمع، و جاءت (ظلمات- نور) بصوره جمع و الثانيه بصوره مفرد.. هذا من جانب.

و من جانب آخر فقد قدمت التشبيهات ذات المنحى السلبى على غيرها فى التشبيه الأول و الثانى (أعمى- ظلمات) فى حال قدمت التشبيهات ذات المنحى الإيجابى فى التشبيه الثالث و الرابع (ظلّ- أحياء).

و من جانب ثالث تكرر أداه النفى فى التشبيهات الثانى و الثالث و الرابع فى حين أنّها لم تتكرر فى التشبيه الأول.

و أخيرا، فإنّ جملة ما يَسْتَوَى وردت فقط فى التشبيه الأول و الأخير، و لا أثر لها فى التشبيهات الأخرى.

بعض المفسرين علّوا هذه الاختلافات بتعليقات كثيره بعضها جدير بالاهتمام و بعضها الآخر مورد مساءله.

و ضمن جملة التعليقات اللطيفه أنّ جمع «الظلمات» و أفراد «النور» للتدليل على أنّ الظلمه- التى تعنى الكفر- ذات تشعبات كثيره، بينما حقيقه «الإيمان» و التوحيد واحده ليس إلّا. فالإيمان كالخطّ المستقيم الذى يوصل بين نقطتين لا- وجود لسواه بينهما، فى حين أنّ ظلمه الكفر مثل آلاف الآلاف من الخطوط المتعرجه المنحرفه التى يمكن إيجادها بين نقطتين.

كذلك فإنّ تقديم التشبيهات ذات المنحى السلبي في المثالين الأوّلين إنّما هو للإشارة إلى الإسلام نقل الناس من الجاهليه و ظلمات الشرك إلى نور الهدايه.

و أمّا المثالين الأخيرين فإنّ إشاره إلى المراحل الاخرى التي أحكم الإسلام فيها جذوره في القلوب، و وسّع المناحي الإيجابيه في المجتمع.

و إذا تجاوزنا كل ذلك فإنّ التّوّع أصلا في البيان يمنح الحديث طراوه و روحا خاصّه، ممّا يجعل ذلك مؤثرا و جميلا و جذّابا، في حال إنّ التكرار على نمط واحد يسلب الحديث لطافته-إلاّ في موارد استثنائيه- و بناء على هذا فإنّ الفصحاء و البلغاء يسعون دائما إلى تنويع تعبيراتهم و جعلها مؤثّره، و نعلم أنّ القرآن على أعلى درجات الفصاحه و البلاغه.

و عليه، فلو لم يكن غير مراعاة الفصاحه أمر آخر لكفى، مع أنّ من الممكن أن يتوصّل غيرنا من الأجيال القادمه إلى كشف أسرار اخرى غير ما ذكرنا ممّا هو محجوب عنّا الآن.

اشاره

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)

التفسير

اشاره

لا عجب من عدم إيمان:

توضيحا في الآيات السابقة إلى أنّ هناك أفرادا كالأعموات و العميان لا تترك مواعظ الأنبياء في قلوبهم أدنى أثر، و على ذلك فإن الآيات مورد البحث تقصد مواساه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بهذا الخصوص و تخفيف آلامه لكي لا يغمّ كثيرا.

أولا- تقول الآية الكريمة: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ. فيكفيك من أداء وظيفتك أن لا تقصّر فيها، أوصل نداءك إلى مسامعهم، بشرهم بثواب الله، و أنذرهم عقابه، سواء استجابوا و لم يستجيبوا.

الملفت للنظر أنّه تعالى قال في آخر آية من الآيات السابقة مخاطبا الرسول الأكرم إنّ أنت إلا نذيرٌ، و لكنّه في الآية الاولى من هذه الآيات يقول: إِنَّا

إشاره إلى أَنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا يَقُومُ بِهَذَا الْعَمَلِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَأْمُورٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى.

وإذا كانت الآيه السابقة قد ركزت على الإنذار فقط، فلأنَّ الحديث كان حول الجاهلين المعاندين الذين هم كالأموات المقبورين الذين لا يتقبلون أى حديث، أمّا هذه الآيه فإنّها توضّح بشكل كامل، وظيفه الأنبياء الثنائيه الهدف «البشاره» و «الإنذار»، مؤكّده فى آخرها من جديد على «الإنذار» لأنَّ الإنذار هو القسم الأساس من دعوه الأنبياء فى قبال المشركين و الظلمه.

«خلا»: من (الخلاء) و هو المكان الذى لا ساتر فيه من بناء و مساكن و غيرهما، و الخلو يستعمل فى الزمان و المكان، و لأنَّ الزمان فى مرور، قيل عن الأزمنه الماضيه «الأزمنه الخاليه» لأنه لا أثر منها، و قد خلت الدنيا منها.

و عليه فإنَّ جملة وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ بمعنى أن كلَّ أمّة من الأمم السالفه كان لها نذير.

و الجدير بالملاحظه، طبقا للآيه أعلاه، أنّ كلَّ الأمم كان فيها نذير إلهى، أى كان فيها نبي، مع أنّ البعض تلقى ذلك بمعنى أوسع، بحيث يشمل العلماء و الحكماء الذين يندرون الناس أيضا، و لكن هذا المعنى خلاف ظاهر الآيه.

على كلّ حال، فليس معنى هذا الكلام أن يبعث فى كلّ مدينه أو منطقته رسول، بل يكفى أن تبلى دعوه الرسل و كلامهم أسماع المجتمعات المختلفه، إذ أنّ القرآن يقول: خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ و لم يقل «خلا منها نذير».

و عليه فلا منافاه بين هذه الآيه التى تقصد وصول دعوه الأنبياء إلى الأمم، مع الآيه (٤٤) من سوره سبأ و التى تقول: وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ و التى يقصد منها كون المنذر منهم.

و يضيف تعالى فى الآيه التاليه: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَلَا عِجَبَ مِنْ ذَلِكَ، و لا تحزن بسبب ذلك، لأنه فقد كذّب الذين من قبليهم  
جاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالزُّبُرِ



فلست وحدك الذى أصبحت موضع تكذيب هؤلاء القوم الجاهلين بما عندك من معجزات و كتاب سماوى، فقد واجه الرسل السابقون هذه المشكله أيضا، لذا فلا تغتم و واصل سيرك بحزم، و اعلم أن من كتبت له الهدايه فسوف يهتدى.

أما ما هو الفرق بين (البيّنات - الزبر - الكتاب المنير)؟ المفسرين أظهروا وجهات نظر مختلفه، أوضحها تفسيران:

١- «البيّنات» بمعنى الدلائل الواضحه و المعجزات التى تثبت حقّانيه النبى، أمّا «الزبر» فجمع «زبور» بمعنى الكتب التى كتبت بإحكام (مثل الكتابه على الحجر و أمثالها) و هى كناية عن استحكام مطالبها (١). و إشاره إلى الكتب النازله قبل موسى عليه السلام. فى حين أنّ «الكتاب المنير» إشاره إلى كتاب موسى عليه السّلام و الكتب السماويه الاخرى التى نزلت بعده، (لأنّه وردت الإشاره فى القرآن المجيد فى سورة المائده - الآيات ٤٤ و ٤٦ إلى التوراه و الإنجيل على أنّهما هدى و نور و فى نفس السوره - الآيه ١٥ عبر عن القرآن الكريم بالنور أيضا).

٢- المقصود ب«الزبر» ذلك القسم من كتب الأنبياء التى تحتوى على العبره و الموعظه و النصيحه و المناجاة (كزبور داود)، و أمّا «الكتاب المنير» فتلك المجموعه من الكتب السماويه التى تحتوى على الأحكام و القوانين و التشريعات الاجتماعيه و الفرديه المختلفه مثل التوراه و الإنجيل و القرآن. و يبدو أنّ هذا التفسير أنسب.

تشير الآيه الأخيره من هذه الآيات إلى العقاب الأليم لتلك المجموعه فتقول:

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(٢)

فهم لم يكونوا بمنأى عن العقاب الإلهى، و إن

ص: ٧٠

١- ١) يقول الراغب فى مفرداته: زبرت الكتاب كتبه كتابه عظيمه، و كلّ كتاب غليظ يقال له زبور.

٢- ٢) - (أخذت) من مادّه (أخذ) بمعنى حيازه الشىء و تحصيله، لكنّها هنا كناية عن المجازاه، لأنّ الأخذ مقدّمه للعقاب.

استطاعوا أن يستمروا بتكذيبهم إلى حين.

فبعض عاقبناهم بالطوفان، و بعض بالريح العاصفه المدمّره، و آخرون بالصيحه و الصاعقه و الزلزله.

أخيرا لتأكيد و بيان شدّه و قسوه العقوبه عليهم يقول: فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ <sup>□</sup> ذلك تماما مثلما يقوم شخص بإنجاز عمل مهمّ ثمّ يسأل الحاضرين: كيف كان عملي؟ على أيّ حال فإنّ هذه الآيات تواسى و تطمئن من جانب كلّ سالكى طريق الله و القاده و الزعماء المخلصين منهم بخاصّه، من كلّ امّه و فى أى عصر و زمان، لكى لا يياسوا و لا يفقدوا الأمل عند سماعهم استنكار المخالفين، و لكى يعلموا أنّ الدعوات الإلهيه واجهت دائما معارضه شديده من قبل المتعصّبين الجاحدين الظلمه، و فى نفس الوقت وقف المحبّون العاشقون المتولّّهون إلى جنب دعاه الحقّ و فدوهم بأنفسهم أيضا.

و من جانب آخر فهى تهديد للمعاندين الجاحدين، لكى يعلموا أنّهم لن يستطيعوا إدامه أعمالهم التخريبية القبيحه إلى الأبد، فعاجلا أو آجلا ستحيط بهم العقوبه الإلهيه.

ص: ٧١

اشاره

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

التفسير

اشاره

العجائب المختلفه للخلق:

مره اخرى تعود هذه الآيات إلى مسأله التوحيد، و تفتح صفحه جديده من كتاب التكوين أمام ذوى البصائر من الناس، لكى ترد بعنف على المشركين المعاندين و منكرى التوحيد المتعصبين.

لفتت هذه الصفحه المشرقه من كتاب الخلق العظيم إلى تنوع الجمادات و المظاهر المختلفه و الجميله للحياه فى عالم النبات و الحيوان و الإنسان، و كيف جعل الله سبحانه من الماء العديم اللون الآلاف من الكائنات الملونه، و كيف خلق من عناصر معينه و محدوده موجودات متنوعه أحدها أجمل من الآخر.

فهذا النقاش الحاذق أبدع بقلم واحد و حبر واحد أنواع الرسوم و الأشكال التى

تجذب الناظرين و تحيرهم و تدهشهم.

أُولَا نَقُولِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .

شروع هذه الجملة بالاستفهام التقريري، و بتحريك حسّ التساؤل لدى البشر، إشاره إلى أنّ هذا الموضوع جلي إلى درجه أنّ أى شخص إذا نظر أبصر، نعم، يبصر هذه الفواكه و الزهور الجميله و الأوراق و البراعم المختلفه بأشكال مختلفه تتولّد من ماء و تراب واحد.

«ألوان»:قد يكون المراد«الألوان الظاهريه للفواكه»و التي تتفاوت حتّى فى نوع الفاكهه الواحد كالتفّاح الذى يتلوّن بألوان متنوعه ناهيك عن الفواكه المختلفه.

و قد يكون كناية عن التفاوت فى المذاق و التركيب و الخواص المتنوّعه لها، إلى حدّ أنّه حتّى فى النوع الواحد من الفاكهه توجد أصناف متفاوتة، كما فى العنب مثلا حيث أنّه أكثر من ٥٠ نوعا،و التمر أكثر من سبعين نوعا.

و الملفت للنظر هو استخدام صيغه الغائب فى الحديث عنه عزّ و جلّ، ثمّ الانتقال إلى صيغه المتكلّم، و هذا النوع من التعابير، غير منحصر فى هذه الآيه فقط، بل يلاحظ فى مواضع اخرى من القرآن المجيد أيضا، و كأنّ الجملة الاولى تعطى للمخاطب إدراكا و معرفه جديده، و تستحضره بهذا الإدراك و المعرفه بين يدي البارى عزّ و جلّ، ثمّ عنده حضوره يلقى عليه الحديث مباشره.

ثمّ تشير الآيه إلى تنوّع أشكال الجبال و الطرق الملونه التى تمرّ من خلالها و تؤدّى إلى تشخيصها و تفريقها الواحده عن الاخرى.فتقول: وَ مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبُ سُودٌ (١).

هذا التفاوت اللوني يضيف على الجبال جمالا خاصا من جهه، و من جهه

ص: ٧٣

١ - ١) قال البعض بأنّ هذه الجملة الاستثنافيه«من الجبال»خبر مقدّم و«جدد»مبتدأ مؤخر، و ذهب آخرون: إنّ تقدير الجملة هكذا«ألم تر أنّ من الجبال جدد بيض و حمر مختلف ألوانها».

اخرى، يكون سببا لتشخيص الطرق و عدم الضياع فيما بين طرقها المليئه بالالتواءات و الانحدارات، و أخيرا فهو دليل على أنّ الله على كلّ شيء قدير.

«جدد» جمع «جدّه» - على وزن غدّه - بمعنى الجادّه و الطريق.

«بيض» جمع «أبيض» كما أنّ «حمر» جمع «أحمر» و هو إشاره إلى الألوان.

«غرايب» جمع «غريب» - على وزن كبريت - و هو المشبّه للغراب في السواد، كقولك أسود كحلك الغراب. و عليه فإنّ ذكر كلمه «سود» بعدها و التي هي أيضا جمع «أسود» تأكيد على شدّه و حلك السواد في بعض الطرق الجليله (١).

و احتمال أيضا أن يكون التفسير: ألم تر أنّ الجبال نفسها مثل طرائق بيضا و حمرا و سودا مختلفا ألوانها خطت على سطح الأرض، و خاصّه إذا نظر إليها الشخص من فاصله بعيد، فإنّها ترى على شكل خطوط مختلفه ممدوده على وجه الأرض بيض و حمر و سود مختلف ألوانها (٢).

على كلّ حال فإنّ تشكيل الجبال بألوان مختلفه من جهه، و تلوين الطرق الجليله بألوان متفاوته، من جهه اخرى، دليل آخر على عظمه و قدره و حكمه الله سبحانه و تعالى و التي تتجلّى و تتزيّن كلّ آن بشكل جديد.

و في الآيه التاليه تطرح مسأله تنوع الألوان في البشر و الأحياء الاخرى، فيقول تعالى: **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**.

أجل، فالبشر مع كونهم جميعا لأب و أمّ واحد، إلا أنّهم عناصر و ألوان متفاوته تماما، فالبعض أبيض البشره كالوفر، و البعض الآخر أسود كالحبر، و حتّى في العنصر الواحد فإنّ التفاوت في اللون شديد أيضا، بل إنّ التوأمين الذين يطويان المراحل الجنينيه معا، و اللذين يحتضن أحدهما الآخر منذ البدء، إذا دققنا

ص: ٧٤

١ - ١) - استنادا إلى ما صرّحت به بعض كتب اللغه كلسان العرب فإنّ (سود) في الآيه أعلاه هي بدل عن «غرايب» لأنّه في حاله الألوان لا يقدّم التأكيد، لاحظ أنّ (غرايب) أكثر إشباعا للتأكيد من ناحيه السواد، لذا قيل إنّ الأصل كان «سود غرايب».

٢ - ٢) - تفسير الميزان، مجلد ١٧، صفحه ٤٢.

النظر نجدهما ليسا من لون واحد، مع أنهما من نفس الأبوين، و تم انعقاد نطفتهما فى وقت واحد، و تغذيا من غذاء واحد.

ناهيك عن التفاوت و الاختلاف الكامل فى بواطنهم عد أشكالهم الظاهرية، و فى خلقهم و رغباتهم و خصوصيات شخصياتهم و استعداداتهم و ذوقهم، بحيث يتكون بذلك كيان مستقل منسجم بكل احتياجاته الخاصه.

فى عالم الكائنات الحيه أيضا يوجد آلاف الآلاف من أنواع الحشرات، الطيور، الزواحف، الحيوانات البحرية، الوحوش الصحراويه، بكل خصائصها النوعيه و عجائب خلقتها. كدلاله على قدره و عظمه و علم خالقها.

حينما نضع قدمنا فى حديقته كبيره من حدائق الحيوان فسوف نصاب بالذهول و الحيره و الدهشه بحيث أننا-بلا وعى منا-نتوجه بالشكر و الثناء لله المبدع لكل هذا الفن الخلاب على صفحته الوجود. مع أننا لا نرى أمامنا فى تلك الحديقته إلا جزء من آلاف الأجزاء من الموجودات الحيه فى العالم.

و بعد عرض تلك الأدله التوحيديه يقول تعالى فى الختام جامعا: نعم إن الأمر كذلك كذلك (١).

و لأن إمكانيه الانتفاع من آيات الخلق العظيمه هذه تتوفر أكثر عند العباد العقلاء و المفكرين يقول تعالى فى آخر الآيه: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .

نعم فالعلماء من بين جميع العباد، هم الذين نالوا المقام الرفيع من الخشيه «و هى الخوف من المسؤوليه متوافق مع إدراك لعظمه الله سبحانه»، حاله (الخشيه) هذه تولدت نتيجة سبر أغوار الآيات الآفقيه و الأنفسيه، و التعرف على حقيقه علم و قدره الله و غايه الخلق.

ص: ٧٥

١ - ١) - حول ما هو إعراب «كذلك» أعطيت احتمالات عديده، بعضهم قالوا بأنها جمله مستقله تقديرها (الأمر كذلك) و نحن انتخبنا فى تفسيرنا هذا المعنى لكونه الأنسب، و لكن البعض ربطوها بالجمله السابقه فقالوا: إن المعنى هو كما أن الثمرات و جدد الجبال مختلف ألوانها كذلك الناس و الدواب و الأنعام، و قد احتمل أيضا أن تكون الجمله مرتبطه بما بعدها و المعنى: كذلك تختلف أحوال العباد فى الخشيه.

الراغب في مفرداته يقول: «الخشيته خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها».

قلنا تكررنا بأنّ الخوف من الله بمعنى الخوف من المسؤولية التي يواجهها الإنسان، الخوف من أن يقصّر في أداء رسالته وظيفته، ناهيك عن أنّ إدراك جسامته تلك المسؤولية يؤدّي أيضا إلى الخشيته، لأنّ الله المطلق قد عهد بها إلى الإنسان المحدود الضعيف، (تأمل بدقه)!! كذلك يستفاد من هذه الجملة ضمنا بأنّ العلماء الحقيقيين هم أولئك الذين يستشعرون المسؤولية الثقيله حيال وظائفهم، وبتعبير آخر: أهل عمل لا كلام، إذ أنّ العلم بدون عمل دليل على عدم الخشيته، و من لا يستشعر الخشيته لا تشمله الآيه أعلاه.

هذه الحقيقة

وردت في حديث عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام حيث يقول: «و ما العلم باللّهِ و العمل إلّا إلفان مؤتلفان فمن عرف اللّهِ خافه، و حتّهُ الخوف على العمل بطاعه اللّهِ، و إنّ أرباب العلم و أتباعهم (هم) الذين عرفوا اللّهِ فعملوا له و رغبوا إليه، و قد قال اللّهُ: **إِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**» (١).

و نقرأ

في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام في تفسير هذه الآيه «يعنى بالعلماء من صدق قوله فعله و من لم يصدق قوله فعله فليس بعالم» (٢).

و

في حديث آخر جاء «أعلمكم باللّهِ أخوفكم لله» (٣).

ملخص القول أنّ العلماء-بالمنطق القرآني- ليسوا أولئك الذين تحوّلت أدمغتهم إلى صناديق للآراء و الأفكار المختلفه من هنا و هناك و مليئه بالقوانين و المعادلات العلميّه للعالم و تلهج بها ألسنتهم، أو الذين سكنوا المدارس

ص: ٧٤

١-١) - روضه الكافي، طبقا لنقل نور الثقلين، مجلد ٤، صفحه ٣٥٩.

٢-٢) - مجمع البيان، تفسير الآيات مورد البحث.

٣-٣) - ...

و الجامعات و المكاتب، بل إنّ العلماء هم أصحاب النظر الذين أضاء نور العلم و المعرفة كلّ وجودهم بنور الله و الإيمان و التقوى، و الذين هم أشدّ الناس ارتباطاً بتكاليدهم مع ما يستشعرونه من عظمه المسؤوليه إزاءها.

نقرأ في سورة القصص أيضاً أنّه حينما اغترّ «قارون» و استشعر الرضى عن نفسه و ادّعى لها مقام العلم، قام يعرض ثروته أمام الناس، و تمنى عبّاد الدنيا الذين أسرتهم تلك المظاهر البرّاقه أن تكون لهم مثل تلك الثروه و الإمكانيه الدنيويه، و لكن علماء بنى إسرائيل قالوا لهم: إنّ ثواب الله خير و أبقى لمن آمن و عمل صالحاً، و لا يفوز بذلك إلا الصابرون المستقيمون: **وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً وَ لَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (١)**.

و في ختام الآيه يقول تعالى، كدليل موجز على ما مرّ: **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**.

«عزّته» و قدرته اللامتناهيه منبع للخوف و الخشيّه عند العلماء، و(غفرانه)، سبب في الرجاء و الأمل عندهم، و بذّا فإنّ هذين الاسمين المقدسين يحفظان عباد الله بين الخوف و الرجاء، و نعلم بأنّه لا يمكن إدامه الحركه باتّجاه التكامل بدون الاتّصاف بهاتين الصفتين بشكل متكافئ.\*\*\*

ص: ٧٧



اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)

التفسير

اشاره

التجاره المربحه مع الله:

بعد أن أشارت الآيات السابقه إلى مرتبه الخوف و الخشييه عند العلماء، تشير الآيات مورد البحث إلى مرتبه «الأمل و الرجاء» عندهم أيضا، إذ أنّ الإنسان بهذين الجناحين فقط- يمكنه أن يحلّق في سماء السعاده، و يطوى سبيل تكامله، يقول تعالى أولا: إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (١).

بديهي أنّ «التلاوه» هنا لا تعنى مجرد القراءه السطحيه الخاليه من التفكّر و التأمل، بل قراءه تكون سببا و باعثا على التفكّر، الذي يكون بدوره باعثا على العمل الصالح، الذي يربط الإنسان بالله من جهه، و مظهر ذلك الصلاه، و يربطه

ص: ٧٨

بخلق الله من جهه ثانيه، و مظهر ذلك الإنفاق من كل ما تفضل به الله تعالى على الإنسان، من علمه، من ماله و ثروته و نفوذه، من فكره الخلاق، من أخلاقه و تجاربه، من جميع ما وهبه الله.

هذا الإنفاق تاره يكون (سرًا)، فيكون دليلا على الإخلاص الكامل. و تاره يكون (علانيه) فيكون تعظيما لشعائر الله و دافعا للآخرين على سلوك هذا الطريق.

و مع الالتفات إلى ما ورد في هذه الآيه و الآيه السابقيه نستنتج أن العلماء حقًا هم الذين يتصفون بالصفات التاليه:

\* قلوبهم مليئه بالخشيه و الخوف من الله المقترن بتعظيمه تعالى.

\* ألسنتهم تلهج بذكر الله و تلاوه آياته.

\* يصلون و يعبدون الله.

\* ينفقون في السرّ و العلانيه ممّا عندهم.

\* و أخيرا و من حيث الأهداف، فإنّ أفق تفكيرهم سام إلى درجه أنهم أخرجوا من قلوبهم هذه الدنيا الماديّه الزائله، و يتأملون ربحا من تجارتهم الوافره.. الربح مع الله وحده، لأنّ اليد التي تمتدّ إليه لا تخيب أبدا.

و الجدير بالملاحظه أيضا أنّ «تبور» من «البوار» و هو فرط الكساد، و لما كان فرط الكساد يؤدّي إلى الفساد كما قيل «كسد حتّى فسد» عبّر بالبوار عن الهلاك، و بذّا فإنّ «التجاره الخاليه من البوار» تجاره خاليه من الكساد و الفساد.

ورد في حديث رائع أنّه جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فقال: يا رسول الله، ما لي لا أحبّ الموت؟ قال: «أ لك مال» قال: نعم. قال: «فقدّمه» قال: لا أستطيع. قال:

«فإنّ قلب الرجل مع ماله، إن قدّمه أحبّ أن يلحق به، و إن أخره أحبّ أن يتأخّر معه» (١).

إنّ هذا الحديث في الحقيقه يعكس روح الآيه أعلاه، لأنّ الآيه تقول إنّ الذين

ص: ٧٩

يقيمون الصلاة، وينفقون في سبيل الله لهم أمل و تعلق بدار الآخرة، لأنهم أرسلوا الخيرات قبلهم و لهم الميل للحوق به.

الآيه الأخيره من هذه الآيات، توضّح هدف هؤلاء المؤمنين الصادقين فتقول:

انّهم يعملون الخيرات و الصالحات ليؤفّقهم أجورهم و يزيدهم من فضله إنّهم غفور شكور (١).

هذه الجملة في الحقيقه تشير منتهى إخلاصهم، لأنهم لا ينظرون إلّا- إلى الأجر الإلهي، أى شىء يريدونه من الله يطلبونه، و لا يقصدون به الرياء و التظاهر و توقّع الثناء من هذا و من ذاك، إذ أنّ أهمّ قضيه في الأعمال الصالحه هي «التيه الخالصه».

التعبير ب«أجور» في الحقيقه لطف من الله، فكأنّ العباد يطلبون من الله مقابل أعمالهم أجزا!! في حال أنّ كلّ ما يملكه العباد منه تعالى، حتّى القدره على إنجاز الأعمال الصالحه أيضا هو الذى أعطاهم إيّاها.

و أطف من هذا التعبير قوله و يزيدهم من فضله الذى يبشّرهم بأنه علاوه على الثواب الذى يكون عاده على الأعمال و الذى يكون مئات أو آلاف الأضعاف المضاعفه للعمل، فإنّه يزيدهم من فضله، و يعطيهم من سعه فضله ما لم يخطر على بال، و ما لا يملك أحد في هذه الدنيا القدره على تصوره.

جاء في حديث عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال في قوله:

و يزيدهم من فضله

:هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممّن صنع إليه معروفا في الدنيا (٢).

و بدا فإنّهم ليسوا فقط من أهل النجاه، بل إنّهم يكونون سببا في نجاه الآخرين بفضل الله و لطفه.

ص : ٨٠

١ - ١) - جملة «ليؤفّقهم» إمّا أنّها متعلّقه بجملة «يتلون كتاب الله...» و عليه يكون معناها «إنّ هدفهم من التلاوه و الصلاه و الإنفاق الحصول على الأجر الإلهي» أو أنّها متعلّقه ب«لن تبور...» و بدا يكون معناها «إنّ تجارتهم لن يصيبها الفساد لأنّ الميثب لهم هو الله تعالى».

٢ - ٢) - مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٠٧.

وقال بعض المفسرين بأن جملة: وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إشاره إلى مقام «الشهود» الذى يكون للمؤمنين فى يوم القيامة بأن يمكنهم الله من النظر إلى جماله و جلاله و الالتذاذ من ذلك بأعظم اللذات. و لكن يظهر أن الجملة المذكوره لها معنى واسع و شامل بحيث يشمل محتوى الحديث المذكور و عطايا و مواهب اخرى غير معروفه أيضا.

جملة إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ تدل على أن أول لطف الله معهم، هو «العفو» عن ذنوبهم و زلاتهم التى تبدر منهم أحيانا، لأنَّ أشدَّ قلق المؤمن يكون من هذا الجانب.

و بعد أن يهدأ بالهم من تلك الجبهه، فإنه تعالى يشملهم ب«الشكر» أى أنه يشكر لهم أعمالهم و يعطيهم أفضل الجزاء و الثواب.

نقل تفسير «مجمع البيان» مثلا- تضربه العرب و هو «أشكر من بروقه» و تزعم العرب أنها- أى بروقه- شجره عاربه من الورق، تنعيم السماء فوقها فتخضر و تورق من غير مطر (1). و هو مثل يضرب للتعبير عن منتهى الشكر، ففى قبال أقل الخدمات، يقدم أعظم الثواب. بديهي أن خالق مثل هذه الشجره أشكر منها و أرحم.\*\*\*

**تعليقه**

**إشاره**

**شروط تلك التجاره العجيبه:**

الملفت للنظر أن كثيرا من الآيات القرآنيه الكريمه تشبه هذا العالم بالمتجر الذى تجاره الناس، و المشتري هو الله سبحانه و تعالى، و بضاعته العمل الصالح،

ص: ٨١

و القيمه أو الأجر: الجنة و الرحمه و الرضا منه تعالى (١).

و لو تأملنا بشكل جيد فسوف نرى أنّ هذه التجاره العجيبه مع الله الكريم ليس لها نظير، لأنها تمتاز بالمزايا التاليه التي لا تحتويها أيّه تجاره اخرى:

١- إنّ الله سبحانه و تعالى أعطى للبائع تمام رأسماله، ثمّ كان له مشتريا!.

٢- إنّ الله تعالى مشتري في حال أنه غير محتاج- إلى شيء تماما- فلديه خزائن كلّ شيء.

٣- إنّ الله تعالى يشتري «المتاع القليل» بالسعر «الباهض» «يا من يقبل اليسير و يعفو عن الكثير»، «يا من يعطي الكثير بالقليل».

٤- هو تعالى يشتري حتّى البضاعه التافهه فمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ .

٥- أحيانا يعطي قيمه تعادل سبعمائه ضعف أو أكثر «البقره-٢٦١».

٦- علاوه على دفع الثمن العظيم فإنّه أيضا يضيف إليه من فضله و رحمته و يزيدهم من فضله (الآيه موضوع البحث).

و يا له من أسف أنّ الإنسان العاقل الحرّ، يغلّق عينيه عن تجاره كهذه، و يشرع بغيرها، و أسوأ من ذلك أن يبيع بضاعته مقابل لا شيء.

أمير المؤمنين على بن أبي طالب (عليه أفضل الصلاه و السلام) يقول: «ألا حرّ يدع هذه اللماظه لأهلها، إنّّه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنة، فلا تبيعوها إلاّ بها» (٢). \*\*\*

ص: ٨٢

١- ١) -سوره الصف: آيه ١ و التوبه- آيه ١١١ و البقره ٢٠٧ و النساء-٧٤.

٢- ٢) -نهج البلاغه، الكلمات القصار، جمله ٤٥٦، صفحه ٥٥٦.

اشاره

وَ الَّذِي اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ اِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ اَوْرُنَا الْكِتَابَ الَّذِيْنَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ اِيَّا ذُنِ اللّٰهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيْرُ (٣٢)

التفسير

اشاره

الورثه الحقيقيون لميراث الانبياء:

بعد أن كان الحديث في الآيات السابقه عن المؤمنين المخلصين الذين يتلون الكتاب الإلهي و يطبقون وصاياها، تتحدّث هذه الآيات عن ذلك الكتاب السماوي و أدلّه حقائقه، و كذلك عن الحمله الحقيقيين لذلك الكتاب، و بذا يستكمل الحديث الذي افتتحته الآيات السابقه حول التوحيد، بالبحث الذي تثيره هذه الآيات حول النبوه.

تقول الآيه الكريمة: وَ الَّذِي اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ .

مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ (الحق) يعنى كلّ ما ينطبق مع الواقع و ينسجم معه، فإنّ هذا التعبير دليل على إثبات أنّ هذا الكتاب السماوي نازل من الله تعالى، لأننا

كلّما دققنا النظر في هذا الكتاب السماوى وجدناه أكثر انسجاما مع الواقع.

فليس فيه تناقض، أو كذب أو خرافة، بل فمبادئه و معارفه تنسجم مع منطق العقل. قصصه و تواريخه منزّهه عن الأساطير و الخرافات، و قوانينه تتساوق مع احتياجات البشر، فتلك الحقائق دليل واضح على أنّه نازل من الله سبحانه و تعالى.

هنا و لأجل توضيح موقع القرآن الكريم، تمّت الاستفاده هنا من كلمه «الحقّ»، في حال أنّه في آيات اخرى من القرآن الكريم ورد التعبير عنه بـ «النور» و «البرهان» و «الفرقان» و «الذكر» و «الموعظه» و «الهدى»، و كلّ واحد منها تشير إلى واحد من بركات القرآن و أبعاده، بينما كلمه (الحقّ) تشمل جميع تلك البركات.

يقول الراغب في (مفرداته): أصل الحقّ المطابقه و الموافقه، و الحقّ يقال على أوجه:

الأول: يقال لمن يوجد الشىء على أساس الحكمة، و لهذا قيل في الله تعالى هو الحقّ، لذا قال الله: فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ . (١)

الثانى: يقال للشىء الذى وجد بحسب مقتضى الحكمة، و لهذا يقال فعل الله تعالى كلّ حقّ، قال تعالى: مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، (٢) أى الشمس و القمر و غير ذلك.

الثالث: فى العقائد المطابقه للواقع. قال تعالى: فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ . (٣)

و الرابع: يقال للأقوال و الأفعال الصادر وفقا لما يجب، و بقدر ما يجب، و فى الوقت المقرّر، كقولنا: فعلك حقّ، و قولك حقّ (٤).

ص: ٨٤

١-١) - يونس، ٣٢.

٢-٢) - يونس-٥.

٣-٣) - البقره-٢١٣.

٤-٤) - مفردات الراغب-مادّه حقّ. «مع تلخيص و اختصار».

و بناء عليه، فإنَّ حقَّانيه القرآن المجيد هي من حيث كونه حديثا مطابقا للمصالح و الواقعيات من جهة، كما أنَّ العقائد و المعارف الموجودة فيه تنسجم مع الواقع من جهة اخرى، و من جهة ثالثة فإنَّه من نسج الله و صنعه الذي صنعه على أساس الحكمة، و الله ذاته تعالى الذي هو الحقَّ يتجلَّى في ذلك الكتاب العظيم، و العقل يصدق و يؤمن بما هو حقَّ.

جمله مُصَيِّدًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ دليل آخر على صدق هذا الكتاب السماوي، لأنَّه ينسجم مع الدلائل المذكورة في الكتب السماوية السابقة في إشارتها إليه و إلى حامله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

جمله إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ تَوْضِيحٌ عَلَّه حَقَّانيه القرآن و انسجامه مع الواقع و الحاجات البشرية، لأنَّه نازل من الله سبحانه و تعالى الذي يعرف عباده خير معرفه، و هو البصير الخبير فيما يتعلَّق بحاجاتهم.

لكن ما هو الفرق بين «الخبير» و «البصير»؟ قال البعض: «الخبير» العالم بالبوطن و العقائد و التَّيَّات و البعد الروحي في الإنسان، و «البصير» العالم بالظواهر و البعد الجسماني للإنسان.

و قال آخرون: «الخبير» إشاره إلى أصل خلق الإنسان، و «البصير» إشاره إلى أعماله و أفعاله.

و طبيعي أنَّ التفسير الأوَّل يبدو أنسب و إن كان شمول الآيه لكلا المعنيين ليس مستبعدا.

الآيه التاليه تتحدَّث في موضوع مهم بالنسبه إلى حمله هذا الكتاب السماوي العظيم، أولئك الذين رفعوا مشعل القرآن الكريم بعد نزوله على الرِّسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، في زمانه و بعده على مرَّ القرون و العصور، و هم يحفظونه و يحرسونه، فتقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا .

واضح أنَّ المقصود من «الكتاب» هنا، هو نفس ما ذكر في الآيه السابقه و هو



«القرآن الكريم» والألف و اللام فيه «العهد». و القول بأن المراد هو الإشارة للكتب السماويه، و أنّ اللام هنا «للجنس» يبدو بعيد الاحتمال، و ليس فيه تناسب مع ما ورد في الآيات السابقه.

التعبير ب«الإرث» هنا و في موارد اخرى مشابهه في القرآن الكريم، لأجل أنّ «الإرث» يطلق على ما يستحصل بلا مشقّه أو جهد، و الله سبحانه و تعالى أنزل هذا الكتاب السماوى العظيم للمسلمين هكذا بلا مشقّه أو جهد.

لقد وردت روايات كثيره هنا من أهل البيت عليهم السلام فى تفسير عباره الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا بِالْاِثْمِ المعصومين عليهم السلام (١).

هذه الروايات - كما ذكرنا مرارا - ذكر لمصاديق واضحه و فى الدرجه الاولى.

و لكن لا مانع من اعتبار العلماء و المفكرين فى الامه، و الصلحاء و الشهداء، الذين سعوا و اجتهدوا فى طريق حفظ هذا الكتاب السماوى، و المداومه على تطبيق أوامره و نواهيه، تحت عنوان الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا .

ثم تنتقل الآيه إلى تقسيم مهمّ بهذا الخصوص، فتقول: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَأْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

ظاهر الآيه هو أنّ هذه المجامع الثلاثة هى من بين الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا أى:

ورثه و حملة الكتاب السماوى.

و بتعبير أوضح، إنّ الله سبحانه و تعالى قد أوكل مهمه حفظ هذا الكتاب السماوى، بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم إلى هذه الامه، الامه التى اصطفاه الله سبحانه، غير أنّ فى تلك الامه مجاميع مختلفه: بعضهم قصّروا فى وظيفتهم العظيمه فى حفظ هذا الكتاب و العمل بأحكامه، و فى الحقيقه ظلموا أنفسهم، و هم مصداق ظالِمٌ لِنَفْسِهِ .

و مجموعه اخرى، أدّت وظيفتها فى الحفظ و العمل بالأحكام إلى حدّ كبير، و إن

ص: ٨٦

كان عملها لا يخلو من بعض الزلات و التقصيرات أيضا، و هؤلاء مصداق «مقتصد».

و أخيرا مجموعه ممتازه، أنجزت وظائفها العظيمة بأحسن وجه، و سبقوا الجميع في ميدان الاستباق، و الذين أشارت إليهم الآية بقولها: **سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** .

و هنا يمكن أن يقال بأن وجود المجموعه «الظالمه» ينافى أن هؤلاء جميعا مشمولون بقوله «اصطفينا»؟ و في الجواب نقول: إن هذا شبيه بما ورد بالنسبه إلى بنى إسرائيل في الآية (٥٣) من سوره المؤمن: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ** ، في حال أننا نعلم أن بنى إسرائيل جميعهم لو يؤدوا وظيفتهم إزاء هذا الميراث العظيم.

أو نظير ما ورد في الآية (١١٠) من سوره آل عمران: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** .

أو ما ورد في الآية (١٦) من سوره الجاثيه بخصوص بنى إسرائيل أيضا **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** .

و كذلك في الآية (٢٦) من سوره الحديد نقراً: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** .

و خلاصه القول: إن الإشاره في أمثال هذه التعبيرات ليست للامه بأجمعها فردا فردا، بل إلى مجموع الامه، و إن احتوت على طبقات، و مجموعات مختلفه (١) .

ص: ٨٧

١ - ١) - أميا ما احتمله البعض من أن التقسيم الوارد في الآية يعود على «عبادنا» و ليس على «الذين اصطفينا»، بحيث أن هذه المجموعات الثلاثه لا تدخل ضمن مفهوم ورثه الكتاب، بل ضمن مفهوم «عبادنا» و «الذين اصطفينا» فقط المجموعه الثالثه أى «السابقين بالخيرات»، فيبدو بعيدا، لأن الظاهر هو أن هذه المجموعات ممن ذكرتهم الآية، و نعلم أن الحديث في الآية لم يكن عن كل العباد، بل عن الذين اصطفينا، ناهيك عن إضافه «نا» إلى «عباد» و هو نوع من التمجيد و المدح، مما يجعل ذلك غير منسجم مع التفسير المذكور.

وقد ورد في روايات كثيرة عن أهل بيت العصمة عليهم السّلام في تفسير «سابق بالخيرات» بالمعصوم عليه السّلام، و«ظالم لنفسه» بمن لا يعرف الإمام، و«المقتصد» العارف بالإمام (١).

هذه التفسيرات شاهد واضح على ما اخترناه لتفسير الآيه، وهو أنّه لا مانع من كون هذه المجاميع الثلاثة ضمن ورثه الكتاب الإلهي.

ولا نحتاج إلى التذكير بأنّ تفسير الروايات أعلاه هو من قبيل بيان المصاديق الأوضح للآيه، وهم الأئمة المعصومون، إذ هم الصّفّ الأوّل، بينما العلماء و المفكّرون و حماه الدين الآخرون في صفوف اخرى.

كذلك فإنّ التفسير الوارد في تلك الروايات للظالم و المقتصد، هو أيضا من قبيل بيان المصاديق، وإذا لاحظنا أنّ بعض الروايات تنفي شمول الآيه للعلماء في مقصودها فإنّ ذلك في الحقيقة لإلفات النظر إلى وجود الإمام في مقدّمه تلك الصفوف.

و من الجدير بالذكر أنّ جمعا من المفسّرين القدماء و المعاصرين احتملوا الكثير من الاحتمالات في تفسير هذه المجاميع، و التي هي في الحقيقة جميعا من قبيل بيان المصاديق (٢).

ص: ٨٨

١-١) -راجع تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، صفحته ٣٦١، كذلك الكافي، المجلد ١، باب من اصطفاه الله من عباده.  
٢-٢) -ذهب بعض بأنّ السابق بالخيرات هم أعوان الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و المقتصد طبقه التابعين، و الظالم لنفسه أفرادا آخرون. و البعض الآخر فسّروا «سابق بالخيرات» بالذين يفضّل باطنهم على ظاهرهم و «المقتصد» بالذين يتساوى ظاهرهم و باطنهم، و «الظالم لنفسه» بالذين يفضّل ظاهرهم على باطنهم. و البعض الآخر قالوا إنّ «السابقين» هم الصحابه، و «المقتصدين» هم تابعيهم، و «الظالمين» هم المنافقون. و قال آخرون بأنّ الآيه تشير إلى المجموعات الثلاثة الواردة في سورة الواقعة - الآيات ٧ إلى ١١. وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصِيحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصِيحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَ أَصِيحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصِيحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . و في حديث أنّ «السابق بالخيرات» هم الأئمة على و الحسن و الحسين و شهداء آل محمّد عليهم الصلاه و السلام، و المقتصد المتديّتون المجاهدون، و الظالم لنفسه الذي خلط عملا صالحا و آخر غير صالح.

و هنا يطرح السؤال التالي: لماذا ابتداء الحديث بذكر الظالمين كمجموعه اولى، ثم المقتصد، ثم السابقين بالخيرات، فى حين أنّ العكس يبدو أولى من عدّه جهات؟ بعض كبار المفسّرين قالوا للإجابة على هذا السؤال: إنّ الهدف هو بيان ترتيب مقامات البشر فى سلسله التكامل، لأنّ أوّل المراحل هى مرحله العصيان والغفله، و بعدها مقام التوبه و الإنابه، و أخيرا التوجّه و الاقتراب من الله سبحانه و تعالى، فحين تصدر المعصيه من الإنسان فهو «ظالم لنفسه»، و حين يلجج مقام التوبه فهو «مقتصد»، و حين تقبل توبته و يزداد جهاده فى طريق الحقّ، ينتقل إلى مقام القرب ليرقى إلى مقام «السابقين بالخيرات» (١).

و قال آخر: بأنّ هذا الترتيب لأجل الكثره و القلّه فى العدد و المقدار، فالظالمون يشكّلون الأكثرية، و المقتصدون فى المرتبه التاليه، و السابقون للخيرات و هم الخاصّه و الأولياء من الناس هم الأقلية و ان كانوا أفضل من الناحيه الكيفيه.

الملفت للتأمل ما

نقل فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (ما مؤداه):

«قدّم الظالم لكى لا ييأس من رحمه الله، و أخر السابقون بالخيرات لكى لا يأخذهم الغرور بعملهم» (٢).

و يمكن أن يكون كلّ من هذه المعانى الثلاثه مقصودا.

و آخر كلام فى تفسير هذه الآيه حول المشار إليه فى جمله ذلك هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ؟ قال البعض، بأنّه ميراث الكتاب الإلهى، و قال آخرون بأنّه إشاره إلى التوفيق التى شمل حال السابقين بالخيرات، و طيهم لهذا الطريق بإذن الله، لكن يبدو أنّ

(٢)

و كلّ هذه التفسيرات كما قلنا من قبيل بيان المصاديق، و كلّها قابله للتعقل، عدا التفسير الأوّل الذى لا يحتوى على مفهوم صحيح.

ص: ٨٩

١-١) -مجمع البيان، تفسير الآيه مورد البحث.

٢-٢) -تفسير أبو الفتوح الرازى، المجلد ٩ تفسير الآيات مورد البحث.

المعنى الأول أنسب و أكثر انسجاما مع ظاهر الآيه.

\*\*\*

ملاحظه

اشاره

من هم حراس الكتاب الإلهي؟

على ما ذكر القرآن الكريم فإن الله سبحانه و تعالى يشمل الامّه الإسلاميه بمواهب عظيمه، من أهمها ذلك الميراث الإلهي العظيم و هو «القرآن».

و قد اصطفيت الامّه الإسلاميه من باقى الأمم، و تلك نعمه أعطيت لها، و مسئوليّه ثقيله أسندت إليها بنفس النسبه التى فضّلت بها و أصبحت بسببها مشموله باللطف الإلهي، و ستكون هذه الامّه فى صف «السابقين بالخيرات» ما أدّت حقّ حفظ و حراسه هذا الميراث العظيم. أى أن تسبق جميع الأمم فى الخيرات، فى تطوير العلوم، فى التقوى و الزهد، فى العباده و خدمه البشرى، فى الجهاد و الاجتهاد، فى التنظيم و الإداره، فى الفداء و الإيثار و التضحيه، فتتقدّم و تسبق فى كلّ هذه الأمور، و إلاّ فإنّها لا تكون قد أدّت حقّ حفظ ذلك الميراث العظيم. خاصّه إذا علمنا أنّ تعبير «السابقين بالخيرات» مفهوم واسع إلى درجه أنّه يشمل التقدّم فى جميع الأمور ذات المنحى الإيجابى من امور الحياه.

نعم، فحمله مثل هذا الميراث هم فقط - أولئك الذين يتّصفون بتلك الصفات، بحيث أنّهم لو أعرضوا عن تلك الهديه السماويه العظيمه و لم يراعوا حرمتها، فسيكونون مصداقاً ل«ظالم لنفسه»، إذ أنّ محتوى تلك الهديه الإلهيه ليس سوى نجاتهم و توفيقهم و انتصارهم، فإنّ من يضرب عرض الحائط بنسخه الدواء التى كتبها له الطبيب، فإنّه يساعد على استمرار الألم و العذاب لنفسه. و إنّ من يحطّم مصباحه الوحيد و هو يسير فى طريق مظلم، إنّما يسوق نفسه إلى التيه و الضياع، لأنّ الله سبحانه و تعالى غنى عن الجميع.

ص : ٩٠

و على المذنبين أيضا أن لا ينسوا حقيقه أنهم كانوا مشمولين بمضمون الآيه الكريمه فى زمرة الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا و إِنَّ لَهُم ذَلِكَ الاستعداد بالقوه، فعليهم أن يتجاوزوا مرحله «الظالم لنفسه» و ينتقلوا إلى مرحله «المقتصد» و ليرتقوا من هنا حتى ينالوا فخر «السابقين بالخيرات»، حيث أنهم من جهه الفطره و البناء الروحى من الذين اصطفاهم الحقّ.

\*\*\*

ص: ٩١

اشاره

جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسٍ فِيهَا مِنْ حَرِيرٍ (٣٣) وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ  
إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)

التفسير

اشاره

الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن:

هذه الآيات في الحقيقة نتيجة لما ورد ذكره في الآيات الماضية، يقول تعالى:

جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا

(١)

«جَنَّاتٍ» جمع «جَنَّةٍ» بمعنى (الروضه) و كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض.

ص: ٩٢

١ - ١) - «جَنَّاتِ عَدْنٍ»: يمكن أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره «جزائهم» أو «أولئك لهم جَنَّاتِ عَدْنٍ»، نظير الآية (٣١) - سوره الكهف) بعضهم أيضاً قال: إنها (بدل) عن «الفضل الكبير»، و لكن باعتبار أن «الفضل الكبير» إشارة إلى ميراث الكتاب السماوى، فلا يمكن أن تكون «جَنَّاتٍ» بدلاً عنها، إلا إذا اعتبرنا المسبب في مقام السبب.

و«عدن» بمعنى الاستقرار و الثبات، و منه سَمِيَ المعدن لأنه مستقر الجواهر و المعادن. و عليه فإنَّ «جَنّاتِ عدن» بمعنى «جَنّاتِ الخلد و الدوام و الاستقرار».

على كلّ حال فإنَّ هذا التعبير يشير إلى أنّ نعم الجنّة العظيمه خالده و ثابتة، و ليست كنعم الدنيا ممزوجه بالقلق الناجم عن زوالها و عدم دوامها، و أهل الجنّة ليست لهم جنّة واحده، بل جنّات متعدّده تحت تصرّفهم.

ثمّ تشير الآيه إلى ثلاثه أنواع من نعم الجنّة، بعضها إشاره إلى جانب مادّي و بعضها الآخر إلى جانب معنوي و باطنى، و بعض أيضا يشير إلى عدم وجود أى نوع من المعوّقات، فتقول الآيه: **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**.

فهؤلاء لم يلتفتوا فى هذه الدنيا إلى بريقها و زخرفها، و لم يجعلوا أنفسهم أسرى لزبرجها، و لم يكونوا أسرى التفكير باللباس الفاخر، و الله سبحانه و تعالى يعوّضهم عن كلّ ذلك، فيلبسهم فى الآخرة أفخر الثياب.

هؤلاء زيّنوا حياتهم الدنيا بالخيرات، فزيّنهم الله سبحانه و تعالى فى يوم تجسّد الأعمال يوم القيامة بأنواع الزينه.

لقد قلنا مرارا بأنّ الألفاظ التى وضعت لهذا العالم المحدود لا يمكنها أن توضح مفاهيم و مفردات عالم القيامة العظيم، فلأجل بيان نعم ذلك العالم الآخر نحتاج إلى حروف اخرى و ثقافه اخرى و قاموس آخر، على أيّه حال، فلأجل توضيح صورته و إن كانت باهته عن النعم العظيمه فى ذلك العالم لا بدّ لنا أن نستعين بهذه الألفاظ العاجزه.

بعد ذلك تلك النعمه الماديّه، تنتقل الآيه مشيره إلى نعمه معنويه خاصّه فتقول:

**وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ**

فهؤلاء يحمدون الله بعد أن أصبحت تلك النعمه العظيمه من نصيبهم، و تلاشت عن حياتهم جميع عوامل الغمّ و الحسره ببركه اللطف الإلهي، و تبدّدت سحب الهمّ



المظلّمه عن سماء أرواحهم، فلا- خوف من عذاب إلهي، و لا- وحشه من موت و فناء، و لا قلق، و لا أذى الماكرين، و لا اضطهاد الجبابره القساة الغاصيين.

اعتبر بعض المفسّرين ذلك الغمّ و الحسره إشاره إلى نظير ما يتعرّض له في الدنيا، و اعتبره البعض الآخر إشاره إلى الحسره في المحشر على نتائج أعمالهم، و لا تضادّ بين هذين التفسيرين، و يمكن جمعهما في إطار المفهوم العام للآيه.

«الحزن»: (على وزن عدم)، و «الحزن»- على وزن عسر- كليهما لمعنى واحد كما ذهب إليه أرباب اللغه، و أصله الوعوره و الخشونه في الأرض و اطلق على الخشونه في النفس لما يحصل فيها من الغمّ و يضاذه الفرح (1).

ثُمَّ يَضِيفُ أَهْلَ الْجَنَّةِ هُؤَلَاءِ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .

فبغفرانه أزال عنا حسره الزلّات و الذنوب، و بشكره و هبنا المواهب الخالده التي لن يلقي عليها الغمّ بظلاله المشؤومه. غفر و ستر بغفرانه الكثير الكثير من ذنوبنا، و بشكره أعطانا الكثير على أعمالنا البسيطة القليله القليله! أخيرا تنتقل الآيه مشيره إلى آخر النعم، و هي عدم وجود عوامل الإزعاج و المشقّه و التعب و العذاب، فتحكى عن ألسنتهم الّذي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ .

الدار الآخره هناك دار إقامه لا كما في الدنيا حيث أنّ الإنسان ما أن يألف محيطه و يتعلّق به حتّى يقرع له جرس الرحيل! هذا من جانب.. و من جانب آخر فمع أنّ العمر هناك متّصل بالأبد، إلّا- أنّ الإنسان لا يصيبه الملل أو الكلال، أو التعب أو النصب مطلقا، لأنهم في كلّ آن أمام نعمه جديده، و جمال جديده.

«النصب» بمعنى التعب، و «اللغوب» بمعنى التعب و النصب أيضا. هذا على ما تعارف عليه أهل اللغه و التّفسير، في حين أنّ البعض فرّق بين اللفظتين فقال بأنّ (النصب) يطلق على المشاقّ الجسمانيه، و «اللغوب» يطلق على المشاقّ

الروحيه (١). أو أنه الضعف و النحول الناجم عن المشقّه و الألم، و بذا يكون «اللغوب» ناجما عن «النصب» (٢).

و بذا فلا وجود هناك لعوامل التعب و المشقّه، سواء كانت نفسيه أو جسمانيه.

\*\*\*

ص: ٩٥

---

١-١) - انظر تفسير روح المعاني، مجلد ٢٢، صفحه ١٨٤.

٢-٢) - المصدر السابق.

اشاره

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَ هُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ لَجَاءُكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)

التفسير

اشاره

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا!

القرآن الكريم يقرن (الوعيد)(بالوعود) و يذكر «الإنذارات»، إلى جانب «البشارات» لتقويه عاملى الخوف و الرجاء الباعثين للحركه التكاملية فى الإنسان، إذ أنّ الإنسان بمقتضى «حبّ الذات» يقع تحت تأثير غريزتى «جلب المنفعه» و «دفع الضرر».

و عليه فمتابعه للحديث الذى كان فى الآيات السابقه عن المواهب الإلهيه

العظيمه و صبر«المؤمنين السابقين في الخيرات»ينتقل الحديث هنا إلى العقوبات الأليمه للكفار،و الحديث هنا أيضا عن العقوبات الماديه و المعنويه.

تبتدئ الآيات بالقول: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ،فكما أنّ الجَهَنّ دار المقامه و الخلد للمؤمنين،فإنّ النار أيضا مقام أبدى للكافرين.

ثمّ تضيف لا- يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا (١) ،فمع أنّ تلك النار الحاميه و ذلك العذاب المؤلم يستطيع القضاء عليهم في كلّ لحظه،إلا أنّهم و لعدم صدور الأمر الإلهي-و هو المالك لكلّ شيء-بموتهم لا يموتون،يجب أن يبقوا على قيد الحياه ليدوقوا عذاب الله.فالموت بالنسبه إلى هؤلاء ليس سوى منفذ للخلاص من العذاب،لكن الله تعالى أوّصد دونهم ذلك المنفذ.

يبقى منفذ آخر هو أن يبقوا على قيد الحياه و يخفّف عنهم العذاب شيئا فشيئا، أو أن يزداد تحمّلهم للعذاب فينتج عن ذلك تخفيف العذاب عنهم،و لكن تتمه الآيه أغلقت هذا المنفذ أيضا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا .

ثمّ تضيف الآيه و للتأكيد على قاطعيه هذا الوعد الإلهي كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافُرٍ .

فقد كفر هؤلاء في بادئ الأمر بنعمه وجود الأنبياء و الكتب السماويه،ثمّ أتلّفوا رصيدهم الذي سخّره الله لمساعدتهم على نيل السعاده،نعم،فجزاء الكفار ليس سوى الحريق و العذاب الأليم،الحريق بالنار التي أشعلوها بأيديهم في الحياه الدنيا و احتطبوا لها من أفكارهم و أعمالهم و وجودهم.

و بما أنّ كلمه «كفور»صيغه مبالغه،فإنّ لها معنى أعمق من «كافر»،علاموه على أنّ لفظه«كافر»تستخدم في قبال«مؤمن»و لكن«كفور»إشاره إلى أولئك الذين كفروا بكلّ نعم الله،و أغلقوا عليهم جميع أبواب الرحمه الإلهيه في هذه الدنيا،لذا فإنّ الله يغلق عليهم جميع أبواب النجاه في الآخره.

ص: ٩٧

١-١) -«لا يقضى عليهم»بمعنى لا يحكم عليهم.

و تنتقل الآيه التاليه إلى وصف نوع آخر من العذاب الأليم، و تشير إلى بعض النقاط الحساسه فى هذا الخصوص، فتقول الآيه الكريمة: وَ هُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (١).

نعم، فهم بمشاهده نتائج أعمالهم السيئه، يغرقون فى ندم عميق، و يصرخون من أعماق قلوبهم و يطلبون المحال، العوده إلى الدنيا للقيام بالأعمال الصالحه.

التعبير ب«صالحا» بصيغه النكره إشاره إلى أنهم لم يعملوا أقل القليل من العمل الصالح، و لازم هذا المعنى أن كل هذا العذاب و الألم إنما هو لمن لم تكن لهم أيه رابطه مع الله سبحانه فى حياتهم، و كانوا غرقى فى المعاصى و الذنوب، و عليه فإن القيام بقسم من الأعمال الصالحه أيضا يمكن أن يكون سببا فى نجاتهم.

التعبير بالفعل المضارع «نعمل» أيضا له ذلك الإشعاع، و يؤيد هذا المعنى، و هو تأكيد أيضا على «أننا كنا مستغرقين فى الأعمال الطالحه».

قال بعض المفسرين: إن الربط بين وصف «صالحا» و اللاحق لها «كنا نعمل» يثير نكته لطيفه، و هى أن المعنى هو «إننا كنا نعمل الأعمال التى عملنا بناء على تزيين هوى النفس و الشيطان، و كنا نتوهم أنها أعمال صالحه، و الآن قررنا أن نعود و نعمل أعمالا صالحه فى حقيقتها غير التى ارتكبتها».

نعم فالمذنب فى بادئ الأمر— و طبق قانون الفطره السليمه— يشعر و يشخص قباحه أعماله، و لكنه قليلا قليلا يتطبع على ذلك فتقل فى نظره قباحه العمل، و يتوغل أبعد من ذلك فىرى القبيح جميلا، كما يقول القرآن الكريم: زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ (٢).

و فى مكان آخر يقول تعالى: وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (٣).

ص: ٩٨

١ - ١) - «يصرخون» من مادّه «صرخ» بمعنى الصياح الشديد الذى يطلقه الإنسان من القلب للاستغاثة و طلب النجده، للتخلص من الألم أو العذاب أو أى مشكل آخر.

٢ - ٢) - التوبه، ٣٧.

٣ - ٣) - الكهف، ١٠٤.

على كل حال، ففي قبال ذلك الطلب الذي يطلبه أولئك من الله سبحانه وتعالى، يصدر ردّ قاطع عنه سبحانه وتعالى حيث يقول: **أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ لَجَاءُكُمْ النَّذِيرُ فَإِذَا لَمْ تَنْتَفِعُوا بِكُلِّ مَا تَوْفَّرُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِنْ وَسَائِلِ النِّجَاهِ تِلْكَ وَ مِنْ كُلِّ الْفُرْصِ الْكَافِيهِ الْمَتَّاحِ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ .**

هذه الآيه تصرّح: لم يكن ينقصكم شيء، لأنّ الفرصه أتيحت لكم بما يكفي، وقد جاءتكم نذر الله بالقدر الكافي، وبتحقّق هذين الركنين يحصل الانتباه والنجاه، وعليه فليس لكم أي عذر، فلو لم تكن لكم المهله كافيه لكان لكم العذر، ولو كانت لكم مهله كافيه و لم يأتكم نذير و مرشد و معلّم فكذلك لكم العذر، ولكن بوجود ذينك الركنين فما هو العذر؟! «نذير» عاده ترد في الآيات القرآنيه للإشاره إلى وجود الأنبياء، وبالأخصّ نبي الإسلام صلّى الله عليه وآله و سلّم و لكن بعض المفسّرين ذكروا لهذه الكلمه هنا معنى أوسع، بحيث تشمل الأنبياء و الكتب السماويه و الحوادث الداعيه إلى الانتباه كموت الأصدقاء و الأقرباء، و الشيخوخه و العجز، و كما يقول الشاعر:

رأيت الشيب من نذر المنايا

لصاحبه و حسبك من نذير (١)

من الجدير بالملاحظه أيضا أنّه قد ورد في بعض الروايات أنّ هناك حدّا من العمر يعتبر إنذارا و تذكيرا للإنسان، و ذلك بتعبيرات مختلفه، فمثلا

في حديث عن ابن عباس مرفوعا عن النبي صلّى الله عليه وآله و سلّم أنّه قال: «من عمّره الله ستّين سنه فقد أعذر إليه» (٢).

و

عن أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاه و السلام أنّه قال: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستّون سنه» (٣).

ص: ٩٩

١-١) -مجمع البيان، ج ٤، ص ٤١٠.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -المصدر السابق.

عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَيْضاً أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قِيلَ: أَيُّنَ أَبْنَاءِ السَّيِّئِينَ؟ وَهُوَ الْعَمْرُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ: أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ (١)» .

و لكن

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إِنَّ الْآيَةَ «توبيخ لابن ثمانى عشره سنه» (٢) .

طبعاً، من الممكن أن تكون الروايه الأخيره إشاره إلى الحدّ الأقل، و الروايات السابقه إشاره إلى الحدّ الأعلى، و عليه فلا منافاه بينها، و حتّى أنّه يمكن انطباقها على سنين اخرى أيضاً- حسب التفاوت لدى الأفراد- و على كلّ حال فإنّ الآيه تبقى محتفظه بسعه مفهومها.

فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ- مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ- يَرِدُ الْجَوَابُ عَلَى طَلَبِ الْكُفَّارِ فِي الْعُودَةِ إِلَى الدُّنْيَا فَتَقُولُ الْآيَةُ: إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

الجملة الاولى في الحقيقة دليل على الجملة الثانيه، أى إنّهُ كيف يمكن لعالم أسرار السموات و الأرض و غيب عالم الوجود أن لا يكون عالماً بأسرار القلوب؟! نعم، فهو سبحانه و تعالى يعلم أنّهُ لو استجاب لما طلبه منه أهل جهنّم، و أعادهم إلى الدنيا فسوف يعادون نفس المسيره المنحرفه التي كانوا عليها، كما أشارت إلى ذلك الآيه (٢٨) من سورة الأنعام: وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

إضافه إلى ذلك فالآيه تنبيه للمؤمنين على أن يسعوا لتحقيق الإخلاص في نياتهم، و أن لا يأخذوا بنظر الإعتبار غير الله سبحانه و تعالى، لأنّ أقلّ شائبه في نواياهم سيكون معلوما لديه و باعثاً لمجازاتهم على قدر ذلك.

ص: ١٠٠

١-١) - الدر المنثور، ج ٥، ص ٢٥٤.

٢-٢) - مجمع البيان، ج ٤، ص ٤١٠.

## ١- ما هو المقصود من «ذات الصدور»؟

ورد هذا اللفظ بتفاوت يسير في أكثر من عشره آيات من القرآن الكريم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

لفظه «ذات» التي مذكرها «ذو» في الأصل بمعنى «الصاحب» مع أنها وردت لدى الفلاسفه بمعنى «العين و الحقيقه و جوهر الأشياء»، و لكن على ما قاله (الراغب) في مفرداته فإن هذا الاصطلاح لا وجود له في كلام العرب.

و بناء على ذلك فإن المقصود من جمله إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ صَاحِبَ وَمَالِكِ الْقُلُوبِ، و هي كناية لطيفه عن عقائد و نوايا الناس، إذ أن الإعتقادات و النوايا عند ما تستقر في القلب تكون كأنها مالك القلب، و الحاكم فيه، و لهذا السبب تعد تلك العقائد و النوايا صاحباً و مالكا للقلب الإنساني.

و ذلك تماما ما صاغه بعض كبار العلماء استفاده من هذا المعنى فقالوا: الإنسان آراؤه و أفكاره، لا صورته و أعضاؤه» (١).

## ٢- لا سبيل للرجوع!

من المسلم به أن القيامة و الحياه بعد الموت مرحله تكاملية نسبه إلى الدنيا، و أن الرجوع إلى هذه الدنيا ليس معقولا، فهل يمكننا العوده إلى الأمس؟ هل يمكن للوليد أن يعود إلى طي الأدوار الجينية من جديد؟ و هل يمكن للثمره التي قطفت من غصنها أن تعاد إليه مره ثانيه؟ لهذا السبب فإن العوده إلى الدنيا غير ممكنه لأهل الآخرة.

و على فرض إمكانية تلك العوده فإن هذا الإنسان الكثير النسيان سوف لن يقوم بغير إدامه أعماله السابقه!

ص: ١٠١



و لا نذهب بعيدا، فنحن مرّات عديده و فى شرائط بعض الضائقات الحياتيه، نتخذ قرارا مخلصا بيننا و بين الله على القيام بعمل ما أو ترك عمل ما، و لكن بمجرد تغيير تلك الشرائط يتغير قولنا و ننسى قراراتنا، إلا إذا تحقّق لشخص ما تحوّل جدّى حقيقى، لا تحوّل مشروط بتلك متعدّده الشرائط التى بتغيرها يعود إلى سابق حاله.

هذه الحقيقه وردت فى آيات متعدّده من القرآن المجيد، من جملتها ما ورد فى الآيه (٢٨) من سوره الأنعام التى أشرنا إليها قبل قليل، حيث تكذب هؤلاء و تردّهم.

و لكن الآيه (٥٣) من سوره الأعراف تكتفى فقط بأن هؤلاء الأفراد خاسرون، و لكن لم تردّ بصراحه على طلبهم للعوده: فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

نفس هذا المعنى ورد بشكل آخر فى الآيات (١٠٧) و (١٠٨) من سوره المؤمنون: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ .

على كلّ حال، فتلك مطالب غير ذات جدوى، و أمانى عديمه التحقّق، و يحتمل أنّهم هم أيضا يعلمون ذلك، و لكنهم لشده العذاب و انسداد جميع المنافذ أمامهم يكرّرون هذه المطالب.\*\*\*

اشاره

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنْ اللَّهُ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)

التفسير

اشاره

السموات و الأرض بيد القدره الإلهيه:

تنتقل الآيات إلى مرحله اخرى من تشخيص عوامل ضعف و بطلان مناهج الكفار و المشركين في التعامل أو التفكير لتكامل البحوث التي مرّت في الآيات السابقه،فتقول أولاً: هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ .

«خلائف» هنا سواء كانت بمعنى خلفاء و ممثلى الله فى الأرض، أم بمعنى خلفاء الأقبوام السابقين (و إن كان المعنى الثانى هنا أقرب على ما يبدو) فهى دليل على منتهى اللطف الإلهى على البشر حيث أنه قىض لهم جميع إمكانات الحياه.

أعطاهم العقل و الشعور و الإدراك، أعطاهم أنواع الطاقات الجسديه، ملاً للإنسان صفحه الأرض بمختلف أنواع النعم و البركات، و علمه طريقه الاستفاده من تلك الإمكانيات، فكيف نسى الإنسان و الحال هذه ولى نعمته الأصلى، و راح يعبد آلهه خرافيه و مصنوعه؟! هذه الجملة فى الحقيقه بيان لـ «توحيد الربوبيه» الذى هو دليل على «توحيد العباده». و هذه الجملة أيضاً تنبيه للبشر جميعاً ليعلموا بأن مكنهم ليس أبدياً و لا خالداً، فكما أنهم خلائف لأقبوام آخرين، فما هى إلا مده حتى ينتهى دورهم و يكون غيرهم خلائف لهم، لذا فإنّ عليهم أن يتأملوا و يفكروا ماذا يعملون خلال هذه المده القصيره، و كيف سيدكرهم التاريخ فى هذا العالم؟ لذا تردف الآيه قائله: فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاّ مَقْتاً وَ لا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاّ خَساراً.

الجملتان الأخيرتان فى الواقع تفسير الجملة فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ فهما تقيمان دليلين على رجوع الكفر على صاحبه كالاتى:

الأول: إنّ هذا الكفر يؤدى إلى غضب الله الذى أعطى كلّ هذه المواهب.

و الثانى: أنه علاوه على هذا الغضب الإلهى فإنّ هذا الكفر سوف لن يزيد الظالمين إلاّ خساره و ضرراً بإتلافهم رأس مالهم المتمثل بأعمارهم و وجودهم، و شرائهم للشقاء و الانحطاط و الظلمه، و أى خساره أكثر من هذه.

و كلّ واحد من هذين الدليلين كاف لشجب و إبطال ذلك المنهج الباطل فى التعامل مع الحياه.

تكرار لا يزيد بصيغه المضارع، إشاره إلى هذه الحقيقه، وهى أنّ الإنسان

المَيَال بالطبع إلى البحث عن الزيادة، إذا سار في طريق التوحيد فسيزداد سعادته وكماله، وإذا سلك طريق الكفر فسوف يتعرّض لمزيد من غضب الباري عزّ وجلّ ويكون نصيبه الضرر والخسارة.

من الجدير بالذكر أيضا أنّ الغضب الإلهي ليس بمعنى الغضب الذي يحصل للإنسان، لأنّ هذا الغضب في الإنسان عبارته عن نوع من الهيجان والانفعال الداخلى الذي يكون سببا في صدور أفعال قويّة وحادّة وخشنة، وفي تعبئه كافّه طاقات الإنسان للدفاع أو الانتقام، وأمّا بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى فليس لأى من هذه الآثار التي هي من خواص الموجودات المتغيّره والممكنه أثر في غضبه، فغضبه بمعنى رفع الرحمة ومنع اللطف الإلهي من شمول أولئك الذين ارتكبوا السيئات.

الآيه التاليه ترد على المشركين بجواب قاطع حازم، وتذكّرهم بأنّ الإنسان إذا اتّبع أمرا أو تعلّق بأمر، فيجب أن يكون هناك دليل عقلى على هذا الأمر، أو دليل نقلى ثابت، وأنتم أيّها الكفّار حيث لا تملكون أيّا من الدليلين فليس لديكم سوى المكر والغرور.

تقول الآيه الكريمه: قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ (١) فهل خلقوا شيئا في الأرض.

أم شاركو الله في خلق السماوات؟! ومع هذا الحال فما هو سبب عبادتكم لها، لأنّ كون الشىء معبودا فرع كونه خالقا، فما دمتم تعلمون أنّ خالق السماوات والأرض هو الله تعالى وحده، فلن يكون هناك معبود غيره، لأنّ توحيد الخالقيه دليل على توحيد العبوديه.

والآن بعد أن ثبت أنّكم لا تملكون دليلا عقليا على ادّعاءكم، فهل لديكم دليل

ص: ١٠٥

١ - ١ - جمله «أرأيتم» بمعنى: ألا- ترون؟ أو: ألا- تفكرون؟ ولكن بعض المفسّرين يقولون بأنّها بمعنى «أخبروني». وقد أوردنا بحثا مطوّلا بهذا الخصوص في تفسير آيه (٤٠) من سوره الأنعام.

نقلی؟ أم آتیناهم کتاباً فهم علیٰ بینة منه .

كَلَّا فَلَيْسَ لَدَيْهِمْ أَى دَلِيلٍ أَوْ بَيِّنَةٍ أَوْ بَرَهَانٍ وَاضِحٍ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، إِذَا فَلَيْسَ لَدَيْهِمْ سِوَى الْمَكْرِ وَالْخَدِيْعَةِ يَلْبَسُ إِنْ يَعِدُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا .

و بتعبير آخر، إذا كان لعبد الأوثان و سائر المشركين من كل مجموعته و كل صنف ادعاء بقدره الأصنام على تلبسه مطالبهم، فعليهم أن يعرضوا نموذجاً لخلقهم من الأرض، و إذا كانوا يعتقدون أن تلك الأصنام مظهر الملائكة و المقدسين فى السماء- كما يدعى البعض- فيجب أن يقيموا الدليل على أنهم شركاء فى خلق السماوات.. و ان كانوا يعتقدون بأن هؤلاء الشركاء ليس لهم نصيب فى الخلقه، بل لهم مقام الشفاعة- كما يدعى البعض- فيجب أن يأتوا بدليل على إثبات ذلك الادعاء من الكتب السماوية.

و الحال أنهم لا يملكون أيًا من هذه البيّنات، فهم مخادعون ظالمون ليس لهم سوى المكر و خديعه بعضهم البعض.

الجدير بالملاحظة أيضا هو المقصود بـ«الأرض و السموات» هنا هو مجموعه المخلوقات الأرضية و السماوية، و التعبير بـ«مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ وَ شَرَكُوا فِي السَّمَاوَاتِ» إشاره إلى أنّ المشاركة فى السماوات إنما يجب أن تكون عن طريق الخلق.

و تنكير«كتابا»، مع استناده إلى الله سبحانه، إشاره إلى أنه ليس هنا أدنى دليل على ادعائهم فى أى من الكتب السماوية.

«بينه» إشاره إلى دليل واضح من تلك الكتب السماوية.

«ظالمون» تأكيد مرّه اخرى على أنّ«الشرك»«ظلم» واضح.

«غرور» إشاره إلى أنّ عبده الأوثان أخذوا هذه الخرافات بعضهم من بعض، و تلافقوها إمّا على شكل شائعات، أو تقاليد من بعضهم الآخر.

و تنتقل الآية التى بعدها إلى الحديث عن حاكمية الله سبحانه و تعالى على

مجموعه السماوات و الأرض، و في الحقيقة فإنها تنتقل إلى إثبات توحيد الخالق و الربوبية بعد نفي شره أي من المعبودات الوهميه في عالم الوجود فتقول: إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (١).

فليس بدء الخلق فقط-مرتبطا بالله، فإن حفظ و تدبير الخلق مرتبط بقدرته أيضا، بل إن الخلق له في كل لحظه خلق جديد، و فيض الوجود يغمر الخلق لحظه بعد اخرى من مبدأ الفيض. و لو قطعت الرابطه بين الخلق و بين ذلك المبدأ العظيم الفيض، فليس إلا العدم و الفناء.

صحيح أن الآيه تؤكد على مسأله حفظ نظام الوجود الموزون، و لكن- كما ثبت من الأبحاث الفلسفيه- فإن الممكنات محتاجه في بقائها إلى موجدها كاحتياجها إليه في بدء إيجادها، و بذلك فإن حفظ النظام ليس سوى إدامه الخلق الجديد و الفيض الإلهي.

الملفت للنظر أن الأجرام و الكرات السماويه، مع كونها غير مقيده بشيء آخر، إلا أنها لم تبرح أماكنها أو مداراتها التي حددت لها منذ ملايين السنين، دون أن تنحرف عن ذلك قيد أنمله، كما نلاحظ ذلك في المجموعه الشمسيه، فالأرض التي نعيش عليها تواصل دورانها حول الشمس منذ ملايين بل مليارات السنين في مسيرها المحدد و المحسوب بدقه و الذي يتحقق من التوازن بين القوى الدافعه و الجاذبه، كما أنها تدور في نفس الوقت حول نفسها، ذلك بأمر الله.

و للتأكيد تضيف الآيه قائله: وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .

فلا الأصنام التي صنعتموها و لا الملائكه، و لا غير ذلك، لا أحد غير الله قادر على ذلك.

و في ختام الآيه-لكي يبقى طريق الأوبه و الإنابه أمام المشركين الضالين مفتوحا يقول تعالى محبذا لهم التوبه في كل مرحله من الطريق

ص: ١٠٧

١-١) -جمله «أن تزولا» تقديرها «لئلا تزولا» أو «كراهه أن تزولا».

فبمقتضى (حلمه) لا يتعجل عقابهم، و بمقتضى (غفرانه) يتقبل توبتهم -بشرائها- فى أى مرحله من مراحل مسيرهم، و عليه فإن ذيل الآيه يشير إلى وضع المشركين و شمول الرحمه الإلهيه لهم فى حال توبتهم و إنابتهم.

اعتبر بعض المفسرين أن هذين الوصفين ذكر لارتباطهما بموضوع حفظ السموات و الأرض، إذ أن زوالهما مصيبه عظيمه، و بمقتضى حلم الله و غفرانه فإنه لا يشمل الناس بمثل ذلك العذاب و تلك المصيبه، و إن كانت أقوال و أعمال الكثير من هؤلاء الكفار موجب لإنزال ذلك العذاب، كما ورد فى الآيات ٨٨ إلى ٩٠ من سوره مريم و قَالَوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرُونَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا .

و الجدير بالملاحظه أيضا أن جمله وَ لَئِنْ زَالَتْ لَئِست بمعنى أنه «إذا زالت فليس أحد غير الله يحفظها»، بل بمعنى «أنها إذا شارفت على السقوط و الزوال فإن الله وحده يستطيع حفظها، و إلا فلا معنى للحفظ بعد الزوال».

و قد حدث -على طول التاريخ البشرى- مرارا أن علماء الفلك توقعوا أن «النجم الفلانى» المذنب أو غير المذنب سيمر بمحاذاه الكره الأرضيه و يحتمل أن يصطدم بها، هذه التوقعات تدفع جميع الناس إلى القلق، و فى هذه الشرائط يحس الجميع بأنه فى مثل حادث كهذا، ليس فى إمكان أحد أن يؤثر شيئا، بحيث لو انطلقت إحدى الكرات السماويه باتجاه الكره الأرضيه و اصطدمتا فيما بينهما بتأثير الجاذبيه فلن يبقى للتمدن البشرى أثر، و حتى الموجودات الاخرى سوف لن يبقى لها أثر على سطح الأرض، و لن تستطيع أيه قدره عدا قدره الله منع مثل هذه الكارثه من الوقوع.

فى مثل تلك الحالات يحس الجميع بالحاجه الماسه و المطلقه إلى الله سبحانه و تعالى، و لكن بمجرد أن تزول احتمالات الخطر، يلقى النسيان بظلاله على

هذه الكارثة لا تقع فقط من مجرد اصطدام السيارات مع بعضها، بل إنَّ أيَّ انحراف بسيط لأيِّ من السيارات - كالأرض مثلا - عن مسارها يؤدِّي إلى وقوع فاجعه عظيمه.

\*\*\*

## ملاحظه

## اشاره

### الصغير والكبير سَيان أمام قدره الله!

الملفت للنظر أنَّ الآيات أعلاه ذكرت أنَّ السماوات تستند إلى قدره الله في ثباتها وبقائها، وفي آيات أخرى من القرآن ورد نفس التعبير فيما يخصَّ حفظ الطيور حال طيرانها في السماء. أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ففي موضع يشير إلى أنَّ خلق السموات الواسعه دليل على وجوده تعالى، وفي موضع آخر يعتبر خلق حشره صغيره كالبعوضه دليلا على ذلك.

حينما يقسم بالشمس لأنها منبع عظيم للطاقة في عالم الوجود، وحينما يقسم بفاكهه مألوفه كالتين.

كلَّ ذلك إشارة إلى أنه لا فرق بين كبير و صغير أمام قدره الله.

أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات و السلام يقول: «و ما الجليل و اللطيف و الثقل و الخفيف و القوى و الضعيف في خلقه إلا سواء».

إنَّ هذه الأشياء جميعها تشير إلى شيء واحد، وهو أنَّ وجود الله سبحانه و تعالى، وجود لا متناه من جميع الجهات، و التدقيق في مفهوم «اللامتناهى» يثبت هذه الحقيقه بشكل تامه، و هي أنَّ مفاهيم مثل «الصعب» و «السهل» و «الصغير» و «الكبير» و «المعقد» و «البسيط» لها معنى بحدود الموجودات المحدوده فقط -



و لكن حينما يكون الحديث عن قدره الله تعالى المطلقة فإن هذه المفاهيم تتغير بشكل كلي و تقف جميعا في صف واحد بدون أدنى تفاوت فيما بينها «دقق النظر!!».

\*\*\*

ص: ١١٠

اشاره

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنِ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِخْدَىٰ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (۴۲) اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (۴۳) أَوَلَمْ يَسْتَبِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مِمَّا كَانَتِ اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (۴۴)

سبب النزول

ورد في تفسير «الدر المنثور» و «روح المعاني» و «مفاتيح الغيب» و تفاسير اخرى: «بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود و النصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول

لنكوننَّ أهدى من إحدى الأمم» (١). فلما أشرقت شمس الإسلام من أفق بلادهم، وجاءهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالكتاب السماوى، رفضوا، بل كذبوا، و حاربوا، و مارسوا أنواع المكر و الخديعه.

فنزلت الآيات أعلاه تلومهم و توبخهم على ادعاءاتهم الفارغه.

## التفسير

### اشاره

#### استكبارهم و مكرهم سبب شقائهم:

تواصل هذه الآيات الحديث عن المشركين و مصيرهم فى الدنيا و الآخرة.

الآيه الاولى تقول: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ إِيحَادَى الْأُمَمِ (٢).

«أيمان» جمع «يمين» بمعنى القسم، و فى الأصل فَإِنَّ معنى اليمين هو اليد اليمنى، و اليمين فى الحلف مستعار منها اعتبارا بما يفعله المعاهد و المحالف و غيره من المصافحه باليمين عندها.

«جهد»: من «الجهاد» بمعنى السعى و المشقّه، و بذا يكون معنى جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ حلفوا و اجتهدوا فى الحلف على أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم.

نعم، فعند ما طالعوا صفحات التأريخ، و اطلعوا على عدم وفاء و عدم شكر تلك الأقسام و جنائياتهم بالنسبه إلى أنبيائهم و خصوصا اليهود، تعجبوا كثيرا و ادعوا لأنفسهم الادعاءات و تفاخروا على هؤلاء بأن يكون حالهم أفضل منهم.

ص: ١١٢

١-١) - أغلب التفاسير.

٢-٢) - لأن «إحدى» جاءت بصيغه المفرد، فمعنى الآية «أنهم سيكونون أكثر اهتداء من واحده من الأمم» و قد تكون الإشاره إلى اليهود (لأن صيغه المفرد فى الجملة المثبتة ليس فيها معنى العموم) يبدو ذلك للوهله الاولى، و لكن كما أشار بعض المفسرين فإن قرائن الحال تشير إلى أن المقصود من الآية العموم، لأن الحديث فى مقام المبالغه و التأكيد، و تشير إلى ادعائهم بأنه فى حال بعثه رسول إليهم فأنهم سيكونون أهدى من جميع الأمم السابقه.

و لكن بمجرد أن واجهوا محك التجربة، و دخلوا كوره الامتحان المشتعله، و تحققت طلبهم ببعثه نبي منهم، تبين أنهم من نفس تلك الطينه، حيث أشار القرآن إلى ذلك بعد تلك الجملة الاولى من الآية بالقول: **فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا** .

هذا التعبير يدل على أنهم كانوا قبل بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم -و على خلاف ما يدعون- بعيدين عن دين الله سبحانه و تعالى، فقد كانت حنيفيه إبراهيم معروفه بينهم، إلا أنهم لم يكونوا يحترمونها، كذلك لم يكن لديهم أى اعتبار لما كان يمليه العقل من تصرفات. و بقيام النبي صلى الله عليه و آله و سلم و نيله من عقائدهم و أعرافهم و عصبيتهم الجاهليه، و وقوع مصالحتهم غير المشروعه فى الخطر، زادت الفاصله بينهم و بين الحق، نعم كانوا بعيدين عن الحق، لكنهم ازدادوا بعدا عن الحق بعد بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

الآيه التاليه توضيح لما فى الآيه السابقه، تقول: **إِنَّ بَعْدَهُمْ عَنِ الْحَقِّ لِأَنَّهُمْ سَلَكُوا طَرِيقَ الْاِسْتِكْبَارِ فِي الْأَرْضِ، وَ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ أَهْلِيهِ الْخُضُوعَ لِمَنْطِقِ الْحَقِّ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ (١) وَ كَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْتَالُونَ وَ يَسِيئُونَ وَ مَكْرُ السَّيِّئِ (٢)** .

و لكن **وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** .

جملة «لا يحيق»: الفعل (يحيق) من (حاق) بمعنى نزل و أصاب، و الجملة معناها «لا ينزل و لا يصيب و لا يحيط» إشاره إلى أن الاحتيال قد يؤدى -مؤقتا-

ص: ١١٣

١ - ١) - أغلب المفسرين قالوا بأن «استكبارا» هو «مفعول لأجله» من حيث التركيب النحوى و هى بيان لعله «النفور» و ابتعادهم عن الحق، و «مكر السىء» عطف على «استكبارا» فى حين أن البعض الآخر قال: إنها عطف على «نفورا».

٢ - ٢) - «مكر السيئ» إضافه (للجنس) إلى (النوع)، كما هو نقول: «علم الفقه» لأن (مكر) بمعنى (البحث عن حل) سواء كان خيرا أو شرا، لذا فإن هذه الكلمه تطلق كصفه لله سبحانه و مكروا و مكر الله آل عمران -٥٤، و لكن «السىء» تحصر المكر فى نوع خاص منه، و هو الاحتيال.

إلى الإحاطه بالآخرين، و لكنّه فى النهايه يعود على صاحبه، فهو مفصوح و ضعيف و عاجز أمام خلق الله، و سيندمون حتما أمام الله سبحانه و تعالى، و ذلك هو المصير المشؤوم الذى انتهى إليه مشركو مكّه.

هذه الآيه فى الحقيقه تريد القول بأنهم لم يكتفوا فقط بالابتعاد عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، بل إنهم استعانوا بكل قدرتهم و استطاعتهم لأجل إنزال ضربه قويّه به و بدعوته، و السبب فى كلّ ذلك لم يكن سوى الكبر و الغرور و عدم الرضوخ للحقّ.

ختام الآيه تهديد لتلك المجموعه المستكبره الماكره و الخائنه، و بجملة عميقه المعنى و بكلمات نهزّ المشاعر، يقول تعالى: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ (١).

هذه الجملة القصيره تشير إلى جميع المصائر المشؤومه التى أحقت بالأقوام السالفه كقوم نوح، و عاد، و ثمود، و قوم فرعون، حيث أصاب كلا- منهم بلاء عظيم، و القرآن الكريم أشار مرارا إلى جوانب من مصائر هؤلاء الأقوام المشؤومه و الأليمه. و هنا و بتلك الجملة القصيره جسّد جميع ذلك أمام بصيره تلك الفئه فى مكّه.

ثمّ تضيف الآيه لزياده التأكيد قائله: فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا. فكيف يمكن لله سبحانه و تعالى أن يعاقب قوما على أعمال معيّنه، ثمّ لا يعاقب غيرهم الذين يسلكون نفس سلوكهم؟ أليس هو العدل الحكيم، و كلّ ما يفعله بناء على حكمه و عدل تاميين؟! فإنّ تغيير السنن يمكن تصوّره بالنسبه إلى من يمتلك اطلاعا أو معرفه محدوده، إذ يزداد معرفه بمرور الزمان يعرض عن سنّه سابقه، أو يكون الإنسان عالما، إلاّ أنّه لا يتصرّف طبقا للحكمه و العداله، بل طبقا لميول خاصّه فى نفسه، و لكن الله سبحانه و تعالى منزّه عن جميع تلك الأمور، و سنّته حاكمه على من يأتى كما كانت تحكم من مضى، و لا تقبل التغيير أبدا.

ص: ١١٤

(١ - ١) - «نظر» و «انتظار» تأتى أحيانا لتشير إلى نفس المعنى. كما يقول الراغب.

وقد أكد القرآن الكريم في مواضع عديده على قضيه ثبات سنن الله و عدم تغييرها، وقد فصيّلنا الحديث في ذلك في تفسير الآيه (٦٢) من سوره الأحزاب، و بالجملة فإنّ في هذا العالم-عالم التكوين التشريعي- ثمّة قوانين ثابتة لا تتغير، عبّر عنها القرآن الكريم «السنن الإلهية» و التي لا سبيل إلى تغييرها.

هذه القوانين كما أنّها حكمت في الماضي فإنّها حاكمه اليوم و غدا. و مجازات المستكبرين الكفرة الذين لم تنفع بهم الموعظه الإلهية من هذه السنن، و منها أيضا نصره أتباع الحقّ الذين لا ينتنون عن جدّهم و سعيهم المخلص، هاتان السنتان كانتا و لا تزالان ثابتتين أمس و اليوم و غدا (١).

الجدير بالملاحظه أنّه ورد في بعض الآيات القرآنيه الحديث عن «عدم تبديل» السنن الإلهية، الأحزاب-٦٢، و في البعض الآخر الحديث عن «عدم تحويل» السنن الإلهية، سوره الإسراء-٧٧، و لكن الآيه مورد البحث أكّدت على الحالتين معا.

فهل أنّ هاتين الحالتين تعبير عن معنى واحد، بحيث أنّهما ذكرتا معا للتأكيد، أم أنّ كلا منهما يشير إلى معنى مستقل؟ بمراجعته أصل اللفظين يتّضح أنّهما إشارة إلى معنيين مختلفين: (تبديل) الشئ، تعويضه بغيره كاملا، بحيث يرفع الأوّل و يوضع الثاني، و لكن (تحويل) الشئ، هو تغيير بعض صفات الشئ الأوّل من ناحيه كيفيه أو كميّه مع بقاءه.

و عليه فإنّ السنن الإلهية لا- تقبل الاستبدال و لا- التعويض الكامل، و لا- التغيير النسبي من حيث الشدّه و الضعف أو القلّه و الزيادة. من جملتها أنّ الله سبحانه و تعالى يوقع عقوبات متشابهه بالنسبه إلى الذنوب و الجرائم المتشابهه و من جميع الجهات، لا أن يوقع العقاب على مجموعه و لا- يوقعه على مجموعه اخرى. و لا- أن يوقع عقابا أقلّ شدّه على مجموعه دون اخرى، و هكذا قانون يستند إلى أصل

ص: ١١٥

ثابت، لا يقبل التبدل ولا التحويل (١).

آخر ما نريد التوقف عنده هو أنّ الآيه تضيف «سنّه» إلى لفظ الجلاله «الله» و في موضع آخر من نفس الآيه تضيف «سنّه» إلى «الأولين» و يظهر في بادئ الأمر وجود تنافى بين الحالتين، و لكن الأمر ليس كذلك، لأنّه في الحاله الاولى أضيفت «سنّه» إلى «الفاعل»، و في الحاله الثانيه أضيفت «سنّه» إلى «المفعول به».

ففي الحاله الاولى تعبير عن مجرى السنّه، و في الثانيه عمّن أجريت عليه السنّه.

الآيه التاليه تدعو هؤلاء المشركين و المجرمين إلى مطالعه آثار الماضين و المصير الذى وصلوا إليه، حتّى يروا بأمّ أعينهم فى آثارهم و مواطنهم السابقه جميع ما سمعوه، و بدأ يتحوّل البيان إلى العيان. فتقول الآيه الكريمة: أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

فإذا كانوا يتصوّرون أنّهم أشدّ قوّه من أولئك فهم على اشتباه عظيم تلك، لأنّ الأقوام السالفه كانت أقوى منهم: وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً .

فالفراعنه الذين حكموا مصر، و نمرود الذى حكم بابل و دولا اخرى بمنتهى القدره، كانوا أقوياء إلى درجه لا يمكن قياسها مع قوّه مشركى مكّه.

إضافه إلى أنّ الإنسان مهما بلغ من القوّه و القدره، فإنّ قدرته و قوّته لا شىء إزاء قوّه الله، لماذا؟ لأنّه وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ (٢) فهو العليم القدير، لا يخفى عليه شىء، و لا يستعصى على قدرته شىء، و لا يغلبه أحد، فلو تصوّر هؤلاء المستكبرون الماكرون أنّهم يستطيعون

ص: ١١٦

١ - ١) - جمع من المفسّرين فسّروا «تحويل» هنا بمعنى «نقل مكان العذاب» بمعنى أنّ الله سبحانه و تعالى ينقل عقوبته من شخص لينزلها على شخص آخر. و مع ملاحظه أنّ هذا التفسير لا ينسجم على ما يبدو مع الآيه أعلاه، فالحديث ليس عن نقل العذاب من شخص إلى آخر، بل عن عدم قبول السنن للزياده و النقص أو التغيير و التبدل، فكأنّ هؤلاء المفسّرين خلطوا بين كلمتى «تحوّل» و «تحويل»، و قد ورد فى بعض متون اللغه كمجمع البحرين «التحويل: تصيير الشىء على خلاف ما كان. و التحوّل: التّنقل من موضع إلى موضع».

٢ - ٢) - جمله «ليعجزه» كما ذكرنا سابقا من مادّه «عجز» و هى هنا بمعنى: يجعله عاجزا، لذا ففى كثير من المواضع جاءت بمعنى الفرار من قدره الله، أو بمعنى عدم التمكن من شخص.

الفرار من يد قدرته تعالى فهم مشتبهون أشدَّ الاشتباه. وإذا لم ينفذوا أيديهم من تلك الأعمال السيئه، فسوف يلاقون نفس المصير الذى لقيه من كان قبلهم.

يمرّ بنا مرارا التعرّض لهذا الأمر فى القرآن الكريم، وهو أنّ الله سبحانه و تعالى يدعو الكفّار و العاصين إلى «السير فى الأرض» و مشاهدته آثار الأقبام الماضين و مصائرهم الأليمه.

و رد فى الآيه (٩) من سوره الروم أَوْ لَمْ يَسْتَرْوُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

و ورد شبيه هذا المعنى فى سوره يوسف-١٠٩، و الحج-٤٦، و غافر ٢١ و ٨٢ و الأنعام-١١ إلى غير ذلك.

هذا التأكيد المتكزّر دليل على التأثير الخاصّ لتلك المشاهدات فى النفس الإنسانيه، فإنّ عليهم أن يروا بأعينهم ما قرءوه فى التاريخ أو سمعوه، ليذهبوا و ينظروا عروش الفراعنه المحطّمه. و قصور الأكاسره المدمّره، و قبور القياصره الموحشه، و عظام نمرود المتفسّخه، و أرض قوم لوط و ثمود الخاليه، ثمّ ليستمعوا إلى نصائحهم الصامته، و أنينهم من تحت التراب، و ينظروا بأمّ أعينهم ماذا حلّ بهؤلاء.\*\*\*



اشاره

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَائِهِ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ  
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (۴۵)

التفسير

اشاره

لو لا لطف الله ورحمته!

الآيه مورد البحث و هي الآيه الأخيره من آيات سوره فاطر، و بعد تلك البحوث الحادّه و التهديدات الشديده التي مرّت في الآيات المختلفه للسوره، تنهى هذه الآيه السوره ببيان اللطف و الرحمه الإلهيه بالبشر، تماما كما ابتدأت السوره بذكر افتتاح الله الرحمه للناس. و عليه فإنّ البدء و الختام متفقان و منسجمان في توضيح رحمه الله.

زياده على ذلك، فإنّ الآيه السابقه التي تهدّد المجرمين الكفّار بمصير الأقوام الغابرين، تطرح كذلك السؤال التالي، و هو إذا كانت السنّه الإلهيه ثابتة على جميع الطغاه و العاصين، فلما ذا لا يعاقب مشرّكو مكّه؟! و تجيب على السؤال قائله: وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا وَ لَا يَمْنَحُهُمْ فَرْصَةً لِإِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَ التَّفَكُّرِ فِي

مصيرهم و تهذيب أخلاقهم **مَا تَرَكَ عَلَيَّ ظَهْرًا مِنْ دَابَّةٍ** .

نعم لو أراد الله مؤاخذتهم على ذنوبهم لأنزل عليهم عقوبات متتالية، صواعق، و زلازل، و طوفانات، فيدمر المجرمين و لا يبقى أثرا للحياه على هذه الأرض.

**وَ لَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**

و يعطيهم فرصه للتوبه و إصلاح النفس.

هذا الحلم و الإمهال الإلهي له أبعاد و حسابات خاصه، فهو إمهال إلى أن يحلّ أجلهم فإذا **جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا** (١) فإنه تعالى يرى أعمالهم و مطلع على نياتهم.

هنا يطرح سؤالان، جوابهما يتضح مما ذكرناه أعلاه:

الأول: هل أنّ هذا الحكم العام **مَا تَرَكَ عَلَيَّ ظَهْرًا مِنْ دَابَّةٍ** يشمل حتى الأنبياء و الأولياء و الصالحين أيضا؟ الجواب واضح، لأنّ المعنى بأمثال هذا الحكم هم الأغلبيه و الأكثرية منهم، و الرسل و الأئمه و الصلحاء الذين هم أقلية خارجون عن ذلك الحكم، و الخلاصه أنّ كلّ حكم له استثناءات، و الأنبياء و الصالحون مستثنون من هذا الحكم. تماما مثلما نقول: إنّ أهل الدنيا غافلون و حريصون و مغرورون، و المقصود الأ-كثريه منهم، فى الآيه (٤١) من سوره الروم نقرأ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**. فبديهي أن الفساد ليس نتيجة لأعمال جميع البشر، بل هو نتيجة لأعمال أكثريتهم.

و كذلك فإنّ الآيه (٣٢) من نفس هذه السوره، التي قتيمت الناس إلى ثلاث مجموعات «ظالم» و «مقتصد» و «سابق بالخيرات» شاهد آخر على هذا المعنى.

ص: ١١٩

١-١) -جمله فإذا **جَاءَ أَجْلُهُمْ** جمله شرطيه، و جزاؤها يقع فى تقدير جواب الشرط هكذا «فإذا جاء أجلهم يجازى كلّ واحد بما عمل»، و عليه فإنّ جمله «فإنّ الله» من قبيل «علّه الجزاء» و هى تقوم مقام المعلول المحذوف. و يحتمل كذلك أنّ الجزاء هو لا **يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ** كما ورد فى آيات اخرى من القرآن الكريم كآيه ٦١ من سوره النحل، و عليه فإنّ جمله فإنّ الله كان **بِعِبَادِهِ بَصِيرًا** إشاره إلى أنّ الله يعرفهم جميعا، و يعلم أيّا منهم أبلغ أجله لكى يأخذه بقدرته تعالى.

و عليه فإن الآيه أعلاه ليس فيها ما ينافى عصمه الأنبياء إطلاقاً.

الثانى: هل أن التعبير ب«دابه» فى الآيه أعلاه يشير إلى شمول غير البشر، أى أن تلك الدواب أيضا سوف تتعرض للفناء نتيجة إيقاع الجزاء على البشر؟! الجواب على هذا السؤال يتضح إذا علمنا أن أصل فلسفه وجود الدواب هو تسخيرها لمنفعه الإنسان، فإذا انعدم الإنسان من سطح الكره الأرضيه فليس من داع لوجود تلك الدواب (1).

و أخيرا نختم هذا البحث بالحديث التالى الوارد

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: «سبق العلم، و جفّ القلم، و مضى القضاء، و تمّ القدر بتحقيق الكتاب و تصديق الرسل، و بالسعاده من الله لمن آمن و اتقى، و بالشقاء لمن كذب و كفر، و بالولاية من الله عزّ و جلّ للمؤمنين، و بالبراءه منه للمشركين» ثم قال: «إنّ الله عزّ و جلّ يقول: يا ابن آدم، بمشيئتي كنت أنت الذى تشاء لنفسك ما تشاء، و بإرادتي كنت أنت الذى تريد لنفسك ما تريد، و بفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي، و بقوّتي و عصمتي و عافيتي أدّيت إليّ فرائضي، و أنا أولى بحسناتك منك، و أنت أولى بذنوبك مني، الخير مني إليك واصل بما أوليتك به، و الشرّ منك إليك بما جنيت جزاء، و بكثير من تسلّطى لك انطويت على طاعتي، و بسوء ظنّك بى قنطت من رحمتي، تلى الحمد و الحجه عليك بالبيان، و لى السبيل عليك بالعصيان، و لك الجزاء الحسن عندى بالإحسان. لم أدع تحذيرك و لم آخذك عند غزّتك، و هو قوله عزّ و جلّ: وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابِّهِ لَمَ اكْلَفَكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، و لم احملك من الأمانه إلا ما قرّرت بها على نفسك، و رضيت لنفسى منك ما رضيت به لنفسك مني، ثم قال عزّ و جلّ:

ص: ١٢٠

١-١) - «دابه» من ماده «دب» و الدب و الدبيب مشى خفيف، و يستعمل ذلك فى الحيوان و فى الحشرات أكثر، و يستعمل فى كل حيوان و إن اختصت فى التعارف بالخيل. و كذلك تطلق كلمه «الدواب» خاصه على الحيوانات التى تستعمل للركوب.

وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا

(١)

إلهى، اجعلنا ممن ينتفعون من الفرصه قبل فواتها، فيرجعون إلى وجهك الكريم، و نور ما مضى من أيامنا بنور حسناتك و رضاك.

إلهى، إذا لم تشملنا برحمتك فإن جهنم التى أشعلناها بأعمالنا السيئه ستمتد بألسنتها إلينا و تلقى بنا فى لهواتها، و إن لم تضىء قلوبنا بنور غفرانك فإن قلوبنا ستصبح مرتعا للشيطان اللعين.

إلهى، أعدنا من كل شرك، و أسرج مصباح الإيمان و التوحيد الخالص فى أعماق قلوبنا و زودنا بالتقوى فى أقوالنا و أعمالنا، إنك مجيب الدعاء.

ص: ١٢١

---

(١-١) - تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد ٤، صفحہ ٣٧٠ الحديث ١٢٢.



سوره یس

اشاره

مکيه و عدد آیاتها ثلاث و ثمانون آيه

ص: ۱۲۳



**محتوى السوره:**

هذه السوره من السور المكيه، لذا فهي من حيث النظرة الإجماليه لها نفس المحتوى العام للسور المكيه، فهي تتحدّث عن التوحيد والمعاد والوحي والقرآن والإنذار والبشاره، ويلاحظ في هذه السوره أربعة أقسام رئيسيه:

١- تتحدّث السوره أوّلا- عن رساله النبي الأكرم صلّى الله عليه و اله و سلّم و القرآن المجيد و الهدف من نزول ذلك الكتاب السماوي العظيم و عن المؤمنين به، و تستمر بذلك حتّى آخر الآيه الحاديه عشره.

٢- قسم آخر من هذه السوره يتحدّث عن رساله ثلاثه من أنبياء الله، و كيف كانت دعوتهم للتوحيد، و جهادهم المتواصل المرير ضدّ الشرك، و هذا في الحقيقه نوع من التسليه و المواساه لرسول الإسلام صلّى الله عليه و آله و سلّم و توضيح الطريق أمامه لتبليغ رسالته الكبرى.

٣- قسم آخر منها، و الذي يبدأ من الآيه ٣٣ و حتّى الآيه ٤٤، مملوء بالنكات التوحيديه الملفته للنظر، و هو عرض معبر عن الآيات و الدلائل المشيره إلى عظمه الله في عالم الوجود، كذلك فإنّ أواخر السوره أيضا تعود إلى نفس هذا البحث التوحيدى و الآيات الإلهيه.

٤- قسم مهمّ آخر من هذه السوره، يتحدّث حول المواضيع المرتبطه بالمعاد و الأدلّه المختلفه عليه، و كيفيه الحشر و النشر، و السؤل و الجواب في يوم القيامه، و نهايه الدنيا، ثمّ الجنّه و النار، و هذا القسم يتضمّن مطالب مهمّه و دقيقه جدّا.



و خلال هذه البحوث الأربعة ترد آيات محرّكه و محفّزه لأجل تنبيه و إنذار الغافلين و الجهّال، لها الأثر القوي في القلوب و النفوس.

الخلاصه، أنّ الإنسان يواجه في هذه السوره بمشاهد مختلفه من الخلق و القيامة، الحياه و الموت، الإنذار و البشاره، بحيث تشكّل بمجموعها نسخه الشفاء و مجموعه موقظه من الغفله.

### فضيله سوره «يس»:

سوره يس - بشهاده الأحاديث المتعدّده التي وردت بهذا الخصوص - من أهمّ السور القرآنيه، إلى حدّ أنّ الأحاديث لقّبتها ب«قلب القرآن»

ففي حديث عن رسول الإسلام صلّى الله عليه و آله و سلّم نقرأ «إنّ لكلّ شيء قلبا، و قلب القرآن يس» (١).

و

في حديث عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ لكلّ شيء قلبا و قلب القرآن يس، فمن قرأ يس في نهاره قبل أن يمسي كان في نهاره من المحفوظين و المرزوقين حتّى يمسي، و من قرأها في ليله قبل أن ينام و كلّ به ألف ملك يحفظونه من كلّ شيطان رجيم و من كلّ آفه...» الحديث (٢).

كذلك نقرأ

عن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أيضا «سوره تدعى في التوراه المعمه! قيل:

و ما المعمه؟ قال: نعم صاحبها خير الدنيا و الآخرة» الحديث (٣).

و هناك روايات اخرى عديده بهذا الخصوص، وردت في كتب الفريقين أعرضنا عن ذكرها حذرا من الإطاله.

لذا يجب الإقرار بأنّه ربّما لم تنل سوره من سور القرآن الاخرى كلّ هذه الفضائل الخاصّه بسوره يس.

ص: ١٢٤

١-١) - مجمع البيان، مجلد ٤، صفحه ٤١٣.

٢-٢) - مجمع البيان، مجلد ٤، صفحه ٤١٣.

٣-٣) - المصدر السابق.

و كما أشرنا سابقا فإن هذه الفضيله و الثواب لا ينالهما من يكتفى بقراءه الألفاظ -فقط- مشيحا عن مفاهيم السوره، بل إن عظمه فضيله هذه السوره إنما هي لعظمه محتواها..

محتوى يوقظ من الغفله و يضحّ في النفس الإيمان، و يولد روح المسؤوليه و يدعو إلى التقوى، بحيث أنّ الإنسان إذا تفكّر في هذه الآيه و جعل ذلك التفكّر يلقي بظلاله على أعماله، فإنّه يفوز بخير الدنيا و الآخره.

فمثلا، الآيه (٦٠) من هذه السوره تتحدّث حول عهد الله في التحذير من عباده الشيطان أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

و من الواضح أنه حينما ينشغل الإنسان بهذا العهد الإلهي -تماما مثلما ورد في الأحاديث التي ذكرناها- سيكون في أمان من أى شيطان رجيم، و لكن لو قرئت هذه الآيه بلا رويّه، و في مقام العمل يكون من الأصدقاء المخلصين و الأوفياء للشيطان، فإنّه لن ينال ذلك الفخر الذي ذكرناه، و هذا يصدق على آيات هذه السوره آيه آيه.

\*\*\*

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥)  
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى  
الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ  
أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠)

التفسير

هذه السوره تبدأ- كما هو الحال في ثمان و عشرين سوره اخرى- بحروف مقطعه و هي (ياء) و(سين).

و قد فصّينا لنا الحديث فيما يخص الحروف المقطعه في بدايه سوره (البقره) و(آل عمران) و(الأعراف)، و لكن فيما يخص  
سوره (يس) فتوجد تفسيرات اخرى أيضا لهذه الحروف المقطعه.

من جملتها أنّ هذه الكلمه (يس) تتكوّن من «ياء» حرف نداء و«سين» أى شخص الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله و سلم، و عليه فيكون المعنى أنّه خطاب للرسول صلّى الله عليه وآله و سلم لتوضيح قضايا لاحقه.

و قد ورد فى بعض الأحاديث أنّ هذه الكلمه تمثّل أحد أسماء الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله و سلم (١).

و منها أنّ المخاطب هنا هو الإنسان و«سين» إشاره له، و لكن هذا الاحتمال لا يحقّق الانسجام بين هذه الآيه و الآيات اللاحقه، لأنّ هذه الآيات تتحدّث إلى الرسول صلّى الله عليه وآله و سلم وحده.

لذا نقرأ

فى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يس اسم رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلم و الدليل على ذلك قوله تعالى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢).

بعد هذه الحروف المقطّعه -و كما هو الحال فى أغلب السور التى تبتدى بالحروف المقطّعه- يأتى الحديث عن القرآن المجيد، فيورد هنا قسما بالقرآن، إذ يقول: وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. الملفت للنظر أنّه وصف «القرآن» هنا ب«الحكيم»، فى حين أنّ الحكمه عاده صفه للعاقل، كأنه سبحانه يريد طرح القرآن على أنّه موجود حى و عاقل و مرشد، يستطيع فتح أبواب الحكمه أمام البشر، و يؤدّى إلى الصراط المستقيم الذى تشير إليه الآيات التاليه.

بديهى أنّ الله سبحانه و تعالى ليس بحاجة لأنّ يقسم، و لكن الأقسام القرآنيه تتضمن -دائما- فائدتين أساسيتين: الاولى التأكيد على الموضوع اللاحق للقسم، و الثانيه بيان عظمه الشىء الذى يقسم به الله تعالى، إذ أنّ القسم لا يكون عاده بأشياء ليست ذات قيمه.

الآيه التى بعدها توضّح الأمر الذى من آجله أقسم الله تعالى فى مقدّمه السوره

ص: ١٢٩

١- ١) -نور الثقلين، مجلد ٤، صفحه ٣٧٤ و ٣٧٥.

٢- ٢) -نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٧٥.

الكريمه: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١).

بعد ذلك تضيف الآية تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢).

التأكيد على «العزیز» كصفه لله سبحانه و تعالى، لأجل بيان قدرته سبحانه و تعالى فى قبال كتاب كبير كهذا، كتاب يقف معجزه شامخه على مرّ العصور و القرون، و لن تستطيع أیه قدره مهما كانت أن تمحو أثره العظيم من صفحه القلوب.

و التأكيد على «رحيمته» لأجل بيان هذه الحقيقه و هى أن رحمته أوجبت أن تقبض للبشر نعمه عظيمه كهذه.

بعض المفسرين قالوا بأن هاتين الصفتين ذكرتا للإشاره إلى نوعين من ردود الفعل المحتمل من قبل الناس إزاء نزول ذلك الكتاب السماوى و إرسال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، فلو أنكروا و كذبوا، فإن الله سبحانه و تعالى يهددهم بعزته، و لو دخلوا من باب التسليم و القبول، فإن الله يبشرهم برحمته الخاصه.

و عليه فإن عزته و رحمته إحداهما مظهر للإنذار و الاخرى للبشاره، و باقترانهما جعل هذا الكتاب السماوى العظيم فى متناول البشرى.

هنا يطرح سؤال: هل يمكن إثبات حقانيه الرسول أو الكتاب السماوى، بواسطه قسم أو تأكيد؟ الجواب تستبطنه الآيات المذكوره، لأنها من جانب تصف القرآن بالحكيم، مشيره إلى أن حكمته ليست مخفيه عن أحد، و ذلك دليل على حقانيته.

ص: ١٣٠

١ - ١) - اختلف المفسرون فى تركيب جمله عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بعضهم قال «إنها جار و مجرور» متعلقان ب «المرسلين»، بحيث يكون المعنى «رسالتك على صراط مستقيم» و بعضهم قال: «إنها خبر بعد خبر» و المعنى «إنك مستقر على صراط مستقيم»، و البعض الآخر اعتبروها (حال) منصوبه و المعنى «إنك من المرسلين و حالك على صراط مستقيم» (من الطبيعى أن ليس هناك تفاوت كثير فى المعنى).

٢ - ٢) - «تنزيل» مفعول منصوب لفعل مقدر و التقدير «نزل تنزيل العزيز الرحيم»، كذلك فقد وردت احتمالات اخرى لإعراب هذه الجملة.

و من جانب آخر فإن وصف الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه عَلِيٌّ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ، بمعنى أن محتوى دعوته يتضح من سبيله القويم، وماضيه أيضا دليل على أنه لم يسلك في حياته سوى الطريق المستقيم.

وقد أشرنا في البحوث التي أوردناها حول أدلته حتمانية الرسل، إلى أن أحد أهم الطرق لإدراك حتمانية الرسل، هو التحقق و الاطلاع على محتوى دعواتهم بشكل دقيق، الأمر الذى يؤكد دائما أنها متوافقه و منسجمه مع الفطره و العقل و الوجدان، و قابله للإدراك و التعقل البشرى، إضافة إلى أن تاريخ حياة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يدل على أنه رجل أمانه و صدق، و ليس رجل كذب و تزوير.. هذه الأمور قرائن حيه على كونه رسول الله، و الآيات أعلاه فى الحقيقة تشير إلى كلا المطلبين، و عليه فإن القسم و الدعوى أعلاه لم يكونا بلا سبب أبدا.

ناهيك عن أنه من حيث أدب المناظره، فإنه لأجل النفوذ فى قلوب المنكرين و المعاندين يجب أن تكون العبارات فى طرحها أكثر إحكاما و حسما و مصحوبه بتأكيد أقوى، كما تستطيع التأثير فى هؤلاء.

يبقى سؤال: و هو لماذا كان المخاطب فى هذه الجملة شخص الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و ليس المشركين أو عموم الناس؟ الجواب هو التأكيد على أنك يا أيها النبى على الحق و على الصراط المستقيم، سواء استجاب هؤلاء أو لم يستجيبوا، لذا فإن عليك الاجتهاد فى تبليغ رسالتك العظيمه، و لا تعر المخالفين أدنى اهتمام.

الآيه التاليه تشرح الهدف الأصلي لنزول القرآن كما يلى لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (١) أى إنه لم يأت نذير لآبائهم.

ص: ١٣١

١-١) - أعطى المفسرون احتمالات مختلفه حول كون «ما» نافية أو غير ذلك، أغلبهم قالوا بأنها «نافية»، و قد اعتمدنا ذلك نحن فى تفسيرنا، أولا: لأن جملة «فهم غافلون» دليل على ذلك المعنى، فعدم وجود المنذر سبب للغفله.

من المسلم أنّ المقصود بهؤلاء القوم هم المشركون في مكّه، وإذا قيل أنّه لم تخل أمّه من منذر، وأنّ الأرض لا تخلو من حجّه لله، علاوه على أنّه تعالى يقول في الآية (٢٤) من سوره فاطر وَ إِنِّ مِنْ أُمَّهِ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ؟ فنقول: إنّ المقصود من الآية-مورد البحث- هو المنذر الظاهر و النبي العظيم الذى ملأ- صيته الآفاق، و إلا- فإنّ الأرض لم تخل يوما من حجّه لله على عباده، و إذا نظرنا إلى الفتره من عصر المسيح عليه السّلام إلى قيام الرّسول الأعظم صلّى الله عليه و آله و سلّم نجدها لم تخل من الحجّه الإلهيه، بل إنّها فتره من قيام اولى العزم،

يقول أمير المؤمنين عليه الصلاه و السّلام بهذا الخصوص «إنّ الله بعث محمّدا صلّى الله عليه و آله و سلّم و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا و لا يدعى نبوّه!» (١).

و على كلّ حال فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم كان تنبيه الناس الغافلين، و إيقاظ النائمين، و تذكيرهم بالمخاطر المحيطه بهم، و الذنوب و المعاصي التي ارتكبوها، و الشرك و أنواع المفسد التي تلوثوا بها، نعم فالقرآن أساس العلم و اليقظه، و كتاب تطهير القلب و الروح.

ثمّ يتبأ القرآن الكريم بما يؤول إليه مصير الكفار و المشركين فيقول تعالى:

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

احتمل المفسرون هنا العديد من الاحتمالات فى المراد من «القول» هنا.

الظاهر أنّه ذلك الوعيد الإلهي لكل أتباع الشيطان بالعذاب فى جهنّم، فمثله ما ورد فى الآية (١٣) من سوره السجده وَ لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِن

(١)

الآيه الثالثه من سوره السجده-أيضا-شاهد على ذلك، حيث يقول سبحانه و تعالى: لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . و قال بعضهم بأنّ «ما» هنا موصوله، بحيث يكون معنى الجملة «لتنذر قوما بالذى انذر آباؤهم». و بعض احتملوا أنّ «ما» مصدرية، و عليه يكون معنى الجملة «لتنذر قوما بنفس الإنذار الذى كان لآبائهم»، و لكن يبدو أنّ كلا الاحتمالين ضعيف.

ص: ١٣٢

الْجِنَّهٗ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ . كذلك في الآية (٧١) من سورة الزمر نقرأ وَ لَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

على كل حال فإن ذلك يخص أولئك الذين قطعوا كل ارتباط لهم بالله سبحانه و تعالى، و أغلقوا عليهم منافذ الهداية بأجمعها، و أوصلوا عنادهم و تكبرهم و حماقتهم إلى الحد الأعلى، نعم فهم لن يؤمنوا أبداً، و ليس لديهم أى طريق للعودة، لأنهم قد دمروا كل الجسور خلفهم.

في الحقيقة فإن الإنسان القابل للإصلاح و الهداية هو ذلك العبدى لم يلوث فطرته التوحيدية تماماً بأعماله القبيحة و أخلاقه المنحرفة، و إلا فإن الظلمه المطلقه ستتغلب على قلبه و تغلق عليه كل منافذ الأمل.

فاتضح أن المقصود هم تلك الأكثرية من الرؤوس المشركه الكافره التى لم تؤمن أبداً، و كذلك كان، فقد قتلوا فى حروبهم ضد الإسلام و هم على حال الشرك و عباده الأوثان، و ما تبقى منهم ظل على ضلاله إلى آخر الأمر.

و إلا فإن أكثر مشركى العرب أسلموا بعد فتح مكه بمفاد قوله تعالى: يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . (١)

و يشهد بذلك ما ورد فى الآيات التاليه التى تتحدث عن وجود سدّ أمام و خلف هؤلاء و كونهم لا يبصرون. و أنه لا ينفع معهم الإنذار أو عدمه (٢).

الآيه التى بعدها توصل وصف تلك الفئه المعانده، فتقول: إِذَا جَعَلْنَا فِي أَعْدَائِهِمْ أَغْلَالًا - فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ أى مرفوعى الرأس لوجود الغلّ حول الأعناق.

«أغلال» جمع «غل»: من مادّه «غلل» و يعنى تدرع الشىء و توسطه، و منه

ص: ١٣٣

١-١) -سوره النصر، الآية ٢.

٢-٢) -بناء على ما عرضناه يتضح بأن الضمير فى «أكثرهم» يعود على قاده القوم و ليس على القوم، و شاهد ذلك الآيات التاليه لتلك الآية.



الغلل (على وزن عمل) للماء الجارى بين الشجر. و«الغل» الحلقه حول العنق أو اليدين و تربط بعد ذلك بسلسله، و بما أنّ العنق أو اليدين تقع فى ما بينها فقد استعملت هذه المفرده فى هذا المورد، و حيناً تكون الأغلال فى العنق مربوطه بسلسله مستقله عمّا تربط به الأغلال الأيدي، و حيناً تكون جميعها مربوطه بسلسله واحده فيكون الشخص بذلك تحت ضغط شديد و فى محدوديه و عذاب شديدين.

و إذا قيل لحاله العطش الشديد أو الحسره و الغضب «غله» فإنّ ذلك لنفوذ تلك الحاله فى داخل قلب و جسم الإنسان، و أساساً فإنّ مادّه «غل» -على وزن جدّ- بمعنى الدخول أو الإدخال، لذا قيل عن حاصل الكسب أو الزراعه و أمثالها «غله» (١).

و قد تكون حلقه «الغل» حول الرقبه عريضه أحياناً بحيث تضغط على الذقن و ترفع الرأس إلى الأعلى، من هنا فإنّ المقيد يتحمّل عذاباً فوق العذاب الذى يتحمّله من ذلك القيد بأنّه لا يستطيع مشاهدته أطرافه.

و يا له من تمثيل رائع حيث شبّه القرآن الكريم حال عبده الأوثان المشركين بحال هذا الإنسان، فقد طوّقوا أنفسهم بطوق «التقليد الأعمى»، و ربطوا ذلك بسلسله «العادات و التقاليد الخرافيه» فكانت تلك الأغلال من العرض و الاتّساع أنّها أبقت رؤوسهم تنظر إلى الأعلى و حرمتهم بذلك من رؤيه الحقائق، و بذلك فإنّهم أسرى لا يملكون القدره و الفعّاليه و الحركه، و لا قدره الإبصار (٢).

على أيّه حال فإنّ الآيه الذى أعلاه، تعتبر شرحاً لحال تلك الفئه الكافره فى الدنيا و حالهم فى عالم الآخره الذى هو تجسيد لمسائل هذا العالم، و ليس من الغريب استخدام صيغه الماضى فى تصوير حال الآخره هنا، فإنّ الكثير من الآيات

ص: ١٣٤

١-١) -مفردات الراغب، و قطر المحيط، و مجمع البحرين، مادّه غل.

٢-٢) -على ما أوردناه أصبح واضحاً أنّ الضمير «هى» فى جمله فهى إلى الأذقان يعود على «الأغلال» بحيث إنّها رفعت أذقانهم إلى الأعلى، و جمله «فهم مقمّحون» تفرّيع على ذلك. و ما احتمله البعض من أنّ «هى» تعود على «الأيدي» التى لم يرد ذكرها فى الآيه، يبدو بعيداً جدّاً.

القرآنيه الكريمه تتكلم بصيغه الماضى حينما تتعرض إلى الحوادث المسلم بها فى المستقبل للدلاله على مضارع متحقق الوقوع، و بذلك يمكن أن تكون إشاره إلى كلا المعنيين حالهم فى الدنيا و حالهم فى الآخره.

جمع من المفسرين ذكروا فى أسباب نزول هذه الآيه و الآيه التاليه لها أنهما نزلتا فى (أبى جهل) أو (رجل من مخزوم) أو قريش، الذين صموا مرارا على قتل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و لكن الله سبحانه و تعالى منعهم من ذلك بطريقه إعجازيه فكلما أرادوا إنزال ضربه بالنبى عميت عيونهم عن الإبصار أو أنهم سلبوا قدره على التحرك تماما (1).

و لكن سبب النزول ذلك لا يمنع من عموميه مفهوم الآيه وسعه معناها، بحيث يشمل جميع أئمه الكفر و المعاندين، و فى الضمن فهى تعتبر تأييدا لما قلناه فى تفسير فهم لا يؤمنون فى أن المقصود بهم هم أئمه الكفر و النفاق و ليس أكثره المشركين.

الآيه التاليه تتناول وصفا آخر لحاله تلك المجموعه، و تمثيلا ناطقا عن عوامل و أسباب عدم تقبلهم الحقائق فتقول: وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سِدًّا وَ حَوَّصَرُوا بَيْنَ هَذَيْنِ السَّدَّيْنِ وَ أَمْسُوا لَا يَمْلِكُونَ طَرِيقًا لَا إِلَى الْأَمَامِ وَ لَا إِلَى الْوَرَاءِ، أَنْتَذِفَاعُشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ .

و يا له من تشبيه رائع!! فهم من جهه كالأسرى فى الأغلال و السلاسل، و من جهه اخرى فإن حلقه الغل عريضه بحيث أنها ترفع رؤوسهم إلى السماء، و تمنعهم من أن يبصروا شيئا مما حولهم، و من جهه ثالثه فهم محاصرون بين سدود من أمامهم و خلفهم و ممنوعون من سلوك طريقهم إلى الأمام أو إلى الخلف. و من جهه رابعه فهم لا يُبصِرُونَ إذ فقدت عيونهم كل قدره على الإبصار.

تأملوا مليا ماذا ينتظر ممن هو على تلك الحال؟ ما هو مقدار إدراكه للحقائق؟

ص: ١٣٥

ماذا يمكنه أن يبصر؟ وكيف يمكنه أن ينقل خطاه؟ فكذلك حال المستكبرين المعاندين العمى الصمّ في قبال الحقائق!! لهذا فإنه تعالى يقول في آخر آيه من هذه المجموعه وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. فمهما كان حديثك نافذا في القلوب و مهما كان أثر الوحي السماوى، فإنه لن يؤثّر ما لم يجد الأرضيه المناسبيه، فلو سطعت الشمس آلاف السنين على أرض سبخه، و نزلت عليها مياه الأمطار المباركه، و هبّت عليها نسائم الربيع على الدوام، فليس لها أن تنبت سوى الشوك و التبن، لأن قابليه القابل شرط مع فاعليه الفاعل.

\*\*\*

**بحوث**

**اشاره**

### **١- فقدان وسائل المعرفه**

يحتاج الإنسان للتعرف على العالم الخارجى إلى الاستفاده من وسائل و أدوات تسمى «وسائل المعرفه».

قسم منها «باطنيه» و القسم الآخر «ظاهريه».

العقل و الوجدان و الفطره من وسائل المعرفه الباطنيه، و الحواس الظاهريه كالأبصار و الأسماع و أمثالها وسائل المعرفه الظاهريه.

و قد أعطى الله هذه الوسائل القدره على الاشتداد شيئا فشيئا إذا استفيد منها على وجه صحيح حتى تتمكن من تشخيص الحقائق بصوره أفضل و أدق.

أما إذا استغلّت بطريقه خاطئه، أو لم يتمّ الاستفاده منها أصلا، فإنّها تضطرب بشكل كلى و تعكس الحقائق بشكل مقلوب، تماما كالمرآه الصافيه إذا غطاها غبار غليظ أو أنّها تحرّشت بحيث لا تعكس الصوره عليها، أو أنّها تعكس ما لا ينطبق على الواقع.

ص: ١٣٦

هذه الأعمال المغلوطة و المواقف المنحرفة هي التي تصادر وسائل المعرفة من الإنسان، و لهذا السبب فإنّ المقصّر الأصلي هو الإنسان، و هو الذى جنى على نفسه.

الآيات أعلاه تشبیه معبر عن هذه المسألة المهمّة و المصيرية، فهى تشبه المستكبرين و المتعصّبين و الأنانيين و المنافقين بالمقيدين بالأغلال و السلاسل من جهه، سلاسل الكبر و الهوس و الغرور و التقليد الأعمى الذى وضعوه على أعناقهم و أيادهم. و بأولئك المحاصرين بين سدّين منيعين لا يمكن عبورهما.

و من جهه اخرى فإنّ أعينهم مغلقة و لا تبصر.

الغلّ و السلاسل وحدها تكفى لمنعهم من الحركة، و السدّان العظيمان أيضا وحدهما كافيان لمنعهم من الفعاليه، انعدام البصر وحده أيضا عامل مستقل.

هذان السدّان عاليان و متقاربان إلى حدّ أنّهما وحدهما كافيان لسلبهم القدره على الإبصار، كما أنّهما كافيان لسلبهم قدره الحركة. و قد كررنا القول بأنّ الإنسان تبقى هدايته ممكنه ما لم يصل إلى تلك المرحله، أمّا حينما يبلغ تلك المرحله، فلو اجتمع جميع الأنبياء و الأولياء عليهم السّلام أيضا و قرءوا له جميع الكتب السماويه، فلن يؤثّر ذلك فيه.

و ذلك ما تمّ التأكيد عليه، سواء فى آيات القرآن أو الروايات، و هو أنّ الإنسان إذا زلّت قدمه أو ارتكب ذنبا فعليه أو يتوب فورا و يتوجّه إلى الله، و أن يتعد عن التسويف و التأخير، و الإصرار و التكرار، و من أجل أن لا يصل إلى تلك المرحله عليه أن ينظف صدأ القلب، و يدمّر السدود و الموانع الصغيره قبل أن تتحوّل إلى سدود كبيره و عظيمه، و يحتفظ بمساره و تكامله و ينفذ الغبار عن عينيه لكي يتمكّن من الإبصار.

## ٢- السدود من الأمام و الخلف

طرح بعض المفسرين هذا السؤال، وهو أنّ المانع الأساسى من استمرار الحركة هو السدّ الذى يكون أمام الإنسان، فما معنى السدّ من الخلف؟ و أجاب بعضهم قائلا: «إنّ الإنسان له هدايه فطريه و وجدانيه- و هدايه نظريه استدلاليه- فكأنّه تعالى يقول: جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا» أى: حرمانهم من سلوك سبيل الهدايه النظرية و جعلنا مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا أى: منعناهم من العوده إلى الهدايه الفطريه (١).

و قال البعض الآخر: إنّ السدّ من بين أيديهم إشاره إلى الموانع التى تمنعهم من الوصول إلى الآخره و سلوك طريق السعاده الخالده، و أمّا السدّ من خلفهم فهو الذى يصدّهم عن تحصيل السعاده الدنيويه (٢).

كذلك يحتمل التفسير التالى أيضا، و هو إنّ السالك إذا انسدّ الطريق الذى قدّامه فقد فاته المقصد و لكنّه يرجع لبحث عن طريق آخر يوصله إلى المقصد، فإذا أغلق الطريق من خلفه و من قدّامه فسوف يكون محروما من الوصول إلى المقصد حتما.

و فى الثنايا يتّضح الجواب أيضا على السؤال التالى: و هو لماذا لم يذكر السدود عن اليمين و الشمال؟ ذلك لأنّ الإنسان لا يصل إلى المقصد الذى أمامه بالسير يمينا أو شمالا، إضافة إلى أنّ السدّ عاده يبنى فى مكان يكون طرفاه الأيمن و الأيسر مغلقين، و الممر الوحيد هو مكان السدّ الذى ينغلق هو الآخر بوجوده، فيكون الإنسان فى حصار كامل عمليا.

## ٣- الحرمان من السير الأفاقى و الأنفسى

هناك طريقان معروفان لمعرفة الله، الأوّل التأمل و التفكّر فى آثار الله فى جسم

ص: ١٣٨

١-١) - تفسير الفخر الرازى الكبير، تفسير الآيات مورد البحث مجلّد ٢٦، ص ٤٥.

٢-٢) - تفسير القرطبي، تفسير الآيات مورد البحث، مجلّد ١٥، ص ١٠.

الإنسان و روحه، و تلك «الآيات الأنفسيه»، و الثانى التأمّل فى الآيات الخارجيه الموجوده فى الأرض و السماء و الثوابت و السيارات من الكواكب، و الجبال و البحار. و تلك تسمى «الآيات الآفقيه» و قد أشار القرآن إليهما فى الآيه (٥٣) من سوره فصلت سُنْرِيَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .

و حينما يفقد الإنسان قدره المعرفه، فإنّه يغلق عليه طريق مشاهدته الآيات الأنفسيه و الآفقيه على حدّ سواء.

فى الآيات الماضيه و فى جملة إِذَا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ إشاره إلى المعنى الأول، لأنّ الأغلال ترفع رؤوسهم إلى الأعلى بحيث أنّهم لا يملكون القدره على رؤيه أنفسهم، و كذلك فإنّ السدود أمامهم و خلفهم تمنعهم من رؤيه ما حولهم، بحيث أنّهم مهما نظروا فلن يبصروا غير السدود، و بذا يحرمون من مشاهدته الآيات الآفقيه.

\*\*\*

اشاره

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِذَا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ  
آثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)

التفسير

اشاره

من هم الذين يتقبلون إنذارك؟

كان الحديث في الآيات السابقة عن مجموعه لا تملك أى استعداد لتقبل الإنذارات الإلهية و يتساوى عندهم الإنذار و عدمه، أما هذه الآيات فتحدثت عن فئة اخرى هى على النقيض من تلك الفئة، و ذلك لكى يتضح المطلوب بالمقارنه بين الفئتين كما هو أسلوب القرآن.

تقول الآيه الاولى من هذه المجموعه إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ .

هنا ينبغى الالتفات إلى امور:

١- ذكرت في هذه الآيه صفتان لمن تؤثّر فيهم مواظ و إنذارات النبي صلى الله عليه و آله و سلم:

وهي «أتباع الذكر» و«الخشيّه من الله فى الغيب». لا شك أنّ المقصود من هاتين

الصفيتين هو ذلك الاستعداد الذاتى و ما هو موجود فيهم «بالقوه». أى أن الإنذار يؤثر فقط فى أولئك الذين لهم أسماع واعيه و قلوب مهياً، فالإنذار يترك فيهم أثرين: الأول إتباع الذكر و القرآن الكريم، و الآخر الإحساس بالخوف بين يدي الله و المسؤليه.

و بتعبير آخر فإن هاتين الحالتين موجودتان فيهم بالقوه، و إنها تظهر فيهم بالفعل بعد الإنذار، و ذلك على خلاف الكفار عمى القلوب الغافلين الذين لا يملكون اذنا صاغيه و ليسوا أهلا للخشيه من الله أبدا.

هذه الآيه كآليه من سوره البقره حيث يقول تعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ .

٢- باعتقاد الكثير من المفسرين أن المقصود من «الذكر» هو «القرآن المجيد».

لأن هذه الكلمه جاءت بهذه الصوره مرارا فى القرآن الكريم لتعبّر عن هذا المعنى (١)، و لكن لا مانع من أن يكون المقصود من هذه الكلمه أيضا المعنى اللغوى لها بمعنى مطلق التذكير، بحيث يشمل كل الآيات القرآنيه و سائر الإنذارات الصادره عن الأنبياء و القاده الإلهيين.

٣- «الخشيه» كما قلنا سابقا، بمعنى الخوف الممزوج بالإحساس بعظمه الله تعالى، و التعبير ب«الرحمن» هنا و الذى يشير إلى مظهر رحمه الله العامه يثير معنى جميلا، و هو أنه فى عين الوقت الذى يستشعر فيه الخوف من عظمه الله، يجب أن يكون هنالك أمل برحمته، لموازنه كفتى الخوف و الرجاء، اللذين هما عاملا الحركه التكامله المستمره.

الملفت للنظر أنه ذكرت كلمه «الله» فى بعض من الآيات القرآنيه فى مورد

ص: ١٤١

---

١ - ١) - انظر النحل: ٤٤ و فصّلت: ٤١، و الزخرف: ٤٤ و القمر: ٢٥، و فى نفس الوقت فإن لفظه «ذكر» تكرر فى القرآن كثيرا بمعنى «التذكير المطلق».



«الرجاء»و التي تمثّل مظهر الهيبة و العظمة لِمَنْ كَانَ يَزُجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ (١) إشارة إلى أنه يجب أن يكون الرجاء ممزوجا بالخوف، و الخوف ممزوجا بالرجاء على حد سواء (تأمل!!).

٤-التعبير ب«الغيب» هنا إشارة إلى معرفه الله عن طريق الاستدلال و البرهان، إذ أنّ ذات الله سبحانه و تعالى غيب بالنسبه إلى حواس الإنسان، و يمكن فقط مشاهدته جماله و جلاله سبحانه ببصيره القلب و من خلال آثاره تعالى.

كذلك يحتمل أيضا أنّ «الغيب» هنا بمعنى «الغياب عن عيون الناس» بمعنى أنّ مقام الخشيه و الخوف يجب أن لا يتخذ طابعا رياءيا، بل إنّ الخشيه و الخوف يجب أن تكون في السرّ و الخفيه.

بعضهم فسّر «الغيب» أيضا ب«القيامة» لأنها من المصاديق الواضحه للأموار المغيبه عن حسيّنا، و لكن يبدو أنّ التفسير الأوّل هو الأنسب.

٥-جملة «فبشّره» في الحقيقه تكميل للإنذار، إذ أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم في البدء يندره، و حين يتحقّق للإنسان اتّباع الذكر و الخشيه و تظهر آثارها على قوله و فعله، هنا يبشّره الباري عزّ و جلّ.

بماذا يبشّر؟ أو لا- يبشّره بشيء قد شغل فكره أكثر من أى موضوع آخر، و هو تلك الزلّات التي ارتكبتها، يبشّره بأنّ الله العظيم سيغفر له تلك الزلّات جميعها، و يبشّره بعدئذ بأجر كريم و ثواب جزيل لا يعلم مقداره و نوعه إلاّ الله سبحانه.

الملفت للنظر هو تنكير «المغفره» و «الأجر الكريم» و نعلم بأنّ استخدام النكره في مثل هذه المواضع إنّما هو للتدليل على الوفرة و العظم.

٦- يرى بعض المفسّرين أنّ (الفاء) في جملة «فبشّره» للتفريع و التفضيل، إشارة إلى أنّ اتّباع التذكر و الخشيه نتيجتها «المغفره» و «الأجر الكريم» بحيث أنّ الاولى و هي المغفره تترتّب على الأوّل، و الثانيه على الثاني.

ص: ١٤٢

بعد ذلك و بما يتناسب مع البحث الذى كان فى الآيه السابقه حول الأجر و الثواب العظيم للمؤمنين و المصدقين بالإنذارات الإلهيه التي جاء بها الأنبياء، تنتقل الآيه التاليه إلى الإشاره إلى مسأله المعاد و البعث و الكتاب و الحساب و المجازاه، تقول الآيه الكريمه: **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ .**

الاستناد إلى لفظه «نحن» إشاره إلى القدره العظيمه التي تعرفونها فينا! و كذلك قطع الطريق أمام البحث و التساؤل فى كيف يحيى العظام و هى رميم، و يبعث الروح فى الأبدان من جديد؟ و ليس نحى الموتى فقط، بل **و نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ** و عليه فإن صحيفه الأعمال لن تغادر صغيره و لا كبيره إلا و تحفظها إلى يوم الحساب.

جمله «ما قدموا» إشاره إلى الأعمال التي قاموا بها و لم يبق لها أثر، أما التعبير «و آثارهم» إشاره إلى الأعمال التي تبقى بعد الإنسان و تنعكس آثارها على المحيط الخارجى، من أمثال الصدقات الجاريه (المباني و الأوقاف و المراکز التي تبقى بعد الإنسان و ينتفع منها الناس).

كذلك يحتمل أيضا أن يكون المعنى هو أن «ما قدموا» إشاره إلى الأعمال ذات الجنبه الشخصيه، و «آثارهم» إشاره إلى الأعمال التي تصبح سنا و توجب الخير و البركات بعد موت الإنسان، أو تؤدى إلى الشرّ و المعاصى و الذنوب. و مفهوم الآيه واسع يمكن أن يشمل التفسيرين.

ثم تضيف الآيه لزياده التأكيد و **كُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ .**

أغلب المفسرين اعتبروا أن معنى «إمام مبين» هنا هو «اللوحة المحفوظ» ذلك الكتاب الذى أثبتت فيه و حفظت كل الأعمال و الموجودات و الحوادث التي فى هذا العالم.

و التعبير ب«إمام» ربّما كان بلحاظ أن هذا الكتاب يكون فى يوم القيامه قائدا و إماما لجميع المأمورين بتحقيق الثواب و العقاب، أو لكونه معيارا لتقييم الأعمال

الإنسانيه و مقدار ثوابها و عقوبتها.

الجدير بالملاحظه أنّ تعبير (إمام) ورد في بعض آيات القرآن الكريم للتعبير عن «التوراه» حيث يقول سبحانه و تعالى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً .

و إطلاق كلمه «إمام» في هذه الآيه على «التوراه» يشير إلى المعارف و الأحكام و الأوامر الوارده في التوراه، و كذلك للدلائل و الإشارات المذكوره بحق نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، ففي كلّ هذه الأمور يمكن للتوراه أن تكون قائدا و إماما للخلق، و بناء على ذلك فإنّ الكلمه المزبوره لها معنى متناسب مع مفهومها الأصلي في كلّ مورد استعمال.

\*\*\*

## مسألان

### اشاره

#### ١- أنواع الكتب التي تثبت بها أعمال الناس

يستفاد من الآيات القرآنيه الكريمه أنّ أعمال الإنسان تدون و تضبط في أكثر من كتاب، حتّى لا- يبقى له حجّه أو غدر يوم الحساب.

أولها: «صحيفه الأعمال الشخصيه» التي تحصى جميع أعمال الفرد على مدى عمره إقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١).

هناك حيث تتعالى صرخات المجرمين يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَيْغِرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا . (٢) و هو الكتاب الذي يأخذه المحسنون في أيماهم و المسيئون في شمائلهم-الحاقه ١٩ و ٢٥.

ثانيا: «صحيفه أعمال الامه» و التي تبيّن الخطوط الاجتماعيه لحياتها، كما

ص: ١٤٤

١- ١) -الإسراء، ١٤.

٢- ٢) -الكهف، ٤٩.

يقول القرآن الكريم: كُلٌّ أُمَّهٌ تُدْعَىٰ إِلَيْهِ لِكِتَابِهَا . (١)

و ثالثها: «اللوحة المحفوظة» و هو الكتاب الجامع، ليس لأعمال جميع البشر من الأوّلين و الآخريين فقط، بل لجميع الحوادث العالميه، و شاهد آخر على أعمال بني آدم في ذلك المشهد العظيم، و في الحقيقه فهو إمام لملائكته الحساب و ملائكته الثواب و العقاب.

## ٢- كل شيء أحصيناه

ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ بِأَرْضِ قَرَعَاءَ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «اتُّوْا بِحَطْبٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، نَحْنُ بِأَرْضِ قَرَعَاءَ! قَالَ:

فَلِيَأْتِ كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَا قَدَرَ عَلَيْهِ. فَجَاءُوا بِهِ حَتَّى رَمَوْا بَيْنَ يَدَيْهِ، بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. هَكَذَا تَجْمَعُ الذُّنُوبُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا كُمْ وَالمَحْقَرَاتُ مِنَ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ، طَالِبًا، أَلَا وَإِنَّ طَالِبَهَا يَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مَبِينٍ» (٢).

هذا الحديث المؤثّر، صورته معبره عن أنّ تراكم صغائر الذنوب و المعاصي يمكنه أن يولد نارا عظيمة اللهب.

في حديث آخر ورد أنّ «بني سلمه» كانوا في ناحيه المدينه، فأرادوا النقله إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية إِنْ نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ آثَارَكُمْ تَكْتُبُ»- أي خطواتكم التي تخطونها إلى المسجد، و سوف تشابون عليها- فلم ينتقلوا (٣).

ص: ١٤٥

١- (١) - الجاثيه، ٢٨.

٢- (٢) - نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٧٨، ح ٢٥.

٣- (٣) - تفسير القرطبي، ج ١٥، ص ١٢، نقل هذا الحديث عن أبي سعيد الخدرى، كما في صحيح الترمذى و جاء مثله في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى أيضا، و قد ذكره مفسّرون آخرون كالآلوسى و الفخر الرازى و الطبرسى و العلّامه الطباطبائى- أيضا- بتفاوت يسير.

اتّضح إذا أنّ مفهوم الآيه واسع و شامل، و له فى كلّ من تلك الأمور التى ذكرناها مصداق.

و قد يبدو عدم انسجام ما ذكرنا مع ما ورد من «أهل البيت» عليهم السّلام حول تفسير «إمام مبین» بأمر المؤمنين على عليه أفضل الصلاه و السلام. كما

ورد عن الإمام الباقر عليه السّلام عن آباءه عليهم السّلام: «لما أنزلت هذه الآيه على رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و كلّ شىءٍ أحصى ينأه فى إمام مبین قام أبو بكر و عمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله، هو التوراه؟ قال: لا، قالوا: فهو الإنجيل؟ قال: لا، قالوا: فهو القرآن؟ قال: لا، قال: فأقبل أمير المؤمنين على عليه السّلام فقال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: هو هذا، إنّه الإمام الذى أحصى الله تبارك و تعالى فيه علم كلّ شىء» (١).

و

فى تفسير على بن إبراهيم عن ابن عتّاس عن أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاه و السلام أنّه قال: «أنا و الله الإمام المبین، أبين الحقّ من الباطل، وورثته من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم» (٢).

فمع أنّ بعض المفسّرين من أمثال «الآلوسى»، قد إستاء كثيرا من عمليه نقل أمثال هذه الروايات من طرق الشيعة، و نسبهم لذلك إلى عدم المعرفه و الاطلاع و عدم التمكن من التفسير، إلّا أنّه بقليل من الدقه يتّضح أنّ أمثال هذه الروايات لا تتنافى مع تفسير «الإمام المبین» ب«اللوح المحفوظ». بلحاظ أنّ قلب الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم بالمقام الأوّل، ثمّ يليه قلب وليّه، و يعتبران مرآه تعكس ما فى اللوح المحفوظ، و إنّ الله سبحانه و تعالى يلهمهم القسم الأعظم ممّا هو موجود فى اللوح المحفوظ، و بذا يصبحان نموذجا من اللوح المحفوظ، و عليه فإنّ إطلاق «الإمام المبین» عليهما ليس بالأمر العجيب، لأنّهما فرع لذلك الأصل، ناهيك عن أنّ وجود الإنسان الكامل - كما نعلم - يعتبر عالما صغيرا ينطوى على خلاصه العالم

ص: ١٤٦

١- ١) - معانى الأخبار للصدوق، باب معنى الإمام، صفحه ٩٥.

٢- ٢) - نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٧٩.

الكبير، و طبقاً للشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه الصلاة و السلام.

أترعم أنك جرم صغير؟

و فيك انطوى العالم الأكبر

و العجيب أن «الألوسی» لا- يستبعد هذا التفسير مع إنكاره للروایات السالفه الذكر، و على كل حال فليس من شك في كون المقصود من «الإمام المبين» هو «اللوح المحفوظ» فإن الروایات السالفه الذكر يمكن تطبيقها عليه «دقق النظر!!».\*\*\*

ص: ١٤٧

اشاره

وَ اضْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَ لَنَمَسَّنَّكُم مِّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩)

التفسير

اشاره

و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية:

لمتابعه البحوث الماضيه فى الآيات السابقه حول القرآن و نبوه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، و المؤمنين الصادقين، و الكفار المعاندين، تطرح هذه الآيات نموذجاً من موقف الأمم السابقه بهذا الصدد، إن هذه الآيات و بعضاً من الآيات التالیه لها،

و التي تشكّل بمجموعها ثمانى عشره آيه، تتحدّث حول تأريخ عدد من الأنبياء السابقين الذين بعثوا لهدايه المشركين عبّاد الأوثان الذين سمّاهم القرآن الكريم أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ و كيف أنّهم نهضوا لمخالفه أولئك الأنبياء، و تكذبيهم، و كانت خاتمهم أن أخذهم العذاب الأليم، لتكون تنبيها لمشركى مكّه من جهه، و تسليه للرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم و فئه المؤمنين القليله به فى ذلك اليوم. على كلّ حال فإنّ التأكيد على إيراد هذه القصّه فى قلب هذه السوره التى تعتبر هى بدورها قلب القرآن الكريم، بسبب تشابه ظروف تلك القصّه مع ظروف المسلمين فى ذلك اليوم.

أولاً نقول الآيات الكريمة: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١).

«القرية» فى الأصل اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس، و تطلق أحياناً على نفس الناس أيضاً، لذا فمفهومها يتّسع حتّى يشمل المدن و النواحي، و أطلقت فى لغة العرب و فى القرآن المجيد مراراً على المدن المهمّة مثل «مصر» و «مكّه» و أمثالهما.

لكن ما اسم هذه القرية أو المدينة التى ذكرت فى هذه الآية؟ المشهور بين المفسّرين أنّها «أنطاكية» إحدى مدن بلاد الشام. و هى إحدى المدن الروميه المشهوره قديماً، كما أنّها ضمن منطقه نفوذ تركيا جغرافياً فى الحال الحاضر، و سنتعرض إلى تفصيل الحديث عنها فى البحوث الآتية إن شاء الله، و على كلّ حال فإنّه يظهر جيداً من آيات هذه السوره الكريمة أنّ أهل تلك المدينة كانوا يعبدون الأصنام، و أنّ هؤلاء الرسل جاؤوا يدعونهم إلى التوحيد و نبذ الشرك.

ص: ١٤٩

١ - ١) - يعتقد البعض بأنّ «أصحاب القرية» مفعول أو للفعل «اضرب» و «مثلاً» مفعول ثانٍ مقدّم، و البعض يقول: إنّها بدل عن «مثلاً»، و لكن الظاهر رجاحه الاحتمال الأوّل.



بعد ذلك العرض الإجمالى العام، تنتقل الآيات إلى تفصيل الأحداث التى جرت فتقول: إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١).

أمّا من هم هؤلاء الرسل؟ هناك أخذ و ردّ بين المفسّرين، بعضهم قال: إنّ أسماء الإثنين «شمعون» و «يوحنا» و الثالث «بولس»، و بعضهم ذكر أسماء اخرى لهم.

و كذلك هناك أخذ ورد فى أنّهم رسل الله تعالى، أم أنّهم رسل المسيح عليه السّلام (و لا منافاه مع قوله تعالى: إِذْ أَرْسَلْنَا إِذْ أَنْ رسل المسيح رسله تعالى أيضا)، مع أنّ ظاهر الآيات أعلاه ينسجم معه التفسير الأوّل، و إن كان لا فرق بالنسبه إلى النتيجة التى يريد أن يخلص إليها القرآن الكريم.

الآن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالّين قبال دعوه الرسل، القرآن الكريم يقول: إنهم تعلّوا بنفس الأعداء الواهيه التى يتذرّع بها الكثير من الكفّار دائما فى مواجهه الأنبياء قالوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ .

فإذا كان مقرّرا أن يأتى رسول من قبل الله سبحانه، فيجب أن يكون ملكا مقربا و ليس إنسانا مثلنا. هذه هى الذريعه التى تذرّعوا بها لتكذيب الرسل و إنكار نزول التشريعات الإلهيه، و المحتمل أنّهم يعلمون بأنّ جميع الأنبياء على مدى التاريخ كانوا من نسل آدم، من جملتهم إبراهيم الخليل عليه السّلام، الذى عرف برسالته، و من المسلّم أنّه كان إنسانا، و ناهيك عن أنّه هل يمكن لغير الإنسان أن يدرك حاجات الإنسان و مشكلاته و آلامه؟ و ثمّ لماذا أكّدت الآية أيضا على صفه «الرحمانيه» لله؟ لعلّ ذلك لأنّ الله سبحانه و تعالى ضمن نقله هذه الصفه فى كلامهم يشعر بأنّ الجواب كامن فى كلامهم، إذ أنّ

ص : ١٥٠

١ - ١) - بعض المفسّرين قالوا بأنّ كلمه «إذ» هنا بدل عن «أصحاب القريه»، و ذهب آخرون بأنّها متعلّقه لفعل محذوف تقديره «اذكر».

اللّٰه الذى شملت رحمته العالم بأسره لا بدّ أن يعث الأنبياء و الرسل لتربيته النفوس و الدعوه إلى الرشد و التكامل البشرى.

كذلك يحتمل أيضا أن يكونوا قد أكدوا على وصف الرحمانيه لله ليقولوا بذلك أنّ الله الرحمن العطوف لا يشر المشاكل لعباده بإرسال الرسل و الأنبياء، بل إنه يتركهم و شأنهم، وهذا المنطق الخاوى المتهاوى يتناسب مع مستوى تفكير هذه الفئة الضالّه.

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء الأنبياء لم يأسوا جزاء مخالفه هؤلاء القوم الضالّين و لم يضعفوا، و فى جوابهم قالوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا لِيَنبِتَ لَنَا بُرُوعًا مِّمَّنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا حِسَابٌ أَوْ لِنَعْلَمَ بِمَا نَحْمَدُكَ بِهِ إِنَّكَ عَلِيمٌ بِمَا نَعْمَدُكَ بِهِ إِنَّكَ عَلِيمٌ بِمَا نَعْمَدُكَ بِهِ إِنَّكَ عَلِيمٌ بِمَا نَعْمَدُكَ بِهِ

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

من المسلمّ به أنّهم لم يكتفوا بمجرد الادّعاء، أو القسم بأنّهم من قبل الله، بل إنّ ممّا استفاد من تعبير «البلاغ المبين» إجمالا أنّهم أظهروا دلائل و معاجز تشير إلى صدق ادّعائهم، و إلاّ فلا مصداقيه (للبلاغ المبين)، إذ أنّ البلاغ المبين يجب أن يكون بطريقه تجعل من الميسّر للجميع أن يدركوا مراده، و ذلك لا يمكن تحقّقه إلاّ من خلال بعض الدلائل و المعجزات الواضحه.

و قد ورد فى بعض الرّوايات أيضا أنّ هؤلاء الرسل كانت لهم القدره على شفاء بعض المرضى المستعصى علاجهم - بإذن الله - كما كان لعيسى عليه السلام.

و لكن الوثنيين لم يسلموا أمام ذلك المنطق الواضح و تلك المعجزات، بل إنّهم زادوا من عنفهم فى مواجهه، و انتقلوا من مرحله التكذيب إلى مرحله التهديد و التعامل الشديد قالوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ (١).

و يحتمل حدوث بعض الوقائع السلبيه لهؤلاء القوم فى نفس الفتره التى بعث فيها هؤلاء الأنبياء، و كانت إمّا نتيجة معاصى هؤلاء القوم، أو كإشارات إلهيه لهم،

ص: ١٥١

١- ١) - تقدّم الكلام عن «التطير» بالتفصيل فى تفسير سورة الأعراف، الآية ١٣١، و ذيل الآية ٤٧ من سورة النمل.

فكما نقل بعض المفسرين فقد توقّف نزول المطر عليهم لملمدّه (١)، و لكنّهم لم يعتبروا من ذلك، بل إنهم اعتبروا تلك الحوادث مرتبطه ببعثه هؤلاء الرسل. و لم يكتفوا بذلك، بل إنهم أظهروا سوء نواياهم من خلال التهديد الصريح و العلنى، و قالوا:

لئن لم تنتهوا لنرجمنكم و ليمسنكم منا عذاب الأليم

هل أنّ «العذاب الأليم» هو تأكيد على مسأله الرجم، أو زياده المجازاه أكثر من الرجم وحده؟ يوجد احتمالان، و لكن يبدو أنّ الاحتمال الثانى هو الأقرب، لأنّ الرجم من أسوأ أنواع العذاب الذى قد ينتهى أحيانا بالموت، و من الممكن أن ذكر العذاب الأليم إشاره إلى أننا سنرجمكم إلى حدّ الموت، أو أنّه علاوه على الرجم فإننا سنمارس معكم أنواعا اخرى من التعذيب التى كانت تستعمل قديما كإدخال الأسيخ المحمّاه فى العيون أو صبّ الفلز المذاب فى الفمّ و أمثالها.

بعض المفسرين احتملوا أيضا أنّ (الرجم) هو تعذيب جسمانى أمّا «العذاب الأليم» فهو عذاب معنوى روحى (٢). و لكن الظاهر أنّ التفسير الأول هو الأقرب.

أجل، فلائن أتباع الباطل و حماه الظلم و الفساد لا يملكون منطقا يمكنهم من المنازله فى الحوار، فإنهم يستندون دائما إلى التهديد و الضغط و العنف، غافلين عن أنّ سالكى طريق الله لن يستسلموا أمام أمثال هذه التهديدات، بل سيزيدون من استقامتهم على الطريق، فمنذ اليوم الأوّل الذى سلكت فيها أقدامهم طريق الدعوه إلى الله وضعوا أرواحهم على الأكف، و استعدوا لأى نوع من الفداء و التضحيه.

هنا ردّ الرسل الإلهيون بمنطقهم العالى على هذيان هؤلاء: قالوا طائرُكم معكم إنّ ذكركم .

ص: ١٥٢

١- ١) - تفسير القرطبي، ذيل الآيات محلّ البحث.

٢- ٢) - و ذلك فى حال كون «لنرجمنكم» من مادّه «رجم» بمعنى السبّ و الاتّهام و القذف.

فإذا أصابكم سوء الحظّ و حوادث الشؤم، و رحلت بركات الله عنكم، فإنّ سبب ذلك في أعماق أرواحكم، و في أفكاركم المنحطّة و أعمالكم القبيحة المشؤومه، و ليس في دعوتنا، فهذا أنتم ملأتم دنياكم بعباده الأصنام و أتباع الهوى و الشهوات، و قطعتم عنكم بركات الله سبحانه و تعالى.

جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ جملة أ إنّ ذُكِّرْتُمْ جملة مستقلّة و قالوا: إنّ معناها هو «هل أنّ الأنبياء إذا جاءوا و ذكروكم و أنذروكم يكون جزاؤهم تهديدهم بالعذاب و العقوبه و تعتبرون وجودهم شؤما عليكم؟ و ما جلبوا لكم إلّا- النور و الهدايه و الخير و البركه. فهل جواب مثل هذه الخدمه هو التهديد و الكلام السيء؟! (١).

و في الختام قال الرسل لهؤلاء بل أنتم قومٌ مُسْرِفُونَ .

فإنّ مشكلتكم هي الإسراف و التجاوز، فإذا أنكرتم التوحيد و أشركتم فسبب ذلك هو الإسراف و تجاوز الحقّ، و إذا أصاب مجتمعكم المصير المشؤوم فسبب ذلك الإسراف في المعاصي و التلوّث بالشهوات، و أخيرا ففي قبال الرغبه في العمل الصالح تهديدون الهادفين إلى الخير بالموت، و هذا أيضا بسبب التجاوز و الإسراف.

و سوف نعود إلى شرح قصّه أولئك القوم، و ما جرى لهؤلاء الرسل، بعد تفسير الآيات الباقية التي تكمل القصّه.

\*\*\*

ص: ١٥٣

١-١) -التقدير هو «أئن ذكّرتم قابلتمونا بهذه الأمور» أو «أئن ذكّرتم علمتم صدق ما قلنا».

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا  
أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ (٢٣)  
إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي  
وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً  
فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠)

## المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكف!

تشير هذه الآيات إلى جانب آخر من جهاد الرسل الذى وردت الإشارة إليه فى هذه القصه. والإشارة تتعلق بالدفاع المدروس للمؤمنين القلائل و بشجاعتهم فى قبال الأكتريه الكافره المشركه..و كيف وقفوا حتى الرمق الأخير متصدّين للدفاع عن الرسل.

تشرع هذه الآيات بالقول: **وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ .**

هذا الرجل الذى يذكر أغلب المفسرين أنّ اسمه «حبيب النجار» هو من الأشخاص الذين قَبِضَ لهم الاستماع إلى هؤلاء الرسل و الإيمان و أدركوا بحقانيه دعوتهم و دقّه تعليماتهم، و كان مؤمنا ثابت القدم فى إيمانه، و حينما بلغه بأنّ مركز المدينة مضطرب و يحتمل أن يقوم الناس بقتل هؤلاء الأنبياء، أسرع- كما يستشفّ من كلمه يسعى- و أوصل نفسه إلى مركز المدينة و دافع عن الحقّ بما استطاع. بل إنه لم يدّخر وسعا فى ذلك.

التعبير ب«رجل» بصوره النكره يحتمل أنه إشاره إلى أنه كان فردا عاديا، ليس له قدره أو إمكانيه متميزه فى المجتمع، و سلك طريقه فردا وحيدا. و كيف أنه فى نفس الوقت دخل المعركه بين الكفر و الإيمان مدافعا عن الحقّ، لكى يأخذ المؤمنين فى عصر الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم درسا بأنّهم و إن كانوا قلّه فى عصر صدر الإسلام، إلا- أنّ المسؤليه تبقى على عواتقهم، و أنّ السكوت غير جائز حتى للفرد الواحد.

التعبير ب«أقصى المدينة» يدلّ على أنّ دعوه هؤلاء الأنبياء وصلت إلى النقاط البعيده من المدينة، و أثرت على القلوب المهّيأه للإيمان، ناهيك عن أنّ أطراف المدن عاده تكون مراكز للمستضعفين المستعدين أكثر من غيرهم لقبول

الحقّ و التصديق به، على عكس ساكنى مراكز المدن الذين يعيشون حياه مرفّهه تجعل من الصعب قبولهم لدعوه الحقّ.

التعبير ب«يا قوم» يوضّح حرقه هذا الرجل و تألّمه على أهل مدينته، و دعوته إياهم إلى اتّباع الرسل، تلك الدعوه التى لم تكن لتحقّق له أى نفع شخصى.

و الآن لننظر إلى هذا الرجل المجاهد، بأى منطق و بأى دليل خاطب أهل مدينته؟ فقد أشار أولاً إلى هذه القضية إتبّعوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا. فتلك القضية بحدّ ذاتها الدليل الأوّل على صدق هؤلاء الرسل، فهم لا يكسبون من دعوتهم تلك أيه منفعه مادّيّه شخصيه، و لا- يريدون منكم مالا و لا جاها و لا مقاما، و حتّى أنّهم لا يريدون منكم أن تشكروهم. و الخلاصه: لا يريدون منكم أجرا و لا أى شىء آخر.

و هذا ما أكّدت عليه الآيات القرآنيه مرارا فيما يخصّ الأنبياء العظام، كدليل على إخلاصهم و صفاء قلوبهم، و فى سوره الشعراء و حدها تكرّرت هذه الجملة خمس مرّات و ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ (١).

ثمّ يضيف: إنّ هؤلاء الرسل كما يظهر من محتوى دعوتهم و كلامهم أنّهم أشخاص مهتدون: وَ هُمْ مُهْتَدُونَ إشاره إلى أنّ عدم الاستجابه لدعوه ما إنّما يكون لأحد سببين: إمّا لأنّ تلك الدعوه باطله و تؤدّى إلى الضلال و الضياع، أو لأنّها حقّ و لكن الدعاه لها يكتسبون من تلك الدعوه منافع شخصيه لهم ممّا يؤدّى إلى تشويه النظره إلى تلك الدعوه، و لكن حينما لا يكون هذا و لا ذاك فما معنى التردّد و التباطؤ عن الاستجابه.

ثمّ ينتقل إلى ذكر دليل آخر على التوحيد الذى يعتبر عماد دعوه هؤلاء الرسل، فيقول: ﴿مَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

فإنّ من هو أهل لأن يعبد هو الخالق و المالك و الوهاب، و ليس الأصنام التى لا

ص: ١٥٦

تضرّ و لا تنفع، الفطره السليمه تقول: يجب أن تعبدوا الخالق لا تلك المخلوقات التافهه.

و التأكيد على «فطرنى» لعله إشاره إلى هذا المعنى أيضا و هو: إننى حينما أرجع إلى الفطره الأصيله فى نفسى ألاحظ بوضوح أنّ هناك صوتا يدعونى إلى عبادته خالقى، دعوه تنسجم مع العقل، فكيف أغضّ الطرف إذا عن دعوه تؤيّد بها فطرتى و عقلى؟! و الملفت للنظر أنّه لا يقول: و ما لكم لا تعبدون الذى فطركم؟ بل يقول: وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي لَكِي يَكُونُ بِشْرُوهُ بِالْحَدِيثِ عَنْ نَفْسِهِ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا فِي النَفُوسِ وَ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَّبِعُهُ إِلَى أَنَّ الْمَرْجِعَ وَ الْمَالَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَيَقُولُ: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

أى: لا- تتصوّروا أنّ الله له الأثر و الفاعليه فى حياتكم الدنيا فقط، بل إنّ مصيركم فى العالم الآخر إليه أيضا، فتوجّهوا إلى من يملك مصيركم فى الدارين.

و فى ثالث استدلال له ينتقل إلى الحديث عن الأصنام و إثبات العبوديه لله بنفى العبوديه للأصنام، فيكمل قائلا: أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَ لَا يُنْقِذُونِ .

هنا أيضا يتحدّث عن نفسه حتّى لا يظهر من حديثه أنّه يقصد الإمرة و الاستعلاء عليهم، و فى الحقيقه هو يحدّد الذريعه الأساس لعبده الأوثان حينما يقولون: نحن نعبد الأصنام لكى تكون شفيعا لنا أمام الله، فكأنّه يقول: أيّه شفاعه؟ و أى معونه و نجاه تريدون منها؟ فهى بذاتها محتاجه إلى مساعدتكم و حمايتكم، فما ذا يمكنها أن تفعل لكم فى الشدائد و الملمات؟ التعبير ب«الرحمن» هنا علاوه على أنّه إشاره إلى سعه رحمه الله و أنّه سبب لكلّ النعم و المواهب، و ذلك بحدّ ذاته دليل على توحيد العباده، فإنّه يوضّح أنّ الله الرحمن لا يريدون أحدا بضراً، إلّا إذا أوصلت الإنسان مخالفاته إلى أن يخرج من



رحمه الله و يلقى بنفسه فى وادى غضبه.

ثم يقول ذلك المؤمن المجاهد للتأكيد و التوضيح أكثر: إننى حين أعبد هذه الأصنام و أجعلها شريكا لله فإننى سأكون فى ضلال بعيد: إننى إذا لقيت ضلالاً مبيهاً فأى ضلال أوضح من أن يجعل الإنسان العاقل تلك الموجودات الجامده جنبا إلى جنب خالق السموات و الأرض!! و عند ما انتهى هذا المؤمن المجاهد المبارز من استعراض تلك الاستدلالات و التبليغات المؤثره أعلن لجميع الحاضرين إننى آمنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ .

أما من هو المخاطب فى هذه الجملة فَاسْمَعُونَ و الجملة السابقه لها إننى آمنْتُ بِرَبِّكُمْ؟ ظاهر الآيات السابقه يشير إلى أنهم تلك المجموعه من المشركين و عبده الأوثان الذى كانوا فى تلك المدينه، و التعبير ب«رَبِّكُمْ» لا ينافى هذا المعنى أيضا، إذ أن هذا التعبير ورد فى الكثير من آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الكفار حينما تستعرض الاستدلالات التوحيديه (١).

و جمله «فاسمعون» لا تنافى ما قلنا، لأن هذه الجملة كانت دعوه لهم لاتباع قوله، بالضبط كما ورد فى قصه مؤمن آل فرعون حيث قال: يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ غافر-٣٨.

و من هنا يتضح أن ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن المخاطب فى هذه الجملة هم أولئك الرسل، و التعبير ب«رَبِّكُمْ» و جمله «فاسمعون» قرينه على ذلك - لا يقوم عليه دليل سليم.

لكن لننظر ماذا كان رد فعل هؤلاء القوم إزاء ذلك المؤمن الطاهر؟ القرآن لا يصرح بشيء حول ذلك، و لكن يستفاد من طريقه الآيات التاليه بأنهم ثاروا عليه و قتلوه.

ص: ١٥٨

(١-١) - راجع الآيات ٣ و ٣٢ يونس-٣ و ٥٢ هود-٢٤ النمل ٢٩-الكهف و غيرها.

نعم فإنَّ حديثه المثير و الباعث على الحماس و المليء بالاستدلالات القويّة الدامغه، و اللفتات الخاصّه و النافذه إلى القلب، ليس لم يكن لها الأثر الإيجابي في تلك القلوب السوداء المليئه بالمكر و الغرور فحسب، بل إنّها على العكس أثارت فيها الحقد و البغضاء و سعرت فيها نار العداوه، بحيث أنّهم نهضوا إلى ذلك الرجل الشجاع و قتلوه بمنتهى القسوه و الغلظه. و قيل أنّهم رموه بالحجاره، و هو يقول:

اللهمّ اهد قومي، حتّى قتلوه (١).

و في روايه اخرى أنّهم وطّؤوه بأرجلهم حتّى مات (٢).

و لقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقه بعبارة جميله مختصره هي قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ و هذا التعبير ورد في خصوص شهداء طريق الحقّ في آيات أخرى من القرآن الكريم وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (٣).

و الجدير بالذكر و الملاحظه أنّ هذا التعبير يدلّ على أنّ دخوله الجنّه كان مقترنا باستشهاده شهاده هذا الرجل المؤمن، بحيث أنّ الفاصله بين الإثنين قليله إلى درجه أنّ القرآن المجيد بتعبيره اللطيف ذكر دخوله الجنّه بدلا عن شهادته، فما أقرب طريق الشهداء إلى السعاده الدائمه!! و واضح أنّ المقصود من الجنّه هنا، هي (جنّه البرزخ) لأنّه يستفاد من الآيات و من الروايات أنّ الجنّه الخالده في يوم القيامة ستكون نصيب المؤمنين، كما أنّ جهنّم ستكون نصيب المجرمين.

و عليه فإنّ هناك جنّه و جهنّم آخرين في عالم البرزخ، و هما نموذج من جنّه و جهنّم يوم القيامة، فقد ورد عن أمير المؤمنين على عليه أفضل الصلاه و السلام أنّه قال: «و القبر روضه من رياض الجنّه، أو حفره من حفر النار» (٤).

ص: ١٥٩

١-١) - تفسير القرطبي، ج ١٥، ص ١٨ و ١٩.

٢-٢) - تفسير التبيان، ج ٨، ص ٤١٤.

٣-٣) - آل عمران، ١٦٩.

٤-٤) - بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢١٨.

و ما احتمله البعض من أنّ هذه الجملة إشارة إلى خطاب يخاطب به هذا المؤمن الشهم فى يوم القيامة، و أنّها تحوى جنبه مستقبلية، فهو خلاف لظاهر الآية.

على كلّ حال فإنّ روح ذلك المؤمن الطاهره، عرجت إلى السماء إلى جوار رحمه الله و فى نعيم الجنان، و هناك لم تكن له سوى امنيه واحده قال <sup>□</sup>يا ليتّ قَوْمى يَعْلَمُونَ .

يا ليت قومى يعلمون بأى شىء <sup>□</sup>بما غَفَرَ لى رَبِّى وَ جَعَلَنى مِنَ الْمُكْرَمِينَ (١).

أى: ليست أنّ لهم عين تبصر الحقّ، لهم عين غير محجوبه بالحجب الدنيويه الكثيفه و الثقيله، فيروا ما حجب عنهم من النعمه و الإكرام و الاحترام من قبل الله، و يعلموا أى لطف شملنى به الله فى قبال عدوانهم علىّ..

لو أنّهم يبصرون و يؤمنون، و لكن يا حسره!!

فى حديث عن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم فيما يخصّ هذا المؤمن «إنّهُ نصح لهم فى حياته و بعد موته» (٢).

و من الجدير بالملاحظه أنّه تحدّث أولاً عن نعمه الغفران الإلهى، ثمّ عن الإكرام، إذ يجب أولاً غسل الروح الإنسانيه بماء المغفره لتنقيتها من الذنوب، و حينها تأخذ محلّها على بساط القرب و الإكرام الإلهى.

و الجدير بالتأميل أنّ الإكرام و الاحترام و التحليل، و إن كان من نصيب الكثير من العباد، و أصولاً- فإنّه- أى الإكرام- يتعاطم مع «التقوى» جنباً إلى جنب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم (٣). و لكن (الإكرام) بشكل مطلق و بدون أدنى قيد أو شرط جاء فى القرآن الكريم خاصاً لمجموعتين:

ص: ١٦٠

١- ١) -بخصوص موقع (ما) فى الجملة احتملت ثلاثه احتمالات: إمّا مصدرية، أو موصوله، أو استفهاميه، و لكن يبدو أنّ احتمال كونها استفهاميه بعيد، و يبقى أنّ الأقرب كونها موصوله، مع أنّ المعنى لا يختلف كثيراً حينما تكون مصدرية.

٢- ٢) -تفسير القرطبي، المجلّد ٨- صفحہ ٢٠.

٣- ٣) -الحجرات، ١٣.

الاولى: «الملائكة المقرَّبون» بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . (١)

و الثانية: الأشخاص الذين بلغوا بإيمانهم أكمل الإيمان و يسميهم القرآن «المخلصين» فيقول عنهم: أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٢) (٣) .

و على كلِّ حال، فقد كان هذا مآل ذلك الرجل المؤمن المجاهد الصادق الذي أدّى رسالته و لم يقصِّر في حمايه الرسل الإلهيين، و ارتشف في النهايه كأس الشهاده، و قفل راجعا إلى جوار رحمه ربّه الكريم.

و لكن لننظر ما هو مصير هؤلاء القوم الطغاه الظلمه؟.

مع أنّ القرآن الكريم لم يورد شيئا في ما انتهى إليه عمل هؤلاء الثلاثة من الرسل الذين بعثوا إلى هؤلاء القوم، لكن جمعا من المفسرين ذكروا أنّ هؤلاء قتلوا الرسل أيضا إضافة إلى قتلهم ذلك الرجل المؤمن، و في حال أنّ البعض الآخر يصرح بأنّ هذا الرجل الصالح شاغل هؤلاء القوم بحدِيثه و بشهادته لكي يتسنى لهؤلاء الرسل التخلّص ممّا حيك ضدّهم من المؤامرات، و الانتقال إلى مكان أكثر أمنا، و لكن نزول العذاب الإلهي الأليم على هؤلاء القوم قرينه على ترجيح القول الأوّل، و إن كان التعبير «من بعده» (أي بعد شهادته ذلك المؤمن) يدلّ في خصوص نزول العذاب الإلهي - على أنّ القول الثاني أصحّ - تأمل بدقه!!.

رأينا كيف أصرّ أهالي مدينه أنطاكيه على مخالفه الإلهيين، و الآن لننظر ما ذا كانت نتيجة عملهم؟ القرآن الكريم يقول في هذا الخصوص: وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ .

ص: ١٦١

١-١ - الأنبياء، ٢٧.

٢-٢ - المعارج، ٣٥.

٣-٣ - الميزان، المجلد ١٧، صفحه ٨٢.



بدايه الجزء الثالث و العشرون من القرآن الكريم

ص: ١٦٣



فلسنا بحاجة إلى تلك الأمور، و أساساً فإنه ليس من سُنَّتنا لإهلاك قوم ظالمين أن نستخدم جنود السماء، لأنَّ إشاره واحده كانت كافيه للقضاء عليهم جميعاً و إرسالهم إلى ديار العدم و الفناء، إشاره واحده كانت كافيه لتبديل عوامل حياتهم و معيشتهم إلى عوامل موت و فناء، و في لحظه خاطفه تقلب حياتهم عاليها سافلها.

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ .

هل أن تلك الصيحه كانت صدى صاعقه نزلت من الغيوم على الأرض و هزّت كل شىء، و دمّرت كل العمران الموجود، و جعلت القوم من شدّه الخوف و الوحشه يستسلمون للموت؟ أو أنّها كانت صيحه ناتجه عن زلزاله خرجت من قلب الأرض فضجّت في الفضاء بحيث أنّ موج انفجارها أهلك الجميع.

أيّاً كانت فإنّها لم تكن سوى صيحه لم تتجاوز اللحظه الخاطفه في وقوعها، صيحه أسكتت جميع الصيحات، هزّه أوقفت كل شىء عن التحرك، و هكذا هي قدره الله سبحانه و تعالى، و هكذا هو مصير قوم ضالّين لا نفع فيهم.

الآيه الأخيره تتعرّض إلى طريقه جميع متمرّدى التاريخ إزاء الدعوات الإلهيه لأنبياء الله بلهجه جميله تأسر القلوب فتقول: يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ .

وا أسفاه عليهم أن أغلقوا نافذه الرحمه الإلهيه عليهم! وا أسفاه عليهم أن كسروا مصباح هدايتهم!!، هؤلاء الضالّون المحرومون من السعاده لم يكتفوا بعدم الاستماع بأذان قلوبهم لنداء قاده البشريه العظام فقط، بل إنهم أصرّوا على السخرية و الاستهزاء منهم ثم بادروا إلى قتلهم. مع أنّهم علموا المصير المشؤوم للطغاه الكفّار من قبلهم، و سمعوا أو قرءوا على صفحات التاريخ كيف كانت خاتمتهم الأليمه، و لكنّهم لم يعتبروا بالمواعظ و سلخوا نفس المسير، و صاروا إلى



و من الواضح أنّ هذه الجملة هي قول الله تعالى، لأنّ جميع هذه الآيات توضيح منه تعالى، غير أنّ من الطبيعي أن الحسره هنا- بمعناها المتعارف و هو الغمّ على ما فات- لا تنطبق على الله سبحانه و تعالى، كما أنّ (الغضب) و أمثاله أيضا لا يصدر بمفهومه المتعارف من الله سبحانه، بل المقصود أنّ حال تلك الفئة التعيسه سىء إلى حدّ أنّ كلّ إنسان يطّلع عليه يتأسّف و يتحسّر متسائلا: لماذا غرقوا في تلك الدوامه مع توفّر كلّ وسائل النجاه؟ التعبير ب«عباد» إشاره إلى أنّ العجب أن يكون هؤلاء العباد غارقين بنعم الله سبحانه و تعالى ثمّ يرتكبون مثل تلك الجنایات.

\*\*\*

## بحوث

## إشارة

### ١- قِصّة رسل أنطاكية

(أنطاكية) واحده من أقدم مدن الشام التي بنيت-على قول البعض-بحدود ثلاثمائة سنه قبل الميلاد.و كانت تعدّ من أكبر ثلاث مدن روميه في ذلك الزمان من حيث الثروه و العلم و التجاره.

تبعد (أنطاكية) مائه كيلومتر عن مدينه حلب، و ستين كيلومترا عن الإسكندريه.

فتحت من قبل (أبى عبيده الجراح) في زمن الخليفه الثانى، و قبل أهلها دفع الجزيه و البقاء على ديانتهم.

احتلّها الفرنسيون بعد الحرب العالميه الاولى، و حينما أراد الفرنسيون ترك الشام ألحقوها بالأراضى التركيه خوفا على أهالى أنطاكية من أن يمسخهم سوء بعد خروجهم لأنّهم نصارى مثلهم.

(أنطاكية) تعتبر بالنسبة إلى النصارى كالمدينة المنورة للمسلمين، المدينة الثانية في الأهمية بعد بيت المقدس، التي ابتداءً المسيح عليه السلام منها دعوته، ثم هاجر بعض من آمن بالمسيح عليه السلام - بولس و برنابا- (١) إلى أنطاكية و دعوا الناس هناك إلى المسيحية، و بدأ انتشرت المسيحية هناك، و بهذا اللحاظ أشار القرآن الكريم إلى هذه المدينة لأهميتها (٢).

«الطبرسى»- أعلى الله مقامه- في تفسير مجمع البيان يقول: قالوا بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له و هو (حبيب) صاحب (يس) فسألما عليه.

فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ قالوا: رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن.

فقال: أ معكما آيه؟ قالوا: نعم، نحن نشفى المريض و نبرئ الأكمه و الأبرص بإذن الله.

فقال الشيخ: إن لي ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين.

قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلع حاله، فذهب بهما فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحا، ففشا الخبر في المدينة و شفى الله على أيديهما كثيرا من المرضى.

و كان لهم ملك يعبد الأصنام فانتهى الخبر إليه، فدعاهما فقال لهما: من أنتما؟ قالوا: رسولا عيسى، جئنا ندعوكم من عبادة ما لا يسمع و لا يبصر إلى عبادة من يسمع و يبصر.

فقال الملك: و لنا إله سوى آلهتنا؟

ص: ١٦٧

١ - ١) - «بولس» من المبلّغين المسيحيين المعروفين الذي سعى كثيرا في نشر الديانة المسيحية. «برنابا» - بفتح الباء - اسمه الأصلي «يوسف» كان من أصدقاء بولس و مرقس، له إنجيل معروف ذكر فيه كثيرا البشارة بظهور نبي الإسلام، و لكن المسيحيين لا يعتقدون بصحته و يقولون أنّ هذا الإنجيل قد كتبه أحد المسلمين.

٢ - ٢) - تفسير «أبو الفتوح الرازى» و هامش العالم المرحوم «الشعرانى».

قالا: نعم، من أوجدك و آلتهك.

قال: قوما حتى أنظر في أمركما، فأخذهما الناس في السوق و ضربوهما.

و روى أن عيسى عليه السلام بعث هذين الرسولين إلى أنطاكية فأتيها و لم يصلا إلى ملكها، و طالت مدّه مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبروا و ذكرا الله فغضب الملك و أمر بحبسهما، و جلد كل واحد منهما مائه جلده، فلما كذب الرسولان و ضربا، بعث عيسى (شمعون الصفا) رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلده متنكرا فجعل يعاشر حاشيه الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه و رضى عشرته و أنس به و أكرمه، ثم قال له ذات يوم: أيها الملك بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن و ضربتكما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما. قال الملك حال الغضب بينى و بين ذلك. قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نتطلع ما عندهما فدعاهما الملك.

فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى هاهنا.

قالا: الله الذى خلق كل شىء لا شريك له.

قال: و ما آيتكما.

قالا: ما تتمناه.

فأمر الملك أن يأتوا بغلام مطموس العينين و موضع عينيه كالجبهه. فما زالا يدعوان حتى انشق موضع البصر، فأخذا بندقيتين من الطين فوضعاها فى حديقته فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك.

فقال شمعون للملك: أ رأيت لو سألت إلهك حتى يصنع صنيعا مثل هذا فيكون لك و لإلهك شرفا؟ فقال الملك: ليس لى عنك سرّ، إنّ إلهنا الذى نعبد لا يضرّ و لا ينفع.

ثم قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنّا به و بكما.

قالا: إلهنا قادر على كل شىء.

ص: ١٤٨

فقال الملك: إن هاهنا ميتا مات منذ سبعة أيام لم ندفنه حتى يرجع أبوه - وكان غائبا - فجاءوا بالميت وقد تغير و أروح، فجعلوا يدعون ربهما علانية، وجعل شمعون يدعو ربه سرا، فقام الميت وقال لهم: إنني قدمت منذ سبعة أيام، وأدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم مما أنتم فيه، فأمنوا بالله فتعجب الملك.

فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك، دعاه إلى الله فأمن و آمن من أهل مملكته قوم و كفر آخرون.

و نقل «العياشي» في تفسيره مثل هذه الرواية عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السلام مع بعض التفاوت (1).

و لكن بمطالعه الآيات السابقة، يبدو من المستبعد أن أهل تلك المدينة كانوا قد آمنوا، لأن القرآن الكريم يقول: **إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**.

و يمكن أن يكون هناك اشتباه في الرواية من جهة الراوي.

و من الجدير بالملاحظة أيضا أن التعبير «المرسلون» في الآيات أعلاه يدل على أنهما أنبياء مرسلون من الله تعالى، علاوة على أن القرآن الكريم يقول: **بأن أهالي تلك المدينة قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا و ما أنزل الرحمن من شيءٍ**، و مثل هذه التعبيرات ترد في القرآن الكريم عادة فيما يخص الأنبياء، و إن كان قد قيل بأن رسل الأنبياء هم رسل الله، و لكن هذا التوجيه يبدو بعيدا.

## ٢- ما نتعلمه من هذه القصة

نتعلم من القصة التي عرضتها الآيات السابقة أموراً عديدة منها:

الف- أن المؤمنين لا يستوحشون أبداً من سلوك طريق الله سبحانه و تعالى منفردين كما هو حال المؤمن «حبيب النجار» الذي لم ترهبه كثرة المشركين في مدينته.

ص: ١٦٩

يقول أمير المؤمنين على عليه أفضل الصلاة والسلام: «لا تستوحشوا من طريق الهدى لقله أهله» (١).

ب- المؤمن عاشق لهدايه الناس، ويتألم لضلالهم، وحتى بعد شهادته يتمنى أن يرى الآخرون مقامه ليكون سببا في إيمانهم! ج- محتوى دعوه الأنبياء بحد ذاتها دليل على هدايتهم وحقانيتهم وهُم مُهْتَدُونَ .

د-الدعوه إلى الله يجب أن تكون خاليه من أى ترقّب للأجر لكى تكون مؤثّره.

ه-تاره يكون الضلال مكشوفاً وواضحاً، أى أنه ضلال مبین، وعباده الأوثان تعدّ مصداقاً واضحاً ل«الضلال المبین».

و-أهل الحقّ يستندون إلى الواقعيّات، والضالّون يستندون إلى أوهام وظنون.

ز-إذا كان هناك شؤم و نكبات فإنّ سببها نفس الإنسان و أعماله.

ح-الإسراف سبب لكثير من الانحرافات و النكبات.

ط-وظيفه الأنبياء و أتباعهم «البلاغ المبین» و الدعوه العلنيه، سواء استجاب الناس أو لم يستجيبوا.

ى-التجمّع و الكثره من العوامل المهمّه للنصره و العزّه و القوّه فَعَزَّزْنَا بِتَالِثٍ .

ك-إنّ الله لا يحتاج لتدمير أئمّه التمرد و العصيان إلى تجنيد طاقات الأرض و السماء، بل تكفى الإشاره.

ل-لا فاصله بين الشهاده و الجنّه، و الشهيد قبل أن يغادر الدنيا يقع فى أحضان الحصور العين (٢).

ص: ١٧٠

(١-١) - نهج البلاغه، الخطبه ٢٠١، صفحه ٣١٩.

(٢-٢) - ذكرنا روايه شريفه مفضّله عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فى هذا المجال عند تفسير سوره (آل عمران) ذيل الآيه ١٦٩.

م-إنَّ الله يطهر الإنسان من الذنوب أولاً ثم يقربه إلى جوار رحمته بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ .

ن-يجب على مريد الحق أن لا يستوحش من مخالفه الأعداء، لأن ذلك ديدنهم على مدى الدهور يَا حَسِيرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ .

و أى حسره أكبر و أشد من أن يغلق الإنسان-لمجرد تعصبه و غروره-عينه، فلا يبصر الشمس المضيئه الساطعه.

س-كان المستضعفون يؤمنون بالأنبياء قبل جميع الناس و جاء من أقصا المدينه رجلاً ... .

ع-و هم الذين لم يتعبوا و لم يكلوا من طريق الحق، و لم يكن لسعيهم و اجتهادهم حد. يشعياً .

ف-يجب تعلم طريقه التبليغ و الدعوه إلى الله من الرسل الإلهيين الذين استفادوا من جميع الأساليب و الطرائق المؤثره لأجل النفوذ فى قلوب الغافلين، و فى الآيه أعلاه و الروايات التى أدرجناها نموذج على ذلك.

### ٣-ثواب و عقاب البرزخ

ورد فى الآيات الماضيه أن(المؤمن حبيب النجار)بعد شهادته دخل الجنه و تمنى أن لو يعلم قومه بمصيره.و من المسلم أن هذه الآيات-كما هو الحال فى الآيات الاخرى التى تتحدث عن الشهداء-ليست مربوطه بالجنه المقصوده بعد يوم القيامة و التى تكون بعد البعث و الحساب فى المحشر.

من هنا يتضح أن وراءنا جنه و جحيما فى البرزخ أيضاً، يتنعم فيها الشهداء و يحترق فيها الطغاه من أمثال «آل فرعون» و مع الالتفات إلى هذا المعنى، تنحل

كثير من الإشكالات فيما يخصّ الجنّة و النار، من أمثال ما ورد في روايات الإسراء و المعراج و أمثالها.

#### ٤- قاده الأمم

نقل في تفسير الثعلبي عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم «سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفه عين: علي بن أبي طالب و صاحب يس، و مؤمن آل فرعون، فهم الصديقون و علي أفضلهم» (١).

كما

ورد هذا المعنى تقريبا في روايه عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أوردها صاحب تفسير «الدرّ المنثور» عن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أنه قال: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي قال: يا قوم اتبعوا المرسلين، و حزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: أقتلون رجلا أن يقول ربّي الله، و علي بن أبي طالب و هو أفضلهم» (٢).

\*\*\*

ص: ١٧٢

---

١-١) -مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٢١ القرطبي-الميزان، نور الثقلين.

٢-٢) -تفسير الدرّ المنثور، علي ما نقله الميزان، المجلد ١٧، صفحہ ٨٦.

إشاره

أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ (٣٢)

التفسير

إشاره

الغفله الدائمه:

تحدّث هاتان الآيتان-استنادا إلى ما مرّ في الآيات السابقه-عن الغفله المستمره لمجموعه كبيره من البشر في هذا العالم على مرّ العصور و القرون،فتقول الآية: أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (١) .

فهؤلاء الكفار ليسوا بدعا من الأمر،فقد كان قبلهم أقوام آخرون تمردوا على الحقّ مثلهم عاشوا في هذه الدنيا،و مصائرهم الأليمه التي ملأت صفحات التأريخ، و الآثار المعبره التي بقيت في مدنهم المدمره،كلّها شاخصه أمام العيان،فهل يكفي ذلك المقدار لتحقّق العبره و الإعتبار؟ و لكن على من يعود ضمير الجمع في أَلَمْ يَرَوْا؟

ص: ١٧٣

١ - ١) -الاستفهام في الآية أعلاه استفهام تقيري و«كم»خبريه،و هي هنا بمعنى الكثره في محلّ مفعول به للفعل (يروا)و(من القرون)توضيح لذلك.و«قرون»كما ذكرنا سابقا تأتي بمعنى العصور و هي جمع(قرن)مائة سنه أو بمعنى(الجيل)الذي يعيش في زمان معيّن.



احتمل المفسرون عدّه وجوه:

الأول: أنّه يعود على «أصحاب القرية» الذين تحدّثت الآيات السابقه حولهم.

و الثاني: أنّه يعود على «أهل مكّه» الذين نزلت هذه الآيات لتنبئهم.

و لكن يستدلّ من الآيه السابقه يَا حَسِيرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ... على أنّ المقصود هو جميع البشر، إذ أنّ كلمه «العباد» فى الآيه المذكوره تشمل جميع البشر على طول التاريخ، الذين ما إن جاءهم الأنبياء حتّى هبّوا لمخالفتهم و تكذيبهم و الاستهزاء بهم، و على كلّ حال فهى دعوه لجميع البشر بأن يتأملوا فى تأريخ القدماء، و يعتبروا من آثارهم التى خلّفوها، بفتح قلوبهم و بصائرهم.

فى آخر الآيه يضيف تعالى: أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (١).

أى أنّ المصيبه الكبرى فى استحاله رجوعهم إلى هذه الدنيا لجبران ما فاتهم و تبديل ذنوبهم حسنات، لأنّهم دمّروا كلّ الجسور خلفهم، فلم يبق لهم سبيل للرجوع أبدا.

هذا التفسير يشبه بالضبط ما

قاله أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه أفضل الصلاه و السلام) حينما تحدّث فى أخذ العبره من الموتى فقال: «لا عن قبيح يستطيعون انتقالا و لا فى حسن يستطيعون ازديادا». (٢)

و تضيف الآيه التاليه وَ إِن كُنتُمْ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣).

أى أنّ المسأله لا- تنتهى بهلا- كههم و عدم استطاعتهم العوده إلى هذه الدنيا، كالأ- فإنّ الموت فى الحقيقه بدايه الشوط و ليس نهايته، فعاجلا سيحضر الجميع فى

ص: ١٧٤

١ - ١) - هذه الجملة بدل عن «كم أهلكنا» و التقدير «ألم يروا أنّهم إليهم لا- يرجعون» البعض احتمل أيضا أنّ الجملة حاله (حال الهالكين).

٢ - ٢) - نهج البلاغه، خطبه ١٨٨.

٣ - ٣) - المعروف بين المفسّرين حول تركيب هذه الآيه: «إِنَّ» نافية. و البعض قال: إنّها مخفّفه لذا فإنّها لا- تنصب ما بعدها، و «لَمَّا» بمعنى «إلا»، بلحاظ أنّ ذلك ورد فى كلام العرب، و (جميع) بمعنى «مجموع» خبر «كلّ» (تنوين كل) بدل عن مضاف إليه محذوف تقديره «هم» و الأصل «كلّهم» و «محضرون» إمّا خبر بعد خبر، أو صفه ل «جميع» و على ذلك تكون الجملة فى التقدير هكذا «و ما كلّهم إلا مجموعون يوم القيامة محضرون لدينا».

عرصه المحشر للحساب، ثم العقاب الإلهي المتلاحق و المستمر في انتظارهم.

إذا كانت الحال كذلك أ فلا ينبغي عليهم الإعتبار من مصير هؤلاء السابقين لهم، و الاستفادة من الفرصه قبل الفوت للابتعاد عن مواجهه ذلك المصير المشؤوم.

نعم، فلو كان الموت خاتمه لكلّ شيء، لكان ممكنا أن يقولوا بأنّه بدايه راحتهم، و لكن يا حسره!! و كما يقول الشاعر:

و لو أنا إذا متنا تركنا

لكان الموت راحه كلّ حيّ

و لكنّا إذا متنا بعثنا

و نسأل بعده عن كلّ شيء

\*\*\*

ص: ١٧٥

اشاره

وَ آيَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)

التفسير

اشاره

آيات اخرى!!

مِمَّا مَرَّ بَحْثُهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ حَوْلَ جِهَادِ الرِّسْلِ ضِدَّ الشَّرْكِ وَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَ كَذَلِكَ التَّعَرُّضُ إِلَى مَسْأَلَةِ الْمَعَادِ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْمَقْطَعِ السَّابِقِ، تَوْضِيحُ الْآيَاتِ-مُورِدِ الْبَحْثِ-مَسْأَلَتِي التَّوْحِيدِ وَ الْمَعَادِ مَعَالِيْقَاطِ الْمُنْكَرِينَ لِهَاتَيْنِ الْمَسْأَلَتَيْنِ وَ دَفْعُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ.

تَتَعَرَّضُ الْآيَةُ الْأُولَى إِلَى قَضِيَّةِ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ وَ الْبَرَكَاتِ الَّتِي تَعُودُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِكَ فَتَقُولُ: وَ آيَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ

قضيه الحياه و البقاء من أهم دلائل التوحيد، و هي قضيه في واقعها معقده و مليئه بالألغاز و باعثه على الدهشه، إذ أنها حيرت عقول العلماء جميعاً، فبرغم التطور و التقدم الحاصل في وسائل الدراسه و في العلوم بشكل عام، لا زال الكثير من الأسرار تنتظر الحلّ! و حتى الآن لم يعلم تحت تأثير أى العوامل تتحوّل موجودات ميتة إلى خلايا حيّه؟ حتى الآن، لم يعرف كيف تتكوّن طبقات خلايا البذور؟ و ما هي القوانين المعقده التي تحكمها؟ بحيث أنها بمجرد توفرّ الشرائط المساعده تبدأ بالتحرك و النمو و الرشد. و تستلّ من ذرّات التراب الميتة وجودها، و بهذا الطريق تتحوّل الموجودات الميتة إلى أنسجه موجودات حيّه فتعكس في كلّ يوم مظهراً مختلفاً من مظاهر حياتها و نموّها.

قضيه الحياه في عالم النباتات و الحيوانات و إحياء الأرض الميتة تعتبر من جانب دليلاً على وجود معلومات و قوانين دقيقه سخّرت في خلق ذلك العالم، و من جانب آخر تعتبر دليلاً على البعث بعد الموت.

و من الواضح أنّ الضمير في «لهم» يعود على كلمه «العباد» التي ورد ذكرها في الآيات السابقه، و المقصود من «العباد» هنا هم جميع الذين وقعوا في خطأ في تقدير مسأله المبدأ و المعاد، و الذي عدّ القرآن الكريم وضعهم باعثاً على الحسره و الأسف.

تنكير «آيه»، إشاره إلى عظمه و أهميته و وضوح تلك الآيه التوحيديه.

جمله فَمِنْهُ يَا كُلُّونَ إشاره من جانب إلى أنّ الإنسان يستفيد من بعض بذور النباتات للتغذيه، بينما بعضها غير قابل للأكل، و لكن له فوائد اخرى كتغذيه

ص: ١٧٧

١ - ١) - وردت احتمالات عديده في إعراب الآيه، و لكن أوضحها على ما يبدو، هو كون «آيه لهم» خبر مقدّم و «الأرض الميتة» مبتدأ مؤخر، و «أحيينا» جمله استثنافيه و هي توضيح و تفسير للجمله السابقه.

الحيوانات، و صناعه الأصباغ، و الأدوية، و الأمور الأخرى التى لها أهميته فى حياه الإنسان.

و من جانب آخر فإنّ تقديم «منه» على «يأكلون» و الذى يدلّ عادة على الحصر، هو لبيان أنّ أكثر و أفضل تغذيه للإنسان هى من المواد النباتيه إلى درجه أنّه يمكن القول أنّ جميع غذاء الإنسان يتشكّل منها.

الآيه التاليه توضيح و شرح للآيه الاولى من هذه الآيات، فهى توضّح كيفيه إحياء الأرض الميتة، فتقول: وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ .

كان الحديث فى الآيه الاولى عن الحبوب الغذائيه، بينما الحديث هنا عن الفواكه المقويّه و المغذّيه و التى يعدّ «التمر» و «العنب» أبرز و أهمّ نماذجها حيث يعتبر كلّ منهما غذاء كاملا.

و كما أشرنا سابقا فقد دلّت دراسات العلماء و بحوثهم على أنّ هاتين الفاكهتين تحتويان على الفيتامينات و المواد الحياتيه المختلفه و اللازمه لجسم الإنسان، إضافة إلى أنّ هاتين الفاكهتين يمكن حفظهما و تناولهما طازجتين أو مجفّفتين على مدار العام.

«أعناب» جمع «عنب» و «النخيل» - كما يقول الراغب فى مفرداته - جمعه «نخل» و لكن باختلاف بين الكلمتين، (فالعنب) يطلق على الثمره نفسها، و من النادر إطلاقه على شجره العنب و لكن «النخل» اسم للشجره، و (الثمره) يقال له «الرطب» أو «التمر».

يرى البعض بأنّ هذا الاختلاف فى التعبير عن الفاكهتين بالإشاره إلى الشجره مرّه و إلى الثمره مرّه اخرى، بسبب أنّ النخله - و كما هو معروف - كلّها مفيده و قابله للاستفاده، جذعها و جريدها و سعفها و أخيرا ثمرها، فى حين أنّ شجره (الكرم) غالبا ما يستفاد من «عنبها» فقط، و أمّا ساقها و أوراقها فلا يستفاد منها إلّا

و أما ما ورد من ذكر الاثنتين بصيغه الجمع، فيبدو أنه إشاره إلى الأنواع المختلفه لكلّ منهما، إذ أنّ كلا منهما لها عشرات الأنواع تختلف في أشكالها و خصائصها و مذاقها.

و الجدير بالملاحظه-أيضا- أنّ الحديث في هذه الآيه تعرّض إلى إحياء الأرض الميتة دون أن يقرن ذلك بذكر المطر الذى عادة ما يذكر في مثل هذه المواضع، و ورد الحديث هنا عن «العيون»، و ذلك لأنّ المطر كاف لزراعه الكثير من المحاصيل و النباتات، في حين أنّ الأشجار المثمره تحتاج إلى الماء الجارى أيضا.

«فَجَرْنَا» من مادّه «تفجير» و هو شقّ الشىء شقًا واسعًا، و من هنا استخدمت الكلمه للتعبير عن العيون، لأنّها تشقّ الأرض و تدفع ماءها إلى سطح الأرض (١).

الآيه التاليه تشرح و توضّح الهدف من خلق تلك الأشجار المباركه المثمره فتقول: إنّ الغرض من خلقها لكى يأكلوا من ثمارها دون حاجه إلى بذل جهد في ذلك و دون تدخّل الإنسان في صناعتها.. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ .

نعم، ثمار على شكل غذاء كامل تظهر على أغصان أشجارها، قابله للأكل بمجرد جنيها من أغصانها، و لا تحتاج إلى طبخ أو أيه تغييرات اخرى، ذلك إشاره إلى غايه لطف الله بهذا الإنسان و كرمه.

حتّى أنّ ذلك الطعام الجاهز اللذيذ، يمكن تجميعه و تعليبه لكى يحفظ لمده طويله بدون أن ينقص من قيمته الغذائيه شىء، على خلاف الأغذيه التى يصنعها الإنسان من المواد الطبيعیه التى أعطاهها الله له، فهى غالبا ما تكون سريعه التلف

١ - ١) - من الجدير بالملاحظه أنّ الصيغه الثلاثيه المجرده لها «فجر» بمعنى (الشق) و هنا استخدمت على وزن «تفعيل» بمعنى التكثر و التشديد.

و يوجد تفسير آخر أيضا لمعنى الآيه، و هو جدير بالنظر، و ذلك أنّ القرآن الكريم يريد الإشارة إلى الفواكه التى يمكن الاستفادة منها دون إدخال تغيير عليها، و كذلك إلى أنواع الأغذية المختلفه التى يمكن الحصول عليها من تلك الفواكه، بالقيام ببعض الأمور (فى التفسير الأول تكون (ما) فى الجملة نافية، بينما فى التفسير الثانى تكون موصوله).

و على كلّ حال، فالهدف هو تحريك حسّ تشخيص الحقّ، و الشكر فى الإنسان، لكى يضعوا أقدامهم على أوّل طريق معرفه الله عن طريق الشكر، لأنّ شكر المنعم أوّل قدم فى طريق معرفته.

الآيه الأخيره من الآيات موضع البحث، تتحدّث عن تسييح الله و تنزيهه، و تشجب شرك المشركين الذى ذكرته الآيات السابقه، و توضّح طريق التوحيد و عباده الأحد الصمد للجميع فتقول: **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (١)**.

نعم، فالله الذى خلق كلّ هذه الأزواج فى هذا العالم الواسع، لا حدّ لعلمه و قدرته و منزه عن كلّ نقص و عيب، لذا فلا شريك و لا شبيه له، و إن عدّ بعض الناس الحجر و الخشب الجامد الميت نظائر له، فإنّ تلك النسبه الباطله لا تنقص من مقام كبريائه شيئا.

بديهى أنّ الله سبحانه و تعالى ليس بحاجة إلى أن يسبّحه أحد، إنّما ذلك تعليم للعباد و منهاج عملى من أجل طى طريق التكامل.

ص : ١٨٠

١ - ١) - «سبحان» على قول جماعه من المفسّرين و علماء الأدب هى «علم» للتسييح، لأنّ العلم (الاسم الخاصّ) يكون أحيانا للأشخاص فيسمّى «علم الشخص»، و أحيانا للجنس فيسمّى «علم الجنس»، و أحيانا للمعنى فيسمّى «علم المعنى» بناء على هذا فمفهوم «سبحان» هو تنزيه و تقديس الله من كلّ عيب و نقص، تنزيها يتناسب و عظمه الخالق، و العلم لا- يضاف إلّا- فى «علم المعنى». قال البعض أيضا أنّ «سبحان» لها معنى مصدرى، و مفعول مطلق لفعل مقدّر، و فى آيه صورته فهى تبيّن التنزيه الإلهى بأوكد وجه.

أما ما هو المقصود من «أزواج» هنا، فللمفسرين أقوال كثيرة.

ما هو مسلّم به أنّ «أزواج» جمع «زوج» عادة، تطلق على الذكر و الأنثى من أى نوع، سواء كان ذلك فى عالم الحيوان أو فى غيره، ثمّ شمل المعنى كلّ إثنين يقتربان مع بعضهما البعض أو حتّى إذا تضادّا، حتّى الغرفتين المتشابهتين فى البيت يقال لهما زوج، ودفتى الباب و هكذا، فالمتصوّر أنّ لكلّ مخلوق زوج.

على كلّ حال فليس من المستبعد أن يكون المعنى المقصود هنا هو المعنى الخاصّ، أى جنس المذكر و المؤنث، و القرآن الكريم يخبر من خلال هذه الآيه عن وجود ظاهره الزوجيه فى جميع عوالم النبات و الإنسان و الموجودات الاخرى التى لم يطلع عليها البشر.

هذه الموجودات يمكن أن تكون النباتات التى لم تحدّد سعه دائره الزوجيه فيها حتّى الآن. أو إشاره إلى الحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار، و هذه الحقيقه لم تعرف سابقا، و ما عرف منها فى العصر الحاضر إلّا جانب يسير.

أو أنّها إشاره إلى موجودات اخرى تقطن كواكب اخرى فى هذا الكون المترامى. أو موجودات حيّه لا ترى بالعين المجرّده، و إن كان العلماء فى وقتنا الحاضر يشيرون إلى أنّ ليس فى تلك الموجودات الحيه ذكر و أنثى، و لكن عالم هذه الموجودات الحيه غامض و معقّد إلى درجه أنّ العلم البشرى حتّى الآن لم يلج كلّ غوامضها و مكوناتها.

و حتّى وجود الزوجيه فى عالم النبات - كما قلنا - لم يكن معلوما منها فى عصر نزول القرآن سوى بعض الحالات المحدوده كما فى النخل و أمثاله، و قد كشف القرآن الكريم الستار عن ذلك كلّّه، و قد ثبت أخيرا من البحوث العلميه أنّ الزوجيه قضيه عامّه و شامله فى عالم النبات.

كذلك احتمل أيضا أن تكون قضيه الزوجيه هنا إشاره إلى وجود البروتونات الموجبه و الالكترونات السالبه فى الذره التى تعتبر الأساس فى تشكيل كلّ



الموجودات فى عالم المادّه و لم يكن الإنسان مّطلعا على هذه الحقيقه و الزوجيه قبل تفجير الذرّه، و لكن بعد ذلك ثبت علميا وجود الأزواج السالبه و الموجبه فى نواه الذرّه و الالكترونات التى تدور حولها.

البعض اعتبر «الزوجيه» هنا إشاره إلى تركيب الأشياء من «مادّه» و «صوره» أو «جوهر» و «عرض»، و البعض الآخر قالوا: إنّها كناية عن «الأصناف و الأنواع المختلفه» للنباتات و البشر و الحيوانات و سائر موجودات العالم.

و لكن الواضح أنّه حينما نستطيع حمل هذه الألفاظ على المعنى الحقيقى (جنس المذكر و المؤنث) و لا نجد قرينه على خلاف ذلك، فلا داعى لأن نبحت بعد ذلك عن المعانى الكنايه، و كما لا حظنا فإنّ هناك عدّه تفاسير جميله للزوجيه بالمعنى الحقيقى لها.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآيه واحده من الآيات التى توضّح محدوديه علم الإنسان، و تدلّل على أنّ هناك الكثير من الحقائق الخافيه علينا و عن معلوماتنا حتّى الآن.

\*\*\*

اشاره

وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

التفسير

هذه الآيات تتحدث في قسم آخر من آثار عظمه الله في عالم الوجود، و حلقة اخرى من حلقات التوحيد التي مرّ منها في الآيات السابقة ما يتعلق بالمعاد و إحياء الأرض الميتة، و نمو النباتات و الأشجار.

تقول الآية الكريمة الاولى وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ .

«نسلخ» من مادّة (سلخ) و تعنى في الأصل نزع جلد الحيوان، و التعبير في الآية تعبير لطيف، فكأنّ نور النهار لباس أبيض ألبسه جسد الليل، ينزع عنه إذا حلّ الغروب ليبدو لونه الذاتى، و التأمل في هذا التعبير يوضّح هذه الحقيقة، و هى أنّ الظلام هو الطبعه الأصل للكرة الأرضيه، و أنّ النور و الإضاءة صفة عارضه عليها

تأتيها من مصدر آخر، فهو كاللباس الذي يرتدى، وحينما يخلع ذلك الثوب، يظهر اللون الطبيعي للبدن (١).

هنا يشير القرآن الكريم إلى ظلمه الليل، وكأنه يريد-بعد أن تعرّض إلى كيفية إحياء الأرض الميتة كآية من آيات الله في الآيات السابقة-أن يعرض نموذجا عن الموت بعد الحياه من خلال مسأله تبديل النور بظلمه الليل.

على كلّ حال، فعند ما يستغرق الإنسان في ظلمه الليل، ويتذكّر النور و بركاته و نشاطه و منبعه يتعرّف-بتأمل يسير-على خالق النور و الظلام.

الآيه التي بعدها تتعرّض إلى النور و الإضاءة و تذكر الشمس فتقول:

وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا

(٢)

هذه الآيه تبيّن بوضوح حركة الشمس بشكل مستمر، أمّا ما هو المقصود من تلك الحركة؟ فللمفسرين أقوال متعدده:

قال بعضهم: إنّ ذلك إشاره إلى حركة الشمس الظاهريه حول الأرض، تلك الحركة التي ستستمر إلى آخر عمر العالم الذي هو نهايه عمر الشمس ذاتها.

و قال آخرون: إنّ إشاره إلى ميل الشمس في الصيف و الشتاء نحو الشمال و الجنوب على التوالي، لأننا نعلم بأنّ الشمس تميل عن خطّ اعتدالها في بدء الربيع بطرف الشمال، لتدخل في مدار (٢٣) درجه شمالا، و تعود مع بدء الصيف قليلا قليلا حتّى تنتهي إلى خطّ اعتدالها عند بدايه الخريف و تستمر على خطّ سيرها ذلك باتجاه الجنوب حتّى بدء الشتاء، و من بدء الشتاء تتحرّك باتجاه خطّ

ص: ١٨٤

١ - ١) - الراغب في «المفردات» يقول: السلخ نزع جلد الحيوان، يقال سلخته فانسلخ، و عنه استعير سلخت درعه نزعته، و سلخ الشهر و انسلخ، و لكن بعض المفسرين يقولون: إنّ ذلك في حاله تعدّي «سلخ» بحرف الجرّ «عن» و إذا تعدّى بالحرف «من» يكون بمعنى الإخراج، و لكن ليس من دليل واضح في كتب اللغه على هذا التفاوت -على ما نعلم- و إن كان «لسان العرب» يقول: «انسلخ النهار من الليل خرج منه خروجا» و الظاهر أنّ هذا مأخوذ من المعنى الأوّل.

٢ - ٢) - هذه الجملة لها إعرابان، فإمّا أن تكون معطوفه على «الليل» و التقدير «و آيه لهم الشمس»، و إمّا أن تكون مبتدأ و خبر، فالشمس مبتدأ و (تجري) خبر، و قد اخترنا الإعراب الأوّل.

اعتدالها حتّى تبلغ ذلك عند بدء الربيع. و بديهي أنّ جميع تلك الحركات فى الواقع ناجمه عن حركه الأرض حول الشمس و انحرافها عن خطّ مدارها، و ان كانت ظاهرا تبدو و كأنّها حركه الشمس.

و آخرون اعتبروا الآيه إشاره إلى حركه الشمس الموضوعيه بالدوران حول نفسها، حيث أثبتت دراسات العلماء بشكل قطعى أنّ الشمس تدور حول نفسها (1).

و آخر و أحدث التفاسير التى ظهرت بخصوص هذه الآيه، هو ما كشفه العلماء أخيرا من حركه الشمس مع منظومتها باتجاه معين ضمن المجره التى تكون المجموعه الشمسيه جزءا منها، و قيل أنّ حركتها باتجاه نجم بعيد جدّا أطلقوا عليه اسم «وجا».

كلّ هذه المعانى المشار إليها لا- تتضارب فيما بينها، و يمكن أن تكون جملة «تجرى» إشاره إلى جميع تلك المعانى و معانى اخرى لم يصل العلم إلى كشفها، و سوف يتمّ كشفها فى المستقبل.

و على كلّ حال، فإنّ حركه كوكب الشمس الذى يعادل مليون و مائتى الف مرّه حجم الأرض، بحركه دقيقه و منظمه فى هذا الفضاء اللامتناهى، ليس مقدورا لغير الله سبحانه الذى تفوق قدرته كلّ قدره و بعلمه اللامتناهى، لذا فإنّ الآيه تضيف فى آخرها

ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

أمّا آخر ما قيل فى تفسير هذه الآيه فهو أنّ تعبير الآيه يشير إلى نظام السنّه الشمسيه الناشئ عن حركه الشمس عبر الأبراج المختلفه، ذلك النظام الذى يعطى لحياه الإنسان نظاما و برنامجا معينًا يؤدّى إلى تنظيم حياته من مختلف النواحي.

لذا فإنّ الآيه التاليه تتحدّث عن حركه القمر و منازلها التى تؤدّى إلى تنظيم أيام

ص: ١٨٥

---

(١- ١) -طبق هذا التفسير فإنّ (اللام) فى «لمستقر لها» بمعنى «فى» و يكون التقدير «فى مستقر لها».

الشهر، و ذلك لأجل تكميل البحث السابق، فتقول الآية: وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ لَعَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ .

المقصود ب(المنازل) تلك المستويات الثمانية و العشرون التى يطويها القمر قبل الدخول فى «المحاق» و الظلام المطلق. لأن القمر يمكن رؤيته فى السماء إلى اليوم الثامن و العشرين، و لكنّه يكون فى ذلك اليوم هلالاً ضعيفاً مائلاً لونه إلى الاصفرار، و يكون نوره قليلاً و شعاعه ضعيفاً جداً، و فى الليلتين الباقيتين من الثلاثين يوماً تنعدم رؤيته تماماً و يقال: إنّه فى دور(المحاق)، ذلك إذا كان الشهر ثلاثين يوماً، أمّا إذا كان تسعة و عشرين يوماً، فإنّ نفس هذا الترتيب سيبدأ من الليلة السابعة و العشرين ليدخل بعدها القمر فى(المحاق).

تلك المنازل محسوبه بدقّه كامله، بحيث أنّ المنجمين منذ مئات السنين يستطيعون أن يتوقعوا تلك المنازل ضمن حساباتهم الدقيقه.

هذا النظام العجيب ينظّم حياه الإنسان من جهه، و من جهه اخرى فهو تقويم سماوى طبيعى لا يحتاج إلى تعلّم القراءه و الكتابه لمتابعته. بحيث أنّ أى إنسان يستطيع بقليل من الدقّه و الدرايه فى أوضاع القمر خلال الليالى المختلفه..

يستطيع بنظره واحده أن يحدّد بدقّه أو بشكل تقريبي أيّه ليله هو فيها.

فى الليله الاولى يظهر الهلال الضعيف و طرفاه إلى الأعلى، و يزداد حجمه ليله بعد ليله حتىّ الليله السابعة حيث تكتمل نصف دائره القمر، ثمّ تستمر الزيادة حتىّ تكتمل الدائره الكامله للقمر فى الليله الرابعه عشره و يسمّى حينئذ «بدرًا». ثمّ يبدأ بالتناقص تدريجياً حتىّ الليله الثامنه و العشرين حيث يصبح هلالاً باهتاً يشير طرفاه إلى الأسفل.

نعم، فإنّ النظم يشكّل أساس حياه الإنسان، و النظم بدون التعيين الدقيق للزمن ليس ممكناً، لذا فإنّ الله سبحانه و تعالى قد وضع لنا هذا التقويم الدقيق للشهور و السنين فى كبد السماء.

بعد استعراضنا لأشكال القمر و منازلہ يتضح تماما معنى الجملة التاليہ حتىَّ لَعَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (١).

و فى الحقيقة فإنَّ الشبه بين العرجون و الهلال من جوانب عديدة: من ناحیة الشكل الهلالی، و من ناحیة اللون الأصفر، و الذبول، و إشاره الأطراف إلى الأسفل، و كونه فى وسط دائره مظلمه تكون فى حاله العرجون منسوبه إلى سعف النخل الأخضر، و بالنسبه للهلال منسوبه إلى السماء المظلمه.

و الوصف ب(القديم) إشاره إلى كون العرجون عتيقا، فكلما مرَّ عليه زمن و تقادم أكثر أصبح ضعيفا و ذابلا و اصفرَّ لونه و أصبح يشبه الهلال كثيرا قبل دخوله المحاق.

و سبحانه الله فقد تضمَّن تعبير واحد قصير كلَّ تلك الظرافه و الجمال؟ الآيه الأخيره من هذه الآيات، تتحدَّث عن ثبات و دوام ذلك النظم فى السنين و الشهور، و النهار و الليل، فقد وضع الله سبحانه و تعالى لها نظاما و برنامجا لا يقع بسببه أدنى اضطراب أو اختلال فى وضعها و حركتها، و بدا ثبت تاريخ البشر و انتظم بشكل كامل، تقول الآيه: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

من المعلوم أنَّ الشمس تطوى فى دورانها خلال العام الأبراج الإثنى عشر، فى حين أنَّ القمر يطوى منازلہ خلال شهر واحد، و عليه فحركة القمر أسرع من حركة الشمس فى مدارها اثنتى عشره مرَّه، لذا فإنَّ الآيه تقول بأنَّ الشمس بحركتها لا يمكنها أن تدرك القمر فى حركته فتقطع فى شهر واحد ما تقطعه فى سنه واحده.

و بدا يختل النظام السنوى لها.

ص: ١٨٧

١-١) - «عرجون» كما قال أغلب المفسرين و أهل اللغه: من الانعراج و هو الاعوجاج و الانعطاف، و عليه فالنون زائده و هو على وزن فعلون، و يعتقد آخرون أنه مأخوذ من «عرجن» فالنون ليست زائده، و بمعنى: أصل عنقود الرطب المتصل بالنخله، و توضيح ذلك أنَّ الرطب يظهر على شكل عنقود من النخله، و أصل ذلك العنقود يكون على شكل مقوَّس أصفر اللون يبقى معلقا فى النخله، و «قديم»: بمعنى العتيق الذى مضى زمنه.

كما أنّ الليل لا يتقدّم على النهار، بحيث يدخل جزء منه في النهار، فيختلّ النظام الموجود، بل إنّهما -على مدى ملايين السنين- ثابتان على مسيرهما دون أدنى تغيير.

يتّضح ممّا قلنا أنّ المقصود من حركة الشمس في هذا البحث، هي الحركة بحسب حسّنا بها، والملفت للنظر هنا، هو أنّ هذا التعبير عن حركة الشمس ظلّ يستعمل حتّى بعد أن ثبت للجميع بأنّ الشمس هي المركز الثابت لحركة الأرض حولها، فمثلاً يقال: إنّ الشمس قد تحوّلت إلى برج الحمل، أو يقال: وصلت الشمس إلى دائرة نصف النهار، أو أنّ الشمس بلغت الميل الكامل (الميل الكامل هو بلوغ الشمس إلى أقصى نقطه ارتفاع لها في نصف الكره الأرضيه الشمالي في بدايه الصيف أو بالعكس أدنى نقطه انخفاض في بدايه الشتاء).

هذه التعبيرات تدلّل دوماً على أنّه حتّى بعد أن تمّ الكشف عن دوران الأرض حول الشمس و ثبات الأخيره ظلّت تستخدم، لأنّ النظر الحسيّ يستشعر حركة الشمس و ثبات الأرض، و من هنا تستعمل هذه التعبيرات، و على هذا أيضا يكون قوله تعالى: وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ .

كذلك يحتمل أن يكون المقصود من (السباحه) هنا حركة الشمس في فلکها مع المنظومه الشمسيه و المجرّه التي نحن فيها، حيث أنّ الثابت علمياً حالياً أنّ المنظومه الشمسيه التي نعيش فيها جزء من مجرّه عظيمه هي بدورها في حاله دوران. إذ أنّ «فلک» كما يقول أرباب اللغه بمعنى: بروز و استداره ثدى البنت، ثمّ أطلقت على القطعه المدوّره من الأرض أو الأشياء المدوّره الاخرى أيضاً، و منه اطلق على مسير الكواكب الدوراني.

جمله كُـلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ في إعتقاد الكثير من المفسّرين، إشاره إلى كلّ من الشمس و القمر و النجوم الاخرى التي تتخذ لنفسها مسارات و مدارات، و إن لم يرد ذكر النجوم في الآيه، و لكن بملاحظه ذكر «الليل» و اقتران ذكر النجوم مع

القمر و الشمس، لا يستبعد المعنى المذكور، خاصه و أن «يسبحون» ورد بصيغه الجمع.

و كذلك يحتمل أن تكون الجملة إشاره إلى كل من الشمس و القمر و الليل و النهار، لأنّ كلا- من الليل و النهار له مدار خاص، و يدور حول الأرض بدقه، فالظلام يغطى نصف الكره الأرضيه دوما، و النور يغطى النصف الآخر منها، و هما يتبادلان المواضع خلال أربع و عشرين ساعه و يتّمان دوره كامله حول الأرض.

«يسبحون» من ماده «سباحه» و هى كما يقول «الراغب» فى المفردات: المرّ السريع فى الماء و الهواء. و استعير لحرکه النجوم فى الفلك و التسبيح تنزيه الله تعالى، و أصله المرّ السريع فى عباده الله! و لذا فإنّها فى الآية إشاره إلى الحرکه السريعه للأجرام السماويه، و الآية تشبهها بالموجودات العاقله المستمره فى دورانها، و قد ثبت حاليا أنّ الأجرام السماويه تنطلق بسرعه هائله فى الفضاء.

\*\*\*

بحوث

إشارة

### ١- حرکه الشمس (الدورانيه) و (الجريانيه)

«الدوران» لغه يطلق على الحرکه المغزليه، فى حال أنّ «الجريان» يطلق على الحرکه الطويله، و الملفت للنظر أنّ الآيات أعلاه، نسبت الحرکتين إلى الشمس، فقالت: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي ... وَ كُلُّ فِى فَلَکٍ يَسْبِحُونَ .

كانت المحافل العلميه أيام نزول الآيه متمسكه بنظريه «ببليموس» التى كانت تقول بأنّ الأجرام السماويه ليس فيها حرکه دورانيه، بل إنّ باطن الأفلاك التى تتكوّن من أجسام بلوريه متراكمه على بعضها البعض كتراكم طبقات البصله و ثابتة، و حرکتها تتبع حرکه أفلاكها، و عليه فلم يكن فى تلك الأيام معنى لا لجريان الشمس و لا غيره.

ص: ١٨٩



أمّا بعد أن تداعت الاسس التى تقوم عليها فرضيه بطليموس فى ضوء الاكتشافات الجديده فى القرون الأخيره، و تحزرت الأجرام السماويه من قيد الأفلاك البلوريه، فقد قويت نظريه كون الشمس هى مركز المنظومه الشمسيه، و هى ثابتة و جميع المنظومه الشمسيه تدور حولها.

هنا أيضا لم تكن تعبيرات الآيات أعلامه مفهومه فيما يتعلّق بحركه الشمس الطويله و الدورانيه حتّى أثبت العلم بتطوّره عدّه حركات للشمس فى العقود الأخيره. و هى:

حركه الشمس الموضوعيه حول نفسها.

حركه الشمس الطويله مع المنظومه الشمسيه باتجاه نقطه محدّده فى السماء.

و حركتها الدورانيه مع المجزّه التى تتبعها و بدأ ثبتت معجزه علميه اخرى للقرآن.

و لتوضيح هذه المسأله نورد ما ورد فى إحدى دوائر المعارف حول حركه الشمس:

للشمس حركه ظاهريه و اخرى واقعيه، و تشترك الشمس فى الحركه الظاهريه -اليوميه- فهى تشرق من مشرق نصف الكره الأرضى الذى نعيش فيه، و تمرّ فى طرف الجنوب من نصف النهار ثمّ تغرب من المغرب، و عبورها من نصف النهار يشخّص الظهر الحقيقى -الزوال-.

و للشمس أيضا حركه ظاهريه اخرى -سنويه- حول الأرض بحيث أنّها تقترب من المشرق درجه واحده كلّ يوم، و فى هذه الحركه تمرّ الشمس مقابل الأبراج مرّه واحده كلّ عام، و مدار هذه الحركه يقع على صفحته «دائره البروج» و لهذه الحركه أهميته عظمى فى علم الفلك، فظاهره «الاعتدالين» و «الانقلاب» و «الميل الكلى» كلّها مرتبطه بهذا العلم، و على أساس ذلك يحسب العام الشمسى.

علاوه على هذه الحركات الظاهريه فإنّ للشمس حركه دورانيه فى المجزّه،

فالشمس تنطلق بسرعه دورانيه فى الفضاء تعادل مليون و مائه و ثلاثين ألف كيلومتر فى الساعه!! و فى داخل المجزّه فهى ليست ثابتة أيضا، بل إنها أيضا تدور بسرعه تقارب إثنين و سبعين الف كيلومتر فى الساعه ضمن المجموعه النجميه المسّماه «الجاثى على ركبته» (١).

و عدم علمنا بتلك الحركه السريعه للشمس هو بعد الأجرام السماويه، و الذى هو المانع من تشخيص تلك الحركه الموضعيه أيضا.

دوره الحركه الموضعيه للشمس على محورها تستغرق حدود الخمسه و عشرين يوما بلياليها (٢).

## ٢- تعبير «تدرك» و «سابق»

إنّ التعبيرات القرآنيه استعملت بدقّه متناهيه لا يمكن الإحاطه بجميع أبعادها.

ففى الآيات أعلاه حينما تتحدّث عن الحركه الظاهريه للقمر و الشمس خلال المسيره الشهريه و السنويه تقول: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ. إذ أنّ القمر ينهى مسيرته فى شهر واحد بينما الشمس فى عام كامل.

أمّا حينما تحدّثت عن الليل و النهار قالت: وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ لَعَدَمِ وجود فاصله بينهما و لتعاقبهما. فالتعابير غايه فى الدقّه.

## ٣- نظام النور و الظلام فى حياه البشر:

تعرّضت الآيات أعلاه إلى موضوعين من أهمّ المواضيع المتعلّقه بحياه البشر.

ص: ١٩١

١ - ١) - «الجاثى على ركبته»: مجموعه من النجوم التى تتشاكل فيما بينها لترسم صورته شخص جاث على ركبته، و منه أخذت التسميه.

٢ - ٢) - أى أنّ الشمس فى كلّ خمس و عشرين يوما من أيامنا تدور دوره واحده حول نفسها، و قد شخصت هذه المسأله من مراقبه العلماء للبقع الموجوده على سطح الشمس، فقد لوحظ أنّها تتبادل مواقعها ثمّ تعود كما كانت خلال هذه المدّه.

على أنهما آيتان من آيات الله و هما مسأله ظلمه الليل و مسأله الشمس و نورها.

قلنا سابقا أنّ النور من أطف و أكثر موجودات العالم المادى بركه. و ليس لإضاءتنا و معيشتنا فقط فكلّ حركه و نشاط مرتبط بنور الشمس، نزول قطرات المطر، نمو النباتات، تفتّيح البراعم، نضوج الثمار و الفواكه، خريير الجداول، تلوين مائده الطعام بأنواع المواد الغذائيه، و حتّى حركه عجله المصانع العظيمه، و توليد الطاقه الكهربائيه، و أنواع المنتجات الصناعيه، كلّها تعود فى أصلها إلى هذا المنبع العظيم للطاقه، أى نور الشمس.

و خلاصه القول فإنّ جميع الطاقات على سطح الكره الأرضيه- عدا الطاقه الناجمه عن تفجير الذرّه- جميعها تستمدّ وجودها من نور الشمس، و لو لا الأخير لخيّم الصمت و الموت على كلّ مكان.

ظلمه الليل مع أنّها تذكر بالموت و الفناء، فإنّها تعدّ من الأمور الحياتيه الهامه فى حياه البشر، لأنّها تعدل نور الشمس و تؤثر عميقا فى راحه جسم و روح الإنسان، و المنع من المخاطر الناجمه عن تسلّط أشعه الشمس بشكل متواصل و مستمر، بحيث لو لم يكن الليل عقيب النهار لارتفعت درجه الحراره على سطح الأرض إلى درجه أنّ الأشياء جميعا تأخذ بالاشتعال و الاحتراق، كذلك فى القمر حيث الليالى و الأيام طويله (كلّ ليله هناك تعادل حوالى خمسه عشر يوما بلياليها على الأرض، كذلك الحال بالنسبه للنهار) فحراره النهار قاتله، و بروده مجمّده.

و عليه فإنّ كلا من «النور و الظلام» آيه إلهيه عظيمه.

ناهيك عن أنّ النظام المتناهى الدقه الذى يحكمهما، أدّى إلى تنظيم تأريخ حياه البشر، ذلك التأريخ الذى لو لا وجوده لتفتتت الروابط الاجتماعيه، و أصبحت الحياه بالنسبه إلى البشر أشبه بالمستحيل، و بذا فإنّ كلا من «النور و الظلام» آيتان إلهيتان من هذه الناحيه أيضا.

و الملفت للنظر هنا هو قول القرآن الكريم: **وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**. و هذا

التعبير يدلُّ على أنَّ النهار خلق قبل الليل، و الليل بعده تماما، فلو أنَّ أحدا نظر من خارج الكره الأرضيه فسيرى موجودين أسود و أبيض يدوران بشكل مرتَّب حول الأرض، و في مثل هذه الحركه الدائريه لا يمكن تصوّر القبل و البعد فيها.

و لكن إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنَّ الأرض التي نعيش عليها كانت يوما ما جزءا من الشمس، و في ذلك الوقت لم يكن سوى النهار، و لا- وجود لليل، ثمَّ بعد أن انفصلت الكره الأرضيه عن الشمس و ابتعدت تكون لها ظلٌّ مخروطي الشكل من الجهه المخالفه للشمس فكأنَّ الليل، الليل الذي أصبحت حركته بعد النهار، نعم، لو توجَّهنا لكلِّ ذلك لا تُضحت دقّه و لطافه هذا التعبير.

و كما قلنا سابقا فليس الشمس و القمر وحدهما يسبحان في هذا الفضاء المترامي، بل إنَّ الليل و النهار أيضا يسبحان حول الكره الأرضيه، و كلٌّ منهما له مدار و مسير دائري.

و قد ورد في روايات متعدده عن أهل البيت عليهم السَّلام التصريح بأنَّ الله سبحانه و تعالى خلق النهار قبل الليل.

فعن الإمام الصادق عليه السَّلام أنه قال جوابا على سؤال في حديث طويل: «نعم خلق النهار قبل الليل، و الشمس و القمر و الأرض قبل السماء» (١).

و

عن الإمام الرضا عليه السَّلام أنه قال: «فالنهار خلق قبل الليل و في قوله تعالى: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ أَى قد سبقه النهار» (٢).

و ورد نفس المعنى

عن الإمام الباقر عليه السَّلام حين قال: «إنَّ الله عزَّ و جلَّ خلق الشمس قبل القمر، و خلق النور قبل الظلمه» (٣).

\*\*\*

ص: ١٩٣

١-١) -نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٨٧، ح ٥٥.

٢-٢) -نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٨٧، ح ٥٣.

٣-٣) -نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٨٧، ح ٥٤.

اشاره

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَ إِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)

التفسير

اشاره

حركة السفن في البحار آية إلهية:

رغم أنّ بعض المفسرين أمثال القرطبي اعتبر الآية الاولى من هذه الآيات من أعقد و أصعب آيات هذه السوره، إلا أنّه و بتدقيق النظر في هذه الآيات و ربطها بالآيات السابقة، يتضح أن ليس هناك تعقيد في هذه الآيات، لأنّ الآيات السابقة تحدّثت عن دلاله قدره الباري عزّ و جلّ في خلق الشمس و القمر و الليل و النهار و كذلك الأرض و بركاتها، و في هذه الآيات التي أمامنا يتحدّث الباري عزّ و جلّ عن البحار و قسم من بركات و نعم و مواهب البحار، يعني حركة السفن التجاريه و السياحيه على سطحها.

علامه على أنّ حركة السفن في خضمّ المحيطات ليست بعيده في الشبه عن حركة الكواكب السماويه في خضمّ المحيط الفضائي.

لذا فَإِنَّ الآياتِ الكريمة تقول أُولَآ: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ .

الضمير «لهم» لا يعود فقط على مشركى مكه، بل على جميع العباد الذين أشارت لهم الآيات السابقة.

«ذريه»: كما يقول الراغب فى مفرداته، أصلها الصغار من الأولاد، وإن كان يقع على الصغار و الكبار معا عرفا، و يستعمل للواحد و الجمع.

و ما تذكره الآيه من حمل ذرياتهم و ليس هم ربّما لأنّ الأولاد هم أكثر حاجه لركوب مثل ذلك المركب السريع، بلحاظ أنّ الكبار أكثر استعدادا للسير على سواحل البحار و طى الطريق من هناك!! فضلا عن أنّ هذا التعبير أنسب لتحريك عواطفهم.

«مشحون» أى مملوء، إشاره إلى أنّ السفن لا تحملهم هم فقط، بل أموالهم و تجارتهم و أمتعتهم و ما أهمّمهم أيضا.

و ما قاله البعض من أنّ «الفلک» إشاره إلى سفينه نوح، و «ذريه» بمعنى الآباء من مادّه «ذرا» بمعنى خلق، فيبدو بعيدا، إلا إذا كان من قبيل ذكر المصداق البارز.

على كلّ حال فإنّ حركة السفن و البواخر التى هى من أهمّ و أضخم وسائل الحمل و النقل البشرى، و ما يمكنها إنجازه يعادل آلاف الأضعاف لما تستطيعه المركبات الاخرى، كلّ ذلك ناجم عن خصائص الماء و وزن الأجسام التى تصنع منها السفن، و الطاقه التى تحرّكها، سواء كانت الريح أو البخار أو الطاقه النوويه.

و كلّ هذه القوى و الطاقات التى سخّرها الله للإنسان، كلّ واحده منها و كلّها معا آيه من آيات الله سبحانه و تعالى.

و لكى لا يتوهم أنّ المركّب الذى أعطاه الله للإنسان هو السفينه فقط، تضيف الآيه التاليه قائله: وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ .

المراكب التى تسير على الأرض، أو فى الهواء و تحمّل البشر و أثقالهم.

و مع أنّ البعض فسّر هذه الآيه بخصوص «الجمال» الذي لُقّب بـ«سفينه الصحراء»، و البعض الآخر ذهب إلى شموليه الآيه لجميع الحيوانات، و البعض فسّرها بالطائرات و السفن الفضائيه التي اخترعت في عصرنا الحالى تعبير «خلقنا» يشملها بلحاظ أنّ موادها و وسائل صنعها خلقت مسبقا) و لكن إطلاق تعبير الآيه يعطى مفهوما واسعا يشمل جميع ما ذكر و كثيرا غيره.

فى بعض آيات القرآن الكريم ورد مرارا الاقتران بين «الأنعام» و «الفلك» مثل قوله تعالى: وَ جَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ زخرف-١٢، و كذلك قوله تعالى: وَ عَلَيَّهَا وَ عَلَى الْفُلُكِ تَحْمَلُونَ المؤمن-٨٠.

و لكن هذه الآيات أيضا لا تنافى عموميه مفهوم الآيه مورد البحث.

الآيه التاليه-لأجل توضيح هذه النعمه العظيمه-تعرّض لذكر الحاله الناشئه من تغيير هذه النعمه فتقول: وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَدُونَ .

فنصدّر أمرنا لموجه عظيمه فتقلب سفنهم، أو نأمر دوامه بحريه واحده ببلعهم، أو يتقاذفهم الطوفان بموجه فى كلّ اتّجاه بأمرنا، و إذا أردنا فنستطيع بسلبنا خاصّيه الماء و نظام هبوب الريح و هدوء البحر و غير ذلك أن نجعل الاضطراب صفه عامه تؤدى إلى تدمير كلّ شىء، و لكننا نحفظ هذا النظام الموجود ليستفيدوا منه. و إذا وقعت بين الحين و الحين حوادث من هذا القبيل فإنّ ذلك لينتهبوا إلى أهمّيه هذه النعمه الغامره.

«صريخ» من مادّه «صرخ» بمعنى الصياح. و «ينقدون» من مادّه «نقد» بمعنى التخليص من ورطه.

و أخيرا تضيف الآيه لتكمل الحديث فتقول: إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتَاعاً إِلَى حِينٍ .

نعم فهم لا يستطيعون النجاه بأيّ وسيله إلاّ برحمتنا و لطفنا بهم.

«حين» بمعنى «وقت» و هى فى الآيه أعلامه إشاره إلى نهايه حياه الإنسان و حلول أجله، و ذهب البعض إلى أنّها تعنى نهايه العالم بأسره.

نعم، فالأشخاص الذين ركبوا السفن أيا كان نوعها و حجمها يدركون عمق معنى هذه الآية، فإنَّ أعظم السفن في العالم تكون كالقشَّة حيال الأمواج البحريه الهائله أو الطوفانات المفجعه للمحيطات، و لو لا شمول الرحمه الإلهيه فلا سبيل إلى نجاه أحد منهم إطلاقاً.

يريد الله سبحانه و تعالى بذلك الخيط الرفيع بين الموت و الحياه أن يظهر قدرته العظيمه للإنسان، فلعلَّ الضالِّين عن سبيل الحقَّ يعودون إلى الحقَّ و يتوجَّهون إلى الله و يسلكون هذا الطريق.

\*\*\*

ص: ١٩٧



اشاره

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نَطْعَمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧)

التفسير

اشاره

الإعراض عن جميع آيات الله:

بعد أن كان الحديث في الآيات السابقه عن الآيات الإلهيه في عالم الوجود، تنتقل هذه الآيات لتتحدث عن رد فعل الكفار المعاندين في مواجهه هذه الآيات الإلهيه، و كذلك توضّح دعوه النبي صلى الله عليه و آله و سلم لهم و إنذارهم بالعذاب الإلهي الأليم.

يفتح هذا المقطع بالقول: وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١).

ص: ١٩٨

١ - ١) - «و إذا قيل لهم...» جمله شرطيه، و جزاؤها محذوف يستفاد من الآيه اللاحقه، و التقدير: «و إذا قيل لهم اتقوا... أعرضوا عنه».

للمفسرين أقوال عديدة حول ما هو معنى قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ منها: أن المقصود بـ«ما بين أيديكم» العقوبات الدنيوية التي أوردت الآيات السابقة نماذج منها، والمقصود بـ«ما خلفكم» عقوبات الآخرة، وكأنه يراد القول بأنها خلفهم ولم تأت إليهم وسوف تصل إليهم في يوم ما وتحيط بهم، والمقصود بـ«التقوى» من هذه العقوبات، هو عدم إيجاد العوامل التي تؤدى إلى وقوع هذه العقوبات، والدليل على ذلك أن التعبير بـ«اتقوا» يرد في القرآن إما عند ذكر الله سبحانه وتعالى أو عند ذكر يوم القيامة والعقوبات الإلهية، وهذان الذكران وجهان لحقيقته واحده، إذن أن الاتقاء من الله هو اتقاء من عقوباته.

وذلك دليل على أن الآية تشير إلى الاتقاء من عذاب الله ومجازاته في الدنيا وفي الآخرة.

ومن هذه التفسيرات أيضا عكس ما ورد في التفسير الأول، وهو أن «ما بين أيديكم» تعنى عقوبات الآخرة و«ما خلفكم» تعنى عذاب الدنيا، لأن الآخرة أمامنا (وهذا التفسير لا يختلف كثيرا عن الأول من حيث النتائج).

وذهب آخرون إلى أن المقصود من «بين أيديكم» الذنوب التي ارتكبت سابقا، فتكون التقوى منها بالتوبة وجبران ما تلف بواسطتها، و«ما خلفكم» الذنوب التي سترتكب لاحقا.

والبعض يرى بأن «بين أيديهم» الذنوب الظاهرة، و«ما خلفكم» الذنوب الباطنة والخفية.

وقال البعض الآخر: «ما بين أيديكم» إشارته إلى أنواع العذاب في الدنيا، و«ما خلفكم» إشارته إلى الموت (و الحال أن الموت ليس مما يتقى منه!!).

والبعض -كصاحب تفسير «في ظلال القرآن»- اعتبر هذين التعبيرين كناية عن إحاطة موجبات الغضب والعذاب الإلهي التي تحيط بالكافر من كل جانب.

و«الآلوسى» في «روح المعاني» و«الفخر الرازى» في «التفسير الكبير» كل

منهما ذكر احتمالات متعدده، ذكرنا قسما منها.

و«العلامه الطباطبائي» في «الميزان» يرى أنّ «ما بين أيديكم» الشرك و المعاصي في الحياه الدنيا، و«ما خلفكم» العذاب في الآخرة (1).  
في حين أنّ ظاهر الآيه هو أنّ كلا الإثنين من جنس واحد، و ليس بينهما سوى التفاوت الزمني، لا أنّ إحداهما إشاره إلى الشرك و الذنوب، و الاخرى إشاره إلى العقوبات الواقعه نتيجته ذلك.

على كلّ حال فأحسن تفسير لهذه الجملة هو ما ذكرناه أولاً، و آيات القرآن المختلفه شاهد على ذلك أيضاً، و هو أنّ المقصود من «ما بين أيديكم» هو عقوبات الدنيا و «ما خلفكم» عقوبا الآخرة.

الآيه التاليه تؤكد نفس المعنى و تشير إلى لجاجه هؤلاء الكفار و إعراضهم عن آيات الله و تعاليم الأنبياء، تقول الآيه الكريمه: وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ .

فلا الآيات الأنفسيه تؤثر فيهم، و لا الآفاقيه، و لا التهديد و الإنذار، و لا البشاره و التطمين بالرحمه الإلهيه، لا يتقبلون منطق العقل و لا- أمر العواطف و الفطره، فهم مبتلون بالعمى الكلى بحيث لا يتمكنون حتى من رؤيه أقرب الأشياء إليهم، و حتى أنّهم لا يفرقون بين ظلمه الليل و شمس الظهيره.

ثمّ يشخص القرآن الكريم أحد الموارد المهمه لعنادهم و إعراضهم فيقول:

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نُنْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

ذلك المنطق الضعيف الذي يتمسك به الأنانيون و البخلاء في كلّ عصر و زمان و يقولون: إنّ فلانا أصبح فقيراً بسبب عمل ارتكبه و أدى به إلى الفقر، مثلما أنّنا أغنياء بسبب عمل عملنا فشمّلنا لطف الله و رحمته، و عليه فليس فقره و لا غنا

ص: ٢٠٠

كانا بلا- حكمه. غافلين عن أنّ الدنيا إنّما هي دار إمتحان و ابتلاء، و الله سبحانه و تعالى إنّما يمتحن البعض بالفقر كما يمتحن البعض الآخر بالغنى و الثروه، و ربّما يضع الله الإنسان و في وقتين مختلفين في بوتقه الامتحان الغنى و الفقر، و ينظر هل يؤدى الأمانه حال فقره و يتمتع بمناعه الطبع و يلج مراتب الشكر اللائقه، أم أنّه يظأ كل ذلك بقدمه و يمرّ؟ و في حال الغنى هل ينفق مميّا تفضّل الله به عليه، أم لا؟ و رغم أنّ البعض قد حصر الآيه من حيث التطبيق في مجموعه خاصه كاليهود، أو المشركين في مكّه، أو جميع الملاحده الذين أنكروا الأديان الإلهيه، و لكن يبدو أنّ للآيه مفهومًا عامًا يمكن أن تكون له مصاديق في كل عصر و زمان، و إن كان مصداقها حين نزولها هم اليهود أو المشركون فتلك ذريعه عامّه يتشبّثون بها على مرّ العصور، و هي قولهم: إذا كان الله هو الرازق إذا لماذا تريدون منّا أن نعطي الفقراء من أموالنا؟ و إذا كان الله يريد أن يرى هؤلاء محرومين فلما ذا تريدون منّا إغناء من أراد الله حرمانه؟ غافلين عن أنّ نظام التكوين قد يوجب شيئًا، و يوجب نظام التشريع شيئًا غيره.

فنظام التكوين - بإرادته الله - أوجب أن تكون الأرض بجميع مواهبها و عطاياها مسخره للبشر، و أن يعطى البشر حريّه انتخاب الأعمال لطي طريق تكاملهم، و في نفس الوقت خلق الغرائز التي تتنازع الإنسان من كلّ جانب.

و نظام التشريع أوجب قوانين خاصه للسيطره على الغرائز و تهذيب النفوس، و تربيته الإنسان عن طريق الإيثار و التضحيه و التسامح و الإنفاق، و ذلك الإنسان الذي لديه الأهليه و الاستعداد لأن يكون خليفه الله في الأرض، إنّما يبلغ ذلك المقام الرفيع من هذا الطريق، فبالزكاه تطهر النفوس، و بالإنفاق ينتزع البخل من القلوب، و يتحقّق التكافؤ، و تقلّ الفواصل الطبقيه التي تفرز آلاف العلل و المفاسد في المجتمعات.

و ذلك تماما كما يقول شخص: لماذا ندرس؟ أو لماذا نعلّم غيرنا؟ فلو شاء الله

سبحانه و تعالى لأعطى العلم للجميع، فلا تكون هنالك حاجة إلى التعلّم! فهل يقبل ذلك عاقل (1)؟ جملة قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا و التي ورد التأكيد فيها على صفه الكفر، في حين يمكن أن يكتفى بالضمير، إشاره إلى أنّ هذا المنطق الخرافي و التعلّل إنّما ينبع من الكفر! و لسان حال المؤمنين بقولهم: أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ إِنْ كَانُوا عَاقِلِينَ، و إشاره إلى أنّ المالِك الأصلي في الحقيقة هو الله سبحانه و تعالى، و إن كانت تلك الأموال أمانه في أيدينا أو أيديكم لأبّام، و يا لهم من بخلاء أولئك الذين لم يكونوا حاضرين لأن يحولوا المال إلى آخرين بأمر صاحب المال؟! أمّا جملة: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فلتفسرها توجد احتمالات ثلاثة:

الأول: أنّها تتمّه ما قاله الكفّار للمؤمنين.

الثاني: أنّه كلام الله سبحانه و تعالى يخاطب به الكفّار.

الثالث: أنّه تتمّه ما قاله المؤمنون للكفّار.

و لكن التفسير الأوّل هو الأنسب، لأنّه يتّصل مباشرة بحديث الكفّار السابق، و في الحقيقة إنهم يريدون معامله المؤمنين بالمثل و نسبتهم إلى الضلال المبين.

\*\*\*

ص: ٢٠٢

١- ١) - بعض المفسّرين احتمل التفسير التالي و هو: أنّ العرب كانوا مشهورين بالضيافه في ذلك الزمان، و ما كانوا يمتنعون عن الإنفاق، و كان هدف الكفّار هو الاستهزاء بالمؤمنين الذين كانوا ينسبون الأشياء و الأمور جميعها إلى المشيئه الإلهيه، فكانوا يقولون لهم: إذا أراد الله سبحانه و تعالى أن يغني الفقراء فما الحاجه إلى إنفاقنا، و لكن يبدو أنّ التفسير الذي أوردناه هو الأنسب (راجع التبيان، و تفسير القرطبي، و روح المعاني).

اشاره

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُم يُخْضَعُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣)

التفسير

اشاره

صبيحه النشور!

بعد ذكر المنطق الأجوف و الذرائع التي تشبث بها الكفار في مسأله الإنفاق في الآيات السابقه، تتعرض هذه الآيات إلى الحديث عن استهزائهم بالقيامه، لتنسف بجواب قاطع منطقهم الفارغ حول إنكار المعاد.

مضافا إلى أنها تكمل بحوث التوحيد التي مرّت في الآيات السابقه بالبحث حول المعاد.

تقول الآية الكريمة الاولى: وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ لِهٰذَا الْوَعْدِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ . فاذا لم تستطيعوا تشخيص زمان دقيق لقيام الساعه، فمعنى هذا اَنكم لستم صادقين فى حديثكم.

الآيه التاليه ترد على هذا التساؤل المقرون بالسخرىه بجواب قاطع حازم، و تخبرهم بأن قيام الساعه ليس بالأمر المعقد أو المشكل بالنسبه إلى الله سبحانه و تعالى: مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَّاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ .

فكل ما يقع هو صيحه سماويه كافيه لأن تقبض فيها أرواح جميع المتبقيين من الناس على سطح الأرض بلحظه واحده و هم على حالهم، و تنتهى هذه الحياه المليئه بالصخب و الدعاوى و المعارك و الحروب، ليتخلف وراءها صمت مطبق، و تخلو الأرض من أى صوت أو إزعاج.

و

فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «تقوم الساعه و الرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم، و الرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم، و الرجل يليط حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم» (١).

جمله «ما ينظرون» هنا بمعنى «ما ينتظرون»، فكما يقول (الراغب) فى مفرداته «النظر تقليب البصر و البصيره لإدراك الشئ و رؤيته، و قد يراد به التأمل و الفحص، و قد يراد به المعرفه الحاصله بعد الفحص، و هو الرويّه، و النظر الانتظار».

«صيحه» صاح: رفع الصوت، و أصله تشقيق الصوت من قولهم انصاح الخشب أو الثوب إذا انشق فسمع منه صوت، و صيح الثوب كذلك، و يقال: بأرض فلان شجر قد صاح، إذا طال فتبين للناظر لطوله، و دلّ على نفسه بصوته.

«يخصّمون» من مادّه «خصم» بمعنى النزاع.

ص: ٢٠٤

---

١- ١) - مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٢٧. و ذكرت هذه الروايه بتفاوت قليل فى تفسير «القرطبي» و «روح المعاني» و غيرهما.

أمّا فيم كانوا يختصمون؟ لم تذكر الآية ذلك، ولكن من الواضح أنّ المقصود هو التخاصم على أمر الدنيا و الأمور المعيشيه الاخرى، ولكن البعض يرى: إنّه تخاصم في أمر «المعاد»، والمعنى الأوّل أنسب على ما يبدو، وإن كان اعتبار شمول الآية لكلا المعنيين، و أى نوع من النزاع و الخصومه ليس ببعيد.

و من الجدير بالملاحظه أنّ الضمائر المتعدّده فى الآية جميعها تعود على مشركى مكّه الذين كانوا يشكّكون فى أمر المعاد، و يستهزئون بذلك بقولهم: متى تقوم الساعة؟ و لكن المسلم به أنّ الآية لا تقصد أشخاص هؤلاء، بل نوعهم «نوع البشر الغافلين عن أمر المعاد» لأنّهم ماتوا و لم يسمعوا تلك الصيحه السماويه أبدا «تأمل بدقه»!! على كلّ حال، فإنّ القرآن بهذا التعبير القصير و الحازم إنّما أراد تنيبهم إلى أنّ القيامة ستأتى و بشكل غير متوقّع، و هذا أوّلا. و أما ثانيا فإنّ قيام الساعة ليس بالموضوع المعقّد بحيث يختصمون و يتنازعون فيه، فبمجرّد صيحه واحده ينتهى كلّ شيء و تنتهى الدنيا بأسرها.

لذا فهو تعالى يضيف فى الآية التاليه قائلا: **فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ** .

فى العاده فإنّ الإنسان حينما تلم به حادثه و يحسّ بعدها بقرب أجله، يحاول جاهدا أن يوصل نفسه إلى أهله و منزله و يستقرّ بين عياله، ثمّ يقوم بإنجاز بعض الأمور المعلقه، و يعهد بأبنائه أو متعلّقيه إلى من يثق به عن طريق الوصيه أو غير ذلك. و يوصى بإنجاز بعض الأمور الاخرى.

و لكن هل تترك الصيحه السماويه فرصه لأحد؟ و لو سنحت الفرصه فرضا فهل بقى أحد حيّا ليستمع الوصيه؟ أو يجتمع الأولاد مع امّهم على سرير الأب-مثلا- و يحتضنونه و يحتضنهم لكى يسلم الروح بطمأنينه؟ لا أبدا، فلا إمكان لأى من هذه



و ما نلاحظه من تنكير التوصيه فى التعبير القرآنى هنا إنّما هو إشاره إلى أنّ الفرصه لا تسنح حتّى لوصيه صغيره أيضا.

ثمّ تشير الآيات إلى مرحله اخرى،مرحله الحياه بعد الموت.فتقول: وَ نُفِّخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ .

التراب و العظام الرميم تلبس الحياه من جديد،و تنتفض من القبر بشرا سوّيا، ليحضر المحاكمه و الحساب فى تلك المحكمه العظيمه المهول،و كما أنّهم ماتوا جميعا بصيحه واحده،فبنفخه واحده يبعثون أحياء من جديد،فلا هلاكهم يشكّل عقبه أمام قدره الله سبحانه و تعالى،و لا حياتهم كذلك،تماما كما هو الحال فى جمع الجنود فى الجيوش،بنفخه بوق واحده ينهضون جميعا من فرشهم و يخرجون من خيمهم،و يقفون فى صفّ واحد،و إحياء الموتى و بعثهم بالنسبه إلى الله سبحانه بهذه البساطه و السرعه.

«أجداث»جمع «جدث»و هو القبر،و التعبير يشير بوضوح إلى أنّ للمعاد جنبه جسمانيه بالإضافة إلى جنبه الروحيه،و أنّ الجسد يعاد بناؤه جديدا من نفس المواد السابقه.

و استخدام صيغه الماضى فى الفعل «نفخ»إشاره إلى عدم وجود أدنى شكّ فى وقوع مثل هذا الأمر،و كأنّه لثباته و حتميته قد وقع فعلا.

«ينسلون»من مادّه «نسل»و النسل الانفصال عن الشىء-كما يقول الراغب فى المفردات و يضيف-يقال:نسل الوبر عن البعير و القميص عن الإنسان،و..

و منه نسل إذا عدا،و النسل الولد لكونه ناسلا عن أبيه.

و قوله تعالى: رَبِّهِمْ كَأَنَّهَا تَلْمِيحٌ إِلَىٰ أَنَّ رَبُّوبِيه و مالكيه و تربيّه الله كلّها توجب أن يكون هناك حساب و كتاب و معاد.

و على كلّ حال،فإنّه يستفاد من الآيات القرآنيه أنّ نهايه هذا العالم و بدايه

العالم الآخر يكون كلاهما على شكل حركه عنيفه و غير متوقَّعه، و سوف نتعرَّض إلى تفصيل هذا الموضوع فى تفسير الآيه (٦٨) من سوره الزمر إن شاء الله.

تضيف الآيه التاليه: **قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا، هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ .**

نعم فإنَّ المشهد مهول و مذهل إلى درجه أنَّ الإنسان ينسى جميع الخرافات و الأباطيل و لا يتمكَّن إلاَّ من الاعتراف الواضح الصريح بالحقائق، الآيه تصوِّر القبور «بالمراقده» و النهوض من القبور (بالبعث) كما

ورد فى الحديث المعروف «كما تنامون تموتون و كما تستيقظون تبعثون».

ففى البدء يستغربون انبعاثهم و يتساءلون عمن بعثهم من مرقدهم؟ و لكنهم يلتفتون بسرعته و يتذكرون بأنَّ أنبياء الله الصادقين، و عدوهم بمثل هذا اليوم، فيجيبون أنفسهم قائلين: **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** و لكن و أسفاه إننا كنا نستهزئ بكلِّ ذلك!! و عليه فإنَّ هذه الجملة هى بقيه حديث هؤلاء المتكبرين الكفره بالمعاد و البعث، و لكن البعض ذهب إلى أنَّ حديث الملائكه أو المؤمنين، و ذلك على ما يبدو و خلاف ظاهر الآيه، و لا داعى و لا ضروره له، لأنَّ اعتراف الكفار و المنكرين للمعاد فى ذلك اليوم لا ينحصر بهذه الآيه، ففى الآيه (٩٧) من سوره الأنبياء **وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ .**

و على كلِّ حال، فإنَّ التعبير ب«مرقد» (١) يوضِّح أنَّهم فى عالم البرزخ كانوا بحاله شبيهه بالنوم العميق، و كما ذكرنا فى تفسير الآيه (١٠٠) من سوره «المؤمنون»، فإنَّ البرزخ بالنسبه إلى أكثر الناس الذين هم على الوسط من الإيمان أو الكفر هو حاله شبيهه بالنوم، و فى حال المؤمنين أصحاب المقامات

ص: ٢٠٧

(١- ١) - يأتى تاره بمعنى اسم مكان، و اخرى اسم للنوم، أى مصدر ميمى.

الرفيعه، أو الكفار الموعلين فى الكفر و الجحود فإنّ البرزخ بالنسبه إليهم عالم واضح المعالم، و هم فيه أيقاظ يهناون فى النعيم أو يصطرخون فى العذاب.

احتمل بعضهم أيضا أنّ هول و دهشه القيامة شديدان إلى درجه أنّ العذاب فى البرزخ يكون شبه النوم بالنسبه إلى ما يرونه فى القيامة.

ثمّ تقول الآيه لبيان سرعه النفخه: **إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ .**

و عليه فإحياء الموتى و بعثهم من القبور و إحضارهم فى محكمه العدل الإلهى لا- يحتاج إلى مزيد وقت، كما كان الأمر عند هلاكهم، فالصيحه الاولى للموت، و الصيحه الثانيه للحياه و الحضور فى محكمه العدل الإلهى.

و استخدام تعبير «الصيحه» و التأكيد عليها ب«واحد» و كذلك التعبير ب«إذا» فى مثل هذه الموارد، إنّما هو للإشاره إلى وقوع غير المتوقع، و التعبير ب هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ بصيغه الجمله الاسميه دليل على الوقوع السريع لهذا المقطع من القيامة.

و اللهجه الحازمه لهذه الآيات تترك أعمق الأثر فى القلوب، و كأن هذه الصيحه تقول: يا أيها الناس النائمون، أيتها الأتربه المتناثره، أيتها العظام المهترئه! انهضوا .. انهضوا و استعدّوا للحساب و الجزاء... فما أجمل الآيات القرآنيه، و ما أروع إنذاراتها المعبره!!

اشاره

فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِرُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨)

التفسير

اشاره

أصحاب الجنة فاكهون!

هنا يبدأ البحث حول كيفية الحساب في المحشر، ثم ينتقل في الختام إلى تفصيل وضع المؤمنين الصالحاء و الكفار الطالحين، فتقول الآية الكريمة الاولى:

فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَّمُ نَفْسٌ شَيْئًا

فلا ينقص من أجر و ثواب أحد شيئاً، و لا يزداد على عقوبه أحد شيئاً، و لن يكون هنالك أدنى ظلم أو اضطهاد لأحد حتى بمقدار رأس الإبره.

ثم تنتقل الآية لتوضح تلك الحقيقه و تعطى دليلاً حياً عليها فتقول: وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

إن ظاهر الآية- و من دون تقدير مضمّر- يهدف إلى القول بأنّ جزاءكم جميعاً

هو نفس أعمالكم، فأى عداله أفضل و أعلى من هذه العداله؟! و بعباره اخرى: فإن الأعمال الحسنه و السيئه التى قمتم بها فى هذه الدنيا سترافقكم فى ذلك العالم أيضا، و نفس تلك الأعمال ستتجسد هناك و ترافقكم فى جميع مراحل الآخرة، فى المحشر و بعد نهايه الحساب.

فهل أن تسليم حاصل عمل إنسان إليه أمر مخالف للعداله؟ و هل أن تجسيد الأعمال و قرننها بعاملها ظلم؟ و من هنا يتضح أن لا معنى للظلم أساسا فى مشهد يوم القيامة، و إذا كان يحدث فى الدنيا بين البشر أن تتحقق العداله حيناً و يقع الظلم أحيانا كثيره، فذلك لعدم إمكان ربط الأعمال بفاعليها.

جمع من المفسرين تصوروا أن الجملة الأخيره أعلاه تتحدث عن الكفار و المسيئين الذين سيرون عقابا على قدر أعمالهم، دون أن تشمل المؤمنين، بلحاظ أن الله سبحانه و تعالى قد جزاهم و أثابهم بأضعاف ما يعادل أعمالهم.

و لكن بملاحظه ما يلى ينحل هذا الاشتباه، و هو أن الحديث هنا هو حديث عن العداله فى الثواب و العقاب و أخذ الجزاء حسب الاستحقاق، و هذا لا ينافى أن الله سبحانه و تعالى يريد أن يزيد المؤمنين من فضله، فهذه مسأله «تفضل» و تلك مسأله «استحقاق».

ثم تنتقل الآيات لتعرض إلى جانب من مثوبه المؤمنين العظيمه، و قبل كل شئ تشير إلى مسأله الطمأنينه و راحه البال فتقول: إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ .

«شغل»: -على وزن سرر- و «شغل» -على وزن لطف-: كليهما بمعنى العارض الذى يذهل الإنسان و يصرفه عن سواه، سواء كان مما يبعث على المسره أو الحزن، و لكن لإلحاقه كلمه «فاكهون» التى هى جمع «فاكه» و هو المسرور الفرح الضاحك، يمكن استنتاج أن المعنى إشاره إلى الإنسان المشغول بنفسه

و المنصرف تماما عن التفكير فى أى قلق أو ترقب، و الغارق فى السرور و السعادة و النشاط بشكل لا يترك أى مجال للغمّ و الحسره أن تعكّر عليه صفوه، و حتّى أنّه ينسى تماما هول قيام القيامه و الحضور فى محكمه العدل الإلهيه، تلك المواقف التى لو لا- نسيانها فإنّها حتما ستلقى بظلالها الثقيله من الغمّ و القلق على القلب، و بناء على ذلك فإنّ أحد الآثار المترتبه على انشغال الذهن بالنعمه هو نسيان أهوال المحشر (١).

و بعد التعرّض إلى نعمه الطمأنينه و راحه البال التى هى أساس جميع النعم الاخرى و شرط الاستفاده من جميع المواهب و النعم الإلهيه الاخرى، ينتقل إلى ذكر بقيه النعم فيقول تعالى: هُمْ وَ أَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ (٢).

«أزواج» تشير إلى الزوجه التى يعطيها الله فى الجنّه، أو الزوجه المؤمنه التى كانت معه فى الدنيا.

و أمّا ما احتمله البعض من أنّها بمعنى «النظائر» كما فى الآيه- ٢٢ سورة الصافات أحشروا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمُ الْآيَهُ فَيَسْأَلُونَ عَذَابًا أَلِيمًا. خصوصاً أنّ (أرائك) جمع «أريكه» و هى الحجله على السرير. كما يقول أرباب اللغه (٣).

التعبير ب«ظلال» إشاره إلى أنّ أشجار الجنّه تظلّل الأسره و التخوت التى يجلس عليها المؤمنون فى الجنّه، أو إشاره إلى ظلال قصورهم، و كلّ ذلك يدلّل على وجود الشمس هناك، و لكنّها ليست شمساً مؤذيه، نعم فإنّ لهم فى ذلك الظلّ الملائم لأشجار الجنّه سرورا و نشاطا عظيمين.

ص: ٢١١

١ - ١) - يرى «الراغب» فى مفرداته بأنّ «فاكهه» تطلق على كلّ أنواع الثمار و الفواكه، و «فاكه» الحديث الذى يأنس به الإنسان و ينشغل به عن غيره. و يرى «ابن منظور» فى لسان العرب أنّ «فكاه» بمعنى المزاح، و «فاكه» يطلق على الإنسان المرح.

٢ - ٢) - هناك احتمالات عديده فى إعراب الجملة، و أفضلها أنّ «هم» مبتدأ، و «متكئون» خبر، و «على الأرائك» متعلّق به، و «فى ظلال» متعلّق به أيضا أو متعلّق بمحدوف.

٣ - ٣) - لسان العرب - مفردات الراغب - مجمع البيان - القرطبي - روح المعاني - و تفاسير اخرى.

إضافه إلى ذلك فإنَّ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مَا يَدْعُونَ .

يستفاد من آيات القرآن الاخرى أنَّ غذاء أهل الجنه ليس الفاكهه فقط،و لكن تعبير الآيه يدل على أنَّ الفاكهه-و هي فاكهه مخصوصه تختلف كثيرا عن فاكهه الدنيا-هي أعلى غذاء لهم، كما أنَّ الفاكهه فى الدنيا- كما يقول المتخصّصون- أفضل و أعلى غذاء للإنسان.

«يدعون» أى يطلبون،و المعنى أن كل ما يطلبونه و يتمنونه يحصلون عليه،فما يتمنوه من شىء يحصل و يتحقّق على الفور.

يقول العلامة«الطبرسى» فى مجمع البيان:العرب يستخدمون هذا التعبير فى حاله التمنى،فيقول:«ادع على ما شئت»أى تمنّ على ما شئت...

و عليه فإنَّ كل ما يخطر على بال الإنسان و ما لا يخطر من المواهب و النعم الإلهيه موجود هناك معدّ و مهياً،و الله عنده حسن الثواب.

و أهمّ من كل ذلك،المواهب المعنويه التى أشارت إليها آخر آيه بقولها: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (١).

هذا النداء الذى تخفّ له الروح،فيملؤها بالنشاط،هذا النداء المملوء بمحبّه الله،يجعل الروح الإنسانيه تتسلق الأفراح نشوى بالمعنويات التى لا- يرقى إليها وصف و لا- تعادلها أيّه نعمه اخرى.نعم فسماع نداء المحبوب،النداء الندى بالمحبّه،المعطر باللطف،يغمر سكان الجنه بالحبور...الحبور الذى تعادل اللحظه منه جميع ما فى الدنيا،بل و يفيض عليه.

ففى روايه عن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم أنه قال: «بيننا أهل الجنه فى نعيمهم إذ سَطَعَ لَهُمْ نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف من فوقهم فقال:السلام عليكم يا أهل الجنه، و ذلك قول الله تعالى: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ قال فينظر إليهم و ينظرون إليه

ص: ٢١٢

(١- ١) -اختلف حول إعراب«قولا»و أنسب ما ذكر هو اعتبارها(مفعول مطلق)لفعل محذوف تقديره«يقول قولا».

فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم و يبقى نوره و بركتته عليهم في ديارهم» (١).

نعم فإنَّ جذبه مشاهدته المحبوب، و رؤيه لطفه، تبعث اللذّه و الشوق في النفس بحيث أنّ لحظه واحده من تلك المشاهدته العظيمه لا- يمكن مقارنتها بأية نعمه، بل بالعالم أجمع، و عشاق رؤيته و النظر إليه هائمون في ذلك إلى درجه أنّه لو قطعت عنهم تلك الإفاضه المعنويه فإنّهم يحسّون بالحسره و الألم، و كما

ورد في حديث لأمير المؤمنين عليه أفضل الصلاه و السلام «لو حجبت عنه ساعه لمتّ» (٢).

الملفت للنظر أنّ ظاهر الآيه يشير إلى أنّ سلام الله الذي ينثره على المؤمنين في الجنّه، هو سلام مستقيم بلا واسطه، سلام منه تعالى، و أي سلام ذلك الذي يمثّل رحمته الخاصّه! أي أنّه ينبعث من مقام رحيميته و جميع أطفاه و كراماته مجموعته فيه، و يا لها من نعمه عظيمه!!\*\*\*

## ملاحظه

## اشاره

## أنواع «السلام» المنتور على أهل الجنّه

الجنّه هي «دار السلام» كما ورد في الآيه (٢٥) من سوره يونس حيث نقرأ:

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ .

و أهل الجنّه الذين يسكنون هناك، يقابلون بسلام الملائكه حينما يدخلون عليهم الجنّه و الملائكه يدخلون عليهم من كلّ باب، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار (٣).

ص: ٢١٣

١-١) - تفسير روح المعاني، مجلد ٢٣، صفحه ٣٥.

٢-٢) - روح البيان، مجلد ٧، صفحه ٤١٦.

٣-٣) - الرعد، ٢٤.



و يناديهم ساكنو الأعراف و يسلمون عليهم وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ . (١)

و عند ما يدخلون الجنة يقابلون بسلام و تحية الملائكة.

و حينما تقبض الأرواح يتلقى المؤمن هذا السلام من ملائكة الموت: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (٢)

و يسلم بعضهم على بعض تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ . (٣)

و أخيراً، أسمى و أعظم سلام هو سلام الله عزّ و جلّ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ .

الخلاصة: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا . (٤)

و السلام ليس لفظاً فحسب، بل سلام يؤدّي إلى خلق الهدوء و السلامه، و ينفذ في أعماق الروح الإنسانيه و يغمرها بالهدوء و السلام.

\*\*\*

ص: ٢١٤

١-١) - الأعراف، ٤٦.

٢-٢) - النحل، ٣٢.

٣-٣) - إبراهيم، ٢٣.

٤-٤) - الواقعة، ٢٦.

اشاره

وَ اِمْتَاَزُوا الْيَوْمَ اَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) اَلَمْ اَعْهَدْ اِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ اَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ اِنَّهٗ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَ اَنْ اُعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَقَدْ اَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيْرًا اَّا فَلَمَّ تَكُوْنُوْا تَعْقِلُوْنَ (٦٢)

التفسير

اشاره

لماذا عبدتم الشيطان!؟

مرّ في الآيات السابقة جانب من المصير المشوّق لأهل الجنّه، و في هذه الآيات مورد البحث جانب بئس من مصير أهل النار و عبده الشيطان.

أولاً: يخاطبون في ذلك اليوم خطاباً تحقيرياً و اِمْتَاَزُوا الْيَوْمَ اَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ .

فأنتم ربّما دخلتم في صفوف المؤمنين في الدنيا و تلونتم بلونهم تاره، و استفدتم من حيثيتهم و اعتبارهم، أمّا اليوم «فامتازوا عنهم» و أظهروا بشكلكم الأصلي الحقيقي.

هذا في الحقيقة هو تحقّق للوعد الإلهي الوارد في الآية (٢٨) من سوره ص حيث يقول الباري عزّ و جلّ: اَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ

فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ .

و على كلِّ حال، فظاهر الآيه هو التمييز في العرض بين المجرمين و المؤمنين، و إن كان بعض المفسرين قد احتمل احتمالات أخرى من جملتها: تفریق صفوف المجرمين أنفسهم إلى مجموعات فيما بينهم، أو انفصال المجرمين عن شفعاثهم و معبوداتهم، أو انفصال المجرمين كلِّ واحد عن الآخر، بحيث يكون ذلك العذاب الناتج عن الفراق مضافا على عذاب الحريق في جهنم.

و لكن شموليه الخطاب لجميع المجرمين، و محتوى جملة «و امتازوا» تقوى المعنى الأول الذى أشرنا إليه.

الآيه التاليه تشير إلى لوم الله تعالى و توبيخه المجرمين فى يوم القيامة قائلا:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

إنَّ هذا العهد الإلهي أخذ على الإنسان من طرق مختلفه، و كرّر على مسمعه مرّات و مرّات: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١) جرى هذا التحذير و بشكل متكرّر على لسان الأنبياء و الرسل: وَلَا يَصِدَّدَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢).

و كذلك فى الآيه (١٦٨) من سوره البقره نقراً: وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

و من جانب آخر فإنَّ هذا العهد أخذ على الإنسان فى عالم التكوين، و بلسان إعطاء العقل له، إذ أنّ الدلائل العقليه تشير بشكل واضح إلى أنّ على الإنسان أن لا يطيع من تصدى لعداوته منذ اليوم الأول و أخرجه من الجنه، و أقسم على إغواء

ص: ٢١٦

١- (١) - الأعراف، ٢٧.

٢- (٢) - الزخرف، ٦٢.

أبنائه من بعده.

و من جانب ثالث فقد أخذ هذا العهد على الإنسان بالفطره الإلهية للناس على التوحيد، و انحصار الطاعة في الله سبحانه، و بهذا لم تتحقق التوصية الإلهية هذه بلسان واحد، بل بعدة ألسنه و أساليب، و امضى هذا العهد و الميثاق.

و الجدير بالملاحظة أيضا أن «العبادة» الواردة الإشارة إليها في جملة لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ بمعنى «الطاعة»، لأنَّ العبادة لا تنحصر بمعنى الركوع و السجود فقط، بل إنَّ من مصاديقها الطاعة. كما ورد في الآية (٤٧) من سورة «المؤمنون» أ تُوْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ و في الآية (٣١) من التوبة نقرأ:

إِتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا .

و الجميل أنه

ورد في روايه عن الصادق عليه السَّلام تعليقا على الآية بقوله: «أما و الله ما دعوهم إلى عباده أنفسهم و لو دعوهم ما أجابوهم، و لكن أحلوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون» (١).

و

عن الصادق عليه السَّلام أيضا أنه قال: «من أطاع رجلا في معصية فقد عبده» (٢).

و

عن الباقر عليه السَّلام أنه قال: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّي عن الله فقد عبد الله، و إن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان» (٣).

الآية التالية تأكيد أشدّ و بيان لوظيفة بنى آدم، تقول الآية الكريمة: وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

أخذ على الإنسان العهد بأن لا يطيع الشيطان، إذ أنه أعلن له عن عداوته بشكل واضح منذ اليوم الأوّل، فهل يطيع عاقل أوامر عدوّه؟!.. هذا من جانب.

ص: ٢١٧

١- ١) - وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ٨٩، حديث ١.

٢- ٢) - وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ٩١، حديث ٨ و ٩.

٣- ٣) - المصدر السابق.

و من جانب آخر، أخذ عليه العهد بطاعه الله سبحانه و تعالى، لأنَّ سبيله هو الصراط المستقيم، و هذا فى الحقيقه أعظم محرّك للبشر، لأنَّ الإنسان-مثلا- لو كان فى وسط صحراء قاحله محرقه، و كانت حياته و حياه عياله فى معرض خطر قطاع الطرق و الضوارى، فأهمّ ما يفكّر به هو العثور على الطريق المستقيم الآمن الذى يؤدّى إلى المقصد، الطريق السريع و الأسهل للوصول إلى منزل النجاه.

و يستفاد كذلك من هذا التعبير ضمنا بأنّ الدنيا ليست بدار القرار، إذ أنّ الطريق لا يرسم لأحد إلاّ لمن يريد الذهاب إلى مقصد آخر.

و للتعريف بهذا العدو القديم أكثر فأكثر يضيف تعالى: **وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ .**

ألا ترون ماذا أحلّ بأتباعه من المصائب.

ألم تطالعوا تاريخ من سبقكم لتروا بأعينكم أى مصير مشؤوم وصل إليه من عبد الشيطان؟ آثار مدنهم المدمّره أمام أعينكم، و العاقبه المؤلمه التى وصلوا إليها واضحه لكلّ من يمتلك القليل من التعقّل و التفكّر.

إذن لماذا أنتم غير جادّين فى معاداه من أثبت أنه عدو لكم مرّات و مرّات؟ و لا زلتم تتخذونه صديقا بل قائدا و وليا و إماما!! «الجبيل» الجماعه تشبيها بالجبيل فى العظم (كما يقول الراغب فى مفرداته).

و «كثيرا» للتأكيد على كثره من أتبع الشيطان من كافه المستويات الاجتماعيه فى كلّ مجتمع.

ذكر بعضهم أنّ «الجبيل» بحدود عشره آلاف نفر، أو أكثر، و ما دون ذلك لا يكون جبلا (1)، و لكن البعض الآخر لم يلتزم بتلك الأرقام (2).

و على كلّ حال، فإنّ العقل السليم يوجب على الإنسان أن يحذر بشدّه من عدوّ

ص: ٢١٨

١-١) -انظر روح المعانى و الفخر الرازى.

٢-٢) -المصدر السابق.

خطر كهذا، لا يتوزع عن أى شىء، ولا يرحم أى إنسان أبداً، وقرابينه فى كلّ زاويه و مكان هلكى صرعى، فلا ينبغى له أن يغفل عنه طرفه عين أبداً، ولنقرأ ما

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه أفضل الصلاه و السلام:

«فاحذروا-عباد الله-عدوّ الله، أن يعددكم بدائه، و أن يستفزكم بندائه، و أن يجلب عليكم بخيله و رجله، فلعمرى لقد فوق لكم سهم الوعيد، و أغرق إليكم بالنزع الشديد، و رماكم من مكان قريب، فقال: ربّ بما أغويتنى لآزبنن لهم فى الأرض و لأغوينهم أجمعين» (١).

\*\*\*

ص: ٢١٩

---

١- (١) - نهج البلاغه، خطبه ١٩٢ (القاصعه).

اشاره

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ افواههم وَتُكَلِّمُنَا اَيْدِيهم وَتَشْهَدُ اَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَ لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ اَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَ لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَ لَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ اَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)

التفسير

اشاره

يوم تسكت الألسن و تشهد الأعضاء!!

تعرضت الآيات السابقة، إلى قسم من التوبيخات و التقريرات الإلهية و إلى مخاطبته سبحانه المجرمين في يوم القيامة.

هذه الآيات توصل البحث حول الموضوع نفسه أيضا.

نعم، ففي ذلك اليوم و حينما تظهر جهنم للمجرمين الكافرين يذكرهم الله بوعدده، و الآية تشير إلى ذلك فنقول: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

فقد بعث إليكم الأنبياء واحدا بعد واحد، و حذروكم من مثل هذا اليوم و من مثل هذه النار، و لكنكم لم تأخذوا أقوالهم إلا على محمل السخرية و الاستهزاء اِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١).

ثم يشير تعالى إلى شهود يوم القيامة...الشهود الذين هم جزء من جسد الإنسان، حيث لا مجال لإنكار شهادتهم، فيقول تعالى: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

نعم ففي ذلك اليوم لا- تكون أعضاء الإنسان طوع إرادته و ميوله، فهي بأجمعها تتخلى عن امتثال أمره و تستسلم لأمر الله سبحانه، و يا لها من محكمه عجيبه تلك المحكمه التي شهودها نفس أعضاء الإنسان. تلك الأعضاء التي كانت الوسائل لارتكاب المعاصي و الذنوب.

و يحتمل أن تكون شهاده الأعضاء، بسبب أن المجرمين حينما يرون بأنهم سيصلون جهنم جزاء أعمالهم، يميلون إلى إنكار ما ارتكبوا ظننا منهم أنه يمكن الإفلات بإخفاء الحقائق و الإنكار، إلا أن الأعضاء تبدأ هنا بالشهاده، الأمر الذي يثير عجب أولئك المجرمين و وحشتهم و يغلق عليهم جميع طرق الفرار و الخلاص.

أما عن كيفية نطق تلك الأعضاء، فتمه تفسيرات و احتمالات عديدة:

١- إن الله سبحانه و تعالى يجعل في كل واحد من تلك الأعضاء القدره على التكلّم و الشعور، و هي تقوم بنقل الحقيقه بصدق، و ما هو العجب في ذلك؟ فمن جعل في قطعه من اللحم المسّمّاه «لسان» أو «مخ الإنسان» القدره على النطق، يستطيع أن يجعل هذه القدره في سائر أعضاء البدن أيضا.

٢- أن تلك الأعضاء لا- تعطى الإدراك و الشعور، و لكن الله سبحانه و تعالى ينطقها، و في الحقيقه فإنّ تلك الأعضاء ستكون محلا لظهور الكلام، و انكشاف

ص: ٢٢١

---

١- ١) - «اصلوها» من (صلا) أصل الصلّى إيقاد النار، و يقال صلى بالنار و بكذا، أى بلى بها و اصطفى بها.



٣- أن أعضاء البدن الإنساني تحتفظ بآثار الأعمال التي قامت بها في الدنيا، إذ أن أي عمل في هذه الدنيا لا يفنى، بل إن آثاره ستبقى على كل عضو من البدن، و في الفضاء المحيط بها، و في ذلك اليوم الذي هو يوم الظهور و التجلي، ستظهر هذه الآثار على اليد و القدم و سائر الأعضاء، و ظهور تلك الآثار هو منزله الشهادة.

و هذا تماما كما يرد في لغتنا المعاصره حينما نقول: «عينك تشهد على سهرك»، أو «الجدران تبكي صاحب الدار».

و على كل حال، فإن من المسلمات شهاده الأعضاء في يوم القيامة، و لكن هل أن كل عضو يكشف عن فعله فحسب، أو يكشف عن كل الأعمال؟ فلا شك أن الاحتمال الأول هو الأنسب، لذا فإن الآيات القرآنيه الكريمه الاخرى تذكر شهاده الاذن و العين و الجلد، كما في الآيه (٢٠) من سوره فصلت حين يقول تعالى: حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَوْ مَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ (٢٤) من سوره النور من قوله تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

و الجدير بالملاحظه أنه تعالى في سوره النور يقول: تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ و في الآيه مورد البحث يقول: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ، و من الممكن أن يكون ما يحصل هناك هو أن يختم على فم المجرم أولا لتشهد أعضاؤه، و بعد أن يرى بنفسه شهاده أعضائه، يفتح لسانه، و لأنه لا مجال للإنكار فإن لسانه أيضا يقر بالحقيقه.

و كذلك يحتمل أن يكون المقصود من كلام اللسان هو الكلام الداخلي الذي ينبعث منه كما في سائر الأعضاء، و ليس نطقه العادي.

آخر ما نريد قوله بخصوص موضوع تكلم الأعضاء هو أن ذلك خاص بالمجرمين، و إلا فالمؤمنون حسابهم واضح، لذا

ورد في الحديث عن الباقر عليه السلام

«ليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنما تشهد على من حقت عليه كلمه العذاب، فأمرًا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال الله عز و جل: فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (١)».

الآيه التاليه تشير إلى أحد ألوان العذاب التي يمكن أن يتلى الله تعالى بها المجرمين في هذه الدنيا، تقول الآيه الكريمة: وَ لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ (٢).

و في تلك الحاله التي يبلغ فيها الرعب الذروه عندهم: فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ. فهم عاجزون حتى عن العثور على الطريق إلى بيوتهم، ناهيك عن العثور على طريق الحق و سلوك الصراط المستقيم! و عقوبه مؤلمه اخرى لهم: اننا لو أردنا لمسحناهم في مكانهم على شكل تماثيل حجرية فاقده للروح و الحركه، أو على أشكال الحيوانات بحيث لا يستطيعون التقدم إلى الأمام، و لا الرجوع إلى الخلف: لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مَوْجِدًا وَلَا يَرْجِعُونَ (٣).

«فاستبقوا الصراط» يمكن أن تكون بمعنى التسابق فيما بينهم للعثور على الطريق الذي يذهبون منه عادة، أو بمعنى الانحراف عن الطريق و عدم العثور عليه، على ضوء ما قاله بعض أرباب اللغه من أن «فاستبقوا الصراط» بمعنى «جاوزه و تركوه حتى ضلوا» (٤).

و على كل حال، فطبقا للتفسير الذي قبل به أغلب المفسرين الإسلاميين، فإن الآيتين أعلاه، تتحدثان عن عذاب الدنيا، و عن تهديد الكفار و المجرمين بأن الله

ص: ٢٢٣

١-١) - تفسير الصافي، مجلد ٤، صفحه ٢٥٨

٢-٢) - «طمسنا» من طمس - على وزن شمس - بمعنى إزاله الأثر بالمحو، هذه الإشاره إلى إزاله ضوء العين أو صورتها بشكل كلي بحيث لا يبقى منها أثر.

٣-٣) - «مكانتهم» بمعنى محل التوقف، و هي إشاره إلى أن الله سبحانه و تعالى قادر على أن يخرجهم عن إنسانيتهم في محل توقفهم، يغير أشكالهم، و يفقدهم القدره على الحركه، تماما كالتمثال الخالي من الروح.

٤-٤) - لسان العرب - قطر المحيط - المنجد «ماده سبق».

سبحانه و تعالى قادر على تعريضهم لمثل هذا العذاب فى الدنيا، و لكن للطفه و رحمته فإنه يمتنع عن ذلك، فقد ينتبه هؤلاء المعاندين و يرجعوا عن عيهم إلى طريق الحقّ.

و لكن يوجد احتمال آخر أيضا، و هو أنّ الآيات تشير إلى العقوبات الإلهية فى يوم القيامة لا فى الدنيا، و فى الحقيقة فهو تعالى بعد أن أشار إلى «الختم على أفواههم» فى الآية السابقة، يشير هنا إلى نوعين آخرين من العقوبات التى لو شاء لأجراها عليهم:

الأول: الطمس على عيونهم بحيث لا يمكنهم رؤيه «الصراط» أى طريق الجنة.

الثانى: أنّ هؤلاء الأفراد بعد أن كانوا فاقدين للحركة فى طريق السعادة فإنهم يتحولون إلى تماثيل ميتة فى ذلك اليوم و يظلون حيارى فى مشهد المحشر، و ليس لهم طريق للتقدم أو للتراجع، إنّ تناسب الآيات -طبعاً- يؤيد هذا التفسير الأخير، و إن كان أكثر المفسرين قد اتفقوا على قبول التفسير السابق (1).

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تشير إلى وضع الإنسان فى آخر عمره من حيث الضعف و العجز العقلى و الجسمى، لتكون إنذارا لهم و ليختاروا طريق الهداية عاجلاً، و لتكون جواباً على الذين يلقون بمسؤوليه تقصيرهم على قصر أعمارهم، و كذلك لتكون دليلاً على قدره الله سبحانه و تعالى، فالقادر على أن يعيد ذلك الإنسان القوى إلى ضعف و عجز الوليد الصغير.. قادر على مسأله المعاد بالضرورة، و على الطمس على عيون المجرمين و منعهم عن الحركة، كذلك تقول الآية الكريمة: وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ .

«ننكسه» من مادّه «تنكيس» و هو قلب الشئ على رأسه. و هى هنا كناية عن

ص: ٢٢٤

١-١) - ذكر صاحب تفسير «فى ظلال القرآن» هذا التفسير على أنه الوحيد، فى حين أنّ التفسير السابق اختاره كل من تفسير: مجمع البيان - التبيان - الميزان - الصافى - روح المعانى - روح البيان - القرطبي - التفسير الكبير.

الرجوع الكامل للإنسان إلى حالات الطفولة. فالإنسان منذ بدء خلقته ضعيف، و يتكامل تدريجيًا و يرشد، و في أطواره الجنينية يشهد في كل يوم طورًا جديدًا و رشدًا جديدًا، و بعد الولادة-أيضا-يستمر في مسيره التكاملية جسميا و روحيا و بسرعته، و تبدأ القوى و الاستعدادات التي أخفاها الله في أعماق وجوده بالظهور تدريجيًا الواحده تلو الاخرى، في طور الشباب، ثم طور النضج، ليبلغ الإنسان أوج تكامله الجسمي و الروحي.

و هنا تنفصل الروح عن الجسد في تكاملها و نموها، فتستمر في تكاملها في حال أنّ الجسد يشرع بالنكوص، و لكن العقل في النهايه يبدأ هو الآخر بالتراجع أيضا، فيعود تدريجيًا-و أحيانا بسرعته-إلى مراحل الطفولة، و يتساق ذلك مع الضعف البدني أيضا، مع الفارق طبعا، فالآثار التي تتركها حركات و روحيات الأطفال على النفس هي الراحة و الجمال و الأمل و لهذا فهي مقبولة منهم، و لكنّها من أهل الشيخوخه، قبيحه و منفرة، و في بعض الأحيان قد تثير الشفقة و الترحم، فالشيخوخه أيام عصيبه حقًا، يصعب تصوّر عمق آلامها.

في الآية (٥) سورة الحجّ أشار القرآن المجيد إلى هذا المعنى، قائلا: **وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمرِ لِكَيْلًا يُعَلِّمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا** . لذا فقد ورد في بعض الروايات أنّ من جاوز السبعين حيا فهو «أسير الله في الأرض» (١).

و على كلّ حال فإنّ جملة **أَفَلَا يَعْقِلُونَ** تشعّ تنبيها عجيبا بهذا الخصوص، و تقول للبشر: إنّ هذه القدره و القوه التي عندكم لو لم تكن على سبيل «العاريه» لما أخذت منكم بهذه البساطه. اعلموا أنّ فوقكم يد قدره اخرى قادره على كلّ شيء، فقبل أن تصلوا إلى تلك المرحله خلّصوا أنفسكم، و قبل أن يتبدّل هذا النشاط

ص: ٢٢٥

و الجمال إلى موت و ذبول. اجمعوا الورد من هذا الروض، و تزودوا بالزاد من هذه الدنيا لطريق الآخرة البعيد، لأنه لم يمكنكم أداء أى عمل ذى قيمه فى وقت الشيب و الضعف و المرض. و لذا فإنّ من ضمن ما

أوصى به النبى صلى الله عليه و آله و سلم أبا ذرّ أنّه قال: «اغتنم خمسا: قبل خمس: شبابك قبل هرمك، و صحّتك قبل سقمك، و غناك قبل فقرك، و فراغك قبل شغلك، و حياتك قبل موتك» (١).

\*\*\*

ص: ٢٢٤

---

١- ١) - بحار الأنوار، مجلد ٧٧، صفحه ٧٥، حديث-٣.

اشاره

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)

التفسير

اشاره

أنه ليس بشاعر.. بل نذير!!

قلنا أنّ في هذه السوره بحوثا حيّه و جامعته حول اصول الاعتقادات: التوحيد، و المعاد، و النبوه، و تنتقل الآيات من بحث إلى آخر ضمن مقاطع مختلفه من الآيات.

طرحت في الآيات السابقه بحوث مختلفه حول التوحيد و المعاد، و تعود هاتان الآيتان إلى البحث في مسأله النبوه، و قد أشارتا إلى أكثر الاتهامات رواجاً و التي أثيرت بوجه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، و وردت عليهم ردّاً قوياً، منها اتهام الرسول بكونه شاعراً، فقالت: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .

لماذا اتهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بهذا الاتهام مع أنه لم يقل الشعر أبداً؟ كان ذلك بسبب الجاذبيه الخاصه للقرآن الكريم و نفوذه في القلوب، الأمر الذي كان محسوساً للجميع، بالإضافة إلى عدم إمكانية إنكار جمال ألفاظه

و معانيه و فصاحته و بلاغته، و قد كانت جاذبيه القرآن الكريم الخاصه قد أثرت حتى في نفوس الكفار الذين كانوا أحيانا يأتون إلى جوار منزل النبي صلى الله عليه و آله و سلم بشكل خفي ليلا لكي يستمعوا إلى تلاوته للقرآن في عمق الليل.

و كم من الأشخاص الذين تولعوا و عشقوا الإسلام لمجرد سماعهم القرآن الكريم و أعلنوا إسلامهم في نفس المجلس الذي استمعوا فيه إلى بعض آياته.

و هنا حاول الكفار من أجل تفسير هذه الظاهره العظيمه، و لغرض استغفال الناس و صرف أنظارهم من كون ذلك الكلام و حيا إلهيا، فأشاعوا تهمة الشعر في كل مكان، و التي كانت بحد ذاتها تمثل اعترافا ضمنيا بتميز كلام القرآن الكريم.

و أمّا لماذا لا- يليق بالرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أن يكون شاعرا، فلاذّن طبيعه الشعر تختلف تماما عن الوحي الإلهي، للأسباب التاليه:

١- إنّ أساس الشعر-عاده- هو الخيال و الوهم، فالشاعر غالبا ما يخلق بأجنحه الخيال، و الحال أنّ الوحي يستمدّ وجوده من مبدأ الوجود و يدور حول محور الحقيقه.

٢- الشعر يفيض من العواطف الإنسانيه المتغيّره، و هي في حال تغيّر و تبدّل مستمرين، أمّا الوحي الإلهي فمرآه الحقائق الكونيه الثابته.

٣- لطافه الشعر تنبع في الغالب من الإغراق في التمثيل و التشبيه و المبالغه، إلى درجه أن قيل «أحسن الشعر أكذبه»، أمّا الوحي فليس إلا الصدق.

٤- الشاعر في أغلب الموارد و جريا وراء التزيق اللفظي يكون مجبرا على السعي وراء الألفاظ، ممّا يضيع الكثير من الحقائق في الأثناء.

٥- و أخيرا يقول أحد المفسّرين: إنّ الشعر مجموعه من الأشواق التي تحلّق منطلقه من الأرض باتجاه السماء، بينما الوحي حقائق نازله من السماء إلى الأرض، و هذان الاتجاهان واضح تفاوتهما.

و هنا يجب أن لا ننسى تقدير مقام أولئك الشعراء الذين يسلكون هذا الطريق

باتّجاه أهداف مقدّسه، و يصونون أشعارهم من كلّ ما لا يرضى الله، و على كلّ حال فإنّ طبيعه أغلب الشعراء كما أوردناه أعلاه.

لذا فإنّ القرآن الكريم يقول في آخر سوره الشعراء: وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . (١)

طبعاً فإنّ نفس هذه الآيات تشير في آخرها إلى الشعراء المؤمنين الذين يسخّرون فنّهم في سبيل أهدافهم الساميه، و هم مستثنون من ذلك التعميم و لهم حساب آخر.

و لكن على أيّ حال فإنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم لا يمكن أن يكون شاعراً، و عند ما يقول تعالى: وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ فمفهومه أنّه بجانب للشعر لأنّ جميع التعاليم النازله إليه هي من الله تعالى.

و الملفت للنظر أنّ التأريخ و الروايات تنقل كثيراً من الأخبار التي تشير إلى أنّ الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم حينما يريد الاستشهاد ببيت من الشعر، فإنّه غالباً ما يقوله بطريقه منثوره.

فعن عائشه أنّها قالت: كان رسول الله يتمثل ببيت أخي بنى قيس فيقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً\* و يأتيك من لم تزود بالأخبار فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله فيقول: إني لست بشاعر و ما ينبغي لي (٢).

ثمّ يضيف تعالى في آخر الآيه لنفى الشعر عن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم: إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ .

و الهدف هو الإنذار و إتمام الحجّه: لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ

ص: ٢٢٩

١-١) -الشعراء، ٢٢٤-٢٢٦.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٣٣.



نعم، هذه الآيات «ذكر» ووسيله تنبيه، هذه الآيات «قرآن مبین» یوضّح الحقّ بلا أدنى تغطیه أو غمط، بل بقاطعیه و صراحه، و لذا فهو عامل انتباه و حياه و بقاء.

مّرّه اخرى نرى القرآن الكريم يجعل (الإيمان) هو (الحياه) و (المؤمنين) هم (الأحياء) و (الكفار) هم «الموتى»، ففي جانب يذكر عنوان «حيّاً» و فى الطرف المقابل عنوان «الكافرون»، فهذه هى الحياه و الموت المعنوى اللذان هما أعلى بمراتب من الموت و الحياه الظاهريين. و آثارهما أوسع و أشمل، فإذا كانت الحياه و المعيشه بمعنى «التنفس» و «أكل الطعام» و «الحركه»، فإنّ هذه الأعمال كلّها تقوم بها الحيوانات، فهذه ليست حياه إنسانيه، الحياه الإنسانيه هى تفتّح أزهار العقل و الفهم و الملكات الرقيقه فى روح الإنسان، و كذلك التقوى و الإيثار و التضحيه و التحكّم بالنفس، و التحلّى بالفضيله و الأخلاق، و القرآن ينمى هذه الحياه فى وجود الإنسان.

و الخلاصه: أنّ الناس ينقسمون حيا ل دعوة القرآن الكريم إلى مجموعتين:

مجموعه حيّه يقظه تلبي تلك الدعوه، و تلتفت إلى إنذاراتها، و مجموعه من الكفار ذوى القلوب الميتة، الذين لا تؤمل منهم أيّه استجابه أبداً، و لكن هذه الإنذارات سبب فى إتمام الحجّه عليهم، و تحقّق أمر العذاب بحقّهم.

\*\*\*

ص: ٢٣٠

١ - ١) - جمله «ليندر...» متعلّقه ب «ذكر» الوارده فى الآيه السابقه، و البعض اعتبرها متعلّقه ب «علمنا» أو «نزلنا» تقديرا، و لكن الاحتمال الأوّل هو الأنسب على ما يبدو.

## حياه و موت القلوب:

فى الإنسان أنواع من الحياه و الموت:

الأول: الحياه و الموت النباتى الذى مظهره النمو و الرشد و التغذية و التوالد، و هو فى هذا الشأن يشابه جميع النباتات.

الثانى: الحياه و الموت الحيوانى. و أبرز مظاهرها «الإحساس» و «الحركه»، و هو مشترك فى هاتين الصفتين مع جميع الحيوانات.

أمّا النوع الثالث من الحياه الخاصّ بالإنسان فقط، فهو (الحياه الإنسانيه و الروحيه). و هو ما قصده الروايات بقولها «حياه القلوب». حيث أنّ المقصود بالقلب هنا «الروح و العقل و العواطف» الإنسانيه.

فى حديث أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاه و السلام حول القرآن يقول:

«و تعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث، و تفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب» (١).

و

فى حديث آخر له عليه أفضل الصلاه و السلام يقول عن الحكمه و التعلّم:

«و اعلموا أنّه ليس من شىء إلّا- و يكاد صاحبه يشبع منه و يملّه إلّا- الحياه، فإنّه لا- يجد فى الموت راحه، و إنّما ذلك بمنزله الحكمه التى هى حياه للقلب الميّت و بصر للعين العمياء» (٢).

و

قال عليه الصلاه و السلام: «ألا و إنّ من البلاء الفاقه، و أشدّ من الفاقه مرض البدن، و أشدّ من مرض البدن مرض القلب، ألا و إنّ من صحّه البدن تقوى القلوب» (٣).

و

يقول عليه الصلاه و السلام: «و من كثر كلامه كثر خطؤه، و من كثر خطؤه قلّ

ص: ٢٣١

٢-٢) - المصدر السابق.

٣-٣) - المصدر السابق.

حياؤه، و من قلّ حياؤه قلّ ورعه، و من قلّ ورعه مات قلبه» (١).

و من جهة اخرى فإنّ القرآن الكريم يشخّص للإنسان نوعا خاصا من الإبصار و السمع و الإدراك و الشعور، غير النظر و السمع و الشعور الظاهري، ففي الآيه (١٧١) من سوره البقره نقرا: صُمِّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

و في موضع آخر يقول تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا . (٢)

كذلك يقول سبحانه: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . (٣)

و حول مجموعه من الكافرين يعبر تعبيرا خاصا فيقول تعالى: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ . (٤)

و في موضع آخر يقول تعالى: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . (٥)

من مجموع هذه التعبيرات و تعبيرات كثيره اخرى شبيهه لها يظهر بوضوح أنّ القرآن يعدّ محور الحياه و الموت، هو ذلك المحور الإنساني و العقلاني، إذ أنّ قيمه الإنسان تكمن في هذا المحور.

و في الحقيقة فإنّ الحياه و الإدراك و الإبصار و السمع و أمثالها، تتلخّص في هذا القسم من وجود الإنسان، و إن اعتبر بعض المفسّرين هذه التعبيرات مجازيه، إذ أنّ ذلك لا ينسجم مع روح القرآن هنا، لأنّ الحقيقة في نظر القرآن هي هذه التي يذكرها، و الحياه و الموت الحيوانيان هما المجازيان لا غير.

إنّ أسباب الموت و الحياه الروحيه كثيره جدّا، و لكن القدر المسلّم به هو أنّ النفاق و الكبر و الغرور و العصييه و الجهل و الكبائر، كلّها تميت القلب، ففي مناجاه

ص: ٢٣٢

١-١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار كلمه ٣٤٥.

٢-٢) - البقره-١٠.

٣-٣) - البقره، ٧٤.

٤-٤) - المائده، ٤١.

٥-٥) - الأنعام، ٣٦.

عن الإمام السجّاد عليه السّلام فى الصحيفه السجّاديه ورد «و أمات قلبى عظيم جنايتى».

و الآيات مورد البحث تأكيد على هذه الحقيقه.

فهل أنّ من يرضى من حياته فقط بأن يعيش غير عالم بشىء فى هذه الدنيا، و يجرى دائما مدار العيش الرغيد الرتيب، لا يعبأ بظلامه المظلوم، و لا- يلجى نداء الحقّ، يفكر فى نفسه فقط، و يعتبر نفسه غريبا حتّى عن أقرب الأقرباء، هل يعتبر مثل هذا إنسانا حيا؟ و هل هى حياه تلك التي تكون حصيلتها كمّيّه من الغذاء المصروف، و إبلاء بعض الألبسه، و النوم و الاستيقاظ المكرور؟ و إذا كانت تلك هى الحياه فما هو فرقها عن حياه الحيوان؟ إذا يجب أن نقرّ و نعترف بأنّ وراء هذه الحياه الظاهريه يكمن عقل و حقيقه أكد عليها القرآن و تحدّث عنها.

الجميل أنّ القرآن يعتبر الموتى الذين كان لموتهم آثار الحياه الإنسانيه أحياء، و لكن الأحياء الذين ليس فيهم أى من آثار الحياه الإنسانيه فإنّهم فى منطق القرآن الكريم أموات أدلاء.

\*\*\*

اشاره

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يُأْكُلُونَ (٧٢) وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ مَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَتِيعُونَ نصرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٧٦)

التفسير

اشاره

فوائد الأنعام للإنسان!!

يعود القرآن الكريم مره اخرى فى هذه الآيات إلى مسأله التوحيد و الشرك، و يشير-ضمن تعداد قسم من آثار عظمه الله فى حياه البشر، و حلّ مشكلاتهم و رفع حاجاتهم-إلى ضعف و عجز الأصنام، و بمقارنه واضحه يشطب على الشرك و يثبت بطلانه، و فى نفس الوقت يثبت حقانيه خطّ التوحيد.

تقول الآيه الكريمه الاولى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ

و لكي يستفيدوا بشكل جيد من هذه الحيوانات: وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ .

و لا تنتهى منافعتها إلى هذا الحد، بل وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَ مَشَارِبٌ وَ عَلَيْهِ أَفْلا يَشْكُرُونَ الشكر الذى هو وسيله معرفه الله و تشخيص ولى النعمه.

هنا يجب الالتفات إلى بعض الأمور:

١- من بين النعم المختلفه التى تغمر الإنسان، أشارت الآيه إلى نعمه وجود الأنعام، لأنها تشكل حضورا دائما فى حياه الإنسان اليوميه، إلى حد أن حياه الإنسان اقترنت بها، بحيث لو أنها حذفت من صفحه حياه الإنسان فإن ذلك سيشكل عقده و مشكله بالنسبه إلى معيشتة و أعماله، غير أن الإنسان لا يلتفت إلى أهميتها لأنه تعود رؤيتها يوميا.

٢- جملة عَمِلَتْ أَيْدِينَا كناية عن أعمال القدره الإلهيه بشكل مباشر، إذ أن أهم الأعضاء التى يمارس بها الإنسان قدرته و يعبر عنها هى يدها، لهذا السبب كانت «اليد» كناية عن القدره، كأن يقول أحدهم: «إن المنطقه الفلانيه فى يدي» كناية عن أنها تحت سيطرته و نفوذه، و يقول القرآن فى هذا الصدد يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . (٢)

و ذكر «الأيدى» هنا بصيغه الجمع إشاره إلى مظاهر متنوعه لقدره البارى عز و جلّ.

٣- جملة فَهُمْ لَهَا مَا لِكُونٍ المبتدأ بفاء التفریع، إشاره إلى أن الخلق مرتبط بقدرتنا، و أما المالكيه فقد فوّضناها إلى الإنسان، و ذلك منتهى اللطف الإلهي،

ص: ٢٣٥

١ - ١) - جملة «أو لم يروا...» جملة معطوفه على سابقتها بواو العطف، و لكن حين دخول الهمزه الاستفهاميه على الجملة فإنها تصدّرها، (و الرؤيه) هنا بمعنى المعرفه، أو الإبصار.

٢ - ٢) - الفتح، ١٠.

و عليه فلا محلّ للإشكال الذى ظهر لبعض المفسّرين نتيجة وجود «فاء التفرّيع»، فالمعنى تماما كما نقول لشخص: هذا البستان زرعناه و أعمرناه، استفد منه أنت، و هذا منتهى إظهار المحبّه و الإيثار.

٤-جملة وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ إشاره إلى مسأله فى غايه الأهميه، و هى تذليل هذه الحيوانات للإنسان. فتلك الحيوانات القويه و التى تنسى فى بعض الأحيان ذلك التذليل الإلهى، و تثور و تغضب و تعاند فتصبح خطرّه إلى درجه أنّ عشرات الأشخاص لا يمكنهم الوقوف أمامها. و فى حالاتها الاعتياديه فإنّ قافلّه كامله من الجمال يقودها تاره صبي لم يبلغ الحلم، و يدفعها فى الطريق الذى يرتئيه! إنّه لأمر عجيب حقّا، فإنّ الإنسان غير قادر على خلق ذبابه، و لا حتّى ترويضها و تذليلها لخدمته، أمّا الله القادر المَنَّان فإنّه خلق ملايين الملايين من الحيوانات المختلفه، و ذلّلها للإنسان لتكون فى خدمته دوما.

٥-جملة فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ -مع الالتفات إلى أنّ (ركوبهم) صفه مشبّهه بمعنى (مركوبهم) -إشاره إلى أنّ الإنسان ينتخب قسما منها للركوب و قسما آخر للتغذّى. و إن كان لحم أغلب الحيوانات المشهوره حلال بنظر الإسلام، إلاّ أنّ الإنسان استفاد عمليًا من بعضها فقط للتغذيه، فمثلا لحم الحمير لا يستفاد منه إلاّ فى الضروره القصوى.

و من الواضح أنّ ذلك إذا اعتبرنا «منها» فى كلا- الجملتين «للتبويض الإفرادى»، أمّا لو اعتبرنا الاولى «للتبويض الافرادى» و الثانيه «للتبويض الأ-جزائى» يكون معنى الآيه (بعض الحيوانات تنتخب للركوب و ينتخب جزء من أجسامها للتغذيه) إذ أنّ العظام و أمثالها غير قابله للأكل).

٦- لَّهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إشاره إلى فوائد الحيوانات الكثيره الاخرى التى تتحقّق للإنسان، و من جملتها الأصواف و الأوبار التى تصنع منها مختلف الملابس و الخيم و الفرش، و الجلود التى تصنع منها الحقائب و الملابس و الأحذيه و وسائل اخرى



مختلفه، وحتى في عصرنا الحاضر الذي تميّزت فيه الصناعات التقليديه من منتجات الطبيعه لا زال الإنسان في ميس الحاحه إلى الحيوانات من حيث التغذيه و من حيث الفوائد الاخرى كالألبسه و وسائل الحياه الاخرى. وحتى بعض أنواع الأمصال و اللقاحات ضدّ الأمراض التي يستفاد فيها من دماء بعض الحيوانات، بل حتى أنّ أتفه الأشياء الحيوانيه و هي روثها أصبح و منذ وقت طويل مورد استفاده الإنسان لتسميد المزارع و تغذيه النباتات المثمره.

٧- مَشَارِبُ إِشاره إلى الحليب الذي يؤخذ من تلك الدواب و يؤمّن مع منتجاته قسما مهمًا من المواد الغذائيه للإنسان، بشكل أضحت فيه صناعه الحليب و منتجاته تشكّل اليوم رقما مهمًا في صادرات و واردات الكثير من الدول، ذلك الحليب الذي يشكّل غذاء للإنسان، و يخرج من بين دم و فرث لبنا سائغا يلتدّ به الشاربون، و يكون عاملا لتقويه الضعفاء.

٨- جملة أَفْلا يَشْكُرُونَ جاءت بصيغه الاستفهام الاستنكارى، و تهدف إلى تحريك الفطره و العواطف الإنسانيه لشكر هذه النعم التي لا- تحصى، و التي ورد جانب منها في الآيات أعلاه، و كما نعلم فإنّ «لزوم شكر المنعم» أساس لمعرفة الله، إذ أنّ الشكر لا يمكن أن يكون إلا- بمعرفة المنعم، إضافة إلى أنّ التأقيل في هذه النعم و إدراك أنّ الأصنام ليس لها أدنى تأثير أو دخل فيها، سيؤدّي إلى إبطال الشرك.

لذا فإنّ الآيه التاليه، تنتقل إلى الحديث عن المشركين و وصف حالهم فتقول:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ

فيا له من خيال باطل و فكر ضعيف؟ ذلك الذي يعتقد بهذه الموجودات الضعيفه التافهه التي لا تملك لنفسها- ناهيك عن الآخرين- ضرًا و لا- نفعًا، و يجعلونها إلى جانب الله سبحانه و تعالى و يقرونها به تعالى، و يلجأون إليها لحلّ مشاكل حياتهم؟ نعم، فهم يلجأون إليها لتكون عزًا لهم: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ

و يتوهمون أنها تشفع لهم عند الله و يعبدون من دون الله ما لا يضرهم و لا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

على كل حال، فإن جميع هذه الأوهام نقش على الماء، و كما يقول القرآن الكريم في الآية (١٩٢) من سورة الأعراف: و لا يستطيعون لهم نصراً و لا أنفسهم ينصرون .

و عليه تضيف الآية التالية: إن المعبودات لا تستطيع نصره المشركين، و سيكون هؤلاء المشركون جنوداً مجنّده يتقدمونها إلى جهنم: لا يستطيعون نصرهم و هم لهم جندٌ محضرون .

و يا له من أمر أليم أن يصطف هؤلاء المشركون بصفوف تتقدمها تلك الأصنام ليدخلوا جهنم زمراً في ذلك اليوم العظيم، دون أن يستطيعوا حل عقده مشكله واحده من مشكلات هؤلاء المشركين في ذلك الموقف الرهيب.

التعبير بـ «مُحَضَّرُونَ» يكون عادة للتحقير، لأن إحصار الأفراد دون أن يكون لموافقتهم أو عدمها أثر إنما يدل على حقارتهم، و بناء على هذا التفسير فإن الضمير الأول «هم» في جملة و هم لهم جندٌ محضرون يعود على «المشركين»، و الضمير الثاني يعود على «الأصنام»، في حال أن بعض المفسرين احتملوا العكس بحيث تكون الأصنام و الأوثان هي التابعة للمشركين في يوم القيامة. و في نفس الوقت فإنهم -المشركين- ليس لهم في الأوثان أدنى أمل، و الظاهر أن التفسير الأول أنسب.

و على كل حال، فإن هذه التعابير تصدق فقط -على المعبودات الحيّة ذات الشعور كالشياطين و العصاة من الجنّ و الإنس، و لكن يحتمل أيضاً أن الله سبحانه و تعالى يبعث الروح في تلك الأصنام و الأوثان و يعطيها العقل و الشعور لكي توبّخ

هى أولئك الذين عبدوها فى الدنيا، و ضمنا نقول إن هذه الأوثان الحجرية و الخشبية ستكون هى الحطب الذى يؤجج على أولئك المشركين نار جهنم إنكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها و اردون . (١)

أخيرا- و فى آخر آيه من هذه الآيات، و لمواساه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و تثبيت فؤاده إزاء مكر المشركين، و الفتن و الأعمال الخرافيه- تقول الآيه الكريمة:

فَلَا يَخْزُنُكَ قَوْلُهُمْ

تاره يقولون شاعر، و اخرى ساحر و أمثال ذلك من التهم إننا نعلم ما يسرون و ما يعلنون .

فلا- تخفى علينا نواياهم، و لا- مؤامراتهم فى الخفاء، و لا- جحودهم و تكذيبهم لآياتنا فى العلن، نعلم بكل ذلك، و نحفظ لهم جزاءهم إلى يوم الحساب، و ستكون أنت أيضا فى أمان من شرهم فى هذه الدنيا.

و بهذا الحديث الإلهى المواسى يمكن لكل مؤمن أيضا- مضافا إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم- أن يكون مطمئن القلب بأن كل شىء فى هذا العالم هو بعين الله، و سوف لن يصيبه شىء من مكائد الأعداء، فهو تعالى لا يترك عباده المخلصين فى اللحظات و المواقف العصيبه، و هو دوما حام لهم و حافظ.

\*\*\*

## بحث

الثقافه التوحيديه تمنح عباد الله المؤمنين طريقه خاصه فى الحياه، تبعدهم عن السبل الملوته بالشرك القائمه على أساس عباده الأوثان، أو اللجوء إلى بعض البشر الضعاف.

و بصراحه و وضوح أكثر نقول: فى عالمنا اليوم و حيث تتحكم فى البشريه قدرتان من الشرق و الغرب، فإن الدول الصغيره-عاده- و كل ما عدا تلكم

ص: ٢٣٩

القدرتين ستفكر لأجل حفظ نفسها و البقاء بالاتكء على إحدى تلك القدرتين الصنمين، و تطلب حمايتها و الإفاده من قدرتها، فى حال أن التجارب أثبتت أن هاتين القدرتين عند بروز المشاكل و الحوادث المستعصيه و الاضطرابات لا تستطيع حل مشكلاتها و لا مشكلات من يدور فى فلكتها.

و ما أجمل ما يقوله القرآن واصفا هذه الحاله: **وَلَا يَسْتَبِيحُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ** ، و هذا تحذير لجميع المسلمين و سالكى طريق التوحيد الخالص، بأن يتعدوا عن تلك الأصنام، و يلجأوا إلى ظلّ اللطف الإلهى، و أن يعتمدوا على أنفسهم، و على طاقه الإيمان، و أن لا- يدعوا طريقا لهذه الأفكار الإشراكية الملوثة تصل إلى فكرهم بحيث يلجأون إلى تلك القدرات و يستنجدونها فى الملمات، و أن يطهروا الثقافه الإسلاميه و المجتمعات الإسلاميه من هذه الأفكار، و أن يعلموا بأنهم قد نالوا ضربات عديده حتى الآن نتيجة هذا المنطق- سواء أمام إسرائيل الغاصبه أو الأعداء الآخرين- فى حال أنه لو كان هذا الأصل القرآنى الأصل يحكم فيهم فإنّ حالهم لم تكن لتبلغ هذا المستوى من الهزيمة و الانكسار، آمليين أن نصل إلى اليوم الذى نعيد فيه بناء أفكارنا حسب المفاهيم و المبادئ القرآنيه، و أن نعتمد على أنفسنا، و نلجأ إلى ظلّ اللطف الإلهى فنعيش أعزاء مرفوعى الرؤوس أحرارا إن شاء الله.

\*\*\*

## اشاره

أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ إِذْ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)

## سبب النزول

نقلت أغلب التفاسير

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «جاء أبي بن خلف (أو العاص بن وائل) فأخذ عظاما باليا من حائط ففته ثم قال: إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا؟» فأنزل الله: قال مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .

## التفسير

قلنا أن البحوث المختلفه حول المبدأ و المعاد و النبوه فى سوره (يس) التى هى قلب القرآن وردت بشكل مقاطع مختلفه، فهذه السوره ابتدأت بمسأله النبوه، و اختتمت بسبعه آيات تمثل أقوى البيانات حول المعاد.

فى البدء تأخذ بيد الإنسان و تشير له إلى بدء حياته فى ذلك اليوم حيث كان نطفه مهينه لا- غير و تدعوه إلى التأمل و التفكير، فتقول: أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (١). يا له من تعبير حيوى؟ فالآيه تؤكّد أولاً على مخاطبه الإنسان، أيّا كان و أىّ إعتقاد كان يعتقد، و على أىّ مستوى كان من العلم، فهو يستطيع إدراك هذه الحقيقه.

ثمّ تتحدّث عن «النطفه» و التى هى لغويًا بمعنى «الماء المهين» لكى يعلم هذا الإنسان المغرور المتكبر-بقليل من التأمل- ماذا كان فى البدء؟ كما أنّ هذا الماء المهين لم يكن هو السبب فى نشوئه و ظهوره، بل خليه حيه متناهيه فى الصغر، لا- ترى بالعين المجرّده، من ضمن آلاف بل ملايين الخلايا الاخرى التى كانت تسبح فى ذلك الماء المهين، و باتّحادها مع خليه صغيره اخرى مستقرّه فى رحم المرأه تكوّنت الخليه البشريه الاولى، و دخل الإنسان إلى عالم الوجود! و تتواصل مراحل التكامل الجينى الواحد بعد الأخرى و التى هى سته مراحل كما نقلها القرآن الكريم فى بدايه سوره «المؤمنون» (النطفه، العلقه، المضعه، العظام، اكتساء العظام باللحم، و تمثّل الخلق السوى). ثمّ إنّ الإنسان بعد الولاده كائن ضعيف جدّا، لا يملك القدره على شىء، ثمّ يقطع مراحل نموّه بسرعه حتّى بلوغ الرشد الجسمانى و العلقى.

نعم، فهذا الوجود الضعيف العاجز، يصبح قويًا إلى درجه أن يجيز لنفسه النهوض لمحاربه الدعوات الإلهيه، و ينسى ماضيه و مستقبله، ليكون مصداقًا حيا لقوله تعالى: فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. و اللطيف أنّ هذا التعبير يتضمّن جنبتين، إحداهما تمثّل جانب القوّه، و الاخرى جانب الضعف، و يظهر أنّ القرآن الكريم أشار إليهما جميعًا.

إنّ هذا العمل لا يكون إلاّ من إنسان يملك عقلا و فكرا و شعورا و استقلالًا

ص: ٢٤٢

١- ١) - «خصيم» بمعنى المصّر على الخصومه و الجدل، و (الرؤيه) بمعنى (العلم).

و إرادته، و نعلم بأن أهمّ مسأله فى حياه الإنسان هى التكلم و الحديث الذى يهياً محتواه مسبقا فى الذهن، ثم يصبّ فى قالب من العبارات و يطلق باتّجاه الهدف كالرصاص المنطلق من فوهه البندقية، و هذا العمل لا- يمكن حدوثه فى أى كائن حتى عدا الإنسان.

و بذلك فإنّ الله سبحانه و تعالى يجسّد قدرته فى إعطاء هذا الماء المهين هذه القوّه العظيمة.. هذا من جانب.

و من جانب آخر فإنّ الإنسان مخلوق مغرور و كثير النسيان، فهو يستغلّ كلّ هذه النعم التى أولاها إِيّاه ولى نعمته ضدّه فى المجادله و المخاصمه، فيا له من مغفلٍ أحمق!! و يكفى لمعرفة مدى غفلته و حمقه أنّه جاء: وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (١).

المقصود من ضرب المثل هنا، نفس المعنى بدون التشبيه و الكنايه. فالمقصود هو الاستدلال و ذكر مصداق لإثبات مطلب معيّن. نعم فإنّ (أبى بن خلف أو اميّه بن خلف. أو العاص بن وائل) كان قد وجد قطعه متفسّخه من عظم لم يكن معلوما لمن؟ و هل مات موتا طبيعيا؟ أو فى واحده من حروب العصر الجاهلى المهوله؟ أو مات جوعا؟ و ظنّ أنّه وجد فيه دليلا- قويا لنفى المعاد! فحمل تلك القطعه من العظم و ذهب حانقا و فرحا فى نفس الوقت و هو يقول: لأخصمن محمّدا.

فذهب إلى الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو فى عجله من أمره ليقول له: قل لى من ذا الذى يستطيع أن يلبس هذا العظم البالى لباس الحياه من جديد؟ و فتّ بيده قسما من العظم و ذرّه على الأرض، و اعتقد بأنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم سيتخيّر فى الجواب و لا يملك ردّا!!!

ص: ٢٤٣

---

١ - ١) - «رميم» من مادّه (رم) و هو إصلاح الشىء البالى، و «الرّمّه» تختص بالعظم البالى، و «الرّمّه» تختص بالحبل البالى، (مفردات الراغب مادّه (رم) صفحہ ٢٠٣).

و الجميل أن القرآن الكريم أجابه بجمله وجيزه مقتضبه و هي قوله تعالى:

وَ نَسِيَ خَلْقَهُ

.و إن كان قد أردف مضيفا توضيحا أكثر.

فكأنه يقول: لو لم تنس بدء خلقك لما استدلت بهذا الاستدلال الواهي الفارغ أبدا.

أيها الإنسان الكثير النسيان، عد قليلا- إلى الوراء و انظر في خلقك، كيف كنت نطفه تافهه و كل يوم أنت في لبس جديد من مراحل الحياه، فأنت في حال موت و بعث مستمرين، فمن جماد أصبحت رجلا بالغا، و بكميته من عالم النبات الجامد، و من عالم الحيوان الميت أيضا أصبحت إنسانا، و لكنك نسيت كل ذلك و صرت تسأل: من يحيي العظام و هي رميم؟ ألم تكن أنت في البدء ترابا كما هو حال هذه العظام بعد تفتيتها؟! لذا فإن الله سبحانه و تعالى يأمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بأن يقول لهذا المغرور الأحمق الناسي قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ .

فإذا كان بين يديك اليوم بقيه من العظام المتفتتة تذكرك به، فقد مرّ يوم لم تكن فيه شيئا و لا حتى ترابا، نعم، أ فليس سهلا على من خلقك من العدم أن يعيد الحياه إلى العظام المهترئه؟! و إذا كنت تعتقد بأن هذه العظام بعد تفتتها تصبح ترابا و تنتشر في الأصقاع، فمن يستطيع عند ذلك أن يجمع تلك الأجزاء المبعثره من نقاط انتشارها؟ فإنّ الجواب على ذلك أيضا واضح: وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .

فمن كان له مثل هذا(العلم) و هذه(القدرة) فإنّ مسأله المعاد و إحياء الموتى لا تشكّل بالنسبه إليه أيه مشكله. فنحن نستطيع بقطعه من «المغناطيس» جمع براده الحديد المبتوثة في كميته من التراب و في لحظات، و الله العالم القادر يستطيع كذلك بأمر واحد أن يجمع ذرات بدن الإنسان من كل موضع كانت فيه من الكره الأرضيه. فهو العالم ليس بخلق الإنسان فقط، بل هو العالم بنواياه و أعماله أيضا،



المحيط بكلّ شيء علما و هو على كلّ شيء قدير و عليه فإنّ الحساب على الأعمال و النوايا و الإعتقادات المضمرة لا يشكّل له.

و عليه فإنّ الحساب على الأعمال و النوايا و الإعتقادات المضمرة لا يشكّل له تعالى أدنى مشكله أيضا، فكما ورد في الآية (٢٨٤) من سورة البقرة: **وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللّهُ .**

و كذلك حينما أظهر فرعون شكّا في قدره الله على المعاد و إحياء القرون السابقه، أجابه موسى عليه السلام: **قَالَ عَلَّمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي . (١) \*\*\***

ص: ٢٤٥

اشاره

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠)

التفسير

تتابع هذه الآيه البحوث المختلفه حول المعاد و الإشارات العميقه المعنى حول مسأله إمكان المعاد و رفع أى استبعاد لذلك، و الآيه أعلاه شرح أوسع و أوضح حول هذه المسأله، تقول: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ و ياله من تعبير رائع ذلك الذى كلما دققنا فيه أفاض علينا معانى أعمق و أدق؟! و كما نعلم فإن الآيات القرآنيه لها معان متعدده من أبعاد مختلفه-بعض معانيها واضح للغالبه من الناس فى كل زمان و مكان، و بعضها عميق يختص بفهمه البعض، و أخيرا فإن بعضها الآخر يتمثل فيه العمق الذى لا- يستطيع سبر غوره إلا- الخواص من العباد، و فى نفس الوقت فإن تلك المعانى لا تنافى بعضها البعض، بل إنها تجمع كلها فى قالب واحد و فى آن واحد. و الآيه مورد البحث هكذا تماما.

التفسير الأول الذى قال به الكثير من المفسرين القدماء. و هو بسيط و واضح

يمكن فهمه و استيعابه من قبل الغالبية و هو: أنّ المراد هو شجر «المرخ و العفار» الذى كان العرب قديما يأخذون منهما على خضرتهما، فيجعل العفار زندا أسفل و يجعل المرخ زندا أعلى، فيسحق الأعلى على الأسفل فتندح النار بإذن الله.

و فى الواقع فهو يمثّل الكبريت فى عصرنا الحالى. و الله سبحانه و تعالى يريد القول بأنّ الذى يستطيع إشعال النار من هذا الشجر الأخضر له القدره على إلباس الموتى لباس الحياه.

فالماء و النار شيئان متضادان، فمن يستطيع جعلهما معا فى مكان واحد، قادر على جعل الحياه و الموت معا فى مكان واحد. فالذى يخلق (النار) فى قلب (الماء) و (الماء) فى قلب (النار) فمن المسلّم أنّ إحياء بدن الإنسان الميت لا يشكّل بالنسبه له أدنى صعوبه.

و إذا خطونا خطوه أبعد من هذا التفسير فسوف نصل إلى تفسير أدقّ و هو: أنّ خاصيّه توليد النار بواسطه خشب الأشجار، لا تنحصر بخشب شجرتى «المرخ و العفار» بل إنّ هذه الخاصيه موجوده فى جميع الأشجار و جميع الأجسام الموجوده فى هذا العالم و إن كان لشجرتى المرخ و العفار - لتوفّر خصائص فيها - استعداد أكثر من غيرهما على هذا الأمر.

خلاصه القول، إنّ جميع خشب الأشجار إذا حكّ ببعضه بشكل متواصل فإنّه سيطلق شرر النار و حتّى (خشب الشجر الأخضر).

لهذا السبب تقع فى بعض الأحيان حرائق هائله فى بعض الغابات المليئه بالأشجار، لا - يعرف لها سبب من قبل الإنسان، إلا أنّ هبوب الريح الشديده التى تضرب أغصان الأشجار ببعضها بشده ممّا يؤدّى إلى انقذاح شرر منها يؤدّى إلى اشتعال النار فيها، و تساعد الريح الشديده على سرعه انتشارها، فالعامل الأصلي كان تلك الشراره الناتجه عن الاحتكاك.

هذا التفسير الأوسع، هو الذى يوضّح عمليه جمع الأضداد فى الخلق. و يبسط

مفهوم وجود (البقاء) في (الفناء) و بالعكس.

لكن ثمّة تفسير ثالث يعتبر أعمق بكثير من التفسيرين السابقين. و الذي ظهر إلى الواقع نتيجة جهود العلماء في عصرنا الحاضر و قد اخترنا أن نطلق عليه تسميه «انبعاث الطاقة».

و توضيح ذلك كما يلي: إنّ من أهمّ الوظائف التي تقوم بها النباتات هي عملية «التركيب الضوئي» و التي تعتمد أساسا على أخذ غاز «ثاني أكسيد الكربون» من الهواء، و الإفاده منه بواسطة «المادّة الخضراء» أو ما يسمّى «بالكلورفيل» لصنع الغذاء بمساعدة الماء و ضوء الشمس. ذلك الغذاء الذي يؤدّي إلى تكوّن حلقات السليلوز في النباتات من ذوات الفلقتين، و يكون ناتج عملية التركيب الضوئي الأوكسجين الذي يطلق في الهواء مرّه اخرى.

و لو نظرنا إلى العملية بطريقه اخرى فإنّ النباتات تأخذ الغاز (ثاني أكسيد الكاربون) و تجزّئه أثناء عملها لتحتفظ بالكاربون مركبا مع غيره من الماء لتكوّن الخشب و تطلق الأوكسجين.

و المهمّ هنا أنّ العلماء يقولون: بأن أيّه عملية تركيب كيميائي تحتاج إلى طاقه ما لكي يتمّ ذلك التفاعل الكيميائي، أو أنّ ذلك التفاعل يؤدّي إلى إطلاق طاقه كنتاج عنه. و بناء عليه فإنّ التفاعل الذي يتمّ نتيجة التركيب الضوئي إنّما يستفيد من الشمس كمصدر للطاقة لإتمام التفاعل.

و عليه فالشجره إنّما تقوم بادّخار هذه الطاقه في الخشب الذي يتكوّن نتيجة لهذه العملية. و عند ما نقوم نحن بحرق هذا الخشب فإنّنا نقوم بإطلاق عقال هذه الطاقه المدّخره. و بذا فإنّنا نقوم بإعادة تركيب (الكاربون) مع (الأوكسجين) لينتج (ثاني أكسيد الكاربون) الذي ينطلق في الهواء مرّه اخرى، بالإضافة إلى بخار الماء.

و لو تحدّثنا بلغه اخرى لقلنا: إنّ تلك الحراره الناجمه عن اشتعال الحطب في

المواقد البيتيه القرويه أو مواقد الفحم التي نستعملها في بيوتنا أحيانا للتدفئه في فصل الشتاء،هي في الحقيقه حراره و نور الشمس التي ادّخرت في خشب هذه الأشجار لسنوات،و ما جمعته الشجره على مدى عمرها من الشمس تعيده دفعه واحده بدون نقص.

و يقال إنّ كلّ الطاقات في الكره الأرضيه تعود إلى الشمس أساسا،و واحد من مظاهره ما ذكرنا.

و هنا و حيث بلغنا«انبعاث الطاقات»نلاحظ أنّ النور و الحراره المبعثره في الجو و التي تقوم الأشجار بجمعها في أخشابها لتنمو فإنّها لا تفنى أبدا.بل إنّها تتبدّل شكلا.و تختفى بعيدا عن أعيننا في كلّ ذرّه من ذرّات الخشب،و عند ما نقوم بإيقاد النار بقطعه من الحطب،فإنّ انبعاثها يبدأ،و جميع ما كان في ذرّات الخشب من النور و الحراره و طاقه الشمس،في تلك اللحظه-لحظه الحشر و النشر-تظهر من جديد.بدون أن ينقص منه حتّى بمقدار إضاءه شمعه واحده (تأمل بدقّه).

لا- شكّ أنّ هذا المعنى كان خافيا على عوام الناس حين نزول الآيه،و لكن- كما قلنا-فإنّ هذا الموضوع لا- يشكّل أدنى مشكله،لأينّ آيات القرآن لها معان متعدّده و على مستويات مختلفه،لاستعدادات متفاوته،ففي يوم يفهم من الآيه معنى،و اليوم يفهم منها معنى أوسع،و يمكن أنّ الأجيال القادمه تفهم منها معنى أوسع و أعمق،و في نفس الوقت فكلّ هذه المعاني صحيحه و مقبوله بشكل كامل و مجموعه كلّها في معنى الآيه.

\*\*\*

## مسألان

### اشاره

#### ١- شجر أخضر..لماذا؟

يرد على الذهن أنّه لماذا عبّر القرآن هنا بالشجر الأخضر؟في حين أنّ توليد

النار من الخشب الطرى و الرطب يتم بصعوبه بالغه،فكم كان جميلا لو عبر عوضا عن ذلك«بالشجر اليابس»،لكى ينسجم مع المعنى تماما!!؟ النكته هنا هو أنّ الشجر الأخضر الحى فقط يستطيع القيام بعملية التركيب الضوئى،و ادّخار نور الشمس و حرارتها،و أما الجذوع اليابسه للشجر لو بقيت مئات السنين متعرّضه للشمس فإنّها لن تستطيع زياده الذخيره الموجوده فيها.

و بناء عليه فإنّ(الشجر الأخضر)فقط يستطيع أن يصنع وقودا لنا،و يمكنه الاحتفاظ و ادّخار الحراره و النور و زيادتها بصوره محوّره،و لكنّها بمحض جفافها،فإنّ عمله التركيب الضوئى تتوقّف،و تتعطّل معها عمله ادّخار الطاقه الشمسيه.

و بناء على هذا فإنّ التعبير أعلاه،يعتبر تجسيدا جميلا لعملية«انبعاث الطاقات» و معجزه علميه خالده للقرآن الكريم!..

فضلا عن أنّنا إذا رجعنا إلى التفسيرات الاخرى التى أشرنا إليها سابقا،يبقى أيضا التعبير ب«الشجر الأخضر»جميلا و مناسبا،إذ أنّ الأشجار الخضراء عند احتكاكها ببعضها البعض تولّد شراره تستطيع أن تكون مبعث نار كبيره،و هنا نقف إزاء عظمه قدره الله فى حفظه النار فى قلب الماء،و الماء فى قلب النار (1).

## ٢-الفرق بين الوقود و الوقود:

«توقدون»من«وقود»-على زنه قبور-بمعنى اشتعال النار-و«الإيقاد» بمعنى إشعال النار،و«الوقود»-على زنه ثمود-بمعنى الحطب المعدّ للإحراق.

و عليه فإنّ جمله فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَقَّدُونَ إشاره إلى الحطب الذى تشتعل فيه النار،لا- ما تبدأ به النار بالاشتعال كالزناد أو عود الكبريت.

و بناء عليه فإنّ القرآن الكريم يقول:«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى جَعَلَ لَكُمْ مِنْ

ص : ٢٥٠

(١ - ١) - إذا اعتبرنا«من»فى جمله«منه توقدون»بمعنى«به»فإنّ ذلك يتساق مع التفسيرات الاخرى.

الشجر الأخضر حطبا توقدونه، و هو القادر على إعادته الموتى إلى الحياه» و هذا التعبير ينسجم تماما مع ما قلناه من «بعث الطاقات»  
«تأمل بدقه»!! و على كل حال، فإنّ مسأله إشعال النار فى خشب الأشجار مع أنّها مسأله بسيطه فى نظرنا، و لكن بقليل من الدقه  
نعلم أنّها من أعجب المسائل، لأنّ المواد التى يتشكّل منها خشب الأشجار فى أغلبها ماء و تراب، و كلاهما غير قابل للاشتعال، فما  
هى تلك القدره التى خلقت من الماء و التراب و الهواء- و هى مواد- طاقه لا زالت حياه البشر و منذ آلاف السنين مرتبطه بها  
بقوّه!\*\*\*

ص: ٢٥١

اشاره

أَو لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

التفسير

اشاره

هو المالك و الحاكم على كل شيء!!

بعد ذكر دلائل المعاد و الفات الأنظار إلى الخلق الأول، و نشوء النار من الشجر الأخضر في الآيات السابقة، تتابع الآيه الاولى هنا بحث ذلك الموضوع من طريق ثالث و هو قدره الله اللامتناهيه، فتقول الآيه الاولى: أَو لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

الجملة الاولى بشروعها (بالاستفهام الإنكاري) تطرح سؤالاً- على الوجدان اليقظ و العقل السليم كالاتي: ألم تتطلعوا إلى تلك السماء المتراميه العظيمه بكل ثوابتها و سياراتها العجيبه، و بكل تلك المنظومات و المجرات التي تشكل كل زاويه منها دنيا واسعه هائله؟ فالذي هو قادر على خلق كل هذه العوالم الخارقه



فى العظمه و المتناهيه التنظيم و الدقه فى قوانينها، كيف لا- يكون قادرا على إحياء الموتى؟ و لكون الجواب على هذا السؤال واضحا، و كامنا فى كل قلب و روح، فإن الآيه لا تنتظر الجواب، إنما تردف مضيّفه «بلى» و تتابع مؤكده على صفتين لله سبحانه و تعالى- الخالقيه و العلم المطلق- و ذلك فى حقيقته دليل على الكلام المتقدم، فإذا كنتم تشكّون فى قدرته على الخلق فهو «الخالق» (و هى صيغه مبالغه).

و إذا كان جمع هذه الذرات يحتاج إلى علم أو معرفه فهو «العليم» المطلق.

أما على ماذا يعود الضمير فى «مثلهم» فقد احتمل المفسرون احتمالات عديده، و لكن أشهرها هو القول بعوده الضمير على «البشر» و المعنى: إن خالق السماء و الأرض قادر على خلق مثل البشر.

و هنا يأتى السؤال التالى و هو لماذا لم يقل: قادر على أن يخلقهم من جديد، بل قال: بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟ و للإجابة على هذا السؤال ذكرت أجوبه كثيره، يبدو أقربها: أن بدن الإنسان عند ما يتحوّل- أو بالأحرى يتحلّل- إلى تراب، فإنّه يفقد صورته النهائيه التى كان عليها، و فى يوم القيامة عند ما يعاد خلق هذا الإنسان من جديد، فإنّه سيخلق من نفس المواد و لكن بصوره جديده تشبه صورته القديمه، بلحاظ أنّ عوده نفس صورته القديمه- بالأخصّ إذا أخذنا فى الإعتبار قيد الزمن- غير ممكن، و خصوصا إذا علمنا- مثلا- أنّ الإنسان لا يحشر بجميع المواصفات و الكيفيه التى كان عليها سابقا، فإن الشبيه و الشيوخ- مثلا- يحشرون شبّانا، و المعلولين يحشرون سالمين، و هكذا.

و بتعبير آخر، فإنّ بدن الإنسان كالتابوق الطينى غير المفخور- اللبن- الذى يمرّ عليه الزمان فيتهدّم و يصبح ترابا، ثمّ يجمع من جديد و تصنع منه خميره الطين و يوضع فى قالب مرّه اخرى و يصنع لبنا جديدا مرّه اخرى. فهذا «اللبن» هو من

جانب نفس «اللبين» القديم و من جانب آخر «مثله» «مادته هي نفس المادّه و الصوره مثل الصوره السابقه» «دقق النظر» (١).

الآيه اللاحقه تأكيد على ما ورد في الآيات السابقه، و تأكيد على حقيقه أنّ أى خلق و إيجاد بالنسبه لله سبحانه و تعالى و قدرته سهل و بسيط، و خلق السموات العظيمه و الكره الأرضيه يعادل في سهولته إيجاد حشره صغيره، فكلاهما بالنسبه له تعالى أمر هين بسيط، يقول تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**، فكلّ شىء مرتبط بأمره و إشارته فقط، و ذات بهذه القدره كيف يشكّ في تمكّنها في إحياء الموتى؟! و بديهي أنّ الأمر الإلهي هنا ليس أمراً لفظياً، كما أنّ جملة «كن» ليست جملة بينها الله سبحانه و تعالى بصوره لفظ، لأنّه تعالى لا يحتاج إلى تلك الألفاظ، بل المقصود هو مجرد إرادته لإيجاد و إبداع شىء، و إنّما استخدم التعبير ب«كن» لأنّه ليس هناك تعبير أقصر و أصغر و أسرع يمكن تصوّره في التعبير عن تلك الحقيقه.

نعم إرادته لإيجاد شىء و وجود هذا الشىء هي عمليه واحده.

و بتعبير آخر: فإنّ الله سبحانه و تعالى ما إن يرد شيئاً إلّا تحقّق فوراً، و ليس بين إرادته و وجود ذلك الشىء أيّه فاصله، و عليه فإنّ «أمره» و «قوله» و جملة «كن» كلّها توضيح لمسأله الخلق و الإيجاد. و كما ذكرنا فإنّ الأمر ليس لفظياً أو قولياً، بل كلّها توضيح للتحقّق السريع بوجود كلّ ما أراه سبحانه و تعالى.

و بيان أوضح، أنّ أفعال الله سبحانه و تعالى تمرّ بمرحلتين لا ثالث لهما، مرحله

ص: ٢٥٤

١ - ١) - بعض المفسّرين أعادوا الضمير في «مثلهم» على السموات و الأرض، و قالوا بأنّ استعمال ضمير الجمع العاقل لوجود الموجودات العاقله في الأرض و السماء كثير. البعض الآخر استنتج من استخدام كلمه «مثلهم» عدم ضروره عوده عين الجسم بمواده التي كان يتشكّل منها في الدنيا، لأنّ شخصيه الإنسان تتعلّق بروحه، و هذه الروح بأى مادّه تعلّقت تكون مثل الإنسان. و لكن يجب الالتفات إلى أنّ الكلام لا ينسجم مع ظاهر آيات القرآن الكريم - حتّى أنّه لا ينسجم مع ظاهر الآيات مورد البحث - لأنّ القرآن الكريم يقول بصراحه في هذه الآيات: **إنّه يخلق نفس تلك العظام المتفسّخه من جديد و يلبسها ثوب الحياه. «تأمل!!»**.

الإرادة و مرحله الإيجاد، و هي التي عبّرت عنه الآية بشكل أمر في جملة «كن».

بعض المفسّرين القدماء توهموا أنّ المعنى يشير إلى وجود قول و لفظ في عملية الإيجاد و الخلق، و اعتبروا ذلك من أسرار الخلق غير المعروفه، و الظاهر أنّهم وقعوا في عقده اللفظ، و بقوا بعيدين عن المعنى، و قاسوا أعمال الله على مقاييسهم البشرية.

و ما أجمل ما

قاله أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاه و السلام في واحده من خطبه التي أوردت في نهج البلاغه: «يقول لما أراد لما كونه كن فيكون (١) لا- بصوت يقرع، و لا- بنداء يسمع، و إنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، و مثله لم يكن من قبل ذلك كائناً، و لو كان قديماً لكان ثانياً» (٢).

ناهيك عن أنّنا لو افترضنا وجود لفظ أو قول في عملية الخلق فسنواجه إشكالين أساسيين:

الأوّل: أنّ (اللفظ) بحدّ ذاته مخلوق من مخلوقات الله و لأجل إيجاده يحتاج سبحانه إلى «كن» اخرى، و نفس الكلام ينطبق على «كن» الثانيه بحيث نصبح في عملية تسلسل غير منتهيه.

الثاني: أنّ كلّ خطاب يحتاج إلى مخاطب، و في الوقت الذي لم يوجد فيه شيء حينذاك فكيف يخاطبه الله سبحانه و تعالى بالقول «كن»، فهل أنّ المعدوم يمكن مخاطبته؟! و قد ورد في آيات اخرى من القرآن الكريم نفس هذا المعنى بتعبيرات اخرى، كما في الآية (١١٧) من سوره البقره: وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، و كذا في الآية (٤٠) من سوره النحل: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

ص: ٢٥٥

١- ١) -ورد في بعض النسخ «لمن أراد» و يبدو أن الأنسب هو النص الذي أوردناه «لما أراد».

٢- ٢) -نهج البلاغه، خطبه ١٨٦.

الآيه الأخيره من هذه الآيات و هى فى ذات الوقت آخر آيه من سورہ «يس» تنهى البحث فى مسأله المبدأ و المعاد بشكل جميل و بطريقه الاستنتاج الكلى فتقول: فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ «ملكوت» من أصل «ملك» -على وزن حكم- بمعنى الحكومه و المالكيه، و إضافه (الواو) و (التاء) إليها للتأكيد و المبالغه، يتّضح أنّ معنى الآيه كما يلى: إنّ الحاكميه و المالكيه المطلقه بدون أدنى قيد أو شرط بيد قدرته المطلقه، و كذلك فإنّ الله سبحانه منزّه و مبرّأ عن أى عجز أو نقص فى قدره، و بهذا الشكل فإنّ إحياء الموتى و إلباس العظام المتفسّخه لباس الحياه من جديد، كلّ ذلك لن يشكّل لديه أيّه مشكله، و لذلك فاعلموا يقينا أنّكم إليه ترجعون و أنّ المعاد حقّ.

\*\*\*

## بحوث

## إشارة

لقد تقدّمت منّا الوعود بأن نتعرّض لبحث مركزى فى مسأله المعاد فى ختام سورہ (يس) و ها نحن نفى بهذه الوعود و نشبع هذه المسأله بحثا من خلال ستّه مباحث لنعرضها للقراء الأعزّاء كما يلى:

### ١- الإعتقاد بالمعاد أمر فطرى:

إذا كان الإنسان قد خلق للفناء فيجب أن يكون عاشقا للفناء، و أن يلتذّ بنهايه عمره و بموته فى حين أنّنا نرى أنّ الموت بمعنى الفناء لم يكن سارا للإنسان فى أى وقت، و هو يفزّ منه بكلّ وجوده.

ص: ٢٥٦

إنَّ السعى لإبقاء أجسام الموتى عن طريق التحنيط، و بناء المقابر الخالده كأهرام مصر، و الجرى وراء ما يسمّى بماء الحياه و دواء الشباب و ما يطيل العمر، كل ذلك دليل على عشق الإنسان لمفهوم البقاء.

فإذا كُنّا قد خلقنا للفناء فما معنى حبّ البقاء سوى أنّها علاقه شاغله بلا جدوى و لا فائده.

لا- تنسوا أنّنا نتابع البحث فى مسأله المعاد بعد الاتفاق على الإعتقاد بوجود الله الحكيم العالم، و نحن نعتقد بأنّ كلّ ما خلقه الله سبحانه و تعالى فى وجودنا إنّما هو وفقا لحساب و غرض، و بناء عليه فإنّ عشق البقاء لا بدّ أن يكون له حساب خاصّ، منسجم مع الخلق و العالم بعد الدنيا.

و بتعبير آخر: فلو أنّ نظام الخلق أوجد فينا عطشا. فإنّ ذلك دليل على أنّ للماء وجودا فى العالم الخارجى، كذلك فإنّ وجود الغريزه الجنسيه و الميل إلى الجنس الآخر يدلّ على وجود الجنس الآخر فى العالم الخارجى، و إلّا فإنّ الانجذاب بدون أن يكون له مدلول و موضوع خارجى لا يتفق مع حكمه الخلق.

و من جهه اخرى فعند ما نبحث فى التأريخ البشرى منذ أيام نشأه ذلك التأريخ فإننا نجد دلائل كثيره على الإعتقاد الراسخ لدى الإنسان بالحياه بعد الموت.

فالآثار التى وصلت إلينا من البشر الغابرين- و حتّى إنسان ما قبل التأريخ- و بالأخصّ طريقه دفن الموتى، و كيفية بناء القبور، و حتّى دفن الأشياء المختلفه مع الموتى، كلّها دليل على ما ترسّخ فى وجدانهم من الإعتقاد بالحياه بعد الموت.

«صاموئيل كنيك» أحد علماء النفس المعروفين يقول: «إنّ التحقيقات الدقيقه تشير إلى أنّ المجموعات البشريه الاولى على سطح الأرض، كانت لهم اعتقادات معينه، لأنّهم كانوا يلحدون موتاهم بطريقه معينه فى الأرض، و يضعون معهم وسائل و آلات أعمالهم التى كانوا يمارسونها قبل الموت إلى جانبهم، و بهذه

الطريقه فإنهم يثبتون اعتقادهم بوجود عالم ما بعد الموت» (١).

فهؤلاء اعتقدوا بالحياه بعد الموت، و إن كانوا قد سلكوا طريقا خاطئا فى اعتقادهم كتوهمهم أنّ تلك الحياه شبيهه بهذه الحياه تماما.

على كلّ حال، فلا يمكن قبول أنّ ذلك الاعتقاد القديم مجرد وهم أو نتيجة للتلقين و العاده.

و من جهه ثالثه، فإنّ وجود محكمه «الوجدان»، دليل آخر على فطريه الاعتقاد بالمعاد. فكلّ إنسان عند ما ينجز عملا حسنا فإنّه يستشعر فى أعماقه و فى وجدانه الطمأنينه التى لا يمكن أحيانا وصفها بأى بيان أو كلام.

و على العكس عند ما يرتكب الذنوب و خصوصا الجنايات الكبرى، فإنّه يستشعر عدم الراحة، إلى حد تصل الحاله فى البعض إلى الانتحار، أو يسلموا أنفسهم إلى المحاكم لنيل العقاب و التعلّق على أعواد المشاق.

كلّ ذلك دليل على عذاب الضمير و الوجدان.

و للإنسان أن يسأل نفسه: كيف يمكن أن يكون عالم صغير كعالم النفس له تلك المحكمه، و لا يكون لهذا العالم العظيم مثل هذا الوجدان و هذه المحكمه؟! و بهذا الشكل يتّضح أنّ الاعتقاد بمسأله المعاد و الحياه بعد الموت أمر فطرى، و من عدّه طرق:

من طريق العشق البشرى العام للبقاء.

و من طريق وجود ذلك الاعتقاد بالحياه بعد الموت على طول التاريخ البشرى.

و من طريق وجود النموذج المصغّر لها فى داخل الإنسان.

## ٢- أثر الاعتقاد بالمعاد على حياه البشر:

إنّ الاعتقاد بعالم ما بعد الموت و بقاء آثار الأعمال البشريه، و خلود الأعمال-

ص: ٢٥٨

سواء كانت خيرا أو شرا-يترك أثره العميق على فكر و أعصاب و جسد الإنسان، و يمكنه أن يكون عاملا مؤثرا في التشجيع على الأعمال الحسنه.

إن تأثير الإيمان بالحياه بعد الموت في إصلاح الأفراد الفاسدين و المنحرفين و تشجيع الأفراد المضحين و المجاهدين، أكثر بكثير من تأثير المحاكم و العقوبات المعمول بها عاده في الدنيا، للمزايا التي يتمتع بها ذلك الإيمان عن المحاكم العاديه، ففي محكمه المعاد لا وجود لإعاده النظر، و لا أثر للاضطهاد الفكرى على صاحبها، و لا فائده من إعطاء و ثائق كاذبه و مزوره، و لا تستغرق- عبر روتينها- مدّه من الزمن.

القرآن الكريم يقول: وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (١).

كذلك يقول تعالى: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢).

كذلك قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣).

و إن حسابه تعالى سريع و حاسم كما نقلت بعض الروايات: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْسَبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا فِي مِقْدَارِ لَمَحِ الْبَصْرِ» (٤).

و لهذا السبب فقد اعتبر القرآن الكريم أن سبب الكثير من الذنوب هو نسيان يوم الجزاء، فقال تعالى: فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا (٥).

حتى أنه يستفاد من بعض الآيات أن الإنسان إذا كان معتقدا بالقيامه فإنه يمتنع عن القيام بالكثير من الأعمال المخالفه، فقد ورد في وصفه تعالى لمن يخسرون

ص: ٢٥٩

١-١ (١) - البقره، ٤٨.

٢-٢ (٢) - يونس، ٥٤.

٣-٣ (٣) - إبراهيم، ٥١.

٤-٤ (٤) - مجمع البيان، المجلد ١، صفحه ٢٩٨، تفسير سوره البقره الآيه ٢٠٢.

٥-٥ (٥) - السجده، ١٤.

الميزان في البيع قوله تعالى: أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (١).

والحماسه الخالده لمجاهدى الإسلام سابقا و حاضرا فى ميادين الجهاد، و التضحيه و الفداء و الإيثار الذى يظهره الكثير من المسلمين فى الدفاع عن بلدان الإسلام و عن المحرومين و المستضعفين، يدلُّ على أنه بجميعة انعكاس لحاله الاعتقاد بالحياه الخالده فى الدار الآخرة، و قد دلَّت الدراسات من قبل المفكرين، و التجارب المختلفه على أنّ تلك المظاهر لا يمكن أن تكون- فى المقياس الواسع الشامل- إلا عن طريق العقيدة بالحياه بعد الموت.

فإنَّ المجاهد الذى منطقه قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ (٢). أى الوصول إلى إحدى السعادتين إما النصر أو الشهاده، و هو قطعاً مجاهد لا يقبل الهزيمه.

إنَّ الموت الذى يبعث على الوحشه لدى كثير من الناس، و حتّى أنّهم يحاذرون من ذكر اسمه أو كلّ ما يذكر به، ليس موحشا و لا قبيحا قطّ بالنسبه إلى المعتقدين بالحياه بعد الموت، بل إنه بالنسبه إليهم نافذه على عالم رحيب، و تحطّم القفص الدنيوى و كسر القيود الماديه التى تأسر الروح، و بلوغ الحرّيه المطلقه.

إنَّ مسأله المعاد تعتبر الخطّ الفاصل بين الإلهيين و الماديين، لوجود نظرتين مختلفتين هنا:

فالمادى يرى الموت فناء مطلقاً، و يفترّ منه بكلّ وجوده، لأنّ كلّ شىء سينتهى به.

و الإلهى يرى الموت ولاده جديده، و لوجا فى عالم واسع كبير مشرق، و الانطلاق فى السماء اللامحدوده. و من الطبيعى فإنَّ المعتقدين بهذا المذهب لا يفسحون المجال للخوف و الوحشه للدخول إلى أنفسهم عند سلوكهم طريق

ص: ٢٦٠

١-١) -المطّفين، ٤.

٢-٢) -التوبه، ٥٢.



الموت و الشهاده.بل إنهم يستلهمون من

قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب (عليه أفضل الصلاه و السلام) «و الله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه»  
(١) و يستقبلون الموت فى سبيل الهدف برحابه صدر.و لهذا فإن أمير المؤمنين حينما تلقى الضربه السامه من اللعين الخاسر«عبد الرحمن بن ملجم»لم يقل سوى

«فرت و ربّ الكعبه».

خلاصه القول:فإنّ الإيمان بالمعاد يجعل من الإنسان الخائف الضائع،إنسانا شجاعا شهما هادفا،تمتلى حياته بالحماسه و التضحيه و الصدق و التقوى.

### ٣-الدلائل العقليه على المعاد:

#### أشاره

فضلا عن الدلائل النقليه الكثيره على المعاد سواء الوارده فى القرآن المجيد، و التى تشمل مئات الآيات بهذا الخصوص،فإنّ هناك أدلّه عقليه واضحه أيضا على هذه المسأله،و التى نحاول ذكرها هنا بشكل مختصر:

#### أ-برهان الحكمه:

إذا نظرنا إلى هذا العالم بدون العالم الآخر،فسيكون فارغا و بلا معنى تماما، كما لو افترضنا بوجود الحياه فى الأطوار الجنينيه بدون الحياه فى هذه الدنيا.

فلو كان قانون الخلق يقضى بأنّ جميع المواليد الجدد يختنقون بمجرد نزولهم من بطون امهاتهم و يموتون،فإنّ الدور الجنينى سيكون بلا- معنى؟ كذلك لو كانت الحياه فى هذا العالم مبتوره عن الحياه فى العالم الآخر،فسنواجه نفس الاضطراب و الحيره،فما ضروره أن نعيش سبعين عاما أو أكثر أو أقل فى هذه الدنيا وسط كلّ هذه المشكلات؟فنبدا الحياه و نحن لا نملك تجربه معينه،و حين بلوغ تلك المرتبه يهجم الموت و ينتهى العمر..نسعى مدّه لتحصيل العلم و المعرفه،

ص: ٢٦١

و حينما نبلغ درجه منه بعد اشتعال الرأس شيئا يستقبلنا الموت.

ثمّ لأجل ماذا نعيش؟ الأكل و اللبس و النوم و الاستيقاظ المتكزّر يومياً، و استمرار هذا البرنامج المتعب لعشرات السنين، لماذا؟ فهل حقاً إنّ هذه السماء المتراميه الأطراف و هذه الأرض الواسعه، و كلّ هذه المقدمات و المؤخّرات و كلّ هؤلاء الأساتذه و المعلمين و المرّبين و كلّ هذه المكتبات الضخمه و كلّ هذه الأمور الدقيقه و الأعمال التي تداخلت في خلقنا و خلق باقي الموجودات، كلّ ذلك لمجرّد الأكل و الشرب و اللبس و الحياه الماديه هذه؟ هنا يعترف الذين لا يعتقدون بالمعاد بتفاهه هذه الحياه، و يقدم بعضهم على الانتحار للتخلّص من هذه الحياه الخاويه، بل قد يفتخر به.

و كيف يمكن لمن يؤمن بالله و بحكمته المتعاليه أن يعتبر هذه الحياه الدنيا وحدها بدون ارتباطها بحياه اخرى ذات قيمه و ذات شأن؟ يقول تعالى: **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١)**. أيّ أنّه لو لم يكن رجوع بعد هذه الدنيا إلى الله، فإنّ الحياه في هذه الدنيا ليست سوى عبث في عبث.

نعم فإنّ الحياه في هذه الدنيا تجد معناها و يكون لها مفهوما ينسجم مع حكمه الله سبحانه و تعالى عند ما تعتبر هذه:

«الدنيا مزرعه للآخره» و

«الدنيا قنطره» و مكان تعلّم، و جامعه للاستعداد للعالم الآخر و متجر لذلك العالم، تماماً كما

يقول أمير المؤمنين علي (عليه الصلاه و السلام) في كلماته العميقه المعنى «إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار عاقبه لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزوّد منها، و دار موعظه لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، و مصلى ملائكه الله، و مهبط وحي الله،

ص: ٢٦٢

و متجر أولياء الله» (١).

خلاصه القول، إنَّ الفحص و المطالعه فى وضع هذا العالم يؤدّى إلى الاعتقاد بعالم آخر وراء هذا العالم وَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ  
الْأُولَىٰ فَلَوْ لَا تَذَكَّرُونَ (٢).

## ب- برهان العدالة:

التدقيق فى نظام الوجود و قوانين الخلق، يستنتج منه أنّ كلّ شىء منها محسوب بدقّه متناهيه. ففى مؤسسه البدن البشرى، يحكم نظام عادل دقيق، بحيث أنّه لو تعرّض لأدنى تغيير أو عارض ما لأدى إلى إصابته بالمرض أو حتّى الموت، حركات القلب، دوران الدم، أجفان العين، و كلّ جزء من خلايا الجسم البشرى مشمول بهذا النظام الدقيق، الذى يحكم العالم بأسره «و بالعدل قامت السموات و الأرض» (٣) فهل يستطيع الإنسان أن يكون وحده النغمه النشاز فى هذا العالم الواسع؟! صحيح أنّ الله سبحانه و تعالى أعطى للإنسان بعض الحريه فى الإراده و الإختيار لكى يمتحنه و لكى يتكامل فى ظلّ تلك الحريه و يطوى مسير تكامله بنفسه، و لكن إذا أساء الإنسان الاستفاده من تلك الحريه فما ذا سيكون؟! و لو أنّ الظالمين الضالّين المضلّين بسوء استفادتهم من هذه الموهبه الإلهيه استمروا على مسيرهم الخاطى فما ذا يقتضى العدل الإلهى؟! و صحيح أنّ بعضا من المسيئين يعاقبون فى هذه الدنيا و يلقون مصير أعمالهم - على الأقل قسم منهم - و لكن المسلم أنّ جميعهم لا ينال جميع ما يستحقّ. كما أنّ جميع المحسنين الأطيب لا يتلقون جزاء أعمالهم الطيبه فى الدنيا، فهل من

ص: ٢٤٣

١-١) -نهج البلاغه،الكلمات القصار كلمه ١٣١.

٢-٢) -الواقعه، ٦٢.

٣-٣) -تفسير الصافى،المجلد الخامس،صفحه ١٠٧.

الممكن أن تكون كلاً- المجموعتين في كفه عداله الله سواء؟! و يقول القرآن الكريم: أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . (١)

و في موضع آخر يقول تعالى: أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . (٢)

على كل حال، فلا شك في تفاوت الناس و إطاعه أوامر الله سبحانه و تعالى، كما أن محاكم «القصاص و الثواب الدينوي» و «محكمه الوجدان» و «الآثار الوضعيه للذنوب» كل ذلك لا يكفي لإقرار العداله على ما يبدو، و عليه يجب القبول بأنه لأجل إجراء العداله الإلهيه يلزم وجود محكمه عدل عامه تراعى بدقه الخير أو الشر في حساباتها، و إلا فإن أصل العداله لا يمكن تأمينه أبداً.

و بناء على ما تقدم يجب الإقرار بأن قبول العدل الإلهي مساو بالضروره لوجود المعاد و القيامة، القرآن الكريم يقول: وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . (٣)

و يقول: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ . (٤)

### ج- برهان الهدف:

على خلاف ما يتوهمه الماديون، فإن الإلهيين يرون أن هناك هدفاً من خلق الإنسان، و الذي يعبر عنه الفلاسفه ب«التكامل» و في لسان القرآن و الحديث فهو «القرب إلى الله» أو «العباده» وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . (٥)

فهل يمكن تحقيق هذا الهدف إذا كان الموت نهايه لكل شيء؟!؟

ص: ٢٦٤

١- ١) - القلم، ٣٥، و ٣٦.

٢- ٢) - ص، ٢٨.

٣- ٣) - الأنبياء، ٤٧.

٤- ٤) - يونس، ٥٤.

٥- ٥) - الذاريات، ٥٦.

يجب أن يكون عالم بعد هذا العالم و يستمرّ فيه سير الإنسان التكاملى، و هناك يحصد ما زرع فى هذا العالم، و كما قلنا فى موضع آخر فإنّه فى ذلك العالم الآخر يستمرّ سير الإنسان التكاملى ليبلغ هدفه النهائى.

الخلاصه: أنّ تحقيق الهدف من الخلق لا- يمكن بدون الإعتقاد بالمعاد، و إذا قطعنا الارتباط بين هذا العالم و عالم ما بعد الموت، فكلّ شىء سيتحوّل إلى ألغاز، و سوف نفقد الجواب على الكثير من التساؤلات.

#### د- برهان نفي الاختلاف:

لا شكّ أنّنا جميعا نتعذّب كثيرا من الاختلافات بين المذاهب و العقائد فى هذا العالم، و كلنا نتمنى أن تحلّ هذه الاختلافات، فى حين أنّ جميع القرائن تدلّ على أنّ هذه الاختلافات هى من طبيعه الحياه. و يستفاد من عدّه دلائل بأنّه حتّى بعد قيام المهدي عليه السّلام- و هو المقيم لحكومته العدل العالميه و المزيل لكثير من الاختلافات- ستبقى بعض الاختلافات العقائديه بلا حلّ تامّ، و كما يقول القرآن الكريم فإنّ اليهود و النصارى سيقون على اختلافاتهم إلى قيام القيامة: فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعِيدَاوَةَ وَ الْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . (١)

و لكن الله سبحانه و تعالى الذى يقود كلّ شىء باتّجاه الوحده سينهى تلك الاختلافات حتما، و لوجود الحجب الكثيفه لعالم المادّه فى الدنيا فإنّه لا يمكن حلّ هذا الأمر بشكل كامل فيها، و نعلم أنّ العالم الآخر هو عالم الظهور و الانكشاف، إذن فنهايه هذه المسأله ستكون نهايه عمليه، و ستكون الحقائق جليه واضحه إلى درجه أنّ الاختلافات العقائديه ستحلّ بشكل نهائى تامّ.

الجميل أنّه تمّ التأكيد فى آيات متعدده من القرآن الكريم على هذه المسأله، يقول تعالى فى الآيه (١١٣) من سوره البقره: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

ص: ٢٦٥

و فى الآيات (٣٨) و(٣٩) من سورة النحل يقول تعالى:

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ  
وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ .

#### ٤- القرآن و مسأله المعاد:

تعتبر مسأله المعاد المسأله الثانيه بعد مسأله التوحيد و التى تعتبر المسأله الأساس فى تعليمات الأنبياء بخصائصها و آثارها التربويه، لذا ففى بحوث القرآن الكريم نجد أن أكثر الآيات اختصت ببحث مسأله المعاد، بعد الكثره الكاثره التى اختصت ببحث مسأله التوحيد.

و المباحث القرآنيه حول المعاد تاره تكون بشكل استدلالات منطقيه، و اخرى بشكل بحوث خطايه و تلقينه شديده الوقع بحيث أن سماعها فى بعض الأحيان يؤدى إلى قشعريره شديده فى البدن بأسره. و الكلام الصادق- كالأستدلالات المنطقيه- ينفذ إلى أعماق الروح الإنسانيه.

فى القسم الأول، أى الاستدلالات المنطقيه، فإن القرآن الكريم يؤكد كثيرا على موضوع إمكانية المعاد، إذ أن منكرى المعاد غالبا ما يتوهمون استحاله، و يعتقدون بعدم إمكانية المعاد بصوره معاد جسمانى يستلزم عوده الأجسام المهترئه و التراب إلى الحياه مره اخرى.

فى هذا القسم، يلج القرآن الكريم طرقا متنوعه و متفاوته تلتقى كلها فى نقطه واحده، و هى مسأله «الإمكان العقلى للمعاد».

فتاره يجسد للإنسان الشأه الأولى، و بعباره وجيزه و معبره واضحه تقول الآيه: **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . (١)**

ص: ٢٦٦

وتاره يجسد حياه و موت النبات، و بعثه الذى نراه بام أعيننا كل عام، و فى الختام يقول إن بعثكم تماما كالنبات: وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ ... وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ . (١)

و فى موضع آخر يقول تعالى: وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقِيَناهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ . (٢)

و حينما يطرح مسأله قدره الله سبحانه و تعالى على خلق السموات و الأرض فيقول: أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (٣)

و حينما آخر يعرض عمليه انبعاث الطاقه و اشتعال الشجر الأخضر كنموذج على قدرته، و جعل النار فى قلب الماء فيقول: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا . (٤)

وتاره يجسد أمام ناظرى الإنسان الحياه الجنينيه فيقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لُبِّينَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا . (٥)

و أخيرا فإن القرآن تاره يدل على البعث بالنوم الطويل-النوم الذى هو قرين الموت و أخوه، بل إنه الموت بعينه من بعض الجوانب-كنوم أصحاب الكهف الذى استمر ثلاثمائه و تسع سنين، و بعد تفصيل جميل حول النوم و اليقظه يقول:

ص: ٢٦٧

١-١) -سوره ق، ٩-١١.

٢-٢) -فاطر، ٩.

٣-٣) -الأحقاف، ٣٣.

٤-٤) -سوره يس، ٨٠.

٥-٥) -الحج، ٥.

وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُعَلِّمُوا أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا . (١)

تلك هي الأساليب السنه المختلفه التي طرحها آيات القرآن الكريم لبيان إمكانيه المعاد. علاوه على قصه إبراهيم عليه السلام و الطيور الأربعة (البقره-٢٦٠) و قصه عزيز (البقره-٢٥٩) و قصه الشهاده من بنى إسرائيل (البقره-٧٣)، و التي تشكل كل واحد منها نموذجا تاريخيا على هذه المسأله و هي من الشواهد و الدلائل الاخرى التي ذكرها القرآن بهذا الخصوص.

خلاصه القول، إن ما يعرضه القرآن الكريم عن المعاد و مظاهره المختلفه و معلوماته و نتائجه، و الدلائل الرفيعه التي يطرحها بهذا الخصوص، حيه و مقنعه بحيث أن أى إنسان إذا كان لديه ذره من الوجدان فإنه يتأثر بعمق ما يطرحه القرآن الكريم.

و على قول البعض: فإن ألفا و مائتى آيه من القرآن الكريم تبحث فى مسأله المعاد، لو جمعت و فسرت لأصبحت وحدها كتابا ضخما.

## ٥- المعاد الجسماني:

المقصود من المعاد الجسماني ليس إعاده الجسم وحده فى العالم الآخر، بل إن الهدف هو بعث الروح و الجسم معا، و بتعبير آخر فإن عوده الروح أمر مسلم به، و الحديث حول عوده الجسم.

جمع من الفلاسفه القدماء كانوا يعتقدون بالمعاد الروحي فقط، و ينظرون إلى الجسد على أنه مركب، يكون مع الإنسان فى هذه الدنيا فقط، و بعد الموت يصبح الإنسان غير محتاج إليه فينزل الجسد و يندفع نحو عالم الأرواح.

و لكن العلماء المسلمين الكبار يعتقدون بأن المعاد يشمل الروح و الجسم، و هنا لا يقيّد البعض بعوده الجسم السابق، و يقولون بأن الله قَيِّضَ للروح جسدا، و لكن

ص: ٢٦٨



شخصيته الإنسان بروحه فإن هذا الجسد يعد جسده.

في حال أنّ المحققين يعتقدون بأنّ هذا الجسد الذي يصبح ترابا و يتلاشى، يتلبس بالحياه مرّه اخرى بأمر الله الذي يجمعه و يكسوه بالحياه، هذه العقيدة نابعه من متون الآيات القرآنيه الكريمه.

إنّ الشواهد على المعاد الجسماني في الآيات القرآنيه الكريمه كثيره جدّا، بحيث يمكن القول قطعا بأنّ الذين يعتقدون باقتصار المعاد على المعاد الروحي فقط لا يملكون أدنى اطلاع على الآيات العديده التي تبحث في موضوع المعاد، و إلاّ فإنّ جسمانيه المعاد واضحه في الآيات القرآنيه إلى درجه تنفي أدنى شكّ في هذه المسأله.

فهذه الآيات التي قرأناها في آخر سوره يس، توضّح هذه الحقيقه حيث حينما تساءل الإنسان: **قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ** أجابه القرآن بصراحه و وضوح: **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ .**

إنّ كلّ تعجّب المشركين و المخالفين لمسأله المعاد هو هذه القضيه، و هي كيف يمكن إحياءنا بعد الموت و بعد أن نصبح ترابا متناثرا و ضائعا في هذه الأرض؟ **وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . (١)**

إنّهم يقولون: **أَيَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٢)** .

و تعجّبوا من هذه المسأله إلى درجه أنّهم اعتبروا إظهارها دليلا- على الجنون أو الكذب على الله **قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْتَئِكُمُ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مُمْرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . (٣)**

لهذا السبب فإنّ استدلالات القرآن الكريم حول إمكانيه المعاد عموما تدور

ص: ٢٦٩

١-١ (١) - السجده، ١٠.

٢-٢ (٢) - المؤمنون، ٣٥.

٣-٣ (٣) - سوره سبأ، ٧.

حول هذا المحور و هو «المعاد الجسماني» و ما عرضناه في الفصل السابق في سته طرق كانت دليلا و شاهدا على هذا الادعاء.

علاوه على أنّ القرآن الكريم يذكر مرارا و تكرارا بأنكم ستخرجون يوم القيامة من قبوركم و القبور مرتبطة بالمعاد الجسماني.

و الأوصاف التي يذكرها القرآن الكريم عن المواهب المادية و المعنوية للجنة، كلّها تدلّ على أنّ المعاد معاد جسمي و معاد روحي أيضا، و إلا فلا معنى للهور و القصور و أنواع الأغذية و النعيم في الجنة إلى جنب المواهب المعنوية.

على كلّ حال، فلا- يمكن أن يكون الإنسان على جانب يسير من المنطق و الثقافة القرآني و ينكر المعاد الجسماني. و بتعبير آخر: فإنّ إنكار المعاد الجسماني بنظر القرآن الكريم مساو لإنكار أصل المعاد.

علاوه على هذه الأدلة النقليه، فإنّ هناك أدله عقليه بهذا الخصوص لو أردنا إيرادها لآتسع البحث كثيرا، لا شك أنّ الإعتقاد بالمعاد الجسماني سيثير أسئلة و إشكالات كثيره، منها شبهه الأكل و المأكول و التي ردّ عليها العلماء الإسلاميون و التي أوردنا تفصيلا عنها بشكل مختصر في المجلد الثاني عند تفسير الآيه (٢٦٠) من سوره البقره.

## ٦- الجنة و النار

الكثيرون يتوهمون بأنّ عالم ما بعد الموت يشبه هذا العالم تماما و لكنّه بشكل أكمل و أجمل، غير أنّ لدينا قرائن عديده تدلّ على الفروق الكبيره بين العالمين من حيث الكيفيه و الكميّه، لو أردنا تشبيهها بالفروق بين العالم الجنيني و هذه الدنيا لظلت المقايسه أيضا غير كامله.

فوفقا لصريح الروايات الوارده في هذا الشأن فإنّ في عالم ما بعد الموت ما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على فكر بشر، القرآن الكريم يقول: <sup>□</sup>فَلَا تَعْلَمُ

نَفْسٌ مَّا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرِّهِ أُعْيِنِ . (١)

الأنظمة الحاكمة في ذلك العالم أيضا تتفاوت تماما مع الأنظمة في هذا العالم، ففي حين يستفاد في هذا العالم من أفراد يسمون «الشهود» في المحاكمات، نرى أنّ هناك تشهد الأيدي والأرجل وحتى الجلد اليوم نَحْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَكَلَّمْنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (٢) وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٣) .

على كلّ حال، فما قيل عن العالم الآخر لا يرسم أمامنا سوى صورته باهته، وعاده فإنّ اللغة التي نتحدث بها والثقافة التي لدينا غير قادره جميعها على الوصف الحقيقي لما هو موجود هناك، ولكن لا يترك الميسور بالمعسور. فالمقدار المتيقن هو أنّ الجنّة هي مركز كلّ النعم والمواهب الإلهية سواء المادية أو المعنوية، و جهنّم هي مركز لكل أنواع العذاب الأليم المادّي والمعنوي أيضا.

أمّا بخصوص تفصيل ذلك فإنّ القرآن الكريم أورد جزئيات نحن نؤمن بها، ولكن تفصيلها بدقه غير ممكن بدون الرؤيه والمعانيه. ولنا بحث حول هذا الخصوص في تفسير الآيه (٣٣) من سوره آل عمران.

إلهي: آمنا في الفزع الأكبر.

إلهي: لا تحاسبنا بعدلك و لكن حاسبنا بلطفك و عدلك، فليس لدينا من الأعمال ما يوجب رضاك.

اللهم افعل بنا ما يرضيك عنا و يجعلنا من الناجين آمين رب العالمين.

نهايه سوره يس

ص: ٢٧١

١-١ - السجده، ١٧.

٢-٢ - سوره يس - ٦٥.

٣-٣ - سوره فصلت، ٢١.



## سوره الصّافات

### اشاره

مکيه و عدد آياتها مائه و اثنان و ثمانون آيه

ص: ۲۷۳



## محتوى سوره الصّافات:

هذه السوره بحكم كونها من السور المكيه، فإنّها تمتلك كافه خصائص السور المكيه، فهي تسلط الأضواء على اصول المعارف و العقائد الإسلاميه الخاصه بالمبدأ و المعاد. و تتوعّد المشركين بأشدّ العقاب و ذلك من خلال العبارات الحازمه و الآيات القصيره العنيفه الوقع، و توضّح -بالأدله القاطعه- بطلان عقائدهم.

بصوره عامه يمكن تلخيص محتوى سوره الصافات في خمس أقسام:

القسم الأوّل: يبيح حول مجاميع من ملائكه الرحمن، و مجموعه من الشياطين المتمردين و مصيرهم.

القسم الثّاني: يتحدّث عن الكافرين، و إنكارهم للنبوّه و المعاد، و العقاب الذي ينتظرهم يوم القيامه، كما يستعرض الحوار الذي يدور بينهم في ذلك اليوم، و يحملهم جميعا الذنب، و العذاب الإلهي الذي سيشملهم، كما يشرح هذا القسم جوانب من النعم الموجوده في الجنّه إضافه إلى ملذّاتها و جمالها و سرور أهلها.

القسم الثّالث: يشرح بصوره مختصره تأريخ الأنبياء أمثال (نوح) و (إبراهيم) و (إسحاق) و (موسى) و (هارون) و (إلياس) و (لوط) و (يونس) و بصوره ذات تأثير قوى، كما يتحدّث هذا القسم بشكل مفصّل عن إبراهيم محطّم الأصنام و عن جوانب مختلفه من حياته، و الهدف الرئيسي من وراء سرد قصص الأنبياء -مع ذكر بعض الشواهد العينيه من تأريخهم- هو تجسيد حوادث تلك القصص

و تصويرها بشكل محسوس و ملموس.

القسم الرابع: يعالج صورته معينه من صور الشرك و الذى يمكن اعتباره من أسوأ صور الشرك، و هو الاعتقاد بوجود رابطته القرابه بين الله سبحانه و تعالى و الجنّ و الملائكه، و يبين بطلان مثل هذه العقائد التافهه بعبارات قصيره.

أما القسم الخامس و الأخير: فيتناول فى عدّه آيات قصار انتصار جيوش الحقّ على جيوش الكفر و الشرك و النفاق، و ابتلاءهم- أى الكافرين و المشركين و المنافقين- بالعذاب الإلهي، و تنزّه آيات هذا القسم الله سبحانه و تعالى و تقدّسه عن الأشياء التى نسبها المشركون إليه، ثمّ تنتهى السوره بالحمد و الثناء على البارى عزّ و جلّ.

### فضيله تلاوه سوره الصافات:

فى حديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، جاء فيه: «من قرأ سوره الصافات اعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد كلّ جنّ و شيطان، و تباعدت عنه مرده الشياطين، و برىء من الشرك، و شهد له حافظاه يوم القيامة أنّه كان مؤمنا بالمرسلين» (١).

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام جاء فيه: «من قرأ سوره الصافات فى كلّ جمعه لم يزل محفوظا من كلّ آفة، مدفوعا عنه كلّ بليّة فى حياته الدنيا، مرزوقا فى الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق، و لم يصبه الله فى ماله و لا ولده و لا بدنه بسوء من شيطان رجيم، و لا جبار عنيد، و إن مات فى يومه أو ليلته بعثه الله شهيدا، و أماته شهيدا، و أدخله الجنّة مع الشهداء فى درجه من الجنّة» (٢).

الثواب العظيم الذى يناله من يتلو سوره الصافات، جاء نتيجة لما تحويه هذه

ص: ٢٧٦

١- (١) -مجمع البيان، أوّل تفسير سوره الصافات.

٢- (٢) -تفسير مجمع البيان أوّل تفسير سوره الصافات-لقد ورد هذا الحديث فى تفسير البرهان نقلا عن الشيخ الصدوق، رحمه الله مع اختلاف بسيط.



السوره المباركه، فنحن ندرك أنّ الهدف من التلاوه هو التفكر، و من ثمّ الإعتقاد، و من بعد العمل. و من دون شكّ فإنّ الذى يتلو هذه السوره بتلك الصوره، سيحفظ من شرّ الشياطين، و يتطهر من الشرك، و يمتلك الإعتقاد الصحيح القوى، و يمارس أعمالا صالحه، و يتعظ من القصص الواقعيه للأنبياء و الأقوام الماضيه، و إنّهُ سيحشر مع الشهداء.

و ممّا يذكر فإنّ تسميه هذه السوره بالصفات جاءت نسبه إلى الآيه الاولى فيها.

\*\*\*

ص: ٢٧٧

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَّاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)

التفسير

اشاره

الملائكة المستعده لتنفيذ المهام:

هذه السوره هي أول سوره في القرآن الكريم تبدأ بالقسم، القسم الملىء بالمعانى و المثير للتفكر، القسم الذى يجوب بفكر الإنسان فى جوانب مختلفه من هذا العالم، و يجعله متهيئا لتقبل الحقائق.

من المسلم به أن الله تبارك و تعالى هو أصدق الصادقين، و ليس بحاجه إلى القسم، إضافة إلى أن قسمه إن كان للمؤمنين، فإنهم مؤمنون به من دون قسم، و إن كان للناكرين، فإن أولئك لا يعتقدون بالقسم الإلهى.

و نلفت الانتباه إلى نقطتين لحل مشكله القسم فى كل آيات القرآن التى سنتناولها من الآن فما بعد.

الاولى: أن القسم يأتى دائما بالنسبه إلى امور مهمه و ذات قيمه، و لذلك فإن

أقسام القرآن تشير إلى عظمه و أهميته الأشياء المقسم بها. وهذا الأمر يدعو إلى التفكير أكثر بالشيء المقسم به، التفكير الذى يكشف للإنسان عن حقائق جديدة.

الثانية: أن القسم يأتي للتأكيد، وللدلالة على أن الأمور التى يقسم من أجلها هي أمور جديده و مؤكده.

و علاوه على ذلك أن المتحدث لو تحدت بصوره حازمه و مؤكده، فإن تأثير كلامه من الناحيه النفسيه سيكون أوقع على قلب المستمع، كما أنه يقوى المؤمنين و يضعف الكافرين.

على كل حال، فإن بدايه هذه السوره تذكر أسماء ثلاثه طوائف أقسم بها الله تعالى (1).

□  
الأولى: وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا .

□  
الثانية: فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا .

□  
الثالثه: فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا .

فمن هي تلك الطوائف الثلاث؟ و على من أطلقت تلك الصفات؟ و ما الهدف النهائى منها؟ المفسرون قالوا الكثير بهذا الشأن، إلا أن المعروف و المشهور هو أن هذه الصفات تخص طوائف من الملائكه...

طوائف اصطفت فى عالم الوجود بصفوف منظمه، و هي مستعدده لتنفيذ الأمر الإلهى.

و طوائف من الملائكه تزجر بنى آدم عن ارتكاب المعاصى و الذنوب، و تحبط وساوس الشياطين فى قلوبهم. أو الملائكه الموكله بتسيير السحاب فى السماء و سوقها نحو الأرض اليابسه لإحيائها.

و أخيرا طوائف من الملائكه تتلو آيات الكتب السماويه حين نزول الوحي

ص: ٢٧٩

(١-١) - هذه العبارات الثلاث من جهه هي ثلاثه أقسام، و من جهه اخرى هي قسم واحد له ثلاث صفات.

و ممّا يلفت النظر أنّ «الصفات» هي جمع كلمه «صافه» و هي بدورها تحمل صفه الجمع أيضا، و تشير إلى مجموعته مصطفه، إذن ف «الصفات» تعنى الصفوف المتعدده (٢) .

و أمّا كلمه «الزاجرات» فإنّها مأخوذه من (الزجر) و يعنى الصرف عن الشىء بالتخويف و الصراخ، و بمعنى أوسع فإنّها تشمل كلّ منع و طرد و زجر للآخرين.

إذن فالزاجرات تعنى مجاميع مهمتها نهى و صرف و زجر الآخرين.

و «التاليات» من (التلاوه) و هي جمع كلمه (تال) و تعنى طوائف مهمتها تلاوه شىء ما (٣) .

و نظرا لكثرة و اتّساع مفاهيم هذه الألفاظ، فليس من العجب أن يطرح المفسّرون تفاسير مختلفه لها دون أن يناقض بعضها الآخر، بل من الممكن أيضا أن تجتمع لتوضيح مفهوم هذه الآيات، فمثلا- المقصود من كلمه «الصفات» هو صفوف الملائكه المستعدّه لتنفيذ الأوامر الإلهيه، فى عالم الخلق، أو الملائكه النازلون بالوحي إلى الأنبياء فى عالم التشريع، و كذلك صفوف المقاتلين

ص : ٢٨٠

١ - ١) - بالطبع وردت احتمالات اخرى فى تفسير الآيات المذكوره أعلاه، «منها» ما يشير إلى صفوف جند الإسلام فى ساحات الجهاد، الذين يصرخون بالأعداء و يزجرونهم عن الاعتداء على حرمة الإسلام و القرآن، و الذين يتلون كتاب الله دائما و من دون أى انقطاع، و ينوّرون قلوبهم و أرواحهم بنور تلاوته، و منها: أنّ بعض هذه الأوصاف الثلاثه هو إشاره إلى ملائكه اصطفت بصفوف منظمه، و القسم الآخر يشير إلى آيات القرآن التى تنهى الناس عن ارتكاب القبائح، و القسم الثالث يشير إلى المؤمنين الذين يتلون القرآن فى أوقات الصلاه و فى غيرها من الأوقات. و يستبعد الفصل بين هذه الأوصاف، لأنّها معطوفه على بعضها البعض بحرف (الفاء)، و هذا يوضّح أنّها أوصاف لطائفه واحده. و قد ذكر العلامة «الطباطبائى» فى تفسيره الميزان هذا الاحتمال، فى أنّ الأوصاف الثلاثه هي تطلق على ملائكه مكلفه بتبليغ الوحي الإلهى، و الاصطفاف فى طريق الوحي لتوديعه، و زجر الشياطين التى تقف فى طريقه، و فى النهايه تلاوه آيات الله على الأنبياء.

٢ - ٢) - و لا- ضير فى التعبير عن الملائكه بلفظ الإناث «الصفات و الزاجرات و التاليات» لأنّ موصوفها الجماعه، و هي مؤنث لفظى.

٣ - ٣) - ممّا يذكر أنّ بعض اللغويين قالوا بأنّ جمع كلمه (تال) هو (تاليات) و جمع (تاليه) (توال).

والمجاهدين في سبيل الله، أو صفوف المصلين و العباد.

رغم أنّ القرائن تشير إلى أنّ المراد من كلمه «الصفات» هو الملائكة، إضافة إلى أنّ بعض الروايات قد أشارت إلى ذلك المعنى (١).

و ليس هناك أى مانع من أن تشمل كلمه «الزاجرات» الملائكة الذين يطردون وساوس الشياطين من قلوب بنى آدم، والإنسان الذى يؤدى واجب النهى عن المنكر.

و«التاليات» إشاره إلى كلّ الملائكة و الجماعات المؤمنه التى تتلو آيات الله، و تلهج بذكره تبارك و تعالى على الدوام.

هنا يطرح هذا السؤال: ظاهر هذه الآيات -و بمقتضى وجود العطف بحرف (الفاء) بين الجمل الثلاث- يبين أنّ الطوائف الثلاث جاءت الواحده بعد الاخرى، فهل أنّ هذا الترتيب جاء بحكم الواجب المترتب على كلّ طائفه؟ أم كلّ حسب مقامه؟ أم لكلا الأمرين؟ من الواضح أنّ الاصطفاة و الاستعداد قد جاء كمرحلة اولى، ثمّ جاءت - كمرحلة ثانية- عمليه إزالة العراقيل من الطريق. أمّا إعلان الأوامر و تنفيذها فقد كانت بمثابة المرحلة الثالثة.

و من جهة اخرى فإنّ المستعدين لتنفيذ الأوامر الإلهية لهم مرتبه، و الذين يزيلون العراقيل لهم مرتبه أعلى، أمّا الذين يتلون الأوامر و ينفذونها فلهم مرتبه أسمى من الجميع.

على أية حال فإنّ قسم الله سبحانه و تعالى بتلك الطوائف يوضح عظم منزلتهم عند البارى عزّ و جلّ، و يشير إلى حقيقه مفادها أنّ سالكى طريق الحقّ عليهم للوصول إلى غايتهم أن يجتازوا تلك المراحل الثلاث و التى تبدأ بتنظيم الصفوف و وقوف كلّ مجموعته فى الصفّ المخصّص لها، و من ثمّ العمل على إزالة العراقيل

ص: ٢٨١

من الطريق، و رفع الموانع بالصوت العالى، الصوت الذى يتناسب مع مفهوم الزجر، و من بعد تلاوه الآيات الإلهية و الأوامر الربانية على القلوب المتهية لتنفيذ مضامين تلك الأوامر.

فالمجاهدون السالكون لطريق الحق ليس أمامهم من سبيل سوى اجتياز تلك المراحل الثلاث، و بنفس الصورة على العلماء العاملين أن يستوحوا فى جهودهم الجماعية ذلك البرنامج.

و مما يذكر أن بعض المفسرين فسّروا الآيات على أنها تعود على المجاهدين، و البعض الآخر أكد عودتها على العلماء، و لكن حصر مفهوم الآيات بالمجاهدين و العلماء فقط مستبعد بعض الشيء، و إن أعطيت الآيات طابعا عاما فإنها ستكون أقرب للواقع، و إذا اعتبرناها تخصّ الملائكة فإن الآخرين يمكنهم تنظيم حياتهم وفق مناهج الملائكة.

أمير المؤمنين على عليه السلام عند ما يصف بخطبته فى نهج البلاغة الملائكة، فإنه يقسمهم إلى مجموعات مختلفة، و

يقول: «و صافون لا يترايلون، و مسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، و لا سهو العقول، و لا فتره الأبدان، و لا غفلة النسيان، و منهم أمناء على وحيه، و ألسنه إلى رسله» (١).

أما آخر حديثنا عن الآيات الثلاث هذه، فهو أن البعض يعتقد بأن القسم فى هذه الآيات يعود إلى ذات الله، و كلمه (رب) مقدّره فى جميع تلك الآيات، حيث يكون المعنى كالتالى: و ربّ الصافات صفاً، و ربّ الزاجرات زجراً، و ربّ التاليات ذكراً.

و الذين فسّروا الآيات على هذا النحو، فالظاهر أنهم يعتقدون بأن العباد لا يحقّ لهم القسم بغير الله، لذا فإنّ الله لا يقسم إلاّ بذاته، إضافة إلى أنّ القسم يجب أن يكون بشيء مهمّ، ألا و هو ذات الله المقدّسه.

ص: ٢٨٢

إلا- أن هؤلاء غفلوا عن هذه الحقيقة، وهي أن حساب الله لا- علاقه له بالعباد، فالله تعالى- من أجل توجيه الإنسان- يقسم بآيات «الآفاق» و«الأنفس» و دلائل قدرته في الأرض و السماء، و ذلك لكي يتفكر الإنسان بتلك الآيات، و عن طريقها يعرف ربه.

و جدير بالذكر أن بعض آيات القرآن المجيد، و منها آيات سورة الشمس تقسم بموجودات الكون إلى جانب القسم بذات الله المقدسه، إذن فالتقدير هنا غير سديد، إذ يقول القرآن الكريم: **وَالسَّمَاءِ وَالْبَنَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاها وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (١)**.

على أيه حال، فإن ظاهر الآيات- محلّ البحث- يدلّ على أن المجموعات الثلاث هي المقسم بها، و تقدير الشيء هنا خلاف للظاهر، و لا يمكن قبوله بغير دليل.

الآن نرى ما هو المراد من هذه الأقسام المفعمه بالمعاني، أي القسم بالملائكه و الإنس؟ الآية التاليه توضّح ذلك و تقول: **إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ**.

قسم بتلك المقدسات التي ذكرناها فإن الأصنام ستزول و تدمر، و إنّه ليس هناك من شريك و لا شبيه و لا نظير لله سبحانه و تعالى.

ثم يضيف ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما و ربّ المشارق .

و هنا نطرح سؤالين:

١- ما هي الضروره لذكر «المشارق» بعد ذكر السماوات و الأرض و ما بينهما، رغم أن المشارق هي جزء منهما.

و يتّضح الجواب من خلال الالتفات إلى هذه النقطه و هي: إنّ المراد من «المشارق» هو الإشاره إلى مواقع شروق الشمس في أيام السنه، أو إلى مشارق

ص: ٢٨٣

النجوم المختلفه فى السماء، حيث أنّها جميعا لها نظام و برنامج خاصّ بها، إضافة إلى النظام السماوى و الأرضى الذى يوضّح العلم و قدره و التدبير المطلق للخالق.

فالشمس فى كلّ يوم تشرق من مكان غير المكان الذى أشرقت منه قبل يوم أو بعد يوم، و الفواصل الموجوده بين هذه النقاط منظمه و دقيقه للغاية، حيث أنّها لا تزيد و لا تقلّ بمقدار ١/١٠٠٠ من الثانية، و هذا التنظيم الدقيق موجود منذ ملايين السنين.

كما أنّ هذا النظام ينطبق على ظهور و غروب النجوم.

إضافه إلى ذلك فإنّ الشمس لو لم تكن تتحرّك ضمن مسير تدريجى طوال العام، لم يعد هناك وجود للفصول الأربعة و للنعم المختلفه التى تظهر خلال تلك الفصول، و هذا دليل آخر على عظمه و تدبير الخالق عزّ و جلّ.

و من المعانى الاخرى لكلمه «المشارك»، هو أنّ الأرض لكونها كرويه الشكل، فإنّ كلّ نقطه عليها تعتبر بالنسبه إلى النقطه الاخرى إمّا مشرقا أو مغربا، و بهذا فإنّ الآيه تؤكد كرويه الأرض و وجود المشارق و المغارب (و لا مانع من تحقّق المعنيين فى الآيه المذكوره).

أمّا السؤال الثانى الذى يطرح نفسه فهو: لماذا لم تأت كلمه «مغرب» فى الآيه فى مقابل «المشارك» كما جاء فى الآيه (٤٠) من سوره المعارج فلا أقسم برّب المشارق و المغرب .

و الجواب على هذا السؤال، هو أنّ قسما من الكلام ينسخ قسما آخر لوجود القرينه، و فى بعض الأحيان يأتيان معا، و هنا ذكر كلمه «المشارك» قرينه على «المغرب» و هذا التنوع يوضّح فصاحه القرآن و بلاغته.

فيما قال بعض المفسّرين: إنّ ذكر كلمه (المشارك) يتناسب مع شروق الوحى بواسطه الملائكه فالتاليات ذكراً على قلب النّبى الطاهر صلّى الله عليه و آله و سلّم (١).

\*\*\*

ص: ٢٨٤



إشاره

إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٤) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْعَدُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)

التفسير

إشاره

حفظ السماء من تسلل الشياطين!

الآيات السابقة تحدّثت عن طوائف الملائكة المكلفه بتنفيذ المهام الجسماء، و الآيات التاليه-موضوع البحث-ستحدّث عن الطائفة المقابله لها، أى الشياطين و عن مصيرهم. و يمكن أن تكون هذه الآيات مقدّمه لدحض معتقدات مجموعه من المشركين الذين يعبدون الشياطين و الجنّ، و تتضمّن كذلك درسا فى التوحيد بين طياتها.

تبدأ الآيه بالقول: إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (١) فلو رفع أحدنا

ص: ٢٨٥

يبصره نحو السماء في إحدى الليالي المظلمه، لتجسّم في بصره منظر جميل يسحر الإنسان.

و كأنّ الكواكب تتحدّث معنا بلسانها الصامت، لتكشف لنا عن أسرار الخلق، و أحيانا تكون شاعره تنشد لنا أجمل القصائد الغزليه و العرفانيه، و إغماضها و تواريتها، و من ثمّ إبراقها و لمعانها، يوضّح أسرار العلاقه الموجوده بين العاشق و المعشوق.

حقّا إنّ منظر النجوم في السماء رائع الجمال، و لا تملّ أيّ عين من طول النظر إليه، بل إنّ النظر إليه يزيل التعب و الهمّ من داخل الإنسان. (مّمّا يذكر أنّ أبناء المدن في العصر الحاضر التي يغطّيها دخان المصانع، لا يستمتعون بمشاهده السماء و هي مرصّعه بالكواكب كما يشاهدها الإنسان القروي حيث يدركون هذه المقوله القرآنيه- أي تزيين السماء بالكواكب- بصوره أفضل).

و من الجدير بالاهتمام قول الآيه: **إِذَا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ فِي حِينِ كَانَتِ الْفُرْسِيَّاتِ الشَّائِعَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي أَذْهَانِ الْعُلَمَاءِ وَ الْمَفْكَرِينَ هِيَ أَنَّ السَّمَاءَ الْعُلْيَا هِيَ الَّتِي تَضُمُّ الْكَوَاكِبَ (السماء الثامنة طبقا لفرضيات بطليموس).**

و كما هو معروف فإنّ العلم الحديث دحض تلك الفرضيات. و عدم اتّباع القرآن لما جاء في تلك الفرضيات النادره و المشهوره في ذلك الزمان معجزه حيّه لهذا الكتاب السماوي.

و النقطه الاخرى التي تلفت النظر هي أنّ ارتعاش نور الكواكب الجميل و غمزها للناظر يعود- من وجهه نظر العلم الحديث- إلى وجود القشره الهوائيه حول الأرض، و هذا المعنى يتلاءم مع ما نصّت عليه الآيه الكريمه **السَّمَاءُ الدُّنْيَا .**

(1)

غ جاء في الكتب الأدبيه أينما وجدت نكره بدل عن المعرفه فيجب مرافقتها بوصف، و في حاله العكس فإنّ الأمر غير واجب.

أما في خارج جو الأرض فإنّ النجوم تبدو نقاط منيره على وتيره واحده و ليس لها ذلك التلاؤ،على عكس ما يشاهد داخل جو الأرض.

أما الآيه وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (١) فإنّها تشير إلى حفظ السماء من تسلل الشياطين إليها.

كلمه (مارد) مشتقّه من (مرد) التي تعنى الأرض المرتفعه الخاليه من الزرع، كما يقال للشجره التي تساقطت أوراقها كلمه (أمرد) و تطلق على الفتى الذي لا شعر في وجهه. و هنا المقصود من كلمه (مارد) هو الشخص الخبيث العارى من الخير.

حفظ السماء من تسلل الشياطين يتم بواسطة نوع من أنواع النجوم يطلق عليها اسم (الشهب)، و سيشار إليها في الآيات القادمه.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: إنّ الشياطين لا تتمكّن من سماع حديث ملائكه الملائه الأعلى و معرفه أسرار الغيب التي عندهم، فكلمّا حاولوا عمل شيء ما لسماع الحديث، رشقوا بالشهب من كلّ جانب لا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَ يُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ .

نعم إنهم يطردون من السماء بشده، و قد أعدّ لهم عذاب دائم، كما جاء في قوله تعالى: دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ .

لَا يَسْمَعُونَ

بمعنى (لا يستمعون) و يفهم منها أنّ الشياطين يحاولون معرفه أخبار «الملائه الأعلى» إلاّ أنّه لا يسمح لهم بذلك.

الْمَلَأِ الْأَعْلَى

،تعنى ملائكه السماوات العلى، لأنّ كلمه (ملائه) تطلق في الأصل على الجماعه التي لها وجهه نظر واحده، و تعدّ في نظر الآخرين مجموعه متّحده و منسجمه، كما تطلق هذه الكلمه على الأشراف و الأعيان و الدائرين في فلك

ص: ٢٨٧

١ - ١) - (حفظاً) على حدّ قول الكثير من المفسّرين مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير هو: و حفظناها حفظاً. و البعض احتمل أنّها معطوفه على (بزينه) التي هي (مفعول له)، و تقديرها إنا خلقنا الكواكب زينه للسماء و حفظاً.

مراكز القوى، لأنهم يعدّون في نظر الآخرين متّحدين أيضا، ولكن عند ما يوصف الملأب (الأعلى) فذلك إشارة إلى الملائكة الكرام ذوى المقام الأرفع والأسمى.

«يقذفون» مشتقّه من (قذف) وتعنى رمى الشىء إلى مكان بعيد، والمقصود هنا طرد الشياطين بواسطة الشهب، التى سنتطرّق لها فيما بعد، وهذا يوضّح أنّ البارى عزّ وجلّ لا يسمح للشياطين بالاقتراب من الملأ الأعلى.

«دحورا» مشتقّه من (دحر) -على وزن (دهر)- وتعنى طرد الشىء و دفعه، أمّا كلمه (واصب) فإنّها تعنى المرض المزمن، وبصوره عامّه تعنى الدائم والمستمر، و فى بعض الأحيان تعنى (الخالص) (١).

و هنا إشارة إلى أنّ الشياطين لا يطردون و لا يمنعون من الاقتراب من السماء فحسب، بل سيصيبهم فى النهايه -مع ذلك- عذاب دائم.

و أشارت الآيه أيضا إلى طائفه من الشياطين الشريره التى تحاول الصعود إلى السماء العليا لاستراق السمع، و إلى المصير الذى ينتظرها هناك، كما جاء فى الآيه الشريفه إلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ .

«الخطفه» أى اختلاس الشىء بسرعه.

و «الشهاب» شىء مضىء متولّد من النار، و يرى نوره فى السماء على شكل خطّ ممتدّ.

و كما هو معروف فإنّ الشهب ليست نجوما، و إنّما تشبه النجوم، و هى عباره عن قطع صغيره من الحجر متناثره فى الفضاء، عند ما تدخل فى مجال جاذبيه الأرض، تنجذب نحوها، و نتيجة دخولها بسرعه إلى جوّ الأرض و احتكاكها الشديد مع الهواء المحيط بالكره الأرضيه فإنّها تشتعل و تحترق.

و كلمه «ثاقب» تعنى النافذ و الخارق، و كأنه يخترق العين بنوره الشديد و يثقبها، و هذه إشارة إلى أنّ الشهاب يثقب كلّ شىء يصيبه و يحرقه.

ص: ٢٨٨

و بهذا يكون هناك مانعان يحولان دون نفوذ الشياطين إلى السماء العليا:

الأول، هو رشق الشياطين من كل جانب و طردهم، و الذى يتم على الظاهر بواسطة الشهب.

و الثانى، هو رشقهم بواسطة أنواع خاصه من الشهب يطلق عليها اسم الشهاب الثاقب، الذى يكون بانتظار كل شيطان يحاول التسلّل إلى الملاء الأعلى لاستراق السمع، و هذا المعنى نجده أيضا فى الآيتين (١٧) و (١٨) من سوره الحجر وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ اشْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ .

و فى الآيه الخامسه من سوره الملك وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ .

و لكن هل يجب الالتزام بظواهر هذه الآيات؟ أم أنّ هناك قرائن تجبرنا على تفسيرها بخلاف الظاهر، كاستخدام الأمثال و التشبيه و الكنايه؟ هناك وجهات نظر مختلفه بين المفسّرين، فالبعض منهم التزم بظاهر الآيات و بنفس المعانى التى استعرضت فى بدايه الأمر، و قالوا: هناك طوائف من الملائكه تسكن السماء القريبه و البعيده تعرف أخبار الحوادث التى ستقع فى العالم الأرضى قبل وقوعها، لذا تحاول مجموعه من الشياطين الصعود إلى السماء لاستراق السمع و معرفه بعض الأخبار، لكى تنقلها إلى عملائها فى الأرض أى الذين يرتبطون بها و يعيشون بين الناس، و لكن ما أن يحاولون الصعود يرشقون بالشهب التى تتصف بأنّها كالنجوم المتحرّكه، فتجبرهم على التراجع، أو تصيبهم فتهلكهم.

و يقولون: من الممكن أن لا- نفهم بصوره دقيقه ما تعنيه هذه الآيات فى الوقت الحاضر، إلا أنّنا مكلفون بحفظ ظواهرها، و ترك تفاصيلها للمستقبل.

و قد اختار هذا التفسير العلامه «الطبرسى» فى (مجمع البيان) و «الألوسى» فى (روح المعانى) و «سيد قطب» فى (الظلال)، إضافة إلى عدد آخر من المفسّرين.

فى حين يرى البعض الآخر أنّ الآيات المذكوره إنّما هى من قبيل الأمثال

المضروبه تصوّر بها الحقائق الخارجه عن الحسّ في صورته المحسوس لتقريبها من الحسّ، وهو القائل عزّ وجلّ: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ . (١)

و أضافوا: إنّ المراد من السماء التي تسكنها الملائكه، عالم ملكوتى ذو أفق أعلى من عالمنا المحسوس، و المراد باقتراب الشياطين من السماء و استراقهم السمع و قذفهم بالشهب، هو أنّ هذه الشياطين كلّما حاولت الاقتراب من عالم الملائكه للاطلاع على أسرار الخليفه و الحوادث المستقبلية، طردت من هناك بواسطة نور الملكوت الذى لا- يطيقونه، و رمتهم الملائكه بالحقّ الذى يبطل أباطيلهم.

و إيراده تعالى قصّه استراق الشياطين للسمع و رميهم بالشهب، عقيب الإقسام بملائكه الوحي و حفظهم إياه عن مداخله الشياطين لا يخلو من تأييد لما ذكرناه (٢) .

و يحتمل أيضا أنّ السماء هنا هي كناية عن سماء الإيمان و المعنويات التي يحاول الشياطين النفوذ إليها، إضافة إلى الانسلاخ إلى قلوب المؤمنين عن طريق الوسوس التي يبثونها في قلوبهم، إلا- أنّ الأنبياء و الصالحين و الأئمة المعصومين من أهل البيت و السائرين على خطّهم الفكرى و العملى يهاجمون الشياطين بالشهاب الثاقب الذى يمتلكونه، ألا و هو العلم و التقوى، و يمنعون الشياطين من الاقتراب من هذه السماء.

التفسير المذكور أوردناه هناك كاحتمال، و ذكرنا بعض الدلائل و الشواهد عليه فى نهايه الآيه (١٨) من سوره الحجرات.

هذه ثلاثه تفسيرات مختلفه للآيات مورد البحث و الآيات المشابهه لها.

ص: ٢٩٠

(١-١) - العنكبوت، ٤٣.

(٢-٢) - تلخيص من تفسير الميزان، المجلد السابع عشر، الصفحه (١٢٥).

اشاره

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣)  
وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥)

التفسير

اشاره

الذين لا يقبلون الحق أبدا:

هذه الآيات تعالج قضيه منكرى البعث، و تتابع البحث السابق بشأن قدره البارى عزّ و جلّ خالق السموات و الأرض، و تبدأ بالاستفسار منهم و تقول: اسألهم هل أنّ معادهم و خلقهم مرّه ثانيه أصعب أو خلق الملائكه و السماوات و الأرض:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا

نعم، فنحن خلقناهم من مادّه تافهه، من طين لزج: إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ .

فالمشركون الذين ينكرون المعاد، قالوا بعد سماعهم الآيات السابقه بشأن خلق السموات و الأرض و الملائكه. إنّ خلق الإنسان أصعب من خلق السموات

و الأرض و الملائكة. إلا أن القرآن الكريم أجابهم بالقول: إن خلق الإنسان مقابل خلق الأرض و السماء و الملائكة الموجوده فى هذه العوالم، يعدّ لا شىء، لأن أصل الإنسان يعود إلى حفنه من التراب اللزج.

«استفتهم» من مادّه «استفتاء» و تعنى الحصول على معلومات جديده.

و هذا التعبير إشاره إلى أن المشركين لو كانوا صادقين فى أن خلقهم أهمّ و أصعب من خلق السماوات و الملائكة، فإنهم قد جاؤوا بموضوع جديد لم يطرح مثله من قبل.

«لانزب» يقول البعض: إن أصلها كان (لانزم)، حيث استبدلت (الميم) (باء) و حاليا تستعمل بهذه الصوره، على أيه حال فهى تعنى الطين المتلازم بعضه ببعض، يعنى الملتصق لأن أصل الإنسان كان من التراب الذى خلط بالماء، و بعد فتره أضحي طينا متجمعا ذا رائحه نتنه، ثم تحول إلى طين متماسك (و هذه الصوره هى جمع لحالات متعدده مذكوره فى عدّه آيات فى القرآن المجيد).

ثم يضيف القرآن الكريم: بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ .

نعم أنت تتعجب لانكارهم بالمعاد، لأنك بقلبك الطاهر ترى المسأله واضحه جدّا، و أمّا أصحاب القلوب السوداء فيعيدونها مستحيله إلى حدّ أنهم يستهزئون بها و ينكرونها.

و ما يمكن وراء تلك التصرفات القبيحه ليس هو الجهل - فقط - و عدم المعرفه، بل إنها اللجاجه و العناد، إذ أنهم كلما ذكروا بدلائل المعاد و العقوبات الإلهيه لا يتذكرون و إذا ذكروا لا يذكرون .

و الأنكى من ذلك، أنهم كلما شاهدوا معجزه من معجزاتك، لا يكتفون بالاستهزاء، و إنّما يدعون الآخرين للاستهزاء أيضا و إذا رأوا آيّه يشتسخرون .

وَ قَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ

قولهم «هذا» المقصود منه تحقير المعجزات و الآيات الإلهيه و الانتقاص منها،



و إطلاقهم كلمه «سحر» على تلك المعجزات لكونها من جهه أعمالا خارقه للعاده، و لا يمكن نكرانها. و من جهه اخرى فإنهم لم يكونوا راغبين للاستسلام لتلك المعاجز، و كلمه السحر كانت الكلمه الوحيدَه التي تعكس خبثهم و ترضى أهواءهم النفسيه، و توضّح في نفس الوقت اعترافهم بالتأثير الكبير للقرآن و لمعجزات النبي الأكرم محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

\*\*\*

## ملاحظتان

١- يعتقد بعض المفسرين أنّ عباره «يستسخرون» تعنى «يسخرون»، و لا يوجد أى فرق بين العبارتين. فى حين يؤكّد البعض الآخر على وجود اختلاف بين المعنيين، بقولهم: إنّ «يستسخرون» جاءت من باب استفعال، و تعنى دعوه الآخرين إلى المشاركة فى الاستهزاء، و تشير إلى أنّهم لم يكتفوا لوحدهم بالاستهزاء بآيات القرآن المجيد، و إنّما سعوا لإشراك الآخرين فى ذلك، كى تصير المسأله عامّه فى المجتمع.

و البعض يعتبر هذا الاختلاف توكيد أكثر يستفاد من عباره (يستسخرون).

فيما فسّر البعض الآخر هذه العبارَه بأنّها «الإعتقاد بكون الشئء مثيرا للسخرية»، و يعنى أنّهم نتيجة انحرافهم الشديد كانوا فى قراره أنفسهم يعتقدون- تماما- أنّ هذه المعجزات ليست أكثر من سخرية، و لكن المعنى الثانى يعدّ أكثر مناسبا من غيره.

٢- عزا بعض المفسرين سبب نزول هذه الآيه إلى قضيه مفادها أنّ «ركانه» رجل من المشركين من أهل مكّه، لقيه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فى جبل خال يرمى غنما له، و كان من أقوى الناس، فقال له: يا ركانه أ رأيت إنّ صرعتك أ تؤمن بى؟

ص: ٢٩٣

قال: نعم. فصرعه ثلاثا، ثم عرض عليه بعض الآيات و دعا عليه الصلاه و السلام شجره فأقبلت، فلم يؤمن و جاء إلى مكّه فقال: «يا بنى هاشم ساحروا بصاحبكم أهل الأرض». فنزلت فيه و فى أضرابه هذه الآيه.

\*\*\*

ص: ٢٩٤

اشاره

أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أ وَ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم مِّنظُرُونَ (١٩) وَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصِيلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)

التفسير

اشاره

هل نبعث من جديد؟

الآيات هذه تتابع سرد أقوال منكري المعاد، و تواصل الردّ عليها، فالآيه الاولى تعكس استبعاد البعث من قبل منكريه، بهذا النصّ أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١) (٢) .

ص: ٢٩٥

١- ١) - تفسير روح المعاني، المجلد ٢٣، الصفحة ٧٧.

٢- ٢) - هذه الآيه هي بحاله جمله شرطيه و شرطها (أ إذا متنا) بينما جزاءها محذوف و جمله (أ إِنَّا لمبعوثون) قرينه عليها، لأنّ نفس هذه الجملة -طبقا للقواعد الأدبيه- لا يمكن أن تكون جزاء.

و هل سيبعث آباؤنا الأولون أيضا؟ أَوِ الْبٰؤُنَا الْأَوَّلُونَ. فمن يستطيع جمع تلك العظام النخره و أكوام التراب المتفرقه المتبقيه من الإنسان؟ و من يتمكن من إعادته الحياه إليها؟ فهؤلاء ذوى القلوب العمياء نسوا أنهم كانوا ترابا فى اليوم الأول، و من التراب خلقوا، و إذ كانوا يشككون فى قدره الله، فعليهم أن يعرفوا أن الله كان قد أراهم قدرته، و إن كانوا يشككون باستحاله التراب، فقد أثبت ذلك من قبل، و علاوه على هذا فإن خلق السماوات و الأرض بكل هذه العظمه لا تترك أى مجال للشك عند أحد فى قدره البارى عزّ و جلّ المطلقه.

مِمَّا يَذْكُرُ أَنَّ مِنْكَرَى الْبَعثِ صَاغُوا أَقْوَالَهُمْ بِشَكْلِ عِبَارَاتٍ مُؤَكِّدَةٍ (إِذْ أَنَّ جَمَلَهُ أِذَا لَمُبْعُوثُونَ هِى جَمَلُهُ اسْمِيهِ اسْتُخْدِمَتْ فِيهَا (إِنْ) وَ (لَامٍ) وَ الَّتِى تَأْتِى كُلٌّ مِنْهُمَا لِلتَّأْكِيدِ) وَ ذَلِكَ لَجَهْلِهِمْ وَ لِحَاجَتِهِمْ.

و ممّا يلفت النظر أنّ كلمه (التراب) قدّمت على (العظام) و هذا الأمر يحتمل أنّه يشير إلى إحدى النقاط الثلاث الآتية:

أولاً: إنّ الإنسان بعد وفاته يصير عظاما فى بدايه الأمر، ثمّ يتحوّل إلى تراب، و بما أنّ إعادته التراب إلى الحياه يعدّ شيئا عجيبا، لهذا قدّمت كلمه التراب.

ثانيا: عند اندثار أبدان الأموات، فى البدايه تتحوّل اللحوم إلى تراب و تبقى إلى جانب العظام، و لهذا فهناك تراب و عظام فى آن واحد.

ثالثا: التراب يشير إلى أجساد الأجداد الأولين، و العظام تشير إلى أبدان الآباء و التى لم تتحوّل بعد إلى تراب.

ثمّ يرّد القرآن على تساؤلاتهم بلهجه شديده و عنيفه، عند ما يقول للرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم: قل لهم: نعم أنتم و أجدادكم ستبعثون صاغرين مهانين أذلاء، قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دٰخِرُونَ (١).

ص: ٢٩٦

١- ١) - (داخر) من مادّه (دخر) على وزن فخر (دخور)، و كلتاها تعطى معنى الذلّه و الحقاره. الآيه أعلاه فيها جملة

فهل تتصوّرون أنّ عمليّته إحيائكم و الأولين تعدّ مستحيله، أو هي عمل عسير على الله القادر و القوى؟ كلاً، فإنّ صرخه عظيمه واحده ممّن كلّفهم الله سبحانه و تعالى بذلك كافيّه لبعث الحياه بمن في القبور، و نهوض الجميع فجأه من دون أيّ تمهيد أو تحضير من قبورهم ليشهدوا بأعينهم ساحه المحشر التي كانوا بها يكذبون فإنّما هي زجره واحده فإنّهم ينظرون .

(زجره) مشتقّه من (زجر) و كما أشرنا إليها سابقاً، فإنّها تعني الطرد، و أحيانا تأتي بمعنى الصرخه، و هنا تفيد المعنى الثاني، و هي إشاره إلى النفخه و الصيحه الثانيه لإسرافيل، و التي ستحدّث بشأنها في الآيات الأخيره لسوره الزمر.

عباره (ينظرون) تشير إلى نظر منكري البعث لساحه المحشر و هم مدهوشون، أو النظر بعنوان انتظار العذاب، و في كلا الحالتين فإنّ المقصود ليس -فقط- عودتهم إلى الحياه، و إنّما عودتهم إلى الشعور و النظر فور سماعهم الصيحه.

و تعبير زجره واحده مع الالتفات إلى معنى الكلمتين، يشير إلى أنّ البعث يتمّ بسرعه و على حين غرّه، و إلى سهولته في مقابل قدره الباري عزّ و جلّ، إذ بصرخه واحده (لملك البعث) المأمور بها تعود الحياه إلى حالتها الاولى.

و هنا تتعالى صرخات المشركين المغرورين و تبين ضعفهم و عجزهم و عوزهم، و يقولون: الويل لنا فهذا يوم الدين و قالوا يا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ .

نعم، فعند ما تقع أعينهم على محكمه العدل الإلهي و شهودها و قضاتها، و على علامات العقاب فإنّهم -من دون أن يشعروا- يصرخون و يبكون، و يعترفون بحقيقه البعث، الاعتراف الذي يعجز عن إنقاذهم من العذاب، أو تخفيف العقاب الذي ينتظرهم.

و هنا يوجّه إليهم الخطاب من الباري عزّ و جلّ أو من ملائكته: نعم، اليوم هو

(١)

تقديره هي جوابها، و البقيّه شيء إضافي عليها كي يكتسب القول قاطعيه أكثر، فالتقدير سيكون هكذا (نعم إنكم مبعوثون حال كونكم داخرين).

ص: ٢٩٧

يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون، يوم فصل الحق عن الباطل، و فصل المجرمين عن المتقين، و يوم المحكمه الإلهيه الكبرى لهذا  
يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

و مثل هذه العبارات وردت فى آيات اخرى من آيات القرآن الكريم، و التى تناول يوم القيامة، و تعتبره يوم الفصل، و هى  
عبارات عجيبه و رهيبه؟! (١).

الملاحظ، هو أنّ الكافرين يوم القيامة يطلقون على هذا اليوم اسم يوم الجزاء <sup>□□</sup> يَا وَيْلَتَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ .  
فيما يطلق عليه البارى عزّ و جلّ فى كتابه الحكيم اسم يوم الفصل <sup>□□</sup> هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ .

إنّ الاختلاف بين التعبيرين يمكن أن يكون لهذا السبب، و هو أنّ المجرمين لا- يفكرون إلاّ بالجزاء و العقاب الذى سينالهم، و  
لكن الله سبحانه و تعالى يشير إلى معنى أوسع من الجزاء الذى يعدّ أحد أبعاد ذلك اليوم، إذ يعتبر ذلك اليوم هو يوم  
الفصل، نعم يوم فصل صفوف المجرمين عن المتقين، كما جاء فى الآيه (٥٩) من سوره يس و امتّازوا اليَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ فالأمر  
فى ذلك اليوم موجّه إلى المجرمين أن انفصلوا عن المؤمنين، فهنا ليست دار الدنيا التى تجمع بين المجرمين و المتقين.

و كم يكون هذا المشهد رهيبا عند ما يشاهدون أقاربهم و أبناءهم ينفصلون عنهم لإيمانهم بالله، و يتجهون نحو جنان الخلد.

و علاوه على أنّ ذلك اليوم هو يوم فصل الحق عن الباطل، فيجب أن تتبين كلّ الخطوط المتضاده و البرامج الحقيقيه و الكاذبه  
التي كانت مختلطه فى عالم الدنيا فى مكانها الخاصّ بها.

على أيّه حال، إنّ ذلك اليوم- أى يوم الفصل- يعنى أيضا يوم المحاكمه، ففى

ص: ٢٩٨

ذلك اليوم يقضى الله العالم العادل بين عباده و يصدر أحكاما دقيقة بحقهم، و هنا يخزى المشركون.

إذن، فطبيعة الدنيا هي اختلاط الحق بالباطل، في حين أنّ طبيعته البعث هو فصل الحق عن الباطل، و لهذا السبب فإنّ أحد أسماء يوم القيامة في القرآن المجيد (يوم الفصل) و الذي كثر عدّه مرّات، اليوم الذي تظهر فيه كافه الخفايا و الأسرار، و لا يمكن تجنب عمليه فصل الصفوف.

ثمّ يصدر الباري عزّ و جلّ أوامره إلى ملائكته المكلفين بإرسال المجرمين إلى جهنّم أن أحشروا الذين ظلّموا و أزواجهم و ما كانوا يعبدون .

نعم احشروهم و ما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم .

(احشروا) مشتقّه من (حشر) و يقول الراغب في مفرداته: إنّها تعنى إخراج الجماعه عن مقرّهم و إزعاجهم عنه إلى الحرب و نحوها.

و هذه الكلمه تأتي بمعنى «تجميع» في الكثير من الحالات.

على كلّ حال، فالخطاب هنا إمّا أن يكون من جانب الله عزّ و جلّ، أو من طائفه من الملائكه إلى طائفه اخرى مكلفه بسوق المجرمين إلى الجحيم و النتيجة واحده.

(أزواج) هنا إمّا أن تشير إلى زوجات المجرمين و المشركين، أو إلى من يعتقد اعتقادهم و يعمل عملهم و من هو على شاكلتهم، لأنّ هذه الكلمه تشمل المعنيين، حيث نقرأ في سوره الواقعه الآيه (٧) وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً .

و بهذا يحشر المشركون مع المشركين و الأسرار، و ذوو القلوب العمياء مع نظائرهم، ثمّ يساقون إلى جهنّم.

أو أنّ المقصود من الأزواج هم الشياطين الذين كانوا يشابهونهم في الشكل و العمل.

المهمّ، هو عدم وجود أى اختلاف بين هذه المعانى الثلاثه، و من الممكن أن

تجتمع في مفهوم الآيه.

جمله ما كَانُوا يَعْبُدُونَ تشير إلى آلهه المشركين، كالأصنام و الشياطين و الطغاه المتجبرين و الفراعنه و النمارده، و عبّرت عنها ب  
مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ لكون أغلب تلك الآلهه موجودات عديمه الحياه و غير عاقله، و قد اصطلح عليها بهذا التعبير لأنه يعطى طابع  
التغليب.

(الجحيم) تعنى جهنّم، و هى من مادّه (جحمه) على وزن (ضربه) و تعنى شدّه تأجيج النار.

و الملاحظ فى الآيه استخدامها عباره فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ حَقًّا كم هذه العباره عجيبه؟ فى أحد الأيام ارشدوا إلى  
الصراط المستقيم و لكنهم لم يقبلوه، و اليوم يجب أن يهدوا إلى صراط الجحيم، و هم مجبرون على القبول به، و هذا توبيخ  
عنيف لهم يجعلهم يتحرّقون ألما فى أعماقهم.

\*\*\*

ص : ٣٠٠



إشاره

وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنصِرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كُنَّا لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنْنا لَنذٰقُوْنَ (٣١) فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنْنا كُنَّا غٰوِينَ (٣٢)

التفسير

إشاره

الحوار بين القاده و الأتباع الضالين:

الآيات السابقه استعرضت كيفيه سوق ملائكه العذاب للظالمين و من يعتقد اعتقادهم برفقه الأصنام و الآلهه الكاذبه التى كانوا يعبدونها من دون الله، إلى مكان معين، و من ثم هدايتهم إلى صراط الجحيم.

و استمرارا لهذا الاستعراض يقول القرآن: وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (١).

ص: ٣٠١

١- ١) - (قفوهم) من مادّه (وقف) و أحيانا تأتي بصوره فعل متعد و تعنى (التوقيف و الحبس)، و أحيانا اخرى تأتي

نعم عليهم أن يتوقفوا و يجيبوا على مختلف الأسئلة التي تطرح عليهم، و لكن عمّا ذا يسألون؟ قال البعض: يسألون عن البدع التي اختلقوها.

و قال البعض الآخر: يسألون عن أعمالهم القبيحة و أخطائهم.

و البعض أضاف: إنهم يسألون عن التوحيد و قول لا إله إلا الله.

و ذهب آخرون: إنهم يسألون عن النعم التي أنعمت عليهم، و عن شبابهم و صحتهم و أعمارهم و أموالهم و نحوها، و هناك روايه يذكرها الشيعة و السنّه في أنّهم يسألون عن ولايه أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السّلام (1).

و بالطبع فإنّ هذه التفاسير لا يوجد أى تناقض بينها، لأنّ في ذلك اليوم يتمّ السؤال عن كلّ شىء، عن العقائد و عن التوحيد و الولايه، و عن الحديث و العمل، و عن النعم و المواهب التي وضعها الله سبحانه و تعالى في إختيار الإنسان.

و هنا يطرح هذا السؤال نفسه، و هو: كيف يساق أولئك أوّلا إلى صراط الجحيم، ثمّ يؤمرون بالتوقف لاستجوابهم؟ ألا ينبغي تقديم عمليه إيقافهم و مساءلتهم على سوقهم إلى صراط الجحيم؟ هناك جوابان لهذا السؤال و هما:

أوّلا: كون أولئك من أهل جهنّم أمر واضح للجميع، و حتّى لأنفسهم، و استجوابهم إنّما يتمّ لإعلامهم بمقدار و حجم الذنوب و الجرائم التي اقترفوها..

ثانيا: طرح هذه الأسئلة عليهم لا لمحاكمتهم، و إنّما ذلك لتوبيخهم و معاقبتهم نفسيا.

و بالطبع فإنّ كلّ ذلك في حاله كون الأسئلة متعلّقه بما أوردنا آنفا، أمّا إذا ارتبط

(1)

بصوره فعل لازم، و تعنى (التوقف و الوقوف) و مصدر الاولى هو وقفه، و مصدر الثانيه وقوف.

ص: ٣٠٢

---

١-١) - الروايه هذه وردت في (الصواعق) عن أبي سعيد الخدرى نقلا عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كما وردت عن الحاكم بن أبو القاسم الحسكاني في (شواهد التنزيل) نقلا عن رسول الله، كذلك وردت في عيون أخبار الرضا نقلا عن الإمام الرضا عليه السّلام.

الحديث بالآيه التاليه و التي تسألهم عن عدم نصرتهم بعضهم البعض، فهنا لا تبقى آيه مشكله فى تفسير الآيه، و لكن هذا التفسير لا يتطابق مع جاء فى عدّه روايات بهذا الشأن، إلا إذا كان هذا السؤال جزء من أسئله مختلفه.

على آيه حال، فعند ما يساق المجرمون إلى صراط الجحيم، تكون أيديهم مقطوعه عن كلّ شىء و قاصره عن تحصيل العون، و يقال لهم: أنتم الذين كان أحدكم يلجأ إلى الآخر فى المشكلات و يطلب العون منه، لم لا ينصر بعضكم بعضا الآن ما لكم لا تنصرون .

نعم، فكلّ الدعائم التي تصوّرت أنّها دعائم مطمئنه فى الدنيا أزيلت عنكم، و لا يمكن أن يساعد بعضكم البعض، كما أنّ ألهتكم ليسوا بقادرين على تقديم العون لكم، لأنهم عاجزون و منشغلون بأنفسهم.

يقال أنّ (أبا جهل) نادى يوم معركة بدر «نحن جميع منتصر»، و القرآن المجيد أعاد تكرار قوله فى الآيه (٤٤) من سوره القمر أمّ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ فيوم القيامه يسأل أبو جهل و أمثاله: لماذا لا يسعى بعضكم لمساعدته البعض الآخر؟ و لكن لا يمتلكون أى جواب لهذا السؤال، سوى سكوتهم الدالّ على ذلّتهم.

الآيه التي تليها تضيف: إنهم فى ذلك اليوم مستسلمون لأوامر الله و خاضعون له، و لا يمكنهم إظهار المخالفه أو الاعتراض بلّ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (١).

و هنا يبدأ كلّ واحد منهم بلوم الآخر، و يسعى إلى إلقاء أوزاره على عاتق الآخر، و التابعون يعتبرون رؤساءهم و أئمتهم هم المقصرون، فيقابلونهم وجها لوجه، و يبدأ كلّ منهم بسؤال الآخر، كما تقول الآيه: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

ص: ٣٠٣

١ - ١) - (استسلام) من مادّه (السلامه) و لكونها من باب (استفعال) فهي بمعنى طلب السلامه و التي عاده تكون ملازمه للانقياد و الخضوع فى مقابل قوّه أعظم.

و هنا يقول التابعون لمتبوعيهـم: إنكم شياطين، إذ كنتم تأتوننا بعنوان النصيحة و الهدايه و التوجيه و إرادته الخير و السعاده لنا، و لكن لم يكن من وراء مجيئكم سوى المكر و الضياع قالوا إنكم كُنتُمْ تأتوننا عَنِ اليمِينِ .

إذ أننا-بحكم فطرتنا-كنا نسعى وراء الخير و الطهاره و السعاده، و لذا لبينا دعوتكم، لكننا لم نكن نعلم أنكم تخفون وراء وجوهكم الخيره ظاهرا و جها آخر شيطانيا و قبيحا أوقعنا فى الخطيئه، نعم فكلّ الذنوب التى ارتكبتها أتم مسئولون عنها، لأننا لم نكن نملك شيئا سوى حسن النيّه و طهاره القلب، و أتم الشياطين الكذابون لم يكن لديكم سوى الخداع و المكر.

كلمه (يمين) تعنى (اليد اليمنى) أو (الجهه اليمنى) و العرب تعتبرها فى بعض الأحيان كناية عن الخير و البركه و النصيحة، و كلّ ما يرد إليهم من جهه اليمين يتفاءلون به، و لذا فإنّ الكثير من المفسّرين يفسّرون كُنتُمْ تأتوننا عَنِ اليمِينِ على أنّها تظهر الخير و النصيحة كما ذكرنا ذلك أعلاه.

على أيّه حال، الثقافه العامه تعتبر العضو الأيمن أو الطرف الأيمن شريفاً، و الأيسر غير شريف، و لهذا السبب تستعمل اليمين للإحسان و عمل الخيرات.

و قد ذكرت مجموعه من المفسّرين تفسيراً آخر و هو: إنّ المقصود هو أنّكم أتيتمونا باعتمادكم على القدره، لأنّ الجهه اليمنى تكون عاده هى الأقوى، و بهذا الدليل فإنّ أغلب الناس ينجزون أعمالهم المهمّه و الصعبه باليد اليمنى، لذا فقد أصبح هذا التعبير كناية عن «القدره».

و هناك تفسيرات اخرى تعود إلى هذين التفسيرات أعلاه، و لكن لا شكّ أنّ التفسير الأوّل أنسب.

و فى المقابل فإنّ المتبوعين و القاده لا يسكتون، بل يجيئون تابعيهم بالقول:

قالوا بل لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

فلو لم تكن أهواؤكم منحرفه، و لو لم تكونوا من طلاب الشرّ و الشيطنه، لما

اتَّبَعْتُمُونَا بِإِشَارِهِ وَاحِدَهُ، وَ لِمَاذَا لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الصَّالِحِينَ؟ إِذَا فَالْخَلَلُ فِيكُمْ أَنْتُمْ، أَذْهَبُوا وَ لَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ وَ الْعَنُوهَا. وَ دَلِيلُنَا وَاضِحٌ، إِذْ لَمْ تَكُنْ لَنَا أَى سُلْطَةٌ عَلَيْكُمْ، وَ لَمْ نَضْغَطْ عَلَيْكُمْ وَ نَجْبِرْكُمْ لِعَمَلِ أَى شَيْءٍ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ .

إِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ طَغَاهُ وَ مَعْتَدُونَ، وَ أَخْلَاقُكُمْ وَ طَبِيعَتُكُمْ الظَّالِمَةُ صَارَتْ سَبَبَ تَعَاسَتِكُمْ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ .

وَ كَمْ هُوَ مُؤَلِّمٌ أَنْ يَرَى الْإِنْسَانَ قَائِدَهُ وَ إِمَامَهُ الَّذِي كَانَ قَدْ ارْتَبَطَ بِهِ قَلْبِيًّا طَوَالَ عَمْرِهِ، قَدْ تَسَبَّبَ فِي تَعَاسَتِهِ وَ شِقَاقِهِ ثُمَّ يَتَبَرَّأُ مِنْهُ، وَ يَلْقَى كُلَّ الذُّنُوبِ عَلَى عَاتِقِهِ؟ فِي الْحَقِيقَةِ، إِنَّ كَلَامَ الْمَجْمُوعَتَيْنِ صَادِقَةٌ فِي قَوْلِهَا، فَلَا هُوَ لَاءٌ، أَبْرِيَاءٌ وَ لَا أَوْلِيَاءُ، فَالْغَوَايَةُ وَ الشَّيْطَانَةُ كَانَتْ مِنْ أَوْلِيَاءِكَ، وَ تَقْبَلُ الْغَوَايَةَ وَ الْإِسْتِسْلَامَ كَانَ مِنْ هُوَ لَاءٍ .

فَجِدَا لَكُمْ لَا يُؤَدِّي إِلَى نَتِيجَتِهِ، وَ هُنَا يَعْتَرِفُ أُمَّهُ الضَّلَالُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَ يَقُولُونَ:

بِهَذَا الدَّلِيلِ ثَبَتَ أَمْرُ اللَّهِ عَلَيْنَا، وَ صَدَرَ حُكْمُ الْعَذَابِ بِحَقِّ الْجَمِيعِ، وَ سَيُنَالُنَا جَمِيعًا عَذَابُ اللَّهِ فَحَقَّقَ عَلَيْنَا قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ .

إِنِّكُمْ كُنْتُمْ طَاغِينَ، وَ هَذَا هُوَ مَصِيرُ الطَّغَاهِ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ كُنَّا ضَالِّينَ وَ مُضَلِّينَ .

فَنَحْنُ أَضَلُّنَاكُمْ كَمَا كُنَّا نَحْنُ أَنْفُسَنَا ضَالِّينَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ .

بِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ مَا الَّذِي يَشِيرُ الْعَجَبُ فِي أَنْ نَكُونَ جَمِيعًا شُرَكَاءَ فِي هَذِهِ الْمَصَائِبِ وَ هَذَا الْعَذَابِ؟ \*\*\*

## ملاحظات

### إشارة

#### ١-السؤال أيضا عن ولايه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

بالشكل الذي أشرنا إليه سابقا، فإن روايات عديدة وردت في مصادر الشيعة و أهل السنّة بشأن تفسير هذه الآية وَ قَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ تَبَيَّنَ أَنَّ مِنْ جَمَلِهِ

القضايا التي يسأل عنها المجرمون يوم القيامة هو ما يتعلّق بولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام.

فالشيخ «الطوسي» نقل في كتابه (الأمالى) عن أنس بن مالك عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة و نصب الصراط على جهنّم لم يجر عليه إلا من معه جواز فيه ولاية علي بن أبي طالب، وذلك قوله تعالى: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ يعني عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السّلام» (١).

كما أكّد الكثير من كتب أهل السنّة على أنّ تفسير هذه الآية يخصّ السؤال بشأن ولاية علي بن أبي طالب عليه السّلام، وقد نقل هذه الرواية ابن عبّاس و أبي سعيد الخدرى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، كما نقلها رواه آخرون منهم:

ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة-الصفحة ١٤٧.

عبد الرزاق الحنبلي في كشف الغمّة-الصفحة ٩٢.

العلامة سبط ابن الجوزى في التذكرة-الصفحة ٢١.

الآلوسى في روح المعانى في نهايه هذه الآية.

أبو نعيم الأصفهاني في كفايه الخصال-الصفحة ٣٦٠، وغيرهم من الرواه (٢).

و بالطبع، و كما قلنا مرارا، فإنّ مثل هذه الروايات لا- تحدّد من المفهوم الواسع للآيات، بل تعكس-فى الحقيقة-مصاديقها الواضحة، بناء على ذلك فإنّه ليس هناك أى مانع من أن يسأل عن جميع العقائد، لكن بما أنّ للولاية موقعا خاصا فى بحث العقائد فقد استند عليها.

و هناك نقطه جديره بالاهتمام، و هى أنّ الولاية لا تعنى علاقه عاديه أو اعتقادا جافا، و إنّما الهدف هو قبول قياده الإمام على عليه السّلام فى المسائل العقائديه و العلميه

ص: ٣٠٦

١-١) -تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، الصفحة ٤٠١.

٢-٢) -لكسب المزيد من الاطلاع فى هذا المجال يراجع إحقاق الحق، المجلد الثالث (الطبعة الجديده) صفحه (١٠٤)، و المراجعات، الصفحة ٥٨ (المراجع ١٢).

و الأخلاقية و الاجتماعيه بعد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

و قد عكست خطب أمير المؤمنين عليه السلام و كلماته فى نهج البلاغه نماذج من تلك المسائل.. المسائل التى يعدّ الإيمان بها و العمل على أساسها و سيله مؤثره للخروج من صفّ أهل جهنّم و الاستقرار على صراط الله المستقيم.

## ٢- المتبوعون و التابعون الضالّون:

الآيات المذكوره أعلاه و آيات اخرى فى القرآن الكريم، تضمّنت إشارات ذات مغزى عن التخاصم الذى يقع بين الأتباع و المتبوعين يوم القيامه أو فى جهنّم و هذا تحذير مفيد لكلّ من يضع عقله و دينه تحت تصرّف أئمّه الضلال.

و مع أنّ كلّ واحد يسعى فى ذلك اليوم للتبرؤ من الآخر، و حتّى أنّه يحاول إلقاء تبعات ارتكاب الذنب عليه، و لكن بتلك الحال لا يستطيع أى واحد منهم إثبات براءته.

و شاهدنا فى الآيات المذكوره أعلاه أنّ أئمّه الغوايه و الضلال يقولون بصراحه لتابعيهم: إنّ سبب تأثيرنا عليكم هو وجود روح الطغيان فى داخلكم بل كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ .

هذا الطغيان هيأ لديكم أرضيه التأثير بإغوائنا، و عبّر هذا الطريق تمكّنا من نقل الخرافات إليكم فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ .

التوجّه الدقيق لمعنى (أغوى) و المشتقّه من (غى) يوضّح الموضوع، لأنّ كلمه (غى) كما يقول الراغب فى (مفرداته) تعنى الجهل الناشئ من المعتقدات الفاسده، إذ أنّ أئمّه الضلال بقوا بعيدين عن معرفه حقائق الوجود و الحياه، و نقلوا جهلهم و معتقداتهم الفاسده إلى تابعيهم الذين كانوا يحملون روح الطغيان فى مقابل أمر البارى عزّ و جلّ.

و بهذا الدليل يعترفون هناك بأنهم هم و تابعوهم يستحقّون العذاب، فَحَقَّ عَلَيْنَا

و كلمه (رب) هنا لها مغزى كبير، إذ أنّ الإنسان يصل إلى درجه بحيث أنّ الله الذى هو مالك ذلك الإنسان و مرّيته و لا يريد له سوى الخير و السعاده يأمر بالقائه فى أشدّ العذاب!! و هذا أيضا من شؤون ربوبيته.

على أيه حال فإنّ ذلك اليوم هو حقّا (يوم الحسره) حيث يندم فيه أئمه الضلال و تابعوهم على أفعالهم، و لكن ما الفائدة؟ فليس هناك أى طريق للرجعه.\*\*\*



اشاره

فَانَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) اِنَّا كَذَلِكْ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) اِنَّهُمْ كَانُوا اِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا اِلَهَ اِلَّا اللّٰهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)  
وَيَقُولُونَ اِذَا لَدَرَكُوا اِلَهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ لَجَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) اِنَّكُمْ لَعَذَابُ الْعَذَابِ الْاَلِيمِ (٣٨) وَ مَا  
تُجْزَوْنَ اِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) اِلَّا عِبَادَ اللّٰهِ الْمُخْلِصِينَ (٤٠)

التفسير

اشاره

مصير أئمة الضلال و أتباعهم:

الآيات السابقة بحثت موضوع التخاصم الذى يدور بين أئمة الضلال و تابعيهم يوم القيامة قرب جهنم، أمّا الآيات أعلاه فقد وضّحت-فى موضع واحد-مصير المجموعتين، و شرحت أسباب تعاستهم بشكل يشخص المرض و يصف الدواء الخاص لمعالجته.

ففى البدايه تقول: إنّ التابع و المتبوع و الإمام و المأموم مشتركون فى ذلك اليوم

بالعذاب الإلهي فَإِنَّهُمْ يَوْمئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

و بالطبع فإن اشتراكهم في العذاب لا يمنع من وجود اختلاف في المكان الذي سيلقون به جهنم، إضافة إلى اختلاف نوع العذاب الإلهي. إذ من الطبيعي أن الذي يتسبب في انحراف الآلاف من البشر لا يتساوى عذابه مع فرد ضالّ عادي، وهذه الآية تشبه الآية (٤٨) في سورة غافر و التي يقول فيها المستكبرون لضعفاء الإيمان بعد مجاجه و مخاصمه تجرى فيما بينهم: إِنَّا جَمِيعًا فِي جَهَنَّمَ، لَأَنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ .

و هذه الآية لا تنافي الآية (١٣) من سورة العنكبوت، و التي يقول فيها الباري عزّ و جلّ وَ لِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ أَى إِنَّهُمْ يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَثْقَالَهُمْ الثَّيْقِيلَةَ، و أحمالاً اخرى أضيفت إلى أحمالهم الثقيله، و ذلك أثر إغوائهم و إضلالهم للآخرين و تشجيعهم على ارتكاب الذنب.

و للتأكيد أكثر على تحقق العذاب تقول الآية التي تلتها إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّ هَذِهِ هِيَ سُنَّتُنَا، السُّنَّةُ الْمُسْتَمَدَّةُ مِنْ قَانُونِ الْعَدَالَةِ.

ثم توضح السبب الرئيسي الكامن وراء تعاسه أولئك، و تقول: إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ .

نعم، إن التكبر و الغرور، و عدم الانصياع للحق، و العمل بالعادات الخاطئه و التقاليد الباطله بإصرار و لجاجة، و النظر إلى كل شيء باستخفاف و استحقار، تؤدى جميعاً إلى انحراف الإنسان.

فروح الاستكبار يقابلها الخضوع و الاستسلام للحقّ و الذي هو الإسلام الحقيقي، الاستكبار الذي هو أساس الظلام، فيما أن الخضوع و الاستسلام هو أساس السعادة.

و الذي يثير الاهتمام أن بعض آيات القرآن الكريم توضح بصورة مباشرة

العذاب الإلهي الذي سيعذب به المستكبرون فاليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق . (١)

لكن هؤلاء برّوا ارتكابهم للذنوب الكبيره بتبريرات أسوأ من ذنوبهم، كقولهم:

هل نترك آلهتنا و أصنامنا من أجل شاعر مجنون و يقولون أ إنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون .

لقد أطلقوا على النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم كلمه (شاعر) لأن كلامه كان ينفذ إلى قلوبهم و يحرك عواطفهم، فأحيانا كان يتكلم إليهم بكلام يفوق أفضل الأشعار وزنا، في الوقت الذي لم يكن حديثه شعرا، و كانوا يعتبرونه (مجنونا) لكونه لم يتلون بلون المحيط الذي يعيش فيه، و وقف موقفا صلبا أمام العقائد الخرافيه التي يعتقد بها المجتمع المتعصب حينذاك، الموقف الذي اعتبره المجتمع الضال في ذاك الوقت نوع من الانتحار الجنوني، في الوقت الذي كان أكبر فخر لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، هو عدم استسلامه للوضع السائد حينذاك.

و هنا تدخل القرآن لردّ ادعاءاتهم التافهه و الدفاع عن مقام الوحي و رساله النبي صلى الله عليه و آله و سلم، عند ما قال: بل جاء بالحق و صدق المرسلين .

فمحتوى كتابه من جهه، و توافق دعوته مع دعوات الأنبياء السابقين من جهه اخرى، هي خير دليل على صدق حديثه.

و أما أنتم أيها المستكبرون الضالون، فإنكم ستدوقون العذاب الإلهي الأليم إنكم لذائقوا العذاب الأليم .

و لا تتصوروا أن الله منتقم، و أنه يريد الانتقام لنيبه منكم، كلاً ليس كذلك و ما تجزون إلا ما كنتم تعملون .

و حقيقه الأمر أن أعمالكم سوف تتجسد أمامكم، لتبقى معكم لتؤذيكم و تعذبكم، و جزاؤكم إنما هو نتيجة أعمالكم و تكبركم و كفركم و عدم إيمانكم بالله

ص: ٣١١

و زعمكم بأن آيات الله هي (شعر) و رسوله (مجنون) إضافة إلى ظلمكم و ارتكابكم القبائح.

آخر آية في هذا البحث، و التي هي -في الحقيقة- مقدّمة للبحث المقبل، تستثني مجموعه من العذاب، و هي -مجموعه عباد الله المخلصين إلا عباد الله المُخلصين (١).

و كلمة عِبَادَ اللَّهِ يمكنها لوحدها أن تبين ارتباط هذه المجموعه بالله سبحانه و تعالى، و عند ما تضاف إليها كلمه مخلصين فإنها تعطى لتلك الكلمه عمقا و حياه، و «مخلص» (بفتح اللام) جاءت بصيغه اسم مفعول، و تعنى الشخص الذى أخلصه الله سبحانه و تعالى لنفسه، أخلصه من كل أشكال الشرك و الرياء و من وساوس الشياطين و هوى النفس.

نعم فهذه المجموعه لا تحاسب على أعمالها، و إنما يعاملها الله سبحانه و تعالى بفضله و كرمه، و يمنحها من الثواب بغير حساب.

\*\*\*

### ملاحظه

الإمعان في آيات القرآن الكريم يبين أن كلمه (مخلص) بكسر اللام، قد استخدمت بكثرة في المواقع التي تتحدث عن حاله الإنسان الذى يعيش مراحل بناء نفسه، و لم يصل إلى التكامل، أما كلمه (مخلص) بفتح اللام، فتطلق على مرحله وصل فيها الإنسان إلى مرتبه يصاب فيها من نفوذ وساوس الشيطان إلى قلبه، بعد أن اجتاز مرحله جهاد النفس و مراحل المعرفه و الإيمان، كما أن القرآن ينقل عن إبليس الخطاب التالى لله سبحانه و تعالى فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ .

هذه الآيه تكررت عدّه مرّات في القرآن، و هي توضّح عظمه مقام المخلصين،

ص: ٣١٢

١- (١) - العبارة هذه (استثناء منقطع) من ضمير (تجزون) أو (لذائقو).

مقام يوسف الصديق بعد أن عبر ساحه الاختبار الكبيره بنجاح، وأمثاله من المخلصين كذالك لِنَصْرِيفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَ الْفُحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ أى نحن أظهرنا البراهين ليوسف لنبعد عنه الفحشاء و السوء، لأنه من عبادنا المخلصين (سوره يوسف-٢٤).

فمقام المخلصين لا يناله إلا من انتصر فى الجهاد الأكبر، و شمله اللطف الإلهى بإزاله كل شىء غير خالص من وجوده، و لا تبقى فيه سوى النفس الطاهره الخالصه- كالذهب الخالص- عند إذابتها فى أفران الحوادث و الاختبار. و هنا فإن مكافأتهم لا تتم وفق معيار أعمالهم، و إنما معيار مكافأتهم هو الفضل و الرحمه الإلهيه.

و العلامه الطبائى رحمه الله عليه يقول بهذا الشأن:

«يقول الله سبحانه و تعالى فى هذه الآيه، إِنَّ كَافَّةَ النَّاسِ يَأْخُذُونَ مَكَافَأَهُمْ إِلَّا الْعِبَادَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ، لِأَنَّهُمْ يَدْرِكُونَ بِأَنَّهُمْ عِبِيدَ اللَّهِ، وَ الْعَبْدُ هُوَ الَّذِى لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا مِنْ إِرَادِهِ وَ لَا عَمَلٍ، فَهُوَ لَا يَرِيدُونَ إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللَّهُ وَ لَا يَعْمَلُونَ إِلَّا لَهُ. وَ لِكُونِهِمْ مِنَ الْمُخْلِصِينَ، فَقَدْ أَخْلَصَهُمْ لِنَفْسِهِ، وَ لَا تَعَلَّقُوا لَهُمْ بِشَيْءٍ غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. فَقُلُوبُهُمْ خَالِيَةٌ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا وَ زُخَارِفِهَا، وَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ.»

و من المعلوم أنّ من كانت هذه صفته كان التذاذه و تنعمه بغير ما يلتذّ و يتنعم به غيره، و ارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه، و إن شاركتهم فى ضروريات المأكل و المشرب، و من هنا يتأيد أنّ المراد بقوله: **أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ** الإشاره إلى أنّ رزقهم فى الجنّه رزق خاص لا يشبه غيره، (و أنّهم يرزقون من مظاهر ذات الله الطاهره، و قلوبهم متعطشه اشتياقا لله، و غارقه فى العشق و الوصول إلى الله) (١).

\*\*\*

ص: ٣١٣

اشاره

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُؤُوسٍ مِنْ  
مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَمَّذَةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ  
مَكْنُونٌ (٤٩)

التفسير

اشاره

جوانب من النعم لأهل الجنة:

الآيات الأخيرة في البحث السابق تحدّثت عن عباد الله المخلصين، أمّا آيات بحثنا هذا فإنّها تستعرض العطايا و النعم غير  
المحدوده التي يهبها الله سبحانه و تعالى لأهل الجنة، و يمكن توضيحها في سبعة أقسام:

تقول الآية أولاً: إِنَّ لَهُمْ رِزْقًا مَعْلُومًا وَمَعِينًا أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ .

فهل هذه هي خلاصه لتلك النعم التي ستبينها الآيات فيما بعد، و توضيح للنعم التي ستغدق عليهم بصورة خفيّه.

أو إشاره إلى نعم معنويه غير معروفه و غير قابله للوصف، تتصدّر نعم أهل

بعض المفسرين فسّرها بالشكل الأول، فيما فسّرها آخرون بالشكل الثاني، و تناسب البحث يتواءم مع المعنى الثاني، و بهذا فإنّ النعمة الاولى من النعم السبع - التي وردت في آيات بحثنا - هي الهبات المعنوية و المتع الروحية و درك مظاهر ذات الله، و تناول الشراب الطاهر و الغمره في عشق الله. اللذّه التي لا يمكن أن يدركها العبد ما لم يتذوّقها و يعيش رحابها.

و السبب في أنّ العطايا المادّيه في الجنّه قد ذكرت في آيات القرآن الكريم بالتفصيل و الهبات المعنويه و الملبّدات الروحيه استعرضت بصوره خفيّه، فهو أنّ الأولى قابله للوصف دون الثانيه.

و أمّا بشأن معنى رِزْقٍ مَعْلُومٍ فلقد قيل عنها الكثير، هل هي بمعنى معلوم الوقت، أم بقاءه و دوامه، أم سائر خصائصه؟ و لكن كما قلنا قبل قليل فإنّ «معلوم» تعبير خفي و مجمل عن المواهب التي لا تقبل الوصف.

ثمّ ينتقل إلى بيان نعم اخرى، و يعدّد قبل كلّ شيء بعض نعم الجنّه التي تقدّم لأهل الجنّه بكل احترام و تكريم فَوَاكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ .

و ليس بتلك الصوره التي يرمى فيها الطعام أمام الحيوان لتناوله، و إنّما يقدّم لهم الطعام بكلّ احترام و كأنّهم ضيوف أعزّاء.

هنا نترك الحديث عن أنواع الفواكه التي تقدّم لأهل الجنّه باحترام و تجليل، لتتطرق إلى أماكنهم في الجنّه، حيث أنّ القرآن الكريم يقول: إنّ أماكنهم في حدائق خضراء مملوءه بنعم الجنّه في جَنّاتِ النَّعِيمِ .

فأى نعمه يتمنّونها موجوده هناك، و كلّ ما يطلبون يجدونه أمامهم.

و أشارت الآيات إلى النعمه الرابعه، و هي استئناس أهل الجنّه بمجالس السمر التي يعقدونها مع أصدقائهم في جوّ ملؤه الصفاء، إذ يجلسون على سرر متقابله و ينظر كلّ منهم إلى الآخر على سررٍ مُتَقَابِلِينَ .

يتذاكرون في كل شيء، فمَرَّه تراهم يتحدّثون عن ماضيهم في الدنيا، و أخرى عن النعم العظيمة التي أغدقها عليهم البارئ عزّو جلّ في الآخرة، و أحيانا يستعرضون صفات الجمال و الجلال عند الله، و في أوقات يتحدّثون عن مقام الأولياء و كراماتهم، و يتذاكرون قضايا أخرى قد لا ندركها نحن المسجونون في هذه الدنيا.

«سرر» هي جمع (سرير) و هي الأسره التي يجلس عليها الناس في مجالس سمرهم، كما أنّ لهذه الكلمه معان أوسع، حتّى أنّها تطلق أحيانا على تابوت الميّت، و يحتمل أن يكون إطلاق هذه التسميه على تابوت الميّت برجاء أن يكون التابوت مركب بهجه يسير به إلى الرحمه الإلهيه و جنّه الخلد.

أمّا القسم الخامس فيتحدّث عن نعمه أخرى من النعم التي تغدق على أهل الجنّه، إذ تطرّق إلى الشراب الطهور الذي يطاف به عليهم بكؤوس مملوءه بأنواع الخمور الطاهره، و متى ما أرادوا فإنّهم يسقون من ذلك الخمر ليغرقوا في عالم من النشاط و الروحيه يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ .

و هذه الكؤوس ليست في مكان معيّن يذهبون إليها لأخذها، و إنّما يطاف بها عليهم يُطافُ عَلَيْهِمْ .

كلمه (كأس) يطلقها أهل اللغه على إناء الشراب المملوء، فيما يطلقون كلمه (قدح) عليه إن كان خاليا، و قال الراغب في مفرداته: الكأس الإناء بما فيه من الشراب.

أمّا كلمه (معين) مشتقّه من (معن) على وزن (صحن) و تعنى الجارى، إشاره إلى أنّ هناك عيونا جاريه من الخمر الطاهر، تملأ منها- في كلّ لحظه- الكؤوس، و من ثمّ يطاف بها على أهل الجنّه، و هذه العيون الجاريه من الخمر الطاهر لا تنضب و لا تفسد، إضافة إلى أنّ الحصول عليها لا يحتاج إلى أى مشقّه أو تعب.

ثمّ ينتقل الحديث إلى وصف كؤوس الشراب، إذ يقول: إنّها بيضاء اللون



و متلأئته و تعطى لذّه للشاربين بها بيضاء لذّه للشاربين .

و كلمه (بيضاء) اعتبرها بعض المفسرين صفة لكؤوس الشراب، فيما اعتبرها البعض الآخر صفة للشراب الطهور، و يعنى أنّ ذلك الشراب ليس كالأشربه الملوّنه فى الدنيا، بل إنّها أشربه طاهره، خاليه من الألوان الشيطانيه، و بيضاء اللون شفّافه.

و بالطبع فإنّ المعنى الثانى أنسب لجمله لذّه للشاربين .

الآيه السابقه التى تطرقت إلى الشراب و الكؤوس ربّما تجلب إلى الأذهان مفاهيم اخرى، أمّا الآيه التى تليها فتطرد فى جملة قصيره كافّه تلك المفاهيم عن الأذهان لا فيها غولٌ و لا همٌّ عنها يُنزفون .

أى أنّ ذلك الخمر هو شراب طاهر لا يفسد العقل، و لا يؤدّى إلى السكر و الغفله، و إنّما يؤدّى إلى اليقظه و النشاط و فيه متعه للروح.

و كلمه (غول) على وزن (قول) تعنى الفساد الذى ينفذ إلى الشىء بصوره غير محسوسه، و لهذا يقال فى الأدب العربى لعمليات القتل التى تتمّ بصوره سريّه أو خفيه بأنّه (قتل غيله).

و كلمه (ينزفون) من مادّه (نزف) على وزن (حذف) و تعنى فقدان الشىء تدريجيًا، و عند ما تستخدم هذه الكلمه بشأن آبار المياه، فإنّها تعطى معنى استخراج الماء من البئر تدريجيًا حتّى ينضب، و يقال «نزيف الدم» و هو خروج الدم من الجسد تدريجيًا حتّى ينتهى تماما.

على أيّه حال، فإنّ المقصود فى هذه الآيه ذهاب العقل تدريجيًا و الوصول إلى حاله السكره، أمّا خمر الجنّه الطاهر فإنّه لا يسكر على الإطلاق، إذ لا يذهب بالعقل و لا يسبب أى مضارّ.

هاتان العبارتان تتطرّقان فى آن واحد- بصوره ضمنيه و دقيقه- إلى الشراب فى عالم الدنيا و الذى ينفذ إلى حياه الإنسان بصوره تدريجيّه و سريّه، و يوجد عنده حالات الفساد و الضياع، حيث أنّها لا تؤدّى بعقل الإنسان و أعصابه إلى

الدمار فحسب، بل إن تأثيرها السلبي و الذى لا يمكن إنكاره يمتد إلى جميع أعضاء جسم الإنسان، إلى القلب و حتى الشرايين، و إلى المعده و الكليه و الكبد، و أحيانا تودى بحياه الإنسان و كأنها تقتله غيله، و كذلك تأثيرها على عقل و ذكاء الإنسان يشبه عمليه سحب ماء البئر تدريجيًا حتى يجفّ.

و لكن الشراب الطهور الإلهى فى يوم القيامة لا يحمل هذه الصفات (١).

أمّا القسم السادس، فإنه يشير إلى الحور العين فى جنّات النعيم وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ، أى نرزقهم زوجات لا يعشقن سوى أزواجهن و يقصرن طرفهن عليهم فقط، و لهذه الزوجات أعينا واسعه و جميله.

(طرف) فى الأصل تعنى جفن العين، و هذه الكلمه كناية عن النظر، إذ أنّ أجفان العين تتحرّك عند ما ينظر الإنسان إلى شىء ما، إذن فإنّ عباره قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ تعنى النساء اللواتى ينظرن نظره قصيره، كما أنّ هناك تفسيرات متعدده وردت بهذا الشأن يمكن درجها كالتالى:

الأول: هو أنّهن ينظرن إلى أزواجهن فقط، و لا تمتد أبصارهن إلى سواهم.

و الثانى: هذا التعبير كناية عن كونهن لا يعشقن إلا أزواجهن، و قلوبهم متهيمة بمحبّتهم، و لا توجد محبّه اخرى فى قلوبهن، و هذا هو أكبر امتياز للمرأة التى تحبّ زوجها و تتأمل به.

و التفسير الثالث: هو أنّ لهنّ أعين سكرى، هذه الحاله الخاصه التى طالما وصف فيها الشعراء جمال العين فى قصائدهم (٢).

ص: ٣١٨

١ - ١) - الضميران (فيها) و (عنها) يعودان على «الخمير» التى لم ترد بصورة مباشره فى الجمله، لكن ذلك يتّضح من سياق الكلام، و كما هو معروف فإنّ الخمره هى مؤنث مجازى و (عن) فى (عنها) إنّما هى لبيان العله، و تعنى أنّ هذه الخمره لا تسكر هؤلاء و لا تفقد عقلهم و شعورهم، و يجب الالتفات إلى أنّ للخمر معنيان مشتركان، إذ هى أحيانا تطلق على شراب يثير الفساد و يذهب بالعقل إنّما الخمرُ وَ الْمَيْسِرُ... (المائده - ٩٠)، و أحيانا تطلق على الشراب الطاهر الذى يعطى لعباد الله المخلصين فى جنان الخلد وَ أَنهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَدَهُ لِلشَّارِبِينَ (محمّد - ١٥).

٢ - ٢) - روح المعانى، المجلد ٣٣، صفحه ٨١.

و بالطبع فإنَّ المعنى الأوَّل والثانى يبدوان أنسب، مع أنه لا مانع من الجمع بين المعانى.

كلمه (عين) على وزن (سين) و جمعها (عيناء) و تعنى المرأه ذات العين الواسعه.

و أخيراً، فإنَّ آخر آيه فى بحثنا هذا تعطينا وصفاً آخر لزوجات الجنّه، إذ توضّح طهارتهنّ و قد استهنّ من خلال هذه العبارة كَأَنَّهِنَّ بَيِّضٌ مَّكْنُونٌ أى إنهنّ نظيفات و ظريفات، و ذوات أجسام بيضاء صافيه كالبيض الذى كنه الريش فى العشّ فلم تمسّه الأيدى و لم يصبه الغبار.

(بيض) جمع بيضه.

(مكنون) مشتقّه من (كن) على وزن (جنّ) و تعنى المستور بالادّخار.

هذا التشبيه القرآنى يتّضح بصورة جيده إذا نظر الإنسان إلى البيضه فى اللحظه التى تنفصل فيها عن الدجاجه، و لم تمسّها بعيد الإنسان لتستقرّ تحت جناح الدجاجه و ريشها، إذ تبدو عليها شفافيه و صفاء عجيبان.

و بعض المفسّرين يرى بأنّ كلمه (مكنون) تعنى المحتويات الداخليه للبيضه المختفيه تحت القشره، و فى الواقع فإنّ التشبيه المذكور يشير إلى بيضه مطبوخه قد أزيلت قشرتها الخارجيه لتوّها، و قد بدا عليها البياض اللامع و النعومه و اللطافه.

الملاحظ أنّ عبارات القرآن المجيد الخاصه بتوضيح الحقائق، عميقه و مفعمه بالمعانى، فعبارته قصيره و لطيفه واحده توضّح حقائق كثيره و بأسلوب لطيف.

\*\*\*

ملاحظه

اشاره

**إلقاء نظره عامّه على ما جاء فى الآيات السابقه:**

الهبّات التى من اللّه تعالى بها على أهل الجنّه-المذكوره فى الآيات السابقه- هى مجموعه من الهبات الماديّه و المعنويه، و نستشف من عبارته أولئك لهم رزقٌ

ص: ٣١٩

أَنَّ أَوَّلَ هَبِّهِ هِيَ تِلْكَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْهَبَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ الَّتِي يَعْجِزُ اللِّسَانُ عَنْ وَصْفِهَا.

أَمَّا الْأَقْسَامُ السِّتَّةُ الْآخَرَى وَهِيَ الْفَوَاكِهِ، وَالشَّرَابُ الطَّاهِرُ، وَالزَّوْجَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَالْإِحْتِرَامُ الْكَامِلُ، وَالْمَسْكَنُ الْحَسَنُ، وَالْأَصْدِقَاءُ الْجَيِّدُونَ فِي الْجَنَّةِ، فَقَدْ أُعْطِيَ أَعْدَادًا مُخْتَلِفَةً لِنِعْمِ الْجَنَّةِ، وَالَّتِي غَالِبًا مَا تَمْزِجُ بِالْعَطَايَا وَالْمُنْحِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ.

لَكِنْ كُلُّ مَا طَرَحْنَاهُ كَانَ بَلَّغْتَنَا الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ أَبَدًا أَنْ تَعْكَسَ كُلَّ جَوَانِبِ النِّعَمِ فِي الْجَنَّةِ، وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ فَإِنَّا نَحْتَاجُ إِلَى حَوَاسِ سَمْعٍ وَنَظَرٍ وَإِدْرَاكِ آخَرَى، إِضَافَةً إِلَى الْفَافِظِ وَجَمَلٍ وَكَلَامٍ آخَرَ، كَيْ نَتَمَكَّنَ مِنْ شَرْحِ هَذِهِ الْأُمُورِ.

وَبِعِبَارِهِ آخَرَى، فَإِنَّ حَقِيقَةَ النِّعَمِ الَّتِي تَعْدُقُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ خَفِيَّةٌ عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، إِلَّا إِذَا ذَهَبُوا إِلَى هُنَاكَ وَشَاهَدُوا عَنْ قُرْبٍ لِيَدْرِكُوهَا.

عَلَى أَيِّهِ حَالٌ، فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ وَالَّذِينَ وَصَلُوا فِي عِلْمِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ إِلَى مَرَحَلَةِ الْكَمَالِ، أَعْرَآءَ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَشْمَلُهُمُ اللَّطْفُ الْإِلَهِيُّ بِصُورِهِ غَيْرِ مَحْدُودَةٍ، وَمَهْمَا تَصَوَّرْنَا عُلُوَّ مَقَامِهِمْ، فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ.

\*\*\*

اشاره

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتَزِدِينَ (٥٦) وَ لَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)

التفسير

اشاره

البحث عن رفيق السوء:

عباد الله المخلصون الذين استعرضت الآيات السابقة النعم المادية و المعنوية التي أغدقت عليهم، كالفاكهة، و الحور، و كأس المعين الذي يطاف به عليهم، و السرر المتقابلة التي يجلسون عليها، و الأصدقاء الطيبين الذين يجالسونهم و يتحدثون معهم، و فجاء- خلال جلسات سمرهم في الجنة- يتذكرون أصدقائهم

فى الدنيا، أصدقائهم الذين انفصلوا عنهم فى الطريق، و لم يجدوا لهم أى أثر فى الجنة، فيسعون إلى معرفه مصيرهم.

نعم، فى الوقت الذى كانوا فيه منشغلين بالحديث و السؤال عن أحوال بعضهم البعض، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

فجأه خطر فى ذهن أحدهم أمر، فالتفت إلى أصحابه قائلاً: لقد كان لى صديق فى الدنيا قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لى قَرِينٌ .

و مع الأسف، فإنه انحرف عن الطريق الصحيح، و صار منكراً ليوم البعث، و كان دائماً يقول لى: هل تصدق هذا الكلام و تعتقد به؟  
يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ .

هل أننا إذا متنا و كنا تراباً و عظاما نحيا مره اخرى، لنساق إلى الحساب، و الجزاء على ما اقترناه من أعمال؟ إن هذا ممّا لا ينبغي أن يصدق: أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (١) .

و هنا يخاطب من كان يتحدث معهم من أهل الجنة، بالقول: ليتنى أعرف أين هو الآن؟ و فى أيه ظروف يعيش؟ فمكانه خال بيننا..

و يضيف: أيها الأصدقاء، هل تستطيعون البحث عنه، و معرفه حاله، قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٢) .

و أثناء بحثه عن قرينه و صديقه ينظر إلى جهنم، و يرى فجأه صديقه وسط جهنم فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٣) .

فيخاطبه قائلاً: أقسم بالله لقد كدت أن تهلكنى و تسقطنى فيما سقطت فيه قَالَ تَاللَّهِ إِنِ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٤) .

ص: ٣٢٢

١-١) - (مدينون) من مادّه (دين) و تعنى الجزاء، و هنا تعنى: هل أننا سنجزى.

٢-٢) - (مطلعون) من مادّه (اطلاع) و تعنى التفتيش و البحث، و الإشراف على شىء من مكان عال، و أخذ المعلومات.

٣-٣) - (سواء) تعنى الوسط.

٤-٤) - (تردين) من مادّه (إرداء) و تعنى السقوط من مكان عال، و هلاك الساقط.

لقد أو شكت أن تؤثر على صفاء قلبي بوساوسك، وأن تزج بي في الخط المنحرف الذي كنت فيه، فلو لا لطف الله الذي منعه من ذلك و نعمته التي سارعت لمساعدتي، لكنت اليوم من المحضرين للعذاب مثلك في نار جهنم و لو لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .

فالتوفيق الإلهي كان رفيق دربي، و لطف هدايته كان الموجه لي.

و هنا يلقي نظره اخرى إلى صديقه في جهنم، و يقول له موبخا إياه: لم تكن أنت القائل لي في الدنيا بأننا لا نموت أ فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ سِوَى مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَ بَعْدَهَا لَا حَيَاةَ أُخْرَى وَ لَا عَذَابَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

الآن انظر و لاحظ الخطأ الكبير الذي وقعت فيه! بعد الموت كانت هذه الحياه و هكذا ثواب و عقاب، و الآن توضّحت لك كافه الحقائق، و لكن ما الفائدة فليس هناك طريق للعودة.

طبقا لتفسير الآيتين الأخيرتين، فإنّ حديث الذي هو في الجنه مع صديقه الذي في جهنم، كان مركزا على تذكيره بإنكاره للمعاد في الحياه الدنيا.

لكن بعض المفسرين يحتملون وجود تفسير آخر للآيتين المذكورتين، و هو أنه بعد انتهاء حديث الذي هو في الجنه مع صديقه الذي في جهنم، يعود إلى أصحابه في الجنه للتسامر فيما بينهم، فيقول أحدهم من شدّه الفرح: أ حَقًّا أَنَّنَا لِنَمُوتُ مَرَّةً أُخْرَى؟ وَ أَنَّنَا سَنَعِيشُ هُنَا خَالِدِينَ؟ وَ هَلْ أَنَّهُ بَعْدَ الْمَوْتِ الْأَوَّلِ لَا يَوْجَدُ مَوْتَ آخَرَ، وَ تَبْقَى هَذِهِ النِّعْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ مَعَنَا، وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ؟ بِالطَّبَعِ هَذَا الْكَلَامُ لَيْسَ مَصْدَرُهُ الشُّكُّ وَ التَّرَدُّدُ، إِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ شِدَّةِ الْفَرَحِ وَ السَّرُورِ، فَمِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَحْصُلُ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الْأَمَلِ وَ الْإِنْتِظَارِ عَلَى بَيْتٍ وَاسِعٍ وَ فَخْمٍ، فَيَقُولُ وَ هُوَ مُتَعَجِّبٌ: كَلَّ هَذَا لِي؟ يَا رَبِّي! مَا هَذِهِ النِّعْمَةُ! وَ هَلْ سَتَبْقَى عِنْدِي؟ عَلَى كُلِّ حَالٍ، هُنَا اخْتَمَ الْحَدِيثَ بِجُمْلَةٍ عَمِيقَةٍ مَعَانِيٍّ وَ حَسَّاسَةٍ وَ مُؤَثِّرَةٍ جَدًّا،

و مؤكده بأنواع التأكيدات إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

ما أعظم هذا الفوز الذى يغرق فيه الإنسان بنعمه الخلود و الحياه الأبدية، و تشمله الألفاظ الإلهيه؟ و ماذا يتصور أفضل و أعظم من ذلك؟ ثم يقول تبارك و تعالى فى ختام البحث جمله واحده قصيره توقع القلوب و تهز الأعماق، لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ أى لمثل هذا فليعمل الناس، و من أجل نيل هذه النعم فليسع الساعون.

بعض المفسرون يحتملون فى كون الآيه الأخيره أنها من كلام أصحاب الجنه، و هذا الاحتمال مستبعد جداً، لأن الإنسان فى ذلك اليوم غير مكلف، و بعبارة اخرى لا- يوجد أى تكليف فى ذلك اليوم حتى يستنتج من الكلام أنه تشجيع للآخرين، فى الوقت الذى يوضح فيه ظاهر الآيه إنها استنتاج للآيات السابقه، و أنها تدفع الناس إلى الإيمان و التوجه إلى العمل، لذا كان من المناسب أن يورد البارى عزّ و جلّ هذا الحديث فى نهايه هذا البحث.

\*\*\*

**بحوث**

**اشاره**

### **١- الرابطة بين أهل الجنه و أهل النار**

يستشف من الآيات المذكوره أعلاه، وجود نوع من الرابطة بين أهل الجنه و أهل النار، فكأن أهل الجنه-الذين هم فى مرتبه عليا- يرون أهل النار-الذين هم فى الأسفل- [و قد استفيد هنا من عبارته (فاطلع) و التى تعنى الإشراف من الأعلى على الأسفل]

و بالطبع فإنّ هذا ليس بدليل على كون الفاصل الموجود بين الجنه و النار قليلا، فلربّما يمنحون قوه نظر خارقه تغدو أمامها قضيه المكان و الفاصل معدومه.

ص: ٣٢٤



وقد جاء في كلمات بعض المفسرين أنّ للجنة كوه ينظر منها أهل الجنة إلى أهل النار.

و آيات سورة الأعراف توضّح بصورة جيّده الرابطه الموجوده بين الفريقين وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَحَدِّثْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ، (١) كما يمكن الاستفادة من الآيه (٤٤) في سورة الأعراف بهذا الشأن وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ أَى أَنَّ هُنَاكَ حِجَابٌ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَ أَهْلِ النَّارِ.

و كلمه (نادى) يستخدمها-بصوره طبيعیه-المتكلم عند بعد،و توضّح فى الآيه مكان و مرتبه الفريقين.

على آيه حال،و كما ذكرنا عدّه مرّات،فإنّ أوضاع و أحوال يوم القيامة تختلف كثيرا عن أوضاع عالمنا الحالى،و نحن لا نستطيع تقييم الأوضاع هناك وفق معايير عالمنا.

## ٢-بحق من نزلت هذه الآيات

بعض المفسرين ذهب إلى أنّ سبب نزول الآيات المذكوره أعلاه هو ما ورد فى سورة الكهف كمثل، وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا... (٢).

وقد جاء فى هذه الآيات أنّ أحد الشخصين كان متكبرا و مغرورا جدّا،إضافه إلى أنّه كان ينكر المعاد،و الآخر كان مؤمن يعتقد بالقيامة،و فيما بعد نزل العذاب الإلهى على الشخص المغرور الكافر و هو فى هذه الدنيا،إذ فقد ثروته و أحاط به

ص: ٣٢٥

١-١) -الأعراف،٤٤.

٢-٢) -سورة الكهف،الآيات ٣٢ إلى ٤٣.

البلاء من كل جانب (١).

لكن سياق آيات بحثنا هذا يختلف مع ما هي عليه آيات سورة الكهف، وبيّن وجود فارق بين الحادثتين.

و يرى البعض الآخر: إنها تخصّ شخصين شريكين أو صديقين كانا يمتلكان ثروه كبيره، أحدهما كان ينفق بسخاء في سبيل الله، أمّا الثانى الذى كان لا يؤمن بشىء - فقد امتنع عن الإنفاق، و بعد مدّه من الزمن أصيب المنفق بفاقه مالىه، و تعرّض لاستهزاء صديقه، و الذى قال له بلغه السخرية، أ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٢).

فإن كانت أسباب التزول تخصّ هذه الحادته، إذا علينا قراءه كلمه (مصّدّقين) بتشديد(الصاد) و التى تعنى هنا دفع الصدقه و الإنفاق.

فى حين أنّ المشهور بين القراء قراءه كلمه (مصّدّقين) بدون تشديد(الصاد) و على هذا فإنّ سبب التزول الآنف الذكر لا يتلاءم و القراءه المشهوره.

### ٣- نيل مثل هذه النعم علينا المثاره

هل من الصحيح أن يصرف الإنسان رأس مال عمره و القابليات الاخرى و العطايا الإلهيه فى موارد هى كالفقاعات التى لا تدوم سوى لحظات فوق الماء؟ متاع بخص غير دائم، متاع ملئ بالآفات و المشاكل!!.

أو يستثمر هذه القوى العظيمه فى مجال يؤدى إلى حياه خالده و نعم دائمه، و مرضاه الله سبحانه و تعالى؟ فما أجمل التعبير الذى صاغته الآيات القرآنيه المذكوره أعلاه، عند ما دعت المؤمنين إلى هذا الهدف، أى نيل الجنان المملوءه بالملذّات الروحيه و الجسميه-

ص: ٣٢٦

١-١) - تفسير فخر الرازى، المجلّد ٢٦، الصفحه ١٣٩.

٢-٢) - روح المعانى، المجلّد ٢٣، الصفحه ٨٣.

التي تشمل الشراب الطاهر الذي يغرق الإنسان في الظلّ الملكوتي، و القرناء و الأصدقاء الطيبين ذوى القلوب الصافيه الذين تزيل مجالستهم كلّ أشكال الغمّ.

و ليس فيها همّ و لا غمّ و لا مشكله.

نعم فمن يريد أن يكسب الجنان فعليه أن يسعى و يعمل.

\*\*\*

ص: ٣٢٧

اشاره

أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ شَاءُوا مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)

التفسير

اشاره

جوانب من العذاب الأليم لأهل النار:

بعد توضيح النعم الكثيره و الخالده التي يغدقها الله سبحانه و تعالى على أهل الجنه، تستعرض الآيات أعلاه العذاب الأليم و المثير للأحزان الذي أعدّه الله لأهل جهنم، و تقارنه مع النعم المذكوره سابقا، بحيث تترك أثرا عميقا في النفوس يردعها عن ارتكاب الأعمال السيئه و المحرمه.

ففي البدايه تقول: أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ .

كلمه (نزل) تعنى الشىء الذى يهتياً لورود الضيف فيقدم إليه إذا ورد، والبعض الآخر قال: إنها تعنى الشىء الأول الذى يقدم للضيف حين وروده، وهذه إشارة إلى النعم المهيئه لورود الضيوف الأعزاء و المحترمين إلى الجنة.

و القرآن الكريم يقول: أذلك خير أم شجرة الزقوم؟ و لفظه (خير) ليست دليلاً على أن شجرة الزقوم شىء جيد، و النعم التى أعدها الله سبحانه و تعالى لأهل الجنة أجود، إذ أن مثل هذه الألفاظ تستخدم أحياناً فى لغة العرب بشأن بعض الأشياء التى لا فائده فيها أبداً، و يحتمل بأنها نوع من الكنايه، و مثلها كمثل شخص غارق بالذنوب و قد فضح أمام الناس، و هم يقولون له: هل هذه الفضيحة خير، أم الفخر و العزّه و الشرف؟ و أما «زقوم» فقد قال أهل اللغة: إنه اسم نبات مرّ و ذى طعم و رائحة كريهه (١).

فيما قال بعض المفسرين: إنه اسم نبات يحمل أوراقاً صغيره مرّه و كريهه الرائحة و هو موجود فى أرض تهامه، و كان يعرفه المشركون (٢). و أضاف صاحب تفسير (روح المعانى) أن لهذا النبات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورّم (٣).

و قال الراغب فى (مفرداته): الزقوم هو كلّ غذاء يثير اشمئزاز أهل جهنم.

و قال صاحب كتاب (لسان العرب): هذا اللفظ يأتى أساساً بمعنى بلع الشىء، و يضيف: عند ما نزلت هذه الآية قال أبو جهل، لا توجد مثل هذه الشجرة فى أرضنا، فمن منكم يعرف معنى زقوم؟ و هنا أجابه شخص من أفريقيا قائلاً: الزقوم بلغه أهل أفريقيا تعنى الزبد و التمر، و فور ما سمع أبو جهل بجواب الأفريقى، نادى جاريتة، و قال لها باستهزاء: زقمينا بمقدار من التمر و الزبد. فكانوا يأكلون و يسخرون و يقولون: إنّ محمّد يخوفنا من

ص: ٣٢٩

١-١ - مجمع البحرين، مادّه (زقم).

٢-٢ - تفسير روح المعانى، المجلد ٧، الصفحه ٤٦٤.

٣-٣ - روح المعانى، المجلد ٢٣، الصفحه ٨٥.

هذا فى الآخرة، فنزلت آيات قرآنيه قاطعه و حازمه تردّ على أبى جهل و بقيه المشركين سنتطرق إليها فيما بعد.

على كلّ حال فإنّ كلمه (شجره) لا تأتى دائما بمعناها المعروف، و إنّما تعنى فى بعض الأحيان (النبات) و القرائن هنا تشير إلى أنّ المراد من الشجره هو المعنى الثانى أى (النبات).

ثمّ يستعرض القرآن الكريم بعض خصائص هذه النبتة، و يقول: **إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ** .

و لفظه (فتنه) تعنى المحنّه و العذاب، كما تعنى الامتحان، و غالباً ما جاء هذا المعنى فى موارد متعدّده من سور القرآن المجيد، و هو إشاره إلى أنّ المشركين عند ما سمعوا كلمه (الزقوم) عمدوا إلى السخرية و الاستهزاء، فيما كان هذا الأمر امتحاناً لأولئك الطغاه.

و يضيف القرآن الحكيم **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ** .

و لكن الظالمين المغرورين يواصلون استهزاءهم، و يقولون: كيف يمكن لنبات أو شجره ينبت فى قعر جهنّم؟ فأين النار و أين الشجر و النبات؟ و تبعاً لذلك فإنّ سماع اسم هذا النبات و أوصافه هو اختبار دنيوى لهم، و سيكون سبباً لعذابهم و محنتهم فى الآخرة.

و كأنّهم كانوا غافلين عن أنّ الأصول التى تحكم فى ذلك العالم-أى الآخرة- تختلف كثيراً عن الأصول الحاكمة فى العالم الدنيوى، فالأشجار و النباتات التى تنبت فى قعر جهنّم، و تنمو فى ذلك الظرف و يكون لونها بلون النار، ليست كالأشجار و النباتات النابتة فى حدائق و بساتين هذا العالم، و يحتمل عدم جهلهم بهذا الأمر، بل هدفهم الاستهزاء و السخرية فقط.

ثمّ يضيف القرآن الكريم **طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ** .

(الطلع) يقال لأوّل ما يبدو من حمل النخله، و له قشر أخضر اللون، و فى داخله

فروع بيضاء اللون تتحوّل فيما بعد إلى عنقود يحمل التمر.

و كلمه (طلع) من مادّه (طلوع) و بهذه المناسبه أطلق على الثمر فى أول ظهوره.

و هنا يطرح هذا السؤال: هل أنّ الناس شاهدوا رؤوس الشياطين حتّى يشبّه القرآن ثمار الزقوم بها؟ المفسّرون أعطوا أجوبه متعدّده لهذا السؤال:

فقال البعض: إنّ إحدى معانى كلمه (الشيطان) هى حيّه كريهه المنظر، شبّهت بها ثمار الزقوم.

و ذهب البعض الآخر إلى أنّه نوع من النبات ذو شكل قبيح، كما جاء فى كتاب (منتهى الارب) أنّ (رأس الشيطان) أو (رؤوس الشياطين) نبات.

إلا أنّ الرأى الأصحّ، هو أنّ التشبيه هنا استخدم لبيان شدّه قباحه ثمار الزقوم و شكلها الباعث على النفور و الاشمئزاز، لأنّ الإنسان عند ما يشمئز من شىء ترسم صورته ذلك الشىء فى مخيلته بشكل قبيح و رهيب، فيما ترسم صورته الشىء المحبوب بشكل جميل و وديع فى مخيلته.

لهذا فإنّ الناس يرسمون صورته الملائكه بشكل جميل، فيما يرسمون صورته الشياطين و العفاريت بأقبح صورته، فى الوقت الذى لم ير أحد منهم الملائكه و لا الشياطين. كما يشاهد استخدام هذا الأمر كثيرا فى المصطلحات اليوميه، عند ما يقال: الشخص الفلانى كالعفريت، أو أنّه يشبه الشيطان.

هذه كلّها تشبيهات مبنيه على أساس الانعكاسات الذهنيه للناس عن مفاهيم مختلفه، و هى تشبيهات لطيفه و حيّه.

و يواصل القرآن الكريم استعراض العذاب الذى سينال المشركين و الكافرين، فَإِنَّهُمْ لَأَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (١).

ص: ٣٣١

١- ١) - ضمير (منها) يعود للشجره، و هذا بذاته قرينه على أنّ المقصود من الشجره هنا النبات و ليس الشجره، لأنّ النبات يؤكّل لا الشجره.

هذا هو العذاب و الفتنة الذى أشرنا إليه فى الآيات السابقة، حيث إنَّ أكل هذا النبات الذى ينبت فى جهنم ذو الرائحة الكريهة و الطعم المرّ و اللبن الذى يورم و يحرق الأبدان فور ما يصيبها، و تناوله -و بكميات كبيرة- يعدّ عذاباً أليماً.

و من البديهي، فإنّ من يتناول هذا الطعام السيء الطعم و المرّ، يصيبه العطش، و لكن حينما يشعر بالعطش ماذا يشرب؟ القرآن يجيب على هذا السؤال بالقول:

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ

«الشوب» هو الشىء المخلوط أو الممزوج مع شىء آخر. و (حميم) هو الماء الحار البالغ فى حرارته، و طبقاً لذلك فإنّ حتّى الماء الحار الذى يشربه أولئك الظالمون غير نقي، بل ملوّث.

و هذا هو غذاء أهل جهنم، و هذا هو شرابهم، و بعد هذه الضيافة إلى أين يذهبون، فيجيب القرآن على هذا السؤال أيضاً بالقول:

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ .

بعض المفسرين فسّروا هذه العبارة على أنّ الماء الحار الملوّث ينبع من عين خارج جهنم، و أنّ أهل جهنم يساقون كما تساق البهائم إلى الأماكن المخصّصة لشرب الماء، و بعد تناولهم الماء يرجعون إلى الجحيم.

فيما ذهب البعض الآخر إلى القول بأنّه إشاره إلى وجود أماكن و مواقف مختلفه فى جهنم، ينقل إليها الظالمون و المجرمون ليشربوا منها الماء الحار، و يرجعون بعد ذلك إلى المكان الذى كانوا فيه سابقاً.

إلا أنّ التفسير الأوّل يعدّ أنسب.

و كما أشرنا آنفاً، فإنّه لا يمكن تصوّر النعم التى يغدقها الله سبحانه و تعالى على أهل الجنّة، كما أنّه لا يمكن تصوّر العذاب الذى ينال أهل جهنم، بل إنّها تخيلات - و حسب- تتراءى أمام أعيننا من خلال عبارات قصار (اللهم أعذنا بلطفك و احفظنا من العذاب).



الآية الأخيرة في بحثنا تناولت السبب الرئيسي الذى أدى إلى دخول أولئك إلى جهنم و نيلهم العذاب الأليم و الشديد هناك، تناولته في آيتين قصيرتين مليئتين بالمعاني و الحقائق إنهم ألبوا آباءهم ضالين .

و إنهم كانوا يسرعون على آثارهم و من دون أى إرادة فهم على آثارهم يهرعون .

و الملاحظ هنا أن لفظه (يهرعون) جاءت بصيغه المبني للمجهول، و هى من مادّه (هرع) أى أسرع، و هى إشارة إلى أنهم كانوا يقلدون آباءهم قلبا و دينا و إنهم كانوا يحثون الخطى على آثارهم إلى درجه كأنهم يسارعون فى ذلك من دون أى إرادة و إختيار، و إشارة اخرى إلى تعصّبهم و تمسّكهم بالخرافات التى كان أجدادهم الضالون يعتقدون بها.

\*\*\*

ص: ٣٣٣

اشاره

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا- عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (٧٤)

التفسير

اشاره

الأمم الضالّة السابقة:

بما أنّ المسائل السابقة المتعلقة بالمجرمين و الضالّين لا- تختص بزمان و مكان معينين، فالقرآن يتوسّع في الآيات التي تبحث بشكل مفصّل عن هذه المسائل، و يهّئ الأرضية في عدّه آيات قصيره و مختصره لشرح امور كثيره عن الأمم السابقة، و التي بالاطلاع عليها تكون أدلّه ناطقه للبحوث السابقة. و من تلك الأمم أقوام نوح و إبراهيم و موسى و هارون و لوط و يونس و غيرهم، إذ يقول: وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ .

فمشركو مكّه ليسوا هم الوحيدين الذين ابتلوا بالضلال نتيجة سيرهم على نهج أجدادهم الأوّلين، و إنّما ابتليت قبلهم الكثير من الأمم السابقة بنفس المصير.

و التذكير بهذا الأمر إنّما جاء لتسليه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و الثلّه من أصحابه

المؤمنين الذين كانوا في مكه-آنذاك-محاصرين من قبل العدو من كلّ الجوانب.

ثمّ يضيف القرآن المجيد أنّ ضلالتهم لم تكن بسبب افتقادهم القائد و عدم موعظتهم و لَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ .

إذا أننا أرسلنا إليهم أنبياء لإبذارهم من خطر الشرك بالله و الكفر به، و الظلم و الاعتداء، و تقليد الآخرين بصوره عمياء، و لاطلاعهم على مسئولياتهم.

صحيح أنّ الرسل يحملون في يد رساله الإبذار، و في الاخرى رساله البشاره، لكن الإبذار يشغل الجزء الأكبر من موعظهم و نصائحهم، خاصه بالنسبه لمثل تلك الأمم الضالّه و العاصيه، و لهذا أكد عليه هنا.

ثمّ يقول في عبارته قصيره ذات معان عميقه فَنُظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ .

المخاطب في لفظه (فانظر) من الممكن أن يكون رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أو أى شخص عاقل يقظ. و في الحقيقه إنّ هذه الآيه المباركه تشير إلى نهايه أقوام سنستعرض أحوالها و أوضاعها بصوره مفصّله في الآيات القادمه.

أمّا آخر آيه في بحثنا فإنّها تستثنى جماعه من العذاب الإلهي إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ .

الملاحظ أنّ هذه الآيه تشير إلى عاقبه هذه الأمم، و تدعو إلى التمعن في العذاب الأليم الذى ابتلوا به، و الذى أهلكتهم و أبادهم جميعا ما عدا عباد الله المؤمنين و المخلصين الذين نجوا من هذا العذاب (1).

و جدير بالذكر أنّ كلمه (المخلصين)-بفتح اللام-كررت خمس مرّات، و هذا بيان لعلو منزلتهم و مرتبتهم، و كما أشرنا سابقا فإنّ عباد الله المخلصين هم الصفوه التى تسلّحت بالعلم و الإيمان، و انتصرت على النفس بعد مجاهدتها، و هم الذين أخلصهم الله لنفسه و أزال عنهم الشوائب ليجعلهم خالصين، و لهذا فإنّهم يمتلكون

ص: ٣٣٥

١-١) -هذه الجملة استثناء من محذوف يفهم من المذكور، تقديره هكذا: فانظر كيف كان عاقبه المنذرين فإنّا أهلكتناهم جميعا إلاّ عباد الله المخلصين.

الحصانه الكامله تجاه الانحرافات و الزلل.

و الشيطان عاجز و آيس من النفوذ إلى داخلهم، إذ قطع عليه الطريق المؤدى إليهم منذ اليوم الأول، و اعترف هو بعجزه هذا. كذلك فإن فتن المجتمع الذى يعيشون فيه و وساوس الغاوين، إضافة إلى وجود المتبعين لنهج آبائهم و أجدادهم الأولين، و ثقافه الخاطئه و الطاغوتيه، لا تؤثر أبدا على عباد الله المخلصين و لا تحرفهم عن مسيرتهم.

حقيقه الأمر، أن هذه الآيه هى خطاب اطمئنان لمؤمنى مكه المقاومين و الصامدين فى ذلك الوقت، و إنها دعوه لمسلمى عالم اليوم الملئ بالفتن، تدعوهم إلى الانفصال عن صفوف أعداء الله و الانضمام إلى عباد الله المخلصين.

\*\*\*

ص: ٣٣٦

اشاره

وَ لَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (٧٧) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِذَا كَذَّبَكَ الْمُبْذَبِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (٨٢)

التفسير

اشاره

مقتطفات من قصه نوح:

من هنا يبدأ سرد قصص تسعة أنبياء من أنبياء الله الكبار، والذين كانت الآيات السابقة قد تطرقت إليهم بصورة خفيه، وتشعر الآيات بنوح شيخ الأنبياء و أول اولى العزم من الرسل.

بدأ البحث بالإشارة إلى دعاء نوح الشديد على قومه بعد أن يئس من هدايتهم وَ لَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (١).

ص: ٣٣٧

١- ١) - (مجيون) جاءت بصيغه الجمع فى حين أن المقصود منها الله سبحانه و تعالى و الذى استجاب لدعاء نوح، هذا بسبب أن صيغه الجمع تأتي أحيانا للتعظيم، كما أن ضمير جمع المتكلم فى (نادانا) لذلك الغرض أيضا.

هذا الدعاء يمكن أن يكون إشاره إلى الدعاء الذي ورد في سورة نوح وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا. (١)

أو إشاره إلى الدعاء الذي دعا به الله أثناء صعوده السفينه رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ. (٢)

أو أنه إشاره إلى الدعاء الذي جاء في الآيه ١٠ من سورة القمر: فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ.

و بالطبع فإنه ليس هناك أى مانع من أن تكون الآيه تشير إلى كل هذه الأدعيه، وإن الله سبحانه و تعالى استجابها بأحسن وجه.

ولذا فإن الله سبحانه و تعالى يجيبه فى الآيه التى تليها بالقول: وَ نَجِّنَا وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٣).

فما هو هذا الغم الذى وصفته الآيه المباركه بأنه غم كبير آلم نوحا بشده؟ يمكن أن يكون ذلك الغم نتيجة استهزاء قومه الكافرين المغرورين به، و تجريحهم إياه بكلمات نايه و ساخره تستهدف إهانته و أتباعه المؤمنين، أو نتيجة تكذيب قومه اللجوجين إياه، إذ كانوا يقولون له أحيانا: وَمَا تَرْكَاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا وَإِنَّكَ لَبِظِيمٌ (٤)

و أحيانا اخرى يقولون له: يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. (٥)

ص: ٣٣٨

١-١) -سوره نوح، الآيات ٢٦ و ٢٧.

٢-٢) -سوره المؤمنون، الآيه ٢٩.

٣-٣) - (كرب) طبق قول الراغب فى مفرداته هى: الغم الشديد، و وصفه هنا بالعظيم للتأكيد أكثر على هذا المعنى.

٤-٤) -سوره هود، الآيه ٢٧.

٥-٥) -سوره هود، الآيه ٣٢.

أو يسخرون منه وَيَصْنَعُ الْفُلُكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ . (١)

وقد وصل إزعاجهم لنبي الله نوح-المعروف بصبره الكبير- وإساءتهم الأدب أتجاهه و اتّهامه بالجنون إلى درجة لا تطاق، بحيث دعا نوح ربه بالقول: رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . (٢)

و على أيّ حال، فإنّ مجموع هذه الحوادث السيئه و أذاهم له كان يحزّ في قلبه الطاهر بشدّه حتّى لحظه وقوع الطوفان، إذ أنقذه الله سبحانه و تعالى من قبضه قومه الطغاه، و أزال عنه الكرب العظيم و الغمّ الشديد.

و احتمال بعض المفسّرين أنّ المراد من الكَرْبِ الْعَظِيمِ هو الطوفان الذي لم ينج منه سوى نوح و أتباعه المؤمنين، و لكن هذا المعنى مستبعد.

و يضيف القرآن الكريم وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ .

أحقّ أنّ كلّ بنى الإنسان الذين يعيشون اليوم على ظهر الكرة الأرضيه هم من ذريّه نوح؟ الآيه المذكوره أعلاه تصرّح بذلك..

أم المقصود هو أنّ مجموعه كبيره من الأنبياء و الأولياء و الصالحين هم من ذريته، و ليس كلّ الناس؟ بهذا الشأن لدينا بحث، سنتطرّق إليه بعون الله.

و إضافه إلى ذلك يقول القرآن: أنّنا جعلنا لنوح ثناء و ذكرا جميلا فى الأجيال و الأمم اللاحقه: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ .

فقد وصفه القرآن المجيد بالنبي المقاوم و الشجاع و الصبور و الرحيم و العطوف، و أطلق عليه لقب شيخ الأنبياء. و تاريخه اسطوره للمقاومه و الثبات، كما يمكن أن يستلهم سالكو طريق الحقّ من برامجه عبرا و دروسا تمكّنهم من اجتياز العراقيل التي يضعها الأعداء و الجهله أمامهم.

فبعد تحمّله كافه الصعاب و الآلام، منحه الله سبحانه و تعالى و ساما خالدا

ص: ٣٣٩

١-١) -سوره هود، الآيه ٣٨.

٢-٢) -سوره مؤمنون، الآيه ٢٦.

يفتخر به في العالمين سَلَامٌ عَلَيَّ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ .

نعم، فهل هناك فخر أكبر من هذا، وهو أنّ الله يبعث بالسلام و التحيّات لنبيّه نوح، السلام الذي سيبقى يهدى إليه من قبل الأمم الإنسانية لحين قيام الساعة، والملفت للنظر أنّه من النادر أن يوجد في القرآن سلام بهذه السعه على أحد، خاصّه و أنّ المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلّي بالألف و اللام (مفيدا للعموم) فيتسع المعنى ليشمل عوالم البشر و أممهم و جماعاتهم إلى يوم القيامة و يتعدّاهم إلى عوالم الملائكه و الملكوتين.

و لكي تكون خصوصيات نوح عليه السّلام مصدر إشعاع للآخرين، أضاف القرآن الكريم إنا كذلك نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . و إنّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

في الحقيقة، إنّ درجه عبوديه نوح لله و إيمانه به-إضافه إلى إحسانه و عمله الصالح الذي ذكرته الآيتان الأخيرتان- كانت السبب الرئيسي وراء اللطف الإلهي الذي شمل نوحا و أنقذه من الغمّ الكبير، و بعث إليه بالسلام، السلام الذي يمكن أن يشمل كلّ من عمل بما عمل به نوح، لأنّ معايير الألفاظ الإلهيه لا تتخلّف، و لا تختصّ بشخص دون آخر.

أمّا الآيه الأخيره في بحثنا فقد وضّحت بعبارة قصيره شديده اللهجه مصير تلك الامّه الظالمه الشريره الحاقده ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ .

إذ انهمر المطر سيلا من السماء، و تفجّرت الأرض عيوننا، و غطّت المياه اليابسه كبحر هائج دكّ بأواجه المتلاطمه الشامخه عروش الطغاه و دمرها، لافظا إيّاهم بعدئذ أجسادا هامده لا حياه فيها و لا روح.

و الذي يلفت النظر أنّ الله سبحانه و تعالى استعرض أطفاه على نوح في عدّه آيات، فيما بين عذابه لقوم نوح العاصين في عبارته واحده قصيره يرافقها التحقير و عدم الاهتمام بهم، لأنّ حاله نصر المؤمنين و عزّتهم و تأييد الباري سبحانه لهم جديره بالتوضيح، و بيان حال المعاندين و العاصين لا يجدر بالاهتمام و الاعتناء.\*\*\*



## هل أن البشر الموجودين على الأرض هم من ذريته نوح؟

فسرت مجموعه من كبار المفسرين الآيه وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ بِأَنَّ كَلَّ أَجْيَالِ الْبَشَرِ الَّتِي أَتَتْ بَعْدَ نُوحٍ هِيَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

وقد نقل الكثير من المؤرخين بقاء ثلاثة أولاد من ذريته نوح هم (سام) و (حام) و (يافت) بعد الطوفان، و كَلَّ القوميات الموجوده اليوم على الكره الأرضيه تنتهى إليهم.

وقد أطلق على العرق العربى و الفارسى و الرومى العرق السامى، فيما عرف العرق التركى و مجموعه اخرى بأنهم من أولاد «يافت»، أمّا «حام» فإنّ ذريته تنتشر فى السودان و الهند و النوبه و الحبشه، كما أنّ الأقباط و البربر هم من ذريته أيضا.

البحث فى هذه المسأله ليس المراد منه معرفه إلى أى من أولاد نوح ينتسب كلّ عرق، لأنّ المسأله بحدّ ذاتها هى مورد اختلاف بين الكثير من المؤرخين و المفسرين، و لكن المتوخى من البحث هو: هل أنّ كَلَّ القوميات البشرىه تعود فى أصلها إلى أولاد نوح الثلاثة.

و هنا يطرح هذا السؤال نفسه و هو: ماذا كان مصير المؤمنين الذين ركبوا السفينه مع نوح خلال الطوفان؟ و هل أنّهم جميعا ماتوا من دون أن يتركوا أى خلف لهم و إن كان لهم ذريته، فهل كانوا بنات تزوجنّ من أولاد نوح؟ هذه القضيّه من وجهه نظر التأريخ ما تزال غامضه.

على أيّه حال فإنّ هناك أحاديث و آيات قرآنيه تشير إلى وجود أقوام و امم على الكره الأرضيه لا ينتهى أصلها إلى أولاد نوح.

منها ما

ورد فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السّلام فى توضيح الآيه المذكوره أعلاه: «الحقّ و النبوه و الكتاب و الإيمان فى عقبه، و ليس كلّ من فى

الأرض من بنى آدم من ولد نوح عليه السلام قال الله عزّ وجلّ في كتابه: إِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، وقال الله عزّ وجلّ أيضا: ذُرِّيَّتَهُ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ (١).

و على هذا فإنّ انتهاء كلّ العروق الموجوده على الأرض إلى أبناء نوح أمر غير ثابت.

\*\*\*

ص: ٣٤٢

---

١ - ١) هذا الحديث ورد المجلّد الرابع من التفسير نور الثقلين في الصفحة ٤٠٥، كما ورد في نهايه آيات البحث في تفسير الصافي.

اشاره

وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذِ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَإِنْفِكَآ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَانظُرْ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَمِيعٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَطَرَأَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطَفُونَ (٩٢) فَطَرَأَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (٩٤)

التفسير

اشاره

خطه إبراهيم الذكيه في تحطيم الأصنام:

آيات بحثنا هذا تتناول بشيء من التفصيل حياه النبي الشجاع إبراهيم عليه السلام محطم الأصنام بعد آيات استعرضت جوانب من تاريخ نوح عليه السلام الملىء بالحوادث.

ففى البدايه تحدّث القصة عن تحطيم إبراهيم للأصنام، و الموقف الشديد الذى اتّخذه عبده الأصنام تجاه إبراهيم، فيما يتطرق القسم الآخر من القصة للمشهد

الكبير الذى يتمثل فى توضيحات إبراهيم الخليل وقصته ذبح ابنه إسماعيل، والآيات التى تخص هذا القسم ذكرت هنا-فقط- بهذا التفصيل، ولم تذكر فى موضع آخر بهذا الشكل.

الآية الاولى، ربطت بين قصه إبراهيم وقصه نوح بهذه الصورة وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ .

أى إن إبراهيم كان سائرا على خطى نوح عليه السلام فى التوحيد والعدل والتقوى والإخلاص، حيث إن الأنبياء يبلغون لفكر واحد، وهم أساتذته جامعه واحد، وكل واحد منهم يواصل تنفيذ برامج الآخر لإكمالها.

كم هى جميله هذه العبارة؟ إبراهيم من شيعه نوح، رغم أن الفاصل الزمنى بينهما كان كبيرا(قال بعض المفسرين: إن الفاصل الزمنى بينهما يقدر ب ٢٦٠٠ سنة)، إذ أن العلاقات الإيمانيه- كما هو معروف- لا يؤثر عليها الفاصل الزمنى أدنى تأثير (١).

بعد هذا العرض المختصر ندخل فى التفاصيل، قال تعالى: إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

حيث فسر المفسرون(قلب سليم)بعده صور، أشارت كل واحده منها إلى أحد أبعاد هذه المسأله.

القلب الطاهر من الشرك.

أو القلب الخالص من المعاصى والظلم والنفاق.

ص: ٣٤٤

١-١) -بعض المفسرين أرجعوا ضمير(شيعته)إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فى حين أن آيات القرآن الكريم تقول: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتبع ملة إبراهيم، علاوة على ذلك فإن هذا المرجع ليس له فى الآيات السابقة واللاحقه ضمير يدل عليه، ومن الممكن أنهم تصوّروا أن تعبير الشيعة هو دليل على أفضلية نوح من إبراهيم، فى حين أن القرآن الكريم تحدّث عن شخصيه ساميه لإبراهيم، لكن هذا التعبير خال من أيه دلالة على هذه المسأله، بل المقصود استمرار الخط الفكرى والدينى، كما أن أفضلية رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بالنسبه لكافة الأنبياء لا- تتنافى مع أتباعه لدين إبراهيم التوحيدى يقول القرآن، فى الآية ٩٠ من سورة الأنعام فَبِهَدَاهُمْ أَقْتَدِهِ .

أو القلب الخالي من حبّ الدنيا، لأنّ حبّ الدنيا هو مصدر كلّ الخطايا.

و أخيراً هو القلب الذى لا يوجد فيه شىء سوى الله.

فى الحقيقة إنّ كلمه (سليم) مشتقّه من (السلامه)، و عند ما طرح السلامه.

بصوره مطلقه، فإنّها تشمل أيضا السلامه من كلّ الأمراض الأخلاقيه و العقائديه.

فالقرآن الكريم يقول بشأن المنافقين فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ، (١) أى إنّ قلوبهم مصابه بنوع من أنواع المرض، و إنّ الله سبحانه و تعالى أضاف أمراضا اخرى إلى ذلك المرض على أثر لجاجتهم و ارتكابهم المزيد من الذنوب.

و أجمل من فسّر عبارته (القلب السليم) هو

الإمام الصادق عليه السلام عند ما قال:

«القلب السليم الذى يلقي ربّه و ليس فيه أحد سواه!» (٢). حيث جمع بقوله كلّ الأوصاف المذكوره مسبقا.

و

قد جاء فى روايه اخرى للإمام الصادق عليه السلام «صاحب التيه الصادقه صاحب القلب السليم، لأنّ سلامه القلب من هواجس المذكورات تخلص التيه لله فى الأمور كلّها» (٣).

و اعتبر القرآن الكريم القلب السليم رأس مال نجاه الإنسان يوم القيامة، حيث نقرأ فى سوره الشعراء، و فى الآيات ٨٨ و ٨٩ على لسان النّبى الكبير إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٤).

نعم، من هنا تبدأ قصّه إبراهيم ذى القلب السليم، و الروح الطاهره، و الإراده الصلبه، و العزم الراسخ، مع قومه، إذ كلف بالجهاد ضدّ عباد الأصنام، و بدأ بأبيه

ص: ٣٤٥

١-١ - سوره البقره، الآيه ١٠.

٢-٢ - ورد فى الكافى و نقله صاحب تفسير الصافى فى ذيل الآيه (٨٩) من سوره الشعراء.

٣-٣ - المصدر السابق.

٤-٤ - فى مجال القلب السليم ورد بحث مشروح فى ذيل الآيات (٨٨) و (٨٩) من سوره الشعراء (تحت عنوان القلب السليم وحده رأسمال النجاه) ص ٢٧٣.

و عشيرته إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَ قَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ، ما هذه الأشياء التي تعبدونها؟ أليس من المؤسف على الإنسان الذي كرمه الله على سائر المخلوقات، و أعطاه العقل أن يعظم قطعه من الحجر و الخشب العديم الفائدة؟ أين عقولكم؟ ثم يكمل عبارته السابقه التي كان فيها تحقير واضح للأصنام، و يقول: أ إِفْكَآ آِلَهَهُ دُونَ اللّهِ تُرِيدُونَ (١) .

استخدام كلمه (إفك) في هذه الآيه، و التي تعنى الكذب العظيم أو القبيح، توضح حزم و قاطعيه إبراهيم عليه السلام بشأن الأصنام.

و اختتم كلامه في هذا المقطع بعبارته عنيفه فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ إِذْ تَأْكُلُونَ مَا يَرْزُقُكُمْ بِهِ يَوْمِيآ، و نعمه تحيط بكم من كل جانب، و رغم هذا تقصدون موجودات لا- قيمه لها من دون الله، فهل تتوقعون أنه سيرحمكم و سوف لا- يعذبكم بأشد العذاب؟ كم هو خطأ كبير و ضلال خطير؟! عبارته بِرَبِّ الْعَالَمِينَ تشير إلى أَنَّ كَلَّ الْعَالَمِ يَدُورُ فِي ظِلِّ رَبُّوبِيَّتِهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى، و قد تركتموه و اتجهتم صوب مجموعه من الظنون و الأوهام الفارغه.

و جاء في كتب التاريخ و التفسير، أن عبده الأصنام في مدينه بابل كان لهم عيد يحتفلون به سنويا، يهبتون فيه الطعام داخل معابدهم، ثم يضعونه بين يدي آلهتهم لتباركه، ثم يخرجون جميعا إلى خارج المدينه، و في آخر اليوم يعودون إلى معابدهم لتناول الطعام و الشراب.

و بذلك خلت المدينه من سكانها، فاستغل إبراهيم عليه السلام هذه الفرصه الجيده لتحطيم الأصنام، الفرصه التي كان إبراهيم عليه السلام ينتظرها منذ فتره طويله، و لم يكن راغبا في إضاعتها.

و حين دعاه قومه ليلا للمشاركة في مراسمهم نظر إلى النجوم فَظَنَرَ نَظْرَهُ فِي النُّجُومِ .

ص: ٣٤٦

١ - ١) - في تركيب هذه الجمله ذكر المفسرون احتمالين: الأول: أن (إفكا) مفعول ب ل (تريدون) و (آلهه) بدله، و الآخر: أن (آلهه) مفعول به و (إفكا) مفعول لأجله تقدم للأهميه.

و بهذا الشكل اعتذر عن مشاركتهم.

بعد اعتذاره تركوه و أسرعوا لتأديه مراسمهم فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ .

و هنا يطرح سؤالان.

الأول: لماذا نظر إبراهيم عليه السلام في النجوم، و ما هو هدفه من هذه النظرة؟ و الثاني: هل أنه كان مريضا حقًا حينما قال: إنني مريض؟ و ما هو مرضه؟ جواب السؤال الأول، مع أخذ اعتقادات أهل بابل و عاداتهم بنظر الاعتبار، يتضح أنهم كانوا يستقرون النجوم، و حتى أنهم كانوا يقولون بأن أصنامهم كانت هياكل النجوم على الأرض، و لهذا السبب فإنهم يكتنون لها الاحترام لكونها تمثل النجوم.

و بالطبع فإلى جانب استقراهم للنجوم، كانت هناك خرافات كثيرة في هذا المجال شائعة في أوساطهم، منها أنهم كانوا يعتبرون النجوم تؤثر على حظوظهم، و كانوا يطلبون منها الخير و البركة، كما كانوا يستدلون بها على الحوادث المستقبلية.

و لكى يوهمهم إبراهيم عليه السلام بأنه يقول بمثل قولهم، نظر إلى السماء و قال حينذاك: إني سقيم، فتركوه ظنًا منهم أن نجمه يدل على سقمه.

أما بعض كبار المفسرين، فقد احتملوا أنه كان يريد من حركة النجوم تعيين الوقت الدقيق لمرضه، لأنه كان مصابا بحمى تعترية في أوقات معينة، و لكن الاحتمال الأول يعدّ مناسبًا أكثر، مع الأخذ بنظر الاعتبار معتقدات أهل بابل السائدة آنذاك.

فيما احتمل البعض الآخر أن نظره إلى السماء هو التفكير في أسرار الخلق، رغم أنهم كانوا يتصورون أن نظراته إلى السماء هي نظرات منجم يريد من خلال حركه

النجوم توقّع الحوادث القادمة.

أما بخصوص السؤال الثانى فقد ذكروا أجوبه متعدده:

منها: أنه كان مريضا حقًا، وحتّى إن لم يكن مريضاً فإنّه لن يشارك فى مراسم عيدهم، فمرضه كان عذراً جيّداً لعدم مشاركته فى تلك المراسم و فى نفس الوقت فرصه ذهبية لتحطيم الأصنام، و لا- نمتلك دليلاً يمكننا من القول بأنّه استخدم التوريه، كما أنّ استخدام التوريه من قبل الأنبياء يعدّ عملاً غير مناسب.

وقال البعض الآخر: إنّ إبراهيم لم يكن مصاباً بمرض جسدى، و إنّما روحه متعبه، من جزاء الممارسات التافهه لقومه و كفرهم و ظلمهم و فسادهم، فبهذا أوضح لهم الحقيقه، رغم أنّهم تصوّروا شيئاً آخر، و اعتقدوا أنّه يعانى من أمراض جسديه.

و احتمال البعض أنّه استخدم التوريه فى كلامه معهم، فمثلاً- يأتى شخص و يطرق باب البيت، و يستفسر: هل فلان موجود فى البيت، فيأتيه الجواب: إنّهُ ليس هنا، و المراد من هنا هو خلف باب البيت و ليس البيت كلّهُ، فى حين أنّ السامع يفهم أنّه ليس موجوداً فى البيت، (مثل هذه العبارات التى هى ليست بكذب و ظاهرها يعطى مفهوماً آخر يطلق عليها فى الفقيه اسم «التوريه» و مقصود إبراهيم عليه السّلام أنّى يمكن أنّ أمراض فى المستقبل، قال ذلك ليتخلّص منهم و يتركوه وحيداً.

و لكن التفسير الأوّل و الثانى أنسب حسب الظاهر.

و بهذه الطريقه بقى إبراهيم عليه السّلام وحده فى المدينه بعد أن تركها عبده الأصنام متوجّهين إلى خارجها، فنظر إبراهيم حوله و نور الاشتياق لتحطيم الأصنام ظاهر فى عينيه، إذ قربت اللحظات التى كان ينتظرها، و عليه أن يتحرّك لمحاربه الأصنام و إلحاق ضربه عنيفه بها، ضربه تهزّ العقول التافهه لعبدتها و توقظهم.

فذهب إلى معبد الأصنام، و نظر إلى صحون و أوانى الطعام المنتشره فى المعبد، ثمّ نظر إلى الأصنام و صاح بها مستهزئاً، ألا تأكلون من هذا الطعام الذى جلبه لكم

ص: ٣٤٨



عبدتكم، إنه غذاء دسم و لذيذ و متنوع، ما لكم لا تأكلون؟ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (١).

ثم أضاف، لم لا تتكلمون؟ لم تعجز ألسنتكم عن النطق؟ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ .

و بهذا استهزء إبراهيم عليه السلام بكلّ معتقداتهم الخرافيه، و من دون أى شكّ فإنّه كان يعرف أنّها لا تأكل و لا تتحدّث، و أنّها جماد. و أراد من وراء ذلك عرض حادثه تحطيم الأصنام بصوره جميله و لطيفه.

بعد ذلك شمر عن ساعديه، فأمسك الفأس و انقضّ على تلك الأصنام بالضرب بكلّ ما لديه من قوّه فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ .

و المراد من (اليمين) إمّا يد الإنسان اليمنى، و التى ينجز الإنسان بها معظم أعماله، أو أنّها كناية عن القدره و القوّه، و يمكن أن تجمع بين المعنيين.

على أيّه حال، فإنّ انقضاض إبراهيم عليه السّلام على الأصنام، حوّل معبد الأصنام المنظّم إلى خربه موحشه، حيث لم يبق صنم على حالته الاولى، فالأيدى و الأرجل المحطّمه تفرّقت هنا و هناك داخل المعبد، و كم كان منظر المعبد بالنسبه لعبده الأصنام مؤثرا و مؤسفا و مؤلما فى نفس الوقت.

و بعد انتهائه من تحطيم الأصنام، غادر إبراهيم -بكلّ هدوء و اطمئنان- معبد الأصنام عائدا إلى بيته ليعدّ نفسه للحوادث المقبله، لأنّه كان يعلم أنّ عمله كان بمثابة انفجار هائل سيهزّ المدينه برمتها و مملكه بابل بأجمعها، و سيحدث موجه من الغضب العارم، الموجه التى سيكون إبراهيم عليه السّلام وحيدا فى وسطها. إلا أنّ له ربّا يحميه، و هذا يكفيه.

و فى آخر اليوم عاد عبده الأصنام إلى مدينتهم، و اتّجهوا فورا إلى معبدهم، فشهدوا مشهدا رهيبا و غامضا، و من شدّه رهبه المشهد تجمّد البعض فى مكانه، فيما فقد البعض الآخر عقله و هو ينظر بدهشه و تحير لجذاذ آلته المنتشره هنا

ص: ٣٤٩

و هناك، تلك الأصنام التي خالوها ملجأ و ملاذا لهم يوم لا ملجأ لهم، أصبحت بلا ناصر و لا معين.

ثم تحوّل جوّ السكوت الذي خيم عليهم لحظه مشاهده المشهد، تحوّل إلى صراخ و استفسار عمّن فعل ذلك بالهتهم؟ و لم يمرّ وقت طويلا، حتّى تذكروا وجود شاب يعبد الله في مدينتهم اسمه إبراهيم، كان يستهزئ بأصنامهم، و يهدّد بأنّه أعدّ مخطّطا خطيرا لأصنامهم.

من هنا استدلوّوا على أنّ إبراهيم هو الفاعل، فأقبلوا عليه جميعا غاضبين فأقبلوا إليه يَرْفُونَ .

«يَرْفُونَ» مشتقّه من (زَفَّ) على وزن (كفّ) و تستعمل بخصوص هبوب الرياح و الحركة السريعه للنعامه الممتزجه ما بين السير و الطيران، ثمّ تستخدم للكنايه عن (زفاف العروس) إذ تعنى أخذ العروس إلى بيت زوجها.

على أيّه حال، المراد هنا هو أنّ عبده الأصنام جاؤوا مسرعين إلى إبراهيم، و سنقرأ تتمّه الأحداث في الآيات القادمه.

\*\*\*

## ملاحظات

## اشاره

### ١- هل أنّ الأنبياء يستخدمون التوريه؟

«التوريه»-و يعتبر عنها أحيانا بلفظه (معارضض)-تعنى أن يقول الرجل شيئا يقصد به غيره و يفهم منه غير ما يقصده. فمثلا شخص يسأل آخر: متى رجعت من السفر؟ فيجيبه: قبل غروب الشمس، في الوقت الذي كان قد عاد من سفره قبل الظهر، فالسائل يفهم من ظاهر الكلام، أنّه عاد قبل غروب الشمس بقليل، في حين أنّه كان يقصد قبل الظهر، لأنّ قبل الظهر يعدّ أيضا قبل غروب الشمس. أو شخص يسأل آخر: هل تناولت الطعام، فيجيبه: نعم. فالسائل يفهم من الكلام أنّه تناول

ص: ٣٥٠

الطعام اليوم، في حين أنّ قصد المجيب هو أنه تناول الطعام يوم أمس.

مسأله هل أنّ التوريه كذب أم لا؟ مطروحه في الكتب الفقيهيه، فمجموعه من كبار العلماء و منهم الشيخ الأنصاري رضوان الله عليه يعتقدون أنّ التوريه ليست كذبا، فلا- العرف و لا- الروايات تعدها كذبا، و إنّما وردت بشأنها روايات تنفي عنها صفة الكذب، إذ

قال الإمام الصادق عليه السّلام: «الرجل يستأذن عليه فيقول للجاريه قولى ليس هو هاهنا. فقال عليه السّلام: لا بأس ليس بكذب» (١).

و الحقّ هو لزوم القول بالتفصيل، و لا بدّ من وضع ضابطه كليّه: فإذا كان للفظ في اللغه و العرف معنيان، و المخاطب تصوّر معنى خاصّا من تلك الكلمه، في حين أنّ المتحدث يقصد معنى آخر، مثل هذا يعدّ توريه و ليس بكذب، حيث يستخدم لفظ مشترك المعاني يفهم منه المخاطب شيئا، في حين أنّ المتحدث يقصد منه معنى آخر.

و على سبيل المثال، جاء في شرح حال «سعيد بن جبير»، أنّ الطاغيه الحجاج بن يوسف الثقفي سأل سعيد بالقول: ما هو تقييمك لي، فأجابه سعيد: إنك (عادل)، ففرح جلاوزه الحجاج، في حين قال الحجاج: إنّه بكلامه هذا كفرني، لأنّ أحد معاني (العادل) هو العدول من الحقّ إلى الباطل.

أمّا إذا كان للفظ معنى لغوي و عرفي واحد من حيث المفهوم، و المتحدث يترك المعنى الحقيقي و يستخدمه كمعنى مجازي من دون أن يذكر قرائن المجاز، فمثل هذه التوريه- من دون أيّ شكّ- حرام، و لربّما تمكّننا بهذا التفصيل الجمع بين آراء مختلف الفقهاء.

و لكن، يجب الانتباه إلى أنّه في بعض الأحيان حتّى في الموارد التي لا تكون فيها التوريه مصداقا للكذب، تكون للتوريه أحيانا مفساد و مضارّ و إيقاع الناس في الخطأ، و من هذا الباب قد تصل في بعض الأحيان إلى درجه الحرمة، و لكن إن

ص: ٣٥١

لم تكن قد اشتملت على مفسده، و لم تكن مصداقا للكذب، فليس هناك دليل على حرمتها. و روايه الإمام الصادق عليه السّلام هي من هذا القبيل.

بناء على ذلك فإنّ عدم وجود الكذب في التوريه ليس كافيا، بل يجب أيضا أن لا تشتمل التوريه على مفساد و مضارّ اخرى. و بالطبع ففي الحالات التي تقتضى الضروره فيها أن يقول الإنسان كذبا، فمن المسلم به جواز استعمال التوريه ما دام هناك مجال لاستخدامها، لكي لا يكون كلامه مصداقا للكذب.

لكن هل أنّ التوريه جائزه أيضا للأنبياء، أم لا؟ يجب القول: إنّهُ طالما كانت سببا في تزلزل ثقه الناس المطلقه فهي غير جائزه، لأنّ الثقه المطلقه هذه هي رأسمال الأنبياء في طريق التبليغ، و أمّا في موارد مثل ما ورد عن تمارض إبراهيم عليه السّلام و نظره في النجوم، و وجود هدف مهمّ في ذلك العمل، دون أن تتسبّب في تزلزل أعمده الثقه لدى مريدى الحقّ، فلا تنطوى على أى إشكال.

## ٢- إبراهيم و القلب السليم:

كما هو معروف فإنّ كلمه (القلب) تعنى في الاصطلاح القرآنى الروح و العقل، و لهذا فإنّ (القلب السليم) يعنى الروح الطاهره السالمه الخاليه من كافه أشكال الشرك و الشكّ و الفساد.

و القرآن الكريم وصف بعض القلوب ب(القاسيه) **فَبِمَا نَفْسِهِمْ مِيثَاقُهُمْ لَعَنَاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ... (١)**

و أحيانا وصفها بأنّها غير طاهره، كما ورد في (سوره المائده-٤١).

و اخرى وصفها بالمريضه (سوره البقره-٦).

و رابعه وصفها بالقلوب المغلقه المختوم عليها (سوره التوبه-٨٧).

ص: ٣٥٢

و فى مقابل هذه القلوب طرح القلب السليم الخالى من العيوب المذكوره أعلاه، حيث أنه صاف و رقيق ملئ بالعطف و سالم و لا ينحرف عن الحق، القلب الذى وصف فى الروايات ب(حرم الله) إذ جاء

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: (القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله) (١).

و هو القلب الذى يتمكن من رؤيه الحقائق الغيبية و النظر إلى الملكوت الأعلى، إذ

ورد فى حديث لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم «لو لا- أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت» (٢).

الملاحظ أن(القلب السليم)هو خير رأسمال للنجاه فى يوم القيامة، و به التحق إبراهيم عليه السلام بملكوت ربه و تسلّم أمر الرساله.

نختم هذا البحث بحديث آخر، إذ ورد فى الروايات

«إن لله فى عباده آنيه و هو القلب فأحبها إليه(أصفاها)و(أصلبها)و(أرقها):أصلبها فى دين الله،و أصفاها من الذنوب،و أرقها على الاخوان» (٣).

\*\*\*

ص: ٣٥٣

١-١) -بحار الأنوار،المجلد ٦٧،الصفحة ٢٥،باب حبّ الله الحديث ٢٧.

٢-٢) -بحار الأنوار،المجلد ٦٧،الصفحة ٥٩،باب القلب و صلاحه الحديث ٣٩.

٣-٣) -بحار الأنوار،المجلد ٦٧،الصفحة ٥٦،باب القلب و صلاحه الحديث ٢٦.

اشاره

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا إِنَّمَا بُنِينَا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)

التفسير

اشاره

فشل مخططات المشركين:

بعد أن حطم إبراهيم الأصنام، استدعى إبراهيم بهذه التهمة إلى المحكمة، و هناك سألوه و طلبوا منه الجواب عن اليد التي نفذت هذا الفعل في معبدهم، وقد شرح القرآن الكريم في سوره الأنبياء الحادثة بصورة مفصّله، بينما اكتفى القرآن في آيات بحثنا بالإشارة لمقطع حسّاس واحد من مواقف إبراهيم عليه السّلام و هو آخر كلامه معهم في مجال بطلان عقيدتهم في عباده الأصنام  
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ .

فهل هناك شخص عاقل يعبد شيئاً من صنع يديه؟ و ما هو الدافع لأي ذى شعور للسجود لشيء صنعته هو بنفسه؟ فأى عقل و منطق يسمح بفعل هذا؟

فالمعبود يجب أن يكون خالق الإنسان، وليس صنيعه يده، من الآن فكروا و اعرّفوا معبودكم الحقيقي وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ .  
فهو خالق الأرض و السماء، و مالك الوقت و الزمان، و يجب السجود لهذا الخالق و حمده و عبادته.

إنّ هذه الحجّة كانت من الوضوح و القوّه إلى حدّ جعلتهم يقفون أمامها مبهورين و غير قادرين على ردّها و دحضها.

و(ما) في عبارته **مَا تَعْمَلُونَ** هي (ما) الموصولة و ليست (ما) المصدرية، و منها يراد القول، إنّ الله خلقكم و كذلك ما تصنعون، و عند ما يقال: إنّ الأصنام هي من صنع أو عمل الإنسان، فذلك يعني أنّ الإنسان أعطاهما الشكل فقط، و إلاّ فالمادّة التي تصنع منها الأصنام هي من خلق الله أيضا.

صحيح ما يقال من أنّ هذه السجّاده و ذلك البيت و تلك السيارة هي من صنع الإنسان، و لكن المراد ليس أنّ الإنسان هو الذي خلق الموادّ الأولى لتلك الأشياء، و إنّما الإنسان صاغ تلك الموادّ الأولى بشكل معيّن.

أمّا إذا اعتبرنا (ما) مصدرية، فالعباره تعني ما يلي: إنّ الله خلقكم و أعمالكم.

و بالطبع فإنّ المعنى هذا ليس خطأ، و على خلاف ما يظنّه البعض ليس فيه ما يدلّ على الجبر، لأنّ الأعمال التي نقوم بها رغم أنّها تتمّ بإرادتنا، إلاّ- أنّ إرادته و قدره التصميم و غيرها من القوى التي تنفذ من خلالها أفعالنا كلّها من الله سبحانه و تعالى، و بهذا الشكل فإنّ الآيه لا تقصد هذا الأمر، و إنّما تقصد الأصنام، و تقول:

إنّ الله خلقكم أنتم و الأصنام التي صنعتموها و صقلتموها. و جمال هذا الحديث يتجسّد هنا، لأنّ البحث يخصّ الأصنام و لا يخصّ أعمال البشر.

في الحقيقة إنّ موضوع هذه الآيه يشبه الموضوع الذي ورد في قصّه موسى و السحرة و التي تقول: **فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١)**، فالمقصود هنا الأفعى التي هي

ص: ٣٥٥

من صنع السحره.

و من المعروف أنّ الطغاه و الجبابره لا يفهمون لغه المنطق و الدليل، و لهذا لم تؤثر عليهم الأدلّه و البراهين الظاهريه و القويّه التى بينها إبراهيم عليه السّلام على قلوب الجبابره الحاكمين فى بابل حينذاك، رغم أنّ مجموعات من أبناء الشعب المستضعف هناك استيقظت من غفلتها و آمنت بدعوه إبراهيم عليه السّلام.

و لإيقاف انتشار منطق التوحيد بين أبناء مدينه بابل، عمد الطغاه الذين أحسّوا بخطر انتشار على مصالحهم الخاصّه إلى استخدام منطق القوّه و النار ضدّ إبراهيم عليه السّلام، المنطق الذى لا يفهمون سواه. حيث هتفوا بالاعتماد على قدراتهم الدنيويه: أن ابنا له بنيانا عاليا، و اشعلوا فى وسطه النيران ثم ارموه فيه قالوا ابئنا له بُيَانًا فَالْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ .

و من هذه العبارة يستفاد أنّ الأوامر كانت قد صدرت ببناء أربعة جدران كبيره، و من ثمّ إشعال النيران فى داخلها، و بناء الجدران الأربعة الكبيره، إنّما تمّ - كما يحتمل - للحثول دون امتداد النيران إلى خارجها، و منع وقوع أخطار محتمله قد تنجم عنها، و لإيجاد جهنّم واقعیه كتلك التى كان إبراهيم يتهدّد و يتوعّد عبده الأوثان بها.

صحيح أنّ كميّه قليله من الحطب كانت تكفى لحرق إنسان كما إبراهيم، لكنّهم فعلوا ذلك ليطفؤا غيظ قلوبهم من جرّاء تحطيم أصنامهم، و بمعنى آخر الانتقام من إبراهيم بأشدّ ما يمكن، لعلّهم بذلك يعيدون العظمه و الابته لأصنامهم إضافه إلى أنّ عملهم هذا كان تخويفا و تحذيرا لمعارضيهم، كى لا تتكرّر مثل هذه الحادته مرّه اخرى فى تاريخ بابل، لذلك فقد أوقدوا نارا عظيّمه.

«الجحيم» فى اللغه هى النار التى تجتمع بعضها على بعض.

هذا، و قد فسّر البعض «البنيان» بأنّه المنجنيق، و المنجنيق - كما هو معروف - أدها لقذف الأشياء الثقيله إلى مكان بعيد، لكن أكثر المفسّرين انتخبوا التفسير



الأول، أى أنّ البيان هو ذلك البناء المكوّن من أربعة جدران كبيره.

و آيات القرآن الكريم هنا لم تشر إلى دقائق و تفاصيل هذا الحادث الذى ورد فى سورة الأنبياء، و إنّما أنهت هذه الحادته بخلاصه مركزه و لطيفه فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ .

(كيد)فى الأصل تعنى الاحتيال، أ كان بطريقه صحيحه أم غلط، مع أنّها غالبا ما تستعمل فى موارد مذمومه، و بما أنّها جاءت بحاله النكره هنا، فإنّها تدلّ على عظمه الشىء و أهميته، و هى إشاره إلى المخطّط الواسع الذى وضعه طغاه بابل للقضاء على دعوه إبراهيم للناس بقوله و عمله و محو آثارها.

نعم، لقد وضعهم الله سبحانه و تعالى فى أسفل السافلين، فيما رفع إبراهيم عليه السّلام إلى أعلى عليين، كما كان أعلى منطقا، و جعله هو الأعلى فى حادثه إشعال النيران، و أعداءه الأقوياء هم الأخسرين، فكانت النار عليه بردا و سلاما دون أن تحرق حتّى شعره واحده من جسد إبراهيم عليه السّلام و خرج سالما من ذلك البحر الجهنّمى.

فإرادته تقتضى أن ينجى فى يوم من الأيام نوحا من «الغرق»، و فى يوم آخر ينقذ إبراهيم من «الحرق»، و ذلك لكى يوضّح أنّ الماء و النار عبدان مطيعان له سبحانه و تعالى و مستجيبان لأوامره.

إبراهيم عليه السّلام الذى نجا بإرادته الله من هذه الحادته الرهيبه و المؤامره الخطيره التى رسمها أعداؤه له، و خرج مرفوع الرأس منها، صمّم على الهجره إلى أرض بلاد الشام، إذ أنّ رسالته فى بابل قد انتهت، و قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ .

من البديهيّات أنّ الله لا يحويه مكان، و الهجره التى تتمّ فى سبيله من المجتمع الملوّث الفاسد إلى المجتمع الطاهر الصافى، فإنّها هجره إلى الله.

فالهجره إلى أرض الأنبياء و الأولياء و مهبط الوحي الإلهى، هى هجره إلى الله، مثلما يعرف السفر إلى مكّه المكرّمه بأنّه سفر إلى الله، خاصّه و أنّ هجره إبراهيم عليه السّلام

كانت من أجل تنفيذ واجب رسالي إلهي، و أن الله كان هاديه و مرشده خلال السفر.

الآيات-هنا-عكست أول طلب لإبراهيم عليه السّلام من الباري عزّ و جلّ، إذ طلب الولد الصالح، الولد الذي يتمكّن من مواصلة خطّه الرسالي، و يتمم ما تبقى من مسيرته، و ذلك حينما قال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصّٰلِحِينَ .

إنّها حقًا لعباره جميله(الولد الصالح و اللائق)الصالح من حيث الاعتقاد و الإيمان، و الصالح من حيث القول و العمل، و الصالح من جميع الجهات.

و الذي يلفت النظر أنّ إبراهيم عليه السّلام كان قد طلب من الله في إحدى المرّات أن يجعله من مجموع الصالحين، كما نقل القرآن ذلك عن إبراهيم، رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ اَلْحِقْنِي بِالصّٰلِحِينَ . (١)

فيما طلب من الله هنا أن يمنحه الولد الصالح، حيث أنّ كلمه صالح تجمع كلّ الأشياء اللاتقه و الجيده في الإنسان الكامل.

فاستجاب الله لدعاء عبده إبراهيم، و رزقه أولادا صالحين(إسماعيل و إسحاق) و ذلك ما وضحته الآيات التاليه في هذه السوره وَ بَشِّرْناهٓ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصّٰلِحِينَ .

و بخصوص إسماعيل يقول القرآن الكريم: وَ إِسْمٰعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكُفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصّٰبِرِينَ . وَ اَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصّٰلِحِينَ (٢) .

## بحثان

## اشاره

### ١- خالق كل شيء:

وردت في آيات بحثنا أنّ إبراهيم عليه السّلام خاطب عبده الأصنام قائلا: وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ .

ص: ٣٥٨

١- ١) - الشعراء، ٨٣.

٢- ٢) - الأنبياء، ٨٥ و ٨٦.

وقد زعم البعض أنّ هذه الآيات تدلّ على ما جاء في مذهب الجبر الفاسد، و ذلك عند ما اعتبروا (ما) في عبارة مَا تَعْمَلُونَ (ما) المصدرية، وقالوا: إنّ هذه الآية تعني أنّ الله خلقكم و أعمالكم، و بما أنّ أعمالنا هي من خلق الله، فإنّنا لا نمتلك الإختيار، أي إنّنا مجبرون.

هذا الكلام لا أساس له من الصّحّة لعدّه أسباب:

أولاً: كما قلنا فإنّ المراد من مَا تَعْمَلُونَ هنا، هي الأصنام التي كانوا يصنعونها بأيديهم، و ليست أعمال الإنسان، و من دون أي شكّ فإنّهم كانوا يأخذون المواد من هذه الأرض التي خلقها الله، و ينحتونها بالشكل الذي يروق لهم، و لهذا فإنّ (ما) هنا هي (ما) الموصوله.

ثانياً: إذا كان مفهوم الآية كما تصوّر أولئك، فإنّها تكون دليلاً لصالح عبدة الأصنام، و ليس ضدّهم، لأنّهم يستطيعون القول: صناعه الأصنام و عبادتها إنّما هو من خلق الله، و نحن في هذه الحالة لسنا بمذنبين.

و ثالثاً: على فرض أنّ معنى الآية هو هكذا، فليس هناك دليل على الجبر، لأنّه مع الحريه و الإراده و الاختيار فإنّ الله هو خالق أعمالنا، لأنّ هذه الحريه و الإراده و القدره على التصميم و كذلك القوى البدنيه و الفكرية الماديّه و المعنويه لم يعطها غير الله؟ إذا فالخالق هو، مع أنّ الفعل هو باختيارنا نحن.

## ٢- هجره إبراهيم عليه السلام:

الكثير من الأنبياء هاجروا خلال فتره حياتهم من أجل أداء رسالتهم، و منهم إبراهيم الذي استعرضت آيات مختلفه في القرآن المجيد قضيه هجرته، و منها ما جاء في سوره العنكبوت الآية (٢٦) وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

في الحقيقه، إنّ أولياء الله عند ما كانوا يتمون مهام رسالتهم في إحدى المناطق،

أو أنّهم كانوا يحسّون بأنّ المجتمع لا يتقبّل رسالتهم، كانوا يهاجرون كي لا تتوقّف رسالتهم.

و هذه الهجره كانت مصدر بركات كثيره على طول تاريخ الأديان، حتّى أنّ تاريخ الإسلام من الناحيتين الظاهريه و المعنويه يدور حول محور هجره الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم، و لو لا-الهجره لكان الإسلام قد غرق-و إلى الأبد-فى مستنقع عبده الأصنام فى مكّه. فالهجره هى التى أعطت روحا جديده للإسلام و المسلمين، و غيرت كلّ شىء لصالحهم، و خطت للبشرية طريقا جديدا للسير عليه.

و بعباره واحده: فالهجره برنامج عام لكلّ مؤمن عند ما يشعر فى وقت من الأوقات أنّ الجو الذى يعيش فيه غير متناسب مع أهدافه المقدّسه، و يبدو كأنّه مستنقع عفن يفسد كلّ ما فيه، فتكليفه الهجره، و عليه أن يحزم حقائب السفر، و ينتقل إلى مناطق أفضل، فأرض الله واسع.

و الهجره قبل أن تكون ذات طابع ذاتى خارجى، فهى ذات طابع ذاتى داخلى، ففى بدايه الأمر يجب على القلب و الروح هجر الفساد إلى الطهاره، و هجر الشرك إلى الإيمان، و هجر المعاصى إلى طاعه الله العظيم.

فالهجره الداخليه هى بدايه تغيّر الفرد و المجتمع، و مقدّمه للهجره الخارجيه، و قد بحث هذا الموضوع بصوره مفصّله فى هذا التّفسير و فى موضوع يتحدّث عن الإسلام و الهجره، و ذلك بعد الآيه (١٠٠) فى سوره النساء.

\*\*\*

اشاره

فَبَشِّرْ نَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبْتَلَى (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)

التفسير

اشاره

إبراهيم عند المذبح:

بحثنا في الآيات السابقة انتهى عند هجره إبراهيم عليه السلام من بابل بعد أن أدى رسالته هناك، وطلبه من الله أن يرزقه ولدا صالحا، إذ لم يكن له ولد.

و أول آيه في هذا البحث تتحدث عن الاستجابة لدعاء إبراهيم، إذ قالت الآيه:

فَبَشِّرْ نَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ

فى الواقع إن ثلاثة بشائر جمعت فى هذه الآيه، الاولى أنه سيرزق طفلا ذكرا، و الثانى أن هذا الطفل يبلغ سنّ الفتوه، أما الثالثه فهى أن صفته حلیم.

و كلمه (حلیم) تعنى الذى لا يعجل فى الأمر قبل وقته مع القدره عليه، و قيل:

الذى لا يعجل بالعقوبه، و الذى له روح كبيره و هو متسلط على أحاسيسه.

و یرى «الراغب» فى مفرداته أن كلمه حلیم تعنى الضابط نفسه فى لحظه الإثاره و الغضب، و بسبب كون هذه الحاله تنشأ من العقل و الإدراك، فإن كلمه و عكس تعنى -أحيانا- العقل و الإدراك.

و لكن المعنى الحقيقى لكلمه حلیم هو المعنى الأول الذى ذكرناه.

و يمكن الاستفاده من هذا الوصف فى أن الله بشر عبده إبراهيم فى أنه سيعطى ابنه إسماعيل عمرا يمكن وصفه فيه بالحليم، كما أن الآيات التاليه ستوضح أن إسماعيل بين مرتبه حلمه أثناء قضيه الذبح، مثلما وضح أبوه إبراهيم حلمه فى أثناء قضيه الذبح، و أثناء إحراقه بالنار.

و كلمه (حلیم) كترت (١٥) مره فى القرآن المجيد، و أغلبها وردت وصفا لله، عدا ثلاث موارد جاءت فى وصف إبراهيم و ابنه إسماعيل من قبل القرآن الكريم، و الثالثه جاءت فى وصف شعيب و على لسان الآخرين.

و كلمه (غلام) حسب إعتقاد البعض تطلق على كل طفل لم يصل بعد مرحله الشباب، و البعض يطلقها على الطفل الذى اجتاز عمره العشر سنوات و لم يصل بعد إلى سنّ البلوغ.

و يمكن الاستفاده من العبارات المختلفه الوارده بلغه العرب فى أن كلمه (غلام) تطلق على الذكر الذى اجتاز مرحله الطفوله و لم يصل بعد إلى مرحله الشباب.

أخيرا، ولد الطفل الموعود لإبراهيم وفق البشاره الإلهيه، و أثلج قلب إبراهيم الذى كان ينتظر الولد الصالح لسنوات طوال، اجتاز الطفل مرحله الطفوله و أضحى

غلاما. و هنا يقول القرآن: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ .

يعنى أنه وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع فيها السعى و بذل الجهد مع والده فى مختلف امور الحياه و إعانتته على أموره.

و قال البعض: بأنّ (السعى) هنا يعنى العمل لله و العباده، و بالطبع فإنّ كلمه (السعى) لها مفاهيم و معان واسعة تشمل هذا المعنى أيضا، و لكنّها لا يقتصر معناها عليه. و (معه) تدلّ على أنّه كان يساعد والده فى امور الحياه.

على كلّ حال، فقد ذهب جمع من المفسّرين: إنّ عمر إسماعيل كان (١٣) عاما حينما رأى إبراهيم ذلك المنام العجيب المحير، و الذى يدلّ على بدء إمتحان عسير آخر لهذا النّبى ذى الشأن العظيم، إذ رأى فى المنام أنّ الله يأمره بذبح ابنه الوحيد و قطع رأسه. فنهض من نومه مرعوبا، لأنّه يعلم أنّ ما يراه الأنبياء فى نومهم هو حقيقه و ليس من وساوس الشياطين، و قد تكررت رؤيته هذه ليلتين أخريين، فكان هذا بمثابة تأكيد على ضروره تنفيذ هذا الأمر فورا.

و قيل: إنّ أوّل رؤيا له كانت فى ليله الترويه، أى ليله الثامن من شهر ذى الحجّه، كما شاهد نفس الرؤيا فى ليله عرفه، و ليله عيد الأضحى، و بهذا لم يبق عنده أدنى شكّ فى أنّ هذا الأمر هو من الله سبحانه و تعالى.

إمتحان شاقّ آخر يمرّ على إبراهيم الآن، إبراهيم الذى نجح فى كافّه الامتحانات الصعبة السابقه و خرج منها مرفوع الرأس، الامتحان الذى يفرض عليه وضع عواطف الابوّ جانبا و الامتثال لأوامر الله بذبح ابنه الذى كان ينتظره لفترة طويله، و هو الآن غلام يافع قوى.

و لكن قبل كلّ شىء، فكّر إبراهيم عليه السّلام فى إعداد ابنه لهذا الأمر، حيث قال يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى .

الولد الذى كان نسخه طبق الأصل من والده، و الذى تعلم خلال فترة عمره القصيره الصبر و الثبات و الإيمان فى مدرسه والده، رحب بالأمر الإلهى بصدر

واسع و طيبه نفس، و بصراحه واضحه قال لوالده: قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .

و لا تفكر فى أمرى،فإنك ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .

فما أعظم كلمات الأب و الابن و كم تخفى فى بواطنها من الأمور الدقيقه و المعانى العميقه؟! فمن جهه، الأب يصارح ولده البالغ من العمر(١٣)عاما بقضيه الذبح، و يطلب منه إعطاء رأيه فيها، حيث جعله هنا شخصيه مستقله حره الإراده.

فإبراهيم لم يقصد أبدا خداع ولده، و دعوته إلى ساحه الامتحان العسير بصوره عمياء، بل رغب بإشراكه فى هذا الجهاد الكبير ضد النفس، و جعله يستشعر حلاوه لذه التسليم لأمر الله و الرضى به، كما استشعر حلاوتها هو.

و من جهه اخرى، عمد الابن إلى ترسيخ عزم و تصميم والده فى تنفيذ ما أمر به، إذ لم يقل له:اذبحنى، و إنما قال له:افعل ما أنت مأمور به،فإننى مستسلم لهذا الأمر، و خاصه أنه خاطب أباه بكلمه يَا أَبَتِ كى يوضح أنّ هذه القضيه لا تقلل من عاطفه الابن تجاه أبيه و لو بمقدار ذره، و أنّ أمر الله هو فوق كل شىء.

و من جهه ثالثه، أظهر أدبا رفيعا اتّجاه الله سبحانه و تعالى، و أن لا يعتمد أحد على إيمانه و إرادته و تصميمه فقط، و إنما يعتمد على إرادته و مشيئه الله، و بعبارة اخرى: أن يطلب توفيق الاستعانه و الاستقامه من الله.

و بهذا الشكل يجتاز الأب و ابنه المرحله الاولى من هذا الامتحان الصعب بانتصار كامل.

ماذا يدور فى هذا الوسط؟ القرآن الكريم لم يفصل مجريات الحدث، و ركّز فقط على النقاط الحساسه فى هذه القصه العجيبه.

كتب البعض: إنّ إسماعيل ساعد والده فى تنفيذ هذا الأمر الإلهى، و عمل على تقليل ألم و حزن والدته.

فعند ما أخذه والده للذبح وسط الجبال الجرداء و الحارقه فى أرض(منى)قال



إسماعيل لوالده:

يا أبت، أحكم من شدّ الجبل كي لا تتحرّك يدي ورجلي أثناء تنفيذك الأمر الإلهي، أخاف أن يقلل ذلك من مقدار الجزاء الذي سأناله.

والدي العزيز اشحد السكّين جيّداً، و امره بسرعه على رقبتى كي يكون تحمّل ألم الذبح سهلاً بالنسبه لى و لك.

والدى قبل ذبحى اخلع ثوبى من على جسدى كي لا يتلوّث بالدم، لأننى أخاف أن تراه والدتى و تفقد عنان صبرها.

ثمّ أضاف: أوصل سلامى إلى والدتى، و إن لم يكن هناك مانع أوصل ثوبى إليها كي يسلى خواطرها و يهدئ من آلامها، لأنها ستشّم رائحة ابنها منه، و كلما أحست بضيق القلب، تضعه على صدرها ليخفّف الحرقه الموجوده فى أعماقها.

قربت اللحظات الحساسه، فالأمر الإلهي يجب أن ينفذ، فعند ما رأى إبراهيم عليه السّلام درجه استسلام ولده للأمر الإلهي احتضنه و قبل وجهه، و فى هذه اللحظه بكى الاثنان، البكاء الذى يبرز العواطف الإنسانيه و مقدّمه الشوق للقاء الله.

القرآن الكريم يوضّح هذا الأمر فى جملة قصيره و لكنّها مليئه بالمعاني، فيقول تعالى: **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١)**.

مرّه اخرى تطرّق القرآن هنا باختصار، كي يسمح للقارئ متابعه هذه القصّه بانشداد كبير.

قال البعض: إنّ المراد من عبارته **تَلَّهُ لِلْجَبِينِ** هو أنّه وضع جبين ولده-طبقاً لاقتراحه-على الأرض، حتّى لا تقع عيناه على وجه ابنه فتهيج عنده عاطفه الابوّه و تمنعه من تنفيذ الأمر الإلهي.

ص: ٣٦٥

١- ١) - (تَلَّهُ) من مادّه (تَلَّ) و تعنى فى الأصل المكان المرتفع، و (تَلَّهُ لِلْجَبِينِ) تعنى أنّه وضع أحد جوانب وجه ابنه على مكان مرتفع من الأرض. (جبين) تعنى أحد جانبي الجبهه أو الوجه، و طرفى الوجه أو الجبهه يقال لهما (جبينان).

على آية حال كَبَّ إبراهيم عليه السَّلام ابنه على جبينه، و مرَّ السَّكِين بسرعه و قوّه على رقبه ابنه، و روحه تعيش حاله الهيجان، و حبَّ الله كان الشيء الوحيد الذى يدفعه إلى تنفيذ الأمر و من دون أى تردد.

إلا أنَّ السَّكِين الحادّه لم تترك أدنى أثر على رقبه إسماعيل اللطيفه.

و هنا غرق إبراهيم فى حيرته، و مرَّ السَّكِين مرّه اخرى على رقبه ولده، و لكنّها لم تؤثر بشيء كالمّرّه السابقه.

نعم، فإبراهيم الخليل يقول للسَّكِين: اذبحى، لكنَّ الله الجليل يعطى أوامره للسَّكِين أن لا تذبحى، و السَّكِين لا تستجيب سوى لأوامر البارى عزَّ و جلَّ.

و هنا ينهى القرآن كلَّ حالات الانتظار و بعبارة قصيره مليئه بالمعاني العميقه و نَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

إذ نمنحهم توفيق النجاح فى الامتحان، و نحفظ لهم ولداهم العزيز، نعم فالذى يستسلم تماما و بكلَّ وجوده للأمر الإلهى و يصل إلى أقصى درجات الإحسان، لا يمكن مكافأته بأقلَّ من هذا.

ثمَّ يضيف القرآن الكريم إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ .

عملية ذبح الابن البارَّ المطيع على يد أبيه، لا- تعدّ عملية سهله و بسيطه بالنسبه لأب انتظر فتره طويله كى يرزقه الله بهذا الابن، فكيف يمكن إماته قلبه تجاه ولده؟ و الأكثر من ذلك استسلامه و رضاه المطلق- من دون أى انزعاج- لتنفيذ هذا الأمر، و تنفيذده كافّه مراحل العمليه من بدايتها إلى نهايتها، بصوره لا يغفل فيها عن أى شيء من الاستعداد لعمليه الذبح نفسيا و عمليا.

و الذى يثير العجب أكثر هو التسليم المطلق لهذا الغلام أمام أمر الله، إذ استقبال أمر الذبح بصدر مفتوح و اطمئنان يحفّه اللطف الإلهى، و استسلام فى مقابل هذا الأمر.

لذا فقد ورد فى بعض الروايات أنّ جبرئيل هتف «الله أكبر» «الله أكبر» أثناء

عملية الذبح لتعجبه.

فيما هتف إسماعيل «لا إله إلا الله، والله أكبر».

ثم قال إبراهيم «الله أكبر والله الحمد» (١).

وهذه العبارات تشبه التكبيرات التي نرددها في يوم عيد الأضحى.

ولكى لا يبقى برنامج إبراهيم ناقصاً، وتحقق أمنيته إبراهيم فى تقديم القران لله، بعث الله كبشا كبيراً إلى إبراهيم ليذبحه بدلاً عن ابنه إسماعيل، وتصير سنه للأجيال القادمة التى تشارك فى مراسم الحج وتأتى إلى أرض (منى) وَفَدَيْتَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ .

ما المراد بالذبح العظيم؟ هل أنه يقصد منه الجانب الجسمى و الظاهرى؟ أو لأنه كان فداء عن إسماعيل؟ أو لأنه كان لله و فى سبيل الله؟ أو لأن هذه الاضحيه بعثها الله تعالى إلى إبراهيم؟ المفسرون قالوا الكثير بشأنها، ولكن لا يوجد أى مانع يحول دون جمع كل ما هو مقصود أعلاه.

و إحدى دلائل عظمه هذا الذبح، هو اتساع نطاق هذه العمليه سنه بعد سنه بمرور الزمن، و حالياً يذبح فى كل عام أكثر من مليون اضحيه تيمناً بذلك الذبح العظيم و إحياء لذلك العمل العظيم.

«فديناه» مشتقّه من (الفداء) و تعنى جعل الشىء مكان الشىء لدفع الضرر عنه، لذا يطلق على المال الذى يدفع لإطلاق سراح الأسير (الفديه) كما تطلق (الفديه) على الكفّاره التى يخرجها بعض المرضى بدلاً عن صيامهم.

و بشأن كيفية وصول الكبش العظيم إلى إبراهيم عليه السلام، أعرب الكثير من

ص: ٣٦٧

١-١) - تفسير القرطبي، و تفسير روح البيان.

المفسرين عن اعتقادهم في أنّ جبرئيل أنزله، فيما قال البعض الآخر: إنه هبط عليه من أطراف جبال (منى)، و مهما كان فإنّ وصوله إلى إبراهيم كان بأمر من الله.

النجاح الذي حقّقه إبراهيم عليه السّلام في الامتحان الصعب، لم يمدحه الله فقط ذلك اليوم، و إنّما جعله خالدًا على مدى الأجيال وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ .

إذ غدا إبراهيم عليه السّلام «أسوه حسنه» لكلّ الأجيال، و «قدوه» لكلّ الطاهرين، و أضحت أعماله سنّه في الحجّ، و ستبقى خالده حتّى تقوم القيامة، إنّهُ أبو الأنبياء الكبار، و إنّهُ أبو هذه الامّة الإسلاميه و رسولها الأكرم محمد بن عبد الله صلّى الله عليه و آله و سلّم.

و لما امتاز به إبراهيم عليه السّلام من صفات حميده، خصّه الباري عزّ و جلّ بالسلام سَلامٌ عَلَيَّ إِبراهيمَ .

نعم، إنّنا كذلك نجزي و نثيب المحسنين كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ جزاء يعادل عظمه الدنيا، جزاء خالد على مدى الزمان، جزاء يجعل من إبراهيم أهلا لسلام الله عزّ و جلّ عليه.

و عبارته كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تثير الانتباه، إذ أنّها أتت قبل عدّه آيات، و تكررت ثانيه هنا، فهناك حتما علّه لهذا التكرار.

المرحلة الاولى ربّما كانت بسبب أنّ الله سبحانه و تعالى صادق على نجاح إبراهيم في الامتحان الصعب، و أمضى نتيجة قبوله، و هذه بحدّ ذاتها أهمّ مكافأه يمنحها الله سبحانه و تعالى لإبراهيم، ثمّ تأتي قضيه (الفديه بذبح عظيم) و (بقاء اسمه و سنّته خالدين على مدى التاريخ) و (إرسال الباري عزّ و جلّ سلامه و تحيّاته إلى إبراهيم) التي اعتبرت ثلاث نعم كبيره منحها الله سبحانه و تعالى لعبده إبراهيم بعنوان أنّها مكافأه و جزاء للمحسنين.\*\*\*

## ١- من هو ذبيح الله؟

اختلف المفسرون بشأن الولد الذي امر إبراهيم بذبحه، هل كان (إسماعيل أم إسحاق) الذي لقب بذبيح الله؟ إذ أن هناك نقاشا بين المفسرين، فمجموعه تقول:

إن (إسحاق) هو (ذبيح الله) فيما تعتبر مجموعته أخرى (إسماعيل) هو الذبيح، التفسير الأول أكد عليه الكثير من مفسري أهل السنة، فيما أكد مفسر و الشيعة على أن إسماعيل هو الذبيح.

و ظاهر آيات القرآن الكريم المختلفه تؤكد على أن إسماعيل هو ذبيح الله، و ذلك للأسباب التاليه:

أولاً: في إحدى آيات القرآن الكريم نقرأ وَ بَشَّرْنَا<sup>□</sup>هُ بِإِسْحَاقَ<sup>□</sup> نَبِيًّا<sup>□</sup> مِّنَ الصَّالِحِينَ . (١)

هذه العبارة توضح بصوره جيده، أن الله سبحانه و تعالى بشر إبراهيم بولاده إسحاق بعد قضيه الذبح، نتيجة تضحياته، و لهذا فإن قضيه الذبح لا تخصه أبداً، إضافة إلى أن الباري عز و جل عند ما يبشر أحداً بالنبوه، فذلك يعني بقاء ذلك الشخص حياً، و هذا لا يتناسب مع قضيه الذبح التي خصت غلاماً.

ثانياً: نقرأ في الآية ٧١ من سوره هود، قوله تعالى: فَبَشَّرْنَا<sup>□</sup>هَا بِإِسْحَاقَ<sup>□</sup> وَ مِنْ وَرَائِهِ<sup>□</sup> يَعْقُوبَ<sup>□</sup> هذه الآية توضح أن إبراهيم كان مطمئناً على بقاء ولده إسحاق، و أن الله سيرزق إسحاق ولداً اسمه يعقوب، و هذا يعني أن الذبح لا يشمل أبداً. فالذين اعتبروا إسحاق هو الذبيح، يبدو أنهم لم يأخذوا بنظر الإعتبار حقيقه هذه الآيات.

و

نقل عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حديث موثوق، جاء فيه: «أنا ابن الذبيحين» و المقصود من الذبيحين، الأول هو والده (عبد الله) الذي كان أبوه عبد المطلب قد

ص: ٣٦٩

نذر بذبحه تقرّبا إلى الله تعالى و الذي (فداه) بأمر من الله ب(١٠٠) بعير، وقصته معروفه، والثاني هو (إسماعيل) لأنّ من الأمور الثابتة كون نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله و سلّم هو من أبناء إسماعيل و ليس من أبناء إسحاق (١).

و

ورد في الدعاء الذي رواه أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السّلام، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم، (يا من فدا إسماعيل من الذبح) (٢).

و جاء في روايات اخرى عن الإمامين المعصومين الباقر و الصادق عليهما السّلام، أنّهما أجابا على أسئلة تستفسر عن الذبيح، فأجابا أنّه إسماعيل.

و

جاء في حديث نقل عن الإمام الرضا عليه السّلام «لو علم الله عزّ و جلّ شيئا أكرم من الضأن لفدى به إسماعيل» (٣).

خلاصه الأمر، هو أنّ الروايات و الأحاديث التي وردت بهذا الشأن كثيرة، و إذا أردنا استعراضها جميعا، فإنّ البحث يتّسع كثيرا.

و في مقابل هذه الروايات الكثيره المتناسبه مع ظاهر الآيات القرآنيه، هناك روايات شاذة تدلّ على أنّ إسحاق هو المقصود (بذبيح الله) و لا تتطابق مع روايات المجموعه الاولى و لا مع ظاهر الآيات القرآنيه.

و بغضّ النظر عمّا قيل، فهناك قضيه مسلّم بها، و هي أنّ الطفل الذي جاء به إبراهيم مع امّه إلى مكّه المكرّمه بأمر من الله ثمّ تركهما هناك، و ساعده من بعد في بناء الكعبه المشرفه، و أدى مراسم الطواف و السعى هو إسماعيل، و هذا يدلّ على أنّ الذبيح هو إسماعيل، لأنّ عمليه الذبح تكمل الأعمال المذكوره أعلاه.

مما يذكر أنّ كتاب (التوراه) الحالي و المعروف بالعهد القديم يؤكّد على أنّ الذبيح كان إسحاق.

ص : ٣٧٠

١-١) - تفسير مجمع البيان في ذيل الآيات المتعلّقه بالبحث.

٢-٢) - نور الثقلين، المجلّد ٤، الصفحه ٤٢١.

٣-٣) - نور الثقلين، المجلّد ٤، الصفحه ٤٢٢.

هنا يستشف أنّ بعض الروايات الإسلاميه غير المعروفه و التي تؤكد على أنّ إسحاق هو (ذبيح الله) متأثره ببعض الروايات الإسرائيليّه، و يحتمل أنّ اليهود و ضعوها، و ذلك لأنهم من ذريّه (إسحاق)، و قد حاولوا نسب هذا الفخر لهم، حتّى و لو كان عن طريق تزييف الوقائع و الحقائق، و سلبه من المسلمين الذين كان نبيهم نبي الرحمة أحد أحفاد إسماعيل.

على أيّه حال، فإنّ ظواهر آيات القرآن الكريم هي أقوى دليل لنا، إذ توضّح بصوره كافيه، أنّ الذبيح هو إسماعيل، رغم أنّه لا فرق بالنسبه لنا إن كان الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فالإثنان هما أبناء إبراهيم عليه السّلام، و كلاهما من أنبياء الله العظام، و لكن الهدف هو توضيح هذه الحادته التاريخيه.

## ٢- هل أنّ إبراهيم كان مكلفاً بذبح ابنه؟

من الأسئلة المهمّه الاخرى التي تطرح نفسها في هذا البحث، و التي تثير التساؤل في أوساط المفسّرين، هي: هل أنّ إبراهيم كان حقاً مكلفاً بذبح ابنه أم أنّه كان مكلفاً بتنفيذ مقدّمات الذبح؟ فإن كان مكلفاً بالذبح، فكيف ينسخ هذا الحكم الإلهي قبل تنفيذ عمليّه الذبح، في حين أنّ النسخ قبل العمل غير جائز، و هذا المعنى ثابت في علم (اصول الفقه).

و إن كان مكلفاً بتنفيذ مقدّمات عمليّه الذبح، فهذا لا يعتبر فخراً له. و ما قيل من أنّ أهمّيّه المسأله نشأت من أنّ إبراهيم بعد تنفيذه لهذا الأمر و تهيئه مقدّماته كان ينتظر نزول أمر بشأن الذبح و كان هذا هو الامتحان الكبير له -فهو كلام غير جدير بالردّ.

باعتقادنا، أنّ التقولات هذه ناشئه عن عدم التفريق بين الأوامر الامتحانيه و غير الامتحانيه، فالأمر الصادر إلى إبراهيم هو أمر امتحاني، و كما هو معروف فإنّ الأوامر الامتحانيه لا تتعلّق فيها الإراده الحقيقيه بطبيعته العمل، و إنّما الهدف

منها توضيح مقدار الاستعداد الموجود عند الإنسان الممتحن بالنسبة إلى طاعته للأوامر؟ كما أنّ الشخص الممتحن ليس له اطلاع بخفايا الأمور. وبهذا الشكل فإنّ عمله النسخ لم تحصل هنا حتّى تناقش قضيّه صحّتها و وقوعها قبل العمل.

مخاطبه البارى عزّ و جلّ عبده إبراهيم بعد الحادثه قَدْ صَيَّرَ الرُّؤْيَا إِنَّمَا جَاءَتْ بِسَبَبِ إِثْبَاتِ مَقْدَرَتِهِ عَلَى ذَبْحِ ابْنِهِ الْعَزِيزِ، وَ اسْتِعْدَادِهِ رُوحِيًّا لِتَنْفِيزِ هَذَا الْأَمْرِ، وَ نَجَاحِهِ فِي هَذَا الْامْتِحَانِ.

### ٣- كيف يمكن أن تكون رؤيا إبراهيم حجّه؟

بشأن(الرؤيا) هناك كلام كثير، و رد جزء يسير منه فى تفسير سوره يوسف بعد الآيه الرابعه.

لا بدّ هنا من الالتفات إلى أمر و هو: كيف اعتبر إبراهيم منامه حجّه، و اتّخذّه معيارا لعمله؟ فى الجواب على هذا السؤال، يقال: إنّ رؤيا الأنبياء لا يمكن أن تكون رؤيا شيطانيه، و إنّها ليست ناشئه عن فعّاليه قوّه وهميه، و إنّما هى جانب من نظام النبوه و الوحي.

و بتعبير آخر: إنّ ارتباط الأنبياء مع الوحي يكون أحيانا بشكل إلقاء فى القلب.

و أحيانا عن طريق مشاهدته الوحي.

و أحيانا عن طريق سماع أمواج صوتيه، بعثت بأمر من الله.

و أحيانا عن طريق المنام.

و بهذا الشكل لا يمكن وقوع أى خطأ أو اشتباه فى رؤيتهم، و الذى يشاهدونه فى منامهم هو كالذى يشاهدونه فى يقظتهم.

و قيل: إنّ إبراهيم أمر عن طريق الوحي أثناء يقظته بأن ينقذ ما يراه بشأن الذبح فى المنام.



وقيل أيضا: إنّ القرائن المختلفه التي كانت فى هذا المنام، و منها تكراره ثلاث ليال متتاليه، أو وجد عنده علما و يقينا بأنّ ما شاهده فى المنام هو تكليف إلهى و ليس أمرا آخر.

على أيه حال، يمكن أن تكون كلّ هذه التفاسير صحيحه، و لا- يوجد تناقض بينها، كما أنّها لا تتعارض و ظواهر آيات القرآن الكريم.

#### ٤- عدم تأثر روح إبراهيم الكبيره بوساوس الشيطان:

لأنّ إمتحان إبراهيم كان من أكبر الامتحانات على طول التاريخ، إذ كان الهدف منه إخلاء قلبه فى أىّ حبّ لغير الله، و جعله متوّرا- فقط- بعشق و حبّ الله، فقد عمد الشيطان- كما جاء فى بعض الروايات- إلى تكريس كلّ طاقاته لعمل شىء ما يحول دون خروج إبراهيم منتصرا من الامتحان.

فأحيانا كان يذهب إلى زوجته (هاجر) و يقول لها: أ تعلمين بماذا يفكر إبراهيم؟ إنّّه يفكر بذبح ولده إسماعيل اليوم! فكانت تجيبه هاجر: اذهب و لا تتحدّث بأمر محال، فإنّه أرحم من أن يقتل ولده، فهل يمكن العثور فى هذه الدنيا على إنسان يذبح ولده بيده؟ الشيطان هنا يواصل وساوسه، و يقول: إنّّه يزعم بأنّ الله أمره بذلك.

فتجيبه هاجر: إذا كان الله قد أمره بذلك فعليه أن يطيع أوامر الله، و ليس هناك طريق آخر سوى الرضى و التسليم لأمر الله.

و أحيانا كان يذهب صوب (الولد) ليوسوس فى قلبه، لكنّه فشل أيضا إذ لم يحصل على أيه نتيجة لأنّ إسماعيل كان كلّه قطعته من الرضى و التسليم لذلك الأمر.

و أخيرا اتّجه نحو الأب، و قال له: يا إبراهيم إنّ المنام الذى رأيته هو منام شيطانى! لا تطع الشيطان!

فعره إبراهيم الذى كان يسطع بنور الإيمان و النبؤه، و صاح به: ابتعد من هنا يا عدو الله (١).

و ورد فى حديث آخر أنّ إبراهيم جاء فى البدايه إلى (المشعر الحرام) ليذبح ابنه هناك، و لكن الشيطان تبعه، فترك المحلّ و ذهب إلى مكان (الجمره الاولى) فتبعه الشيطان أيضا، فرماه إبراهيم بسبع قطع من الحجاره، و عند وصوله إلى (الجمره الثانيه) شاهد الشيطان أمامه أيضا فرماه بسبع قطع اخرى من الحجاره، و حالما وصل إلى جمره العقبه و شاهد الشيطان ثالثه رماه بسبع اخرى، و بهذا جعل الشيطان يئس منه إلى الأبد (٢).

من هنا يتّضح أنّ وساوس الشياطين أثناء أداء الامتحان الكبير يتعدّد أشكالها، إذ أنّها تعترض طريق الإنسان من عدّه جهات و تتلوّن بعدّه ألوان، فلذا يجب على المؤمنين أن يكونوا كإبراهيم قادرين على تشخيص الشيطان و معرفته بسرعه مهما كان متسترا بشكل من الأشكال، و إغلاق كلّ طريق يحتمل أن يرد منه و رميه بالحجاره، فما أعظم هذا الدرس!!

## ٥- فلسفه التكبيرات فى (منى):

و كما هو معروف فإنّ من الأعمال الوارده فى الروايات الإسلاميه بشأن عيد الأضحى، هى التكبيرات الخاصّه التى يردّها المسلمون بعد الصلاه، سواء كانوا من المشاركين فى مراسم الحجّ بمنى، أو ممّن لم يشارك فيها من المسلمين فى سائر بقاع الأرض. (غايه الأمر أنّ الحجّاج فى منى يكبرون بعده صلاه أولها بعد صلاه الظهر من يوم العيد، و فى المناطق الاخرى يكبر المسلمون هذه التكبيرات بعد ١٠ صلوات).

ص: ٣٧٤

١- ١) - تفسير أبو الفتوح الرازى، المجلّد ٩، الصفحه ٣٢٦، فى ذيل الآيات المتعلّقه بالبحث.

٢- ٢) - تفسير (أبو الفتوح الرازى) المجلّد (٩) الصفحه (٣٢٦) فى ذيل الآيات الخاصّه بالبحث.

و كَيْفِيَّه هذِهِ التَّكْبِيرَاتِ هِيَ: (اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ، اللَّهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا). فَعِنْدَ مَا نَقَارَن بَيْنَ هَذَا الْأَمْرِ وَالْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا، تَتَّضِحُ حَقِيقَةُ هَذِهِ التَّكْبِيرَاتِ، وَ هِيَ أَنَّهَا مَجْمُوعُ تَكْبِيرَاتِ جِبْرَائِيلَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ وَالِدِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَ شَيْءٌ أَضْيَفٌ إِلَيْهِ.

وَ بَعْبَارِهِ أُخْرَى فَإِنَّ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ تَحْيِي فِي الْأَذْهَانِ خَاطِرَهُ انْتِصَارَ إِبْرَاهِيمَ وَ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ فِي الْإِمْتِحَانِ الْكَبِيرِ، وَ تَعْطَى الْعَبْرَ لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ، سِوَاكَ كَانُوا فِي مَنَى أَوْ فِي غَيْرِهَا.

وَ قَدْ اتَّضَحَ مِنَ الرَّوَايَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنَّ سَبَبَ تَسْمِيَةِ أَرْضِ (مَنَى) بِهَذَا الْاسْمِ، إِنَّمَا يَعُودُ إِلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عِنْدَ مَا وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، بَعْدَ مَا اجْتَازَ -بِنَجَاحٍ- الْإِمْتِحَانَ الصَّعْبَ، نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرَائِيلُ وَ قَالَ لَهُ: اطْلُبْ مَا شِئْتَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَتَمَنَّى مِنَ اللَّهِ أَنْ يَأْمُرَهُ بِذَبْحِ كَبِشٍ فَدِيهِ عَنِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ، وَ قَدْ تَحَقَّقَتْ أَمْنِيَّتُهُ هَذِهِ (١).

## ٦- الْحَجَّ عِبَادَهُ مَهْمَةٌ تَبْنِي الْإِنْسَانَ:

السَّفَرُ لِلْحَجِّ -فِي الْحَقِيقَةِ- هُوَ سَفَرٌ عَظِيمٌ، إِذْ أَنَّهُ سَفَرٌ إِلَهِيٌّ، وَ سَاحَهُ وَاسِعُهُ لِبِنَاءِ النَّفْسِ وَ الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ.

مَرَامِسُ الْحَجِّ تَوْضِّحُ -فِي الْوَاقِعِ- عِبَادَهُ مَمْرُوجَةً -بِصُورِهِ عَمِيقَةٍ- بِخَاطِرَاتِ جِهَادِ إِبْرَاهِيمَ وَ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ وَ زَوْجَتِهِ هَاجِرَةَ، فَلَوْ أَغْفَلْنَا عَنِ هَذِهِ النَّقْطَةِ أَثْنَاءَ مَطَالَعَتِنَا الْأُمُورَ الْخَاصَّةَ بِأَسْرَارِ الْحَجِّ، فَإِنَّ الْكَثِيرَ مِنْ مَرَامِسِهِ سَتَبَدُّو لَنَا كَأَلْغَازٍ، نَعْمَ إِنَّ مِفْتَاحَ حَلِّ هَذِهِ الْأَلْغَازِ هُوَ الْأَخْذُ بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ ذَلِكَ الْإِمْتِزَاجَ الْعَمِيقَ.

فَعِنْدَ مَا نَأْتِي إِلَى مَكَانِ ذَبْحِ الْأَضَاحِيِّ فِي أَرْضِ (مَنَى) نَتَعَجَّبُ لِأَيِّ شَيْءٍ تَذْبَحُ هَذِهِ الْأَضَاحِيُّ؟ فَهَلْ أَنَّ ذَبْحَ الْحَيَوَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَلْقَهُ مِنْ مَجْمُوعَةِ حَلَقَاتِ

ص: ٣٧٥

العباده؟ إلا أننا عند ما نتذكر إيثار إبراهيم عليه السلام الذي أراد ذبح أعزّ أعزّائه و أطيب ثمار عمره (إسماعيل) في تلك الأرض في سبيل الله، العملية التي غدت سنّه فيما بعد و بعنوان ذبح الأضحى في منى، ندرك فلسفه هذا العمل.

فالذبح إشاره إلى اجتياز كلّ شيء في سبيل التوجّه إلى الله، و هو مظهر لإخلاء القلب من كلّ شيء عدا ذكر الله، و يمكن استمداد التربه الكافيه من هذه المناسك، إذا تجسّد لنا مشهد ذبح إسماعيل، و معنويات الأب و ابنه إسماعيل أثناء عملية الذبح، و هذا المشهد يجعل معنويات الإنسان تسطع بأنوارها (1).

أمّا أثناء توجّهنا إلى رمى الجمرات (و هي ثلاثه أعمده مبنيه من الحجر يرميها الحجاج أثناء تأديتهم لمراسم الحجّ، و في كلّ مرّه يرمون سبعة أحجار عليها وفق مراسم خاصّه) فيتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: ماذا يعنى رمى هذا المقدار من قطع الحجاره على عمود من الحجر لا روح فيه؟ و أى مشكله سيحلّ هذا العمل؟ إلا أننا عند ما نتذكر أنّها تمثّل جهاد الموحّد إبراهيم ضدّ وساوس الشيطان الذى ظهر له ثلاث مرّات فى الطريق، و هو مصمّم على أن يثنى إبراهيم عن عزمه فى ساحه الجهاد الأكبر، و كلّما ظهر له رماه بالحجر، فإنّ محتوى هذه الشعيره يتوضّح أكثر.

فمعنى هذه الشعيره هو أنّكم طوال فتره عمركم تعيشون فى ساحه الجهاد الأ-كبر ضدّ وساوس الشيطان، و إن لم ترموا هذا الشيطان و تبعدوه عنكم فلن تنتصروا أبدا.

و إن كنتم تنتظرون أن يشملكم الله بلطفه و رحمته، كما شمل إبراهيم بذلك

ص: ٣٧٤

١-١) -مما يوسف له أنّ مراسم ذبح الأضحى فى عصرنا الحالى لا تتمّ بالشكل المطلوب، و لذا على علماء الإسلام أن يبذلوا الجهد لإنقاذ هذه المراسم العظيمة، و بهذا الشأن و بخصوص فلسفه الحجّ أوردنا بحوثا مفصّله فى ذيل الآيه (٣٨) من سوره الحجّ.

و بعث إليه بالسلام و أبقى رسالته و ذكره خالدين في العالمين، عليكم أن تسيروا على خطاه.

وفور ما نصل إلى الصفا و المروه و نشاهد أفواجا أفواجا من الناس تنساب من هذا التل الصغير إلى ذلك التل الأصغر، و تعود مرّه اخرى من هنا إلى هناك، و تكرر هذا العمل من دون أن تحصل على شيء، و أحيانا تهرول و أحيانا اخرى تمشى، و من الطبيعي أن يثير هذا العمل العجب، فماذا يفعل هؤلاء هنا، و ما هي المفاهيم التي يحملها هذا العمل؟ إلا أننا لو رجعنا إلى الورا، و استذكرنا الجهود التي بذلتها تلك المرأة المؤمنة (هاجر) لإنقاذ حياه ابنها الرضيع (إسماعيل) في تلك الأرض القاحله و الحارقه، و كيف أنّ الله سبحانه و تعالى أعطاهما ما تريد بعد جهدها و سعيها، عند ما فجر عين زمزم من تحت رجلي ولدها الرضيع، فجاءه ترجع بنا عجله الزمن إلى الورا، و يكشف لنا عن الحجب، و نشاهد أنفسنا في تلك اللحظه واقفين قرب هاجر عليها السلام، فنشترك معها في السعي و الجهد، لأنّ الذي لا يسعى و لا يبذل الجهد في سبيل الله، لا يصل إلى نتيجته.

و بسهولة نستطيع تلخيص ما قلناه، و هو أنّ الحجّ يجب أن يقتصر بتعلّم هذه الرموز، و تتجسّد ذكريات إبراهيم و ابنه و زوجته خطوه خطوه، كي يدرك الحاجّ فلسفه الحجّ و تشعّ أنوار آثاره الأخلاقيه العميقه في نفوس الحجّيج، فبدون تلك المعاني و الدروس يكون الحجّ مجرد قشر ليس أكثر.

\*\*\*

إشاره

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

التفسير

إشاره

إبراهيم ذلك العبد المؤمن:

الآيات الثلاث المذكوره أعلاه هي آخر الآيات التي تواصل الحديث عن قصه إبراهيم و ابنه و تكملها، و في الحقيقه إنها دليل يوضح ما مضى، و في نفس الوقت هي نتيجة له.

في البدايه تصف الآيه القرآنيه الكريمه إبراهيم إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

و في الواقع إن هذه الآيه دليل على ما ذكر فيما قبل، كما توضح حقيقه مفادها أن إيمان إبراهيم القوي دفعه إلى أن يضع كل وجوده و كيانه و حتى ابنه العزيز البار، في صحن الإخلاص فداء لربه سبحانه و تعالى.

نعم كل هذه هي من ثمار الإيمان، و تجلياته، و ما أعجب هذه الثمار

والتجليات!! هذا التعبير يعطى أبعادا أوسع و أعمّ لما جرى لإبراهيم و ابنه، و يخرج هذه المجريات من بعدها الشخصى و الخاص، و يوضح أنه أينما كان الإيمان كان هناك إيثار و حبّ و فداء و عفو، و أنّ إبراهيم كان يختار كلّ ما يختاره الله و يريد كلّ ما أَرادَه الله، و كلّ مؤمن يستطيع أن يكون كذلك.

ثم تتناول هذه الآيات نعمه اخرى من النعم التي وهبها الله تعالى لإبراهيم وَ بَشْرُنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ .

فبالانتباه إلى الآية فَبَشْرُنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ التي ذكرناها في مقدّمه هذه الأحداث، يتضح بصورة جيّده أنّ هاتين البشارتين تتعلّقان بولدين، و بما أنّ البشرى الأخيرة وفق ما جاء في الآية تخصّ (إسحاق)، فإنّ (الغلام الحليم) بالتأكيد هو (إسماعيل) فالذين يصرون على أنّ الذبيح هو (إسحاق) عليهم أن يعرفوا أنّهم اعتبروا الآيتين تشيران إلى موضوع واحد مع هذا التفاوت، و هو أنّ الآية الاولى بَشَّرت بالولد و الآية الثانية بَشَّرت بالنبوه، و لكن هذا المعنى مستبعد جدّا، و الآيات المذكوره أعلاه تبيّن بوضوح أنّ البشارتين تتعلّقان بولدين.

على أيّه حال فإنّ بشرى النبوه تكشف عن أنّ إسحاق يجب أن يبقى حيّا و أن يؤدّى تكاليف و مهمّه النبوه، و هذا لا يتلاءم مع قضيه الذبح.

مرّه اخرى سنتطرّق إلى عظمه مرتبه الصالحين، إذ وصفت الآية الكريمه إسحاق بأنّه (يجب أن يصبح نبيا و أن يكون من الصالحين) فكم هي رفيعه مرتبه الصالحين عند الله سبحانه و تعالى؟ الآية الأخيرة تتحدّث عن البركه التي أنزلها البارى جلّ و علا على إبراهيم و ابنه إسحاق وَ بَارَكْنَا عَلَيْهِ وَ عَلَيْنَا إِسْحَاقَ .

و لكن البركه في أى شيء؟ لم يرد بهذا الشأن أى توضيح، و كما هو معلوم فإنّ

الفعل عند ما يأتي بصورة مطلقه و من دون أى قيد أو شرط، فإنه يعطى معنى عاما، فبهذا تكون البركه شامله لكل شىء، فى الحياه، فى الأجيال القادمه، فى التاريخ، و الرساله، و فى كل شىء.

فكلمه (بركه) مشتقه من (برك) على وزن (در ك) و تعنى صدر البعير، و عند ما يضع صدره على الأرض يقال (برك البعير).

و تدريجيا أعطت هذه الكلمه معنى الثبات و بقاء شىء ما، و لهذا يطلق على المكان الذى فيه ماء ثابت و مستقر (بركه) فى حين يقال لما كان خيره باقيا و ثابتا مبارك.

و من هنا يتضح أن الآيه مورد بحثنا تشير إلى ثبات و دوام النعم الإلهيه على إبراهيم و إسحاق و على اسرتهم، و إحدى البركات التى أنعم الله بها على إبراهيم و إسحاق أن جعل كل أنبياء بنى إسرائيل من ذريه إسحاق، فى حين أن نبي الإسلام العظيم هو من ذريه إسماعيل.

و هذه البركات لا- تشمل كل أفراد عائله إبراهيم و عشيرته، و إنما تشمل- فقط- المؤمنين و المحسنين منهم، إذ تقول الآيه فى آخرها وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ .

كلمه (محسن) جاءت هنا بمعنى المؤمن و المطيع لله، و هل يتصور أن هناك إحسان و عمل حسن أرفع من هذا؟ و (ظالم) جاءت هنا بمعنى الكافر و المذنب.

و عباره (لنفسه) إشاره إلى الكفر و ارتكاب الذنوب يعدّ أولا ظلم للنفس، الظلم الواضح و المكشوف.

فالآيه المذكوره أعلاه تجيب اليهود و النصارى الذين افتخروا بكونهم من أبناء الأنبياء، و تقول لهم: إن صله القربى لو حدها ليست مدعاه للافتخار، إن لم ترافقها



صله فى الفكر و الالتزام بالرسالة.

و كشاهد على هذا الكلام

فقد ورد حديث لنبينا محمد صلى الله عليه و آله و سلم يخاطب فيه بنى هاشم «لا يأتينى الناس بأعمالهم و تأتونى بأنسابكم» أى أنهم مرتبطون بى رساليا و أنتم مرتبطون بى جسديا (١).

\*\*\*

ص: ٣٨١

---

١- (١) - روح البيان، المجلد ٧، الصفحة ٤٧٩.

إشاره

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَّيْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)

التفسير

إشاره

النعمة التي من بها الله على موسى و هارون:

الآيات المباركة هذه تشير إلى جوانب من النعمة الإلهية التي أغدقها الله جلّ شأنه على موسى و أخيه هارون، و البحث هنا ليتناغم و يتواءم مع البحوث السابقة بشأن نوح و إبراهيم في الآيات السابقة، فمحتوى الآيات يشابه بعضه البعض، و نفس الألفاظ تتكرر في بعض الجوانب، و ذلك لتوجد نظاما تربويا منسجما للمؤمنين.

مرّه اخرى استخدم فى هذه الآيات أسلوب (الإجمال و التفصيل) الأسلوب الذى استخدمه القرآن فى نقل العديد من الحوادث.

الآيه الاولى تشير إلى قوله تعالى: **وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ .**

«المنّه» فى الأصل من «المنّ» و يعنى الحجر الذى يستعمل للوزن، ثم أطلق على النعم الكبيره و الثقيله، فلو كانت لها جنبه عمليه و موضوعيه فالمنّه جميله و محموده، و لو اقتصرنا على اللفظ و الكلام فهى سلبيه و مذمومه، و الغالب إنّها تستعمل فى المحاورات العرفيه بالمعنى الثانى، و هذا هو السبب فى تداعى المفهوم السلبى من هذه الآيات الكريمه، و لكن لا بدّ من القول أنّ هذه المفرده وردت فى اللغه و الآيات الكريمه بمعناها الواسع الذى يشمل المفهوم الأوّل منها.

(أى منع النعم و المواهب الكبيره).

و على كلّ حال فإنّ الله سبحانه و تعالى أنعم على الأخوين موسى و هارون بنعمه عظيمه.

أمّا الآيات التى تلتها فتشرح سبعة من هذه النعم، و كلّ واحده منها أفضل من أختها.

فى المرحله الاولى، يقول سبحانه و تعالى: **وَ نَجَّيْنَاهُمَا وَ قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ .**

فهل هناك قلق أكثر من هذا، و هو أنّ بنى إسرائيل يعيشون فى قبضه الفراعنه المتجبرين الطغاه؟ يذبجون أولادهم و يسخرون نساءهم فى خدمتهم، و يستعبدون رجالهم و يستعملونهم فى الأعمال الشاقّه.

أليس فقدان الحريه و الابتلاء بسلطان جائر لا- يرحم الكبير و لا- الصغير، حتّى يبلغ به طغيانه إلى أن يتلاعب بنواميس الناس و شرفهم، أليس هذا كربا عظيما، و ألما شديدا، إذن فإنقاذهم من قبضه فراعنه مصر المتجبرين، كانت أوّل نعمه يغدقها البارى عزّ و جلّ على بنى إسرائيل.

و فى المرحله الثانيه، قال البارى عزّ و جلّ: وَ نَصَرْنَا هُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ .

ففى ذلك اليوم كان جيش الفراعنه ذا قوّه عظيمه و يتقدّمه الطاغيه فرعون، فيما كان بنو إسرائيل قوم ضعفاء و عاجزين يفتقدون لرجال الحرب و للسلاح أيضا، إلاّ أنّ المدد الإلهى وصلهم فى تلك اللحظات، و أغرق فرعون و جيشه وسط أمواج البحر، و أورش بنى إسرائيل قصور و ثروات و حدائق و كنوز الفراعنه.

و فى المرحله الثالثه من مراحل إغداق النعم على بنى إسرائيل و شمولهم بعنايته، جاء فى محكم كتابه العزيز وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ .

نعم (التوراه) هو كتاب مستبين، أى يوضّح لهم المجهولات المبهمه، و يجيبهم على كلّ ما يحتاجونه فى دينهم و دنياهم، كما أكّدت الآيه (٤٤) فى سوره المائده ذلك إنا أنزلنا التوراه فيها هدىّ و نورّ .

و فى المرحله الرابعه أشار القرآن الكريم إلى نعمه معنويه اخرى منّ بها جلّ شأنه على موسى و هارون، و هى هدايتهما إلى الصراط المستقيم، وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

الطريق الصحيح الخالى من كلّ اعوجاج، ألا و هو طريق الأنبياء و الأولياء، و الذى لا يوجد فيه أى خطر من قبيل الانحراف و الضلال و السقوط.

و عند ما نقرأ سوره الحمد فى كلّ الصلوات و نطلب من الله سبحانه و تعالى أن يهدينا إلى الصراط المستقيم، نقول: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ . أى إنّنا نطلب منه أن يهدينا إلى طريق الأنبياء و الأولياء.

أمّا المرحله الخامسه فإنّها أكّدت على استمرار رسالتهما و الثناء الجميل عليهما، إذ تقول الآيه: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرِينَ .

و هذه العبارة نفسها وردت فى الآيات السابقه بشأن إبراهيم و نوح، لأنّ كلّ الدعاه إلى الله السالكين لطريق الحقّ، يبقى اسمهم و تاريخهم خالدا على مرّ

الزمن، و يجب أن يبقى خالداً، لأنهم لا يخصون قوماً أو شعباً معينين، وإنما كلَّ الإنسانه.

و المرحلة السادسة تستعرض التحيه الطيبه المباركه التي وردت إلى كل من موسى و هارون من عند الله سِلاماً على موسى و هَارُونَ .

سلام من عند الله العظيم و الرحيم، السلام الذى هو رمز لسلامه الدين و الإيمان و الرساله و الاعتقاد و المذهب، السلام الذى يوضح النجاه و الأمن من العقاب و العذاب فى هذه الدنيا و فى الآخرة.

و فى المرحلة السابعه-الأخيره-نصل إلى مرحله الثواب و المكافأه الكبرى التى يقدمها البارى عزّ و جلّ إليهما إنا كذلك نجزي المحسنين .

نعم إن حصولهما على كل هذه المفآخر لم يكن من دون دليل أو سبب، إذ كانا من المحسنين و المؤمنين و المخلصين و الطيبين، فمثل هؤلاء جديرون بالثواب و المكافأه.

و الملفت للنظر أن هذه الآيه إنا كذلك نجزي المحسنين تكررت فى هذه السوره عدّه مرّات، إذ جاءت بحق نوح و إبراهيم و موسى و هارون و إلياس، و عباره مشابهه لها بشأن يوسف وردت فى سوره يوسف الآيه (٢٢) كما وردت فى الآيه (٨٤) فى سوره الأنعام عن أنبياء آخرين كان ثوابهم نفس الثواب، و كلهم يقرون بأن كل من يريد أن تشمله العنايه الإلهيه عليه أولاً أن ينضم إلى زمرة المحسنين كى تغدق عليه البركات الإلهيه.

الآيه الأخيره فى بحثنا تشير إلى نفس الدليل الذى ورد فى قصه نوح و إبراهيم من قبل إنيهما من عبادنا المؤمنين .

فالإيمان هو الذى ينير روح الإنسان و يعطيه القوه، و يدفعه إلى الطهاره و التقوى و عمل الإحسان و الخير، الإحسان الذى يفتح أبواب الرحمه الإلهيه على الإنسان، فتنزل عليه مختلف أشكال النعم.

\*\*\*

اشاره

وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ  
آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٢٨) وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَيَّ  
إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

التفسير

اشاره

النبي إيلياس وواجهته للمشركين:

القصة الرابعة في هذه السورة استعرضت بصوره مختصره حياه نبي الله (إيلياس)، يقول تعالى: وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

الحديث حول «إيلياس» و خصوصياته و نسبه و حياته سيأتي لا حقا في آخر هذه الآيات- إن شاء الله.

ثم تبدأ الآيات بالتفصيل بعد الإجمال و تقول: و اذكر عند ما أنذر قومه إذ قال

أى اتَّقوا الله و اجتنبوا الشرك و عباده الأصنام و ارتكاب الذنوب و المظالم، و كل ما يؤدى بالإنسان إلى الباطل و الفساد.

أما الآية التى تلتها فقد تحدت بصراحه أكثر أ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ .

و من هنا يتضح أن قومه كانوا يعبدون صنما اسمه (بعل) و يسجدون له، و أن هذا النبى كان يدعوهم إلى ترك هذا العمل القبيح، و التوجه إلى الله سبحانه و تعالى خالق هذا الكون العظيم و توحيده و عبادته.

جمع من المفسرين ذهبوا إلى أن إلياس كان مبعوثا إلى مدينه «بعلبك» إحدى مدن بلاد الشام (١) لأن (بعل) هو اسم ذلك الصنم و (بك) تعنى مدينه، و من تركيب هاتين الكلمتين نحصل على كلمه «بعلبك» و قيل: إن الصنم (بعل) كان مصنوعا من الذهب و طوله حوالى (٢٠) ذراعا و له أربعة أوجه، و خدمته كانوا (٤٠٠) شخصا (٢).

و لكن البعض ذهبوا إلى أن (بعل) ليس اسما لصنم معين، بل يطلق بصوره عامه على الأصنام، فيما قال البعض الآخر: إنها تعنى (الربّ و المعبود). و قال (الراغب) فى مفرداته: إن كلمه «بعل» تعنى (الزوج) أما العرب فتطلقها على الأصنام التى تعبدها و التى بواسطتها يقربون إلى الله سبحانه و تعالى على حدّ زعمهم.

و عباره أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ رغم أنها تشير إلى أن الله سبحانه و تعالى خالق هذا الكون و لا يوجد خالق سواه، فهى تشير أيضا حسب الظاهر إلى الأشياء المصنوعه، أى التى يصنعها الإنسان بعد أن يغير شكل المواد الطبيعیه، و من هنا سمى بالخالق، رغم أنه تعبير مجازى.

ص: ٣٨٧

١-١) -بعلبك اليوم جزء من لبنان و تقع قرب الحدود السوریه.

٢-٢) -«روح المعانى» ذيل الآيات الخاصه بالبحث.

على آية حال، فقد عمد إلياس إلى توبيخ قومه بشده، وقال لهم: **اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ** .

إذ أنّ الله ملككم و مربّيكم، و كلّ نعمه عندكم فهي منه، و أى مشكله عندكم تتيسر بقدرته فغيره، لا يعدّ مصدرا للخير و البركه، و لا يمكنه دفع الشرّ و البلاء عنكم.

الظاهر هنا أنّ المشركين فى زمان إلياس، قالوا- كما قال المشركون فى زمان نبيّنا محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم- إنّنا نتّبع سنن أجدادنا الأوّلين، فأجابهم إلياس عليه السلام بقوله: **اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ** .

و استخدام كلمه (ربّ) هنا أفضل متبه للعقل و التفكير، لأنّ أهمّ قضيه فى حياه الإنسان هي أن يعرف من الذى خلقه؟ و من هو مالكه و مربّيه و ولى نعمته اليوم؟ إلّا- أنّ قومه اللجوجين و المتكبرين لم يعطوا اذنا صاغيه لنصائحه و مواعظه، و لم يعبأوا بما يقوله لهدايتهم، و إنّما كذبوه فكذبوه .

و مقابل تصرفاتهم هذه توعدهم الله سبحانه و تعالى بعذابه بعبارة قصيره جاء فيها: إنّنا سنحضرهم إلى محكمه العدل الإلهي و سنعدّهم فى جهنّم فإنّهم لمخضرونّ لينالوا جزاء أعمالهم القبيحه و المنكره.

و لكن يبدو أنّ هناك مجموعه من الأطهار المحسنين و المخلصين قد آمنوا بما جاء به إلياس، و لكى لا يضيع حقّ هؤلاء، قال تعالى مباشرة بعد تلك الآيه **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١)** .

الآيات الأخيره من بحثنا استعرضت نفس القضايا الأربعة التى وردت بحقّ الأنبياء الماضين (نوح، و إبراهيم، و موسى، و هارون) و لأهميتها نستعرضها مرّه اخرى.

ص: ٣٨٨

---

١ - ١) - وفقا لما ذكرناه أعلاه فإنّ هذا الاستثناء هو استثناء متّصل من (الواو) فى «كذبوه»، و تعنى أنّ كلّ قومه كذبوه و ابتلوا بالعذاب الإلهي، عدا عباد الله المخلصين.



قوله تعالى: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أَى إِنَّ الأُمم القادمه سوف لن تنسى الجهود الكبيره التى بذلها الأنبياء الكبار من أجل حفظ خطّ التوحيد، وسقايه شجره الإيمان، وما دامت الحياه موجوده فى هذه الدنيا فإنّ رسالتهم ستبقى حيّه و خالده.

و فى المرحله الثانيه أثنى الله سبحانه و تعالى و بعث بتحيّاته إلى آل ياسين، قال تعالى: **سَلَامٌ عَلَيَّ إِيَّاهُ يَاسِينَ**.

استخدام عبارته (الياسين) بدلا عن (الياس) إمّا لكونها من الناحيه اللغويه لفظا ل (إلياس) و اللتين لهما نفس المعنى، أو أنّها إشاره إلى (إلياس) و أتباعه المؤمنين، فوردت بصوره الجمع (١).

و فى المرحله الثالثه، قال تعالى: **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**.

«الإحسان» هنا شمل، معنى واسعاً و هو العمل بكلّ السنن و الأوامر، و من ثمّ الجهاد ضدّ كافّه أشكال الشرك و الانحراف و الذنوب و الفساد.

أمّا المرحله الرابعه فتطرح الإيمان كأمر أساسى يجب أن يتوفّر فى الأنبياء الذين استعرضتهم هذه السوره المباركه فتقول الآيه هنا: **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**.

«الإيمان» و «العبوديه» لله هما مصدر الإحسان، و الإحسان يؤدّى إلى انضمام المحسن لصفوف المخلصين الذين يشملهم سلام الله.

\*\*\*

ص: ٣٨٩

---

١ - ١) فى البدايه كانت (إلياس) ثمّ نسبت إليها ياء فأصبحت (الياسى)، ثمّ جمعت فأصبحت، (الياسين) و عند تخفيفها أضحت (الياسين).

١- من هو إيلياس؟

لا يوجد أى شكّ فى أنّ «إيلياس» هو أحد أنبياء الله الكبار، وآيات بحثنا تصرّح بهذا الأمر، قال تعالى: إِنَّ إِيْلَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

اسم نبي الله (إيلياس) جاء فى آيتين من آيات القرآن المجيد، الأولى فى هذه السورة، أى سورة الصفات، والثانية فى سورة الأنعام الآية (٨٥) إذ ذكر اسمه مع مجموعه اخرى من الأنبياء وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِيْلَاسَ كُلُّ مِّنَ الصَّالِحِينَ .

و أبدى المفسّرون و جهات نظر متعدّده بشأن إيلياس، إذ أنّ البعض تساءل هل أنّ اسم «إيلياس» هو اسم ثان لنبى واحد، أم أنّه يتعلّق ببنى ليس له اسم ثان، و ما هى صفات و خصائص هذا النبى؟ للإجابة على هذه التساؤلات نستعرض و جهات النظر المتعدّده تلك:

أ- يعتقد البعض أنّ «إيلياس» هو إدريس (لأنّ كلمه إدريس، تلفظ إدراس، و بعد أنّ طرأت عليها تغيّرات بسيطة أضحت إيلياس).

ب- «إيلياس» هو أحد أنبياء بنى إسرائيل، و هو ابن (ياسين) أحد أحفاد هارون أخى نبى الله موسى عليه السّلام.

ج- مجموعه من المفسّرين اعتبرت «إيلياس» هو الخضر.

فى حين أعربت مجموعه اخرى عن اعتقادها فى أنّ إيلياس هو صديق الخضر، و كلاهما ما زال حيّا، و أنّ إيلياس موكّل بالفيافى، و الخضر موكّل بالبحار و الجزر.

و مجموعه ثالثة أكّدت على أنّ إيلياس موكّل بالصحارى و الخضر موكّل بالجمال، و يقولون بخلود الإثنين.

و البعض يرى أنّ إيلياس ابن (اليسع).

د- إيلياس هو نفسه (إيليا) نبى بنى إسرائيل الذى عاصر الملك (آجاب) و الذى أرسله البارى عزّ و جلّ لإنذار و هدايه (آجاب) الطاغية المتجبر.

و قال البعض: إنه يحيى معمدان المسيح.

و لكن الذى يتناسب و ظاهر آيات القرآن الكريم هو أنّ هذا الاسم اسم أحد أنبياء الله غير تلك الأسماء التى وردت فى القرآن المجيد، و أنّه بعث لهدايه قوم يعبدون الأصنام، فكذبّه أكثر القوم، عدا مجموعه من المؤمنين المخلصين الذين صدّقوه.

و كما أشرنا سابقا فإنّ البعض يعتقد بأنّه بعث إلى بلاد الشام، استنادا إلى اسم الصنم (بعل) الذى كان يعبده القوم الموجودون فى تلك المنطقة، و هى «بعلبك» التى هى اليوم إحدى مدن لبنان و تقع قرب الحدود السوريه.

على أيّه حال، فقد وردت قصص مختلفه فى الكتب بشأن هذا النبى، و لأنها غير معتمده و موثوقه فقد صرف النظر عنها (١).

## ٢- من هم إل ياسين؟

المفسرون و المؤرخون أبدوا وجهات نظر مختلفه بشأن (الياسين) منها:

أ- ذهب البعض إلى أنّ إياس و الياسين هما لغتان، كما هو شائع بالنسبه ل (ميكال) و (ميكائيل) إذ أنّهما لغتان فى اسم واحد لأحد الملائكه، و ل (سيناء) و (سينين) حيث تطلقان على مساحه من الأرض تقع بين مصر و فلسطين، و (إياس) و (الياسين) هى أيضا لغتان فى اسم واحد لهذا النبى الكبير (٢).

ب- البعض الآخر يعتبرها جمعا، و بهذا الشكل (إياس) أضيفت إليها (ياء) فأصبحت (الياسى)، و بعد ذلك جمعت بإضافه الياء و النون إليها فأصبحت (الياسين) و بعد تخفيفها غدت (الياسين)، و طبقا لهذا يفهم منها أنّها تخصّ كل

ص: ٣٩١

١- ١) - تفسير (مجمع البيان) و تفسير (الميزان) و (روح البيان) و (فخر الرازى) و (فى ظلال) و (أعلام القرآن).

٢- ٢) - البيان فى غريب إعراب القرآن، المجلد ٢، صفحه ٣٠٨.

الذين أطاعوا الياس و التزموا بنهجه (١).

ج- (آلياسين) بالألف الممدوده، مركبه من كلمتي (آل) و (ياسين) و قيل أنّ ياسين هو اسم والد (الياس)، و وفق روايه اخرى فإنه أحد أسماء نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه و آله و سلم و بهذا فإن كلمه (آل ياسين) تعنى عائله نبي الإسلام أو عائله ياسين والد الياس.

الدلائل الواضحه الموجوده فى القرآن تؤيد المعنى الأول، و الذى يقول: إنّ المقصود من (الياسين) هو (الياس) لأن الآيه التى تلى هذه الآيه المباركه **سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** **إِلَّا يَاسِينَ** بآيه تقول: **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** و عوده الضمير المفرد على (الياسين) دليل على أنه شخص واحد لا أكثر، و هو إياس.

و هناك دليل آخر، هو أنّ الآيات الأربعة الأخيره التى وردت فى نهايه قصه إياس، هى نفس الآيات التى وردت فى نهايه قصص نوح و إبراهيم و موسى و هارون، و عند ما نضع هذه الآيات الواحده إلى جنب الاخرى نرى أنّ سلام الله فى تلك الآيات مرسل إلى الأنبياء الذين تنطرق إليهم الآيات المباركه، **سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ** - **سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** - **سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ**. و طبقا لذلك فإن **سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** **إِلَّا يَاسِينَ** تعنى السلام على إياس.

و النقطه التى ينبغى الالتفات إليها، أنّ الكثير من التفاسير أوردت حديثا بسند عن ابن عباس يصرّح بأن المراد من (آل ياسين) هم آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم، لأن أحد أسماء نبينا هو ياسين.

روى الشيخ الصدوق فى كتابه (معانى الأخبار) فى باب تفسير (آل ياسين) خمسه أحاديث بهذا الشأن، كلها لا تنتهى من حيث السند إلى أهل البيت عليهم السلام

ص: ٣٩٢

سوى واحد، و الراوى لهذا الحديث شخص يدعى (كادح) أو (قادح) (1) و هو مجهول و لا توجد ترجمته فى كتب الرجال.

و على فرض -وفقا لهذه الأخبار- أنّ الآيه الآنفة تقرأ بصوره سلام على آل ياسين و بغضّ النظر عن عدم تناسب الآيات، و رأينا أنّ إسناد هذه الروايات أيضا قابله للنقاش، فمن الأفضل أن نتجنب القضاء بخصوص هذه الروايات و نترك الحكم عليها لأهلها.

\*\*\*

ص: ٣٩٣

---

(١ - ١) - معانى الأخبار: ص ١٢٢.

اشاره

وَإِنَّ لُوطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)

التفسير

اشاره

تدمير قوم لوط:

«لوط» هو خامس نبي يذكر اسمه في هذه السوره ضمن تسلسل الآيات التي تحدّثت بصوره مختصره عن تأريخه لاستمداد العبر منه.

و طبقا لما جاء في آيات القرآن بشأن لوط، يتّضح أنّه كان معاصرا لإبراهيم عليه السلام، و أنّه من أنبياء الله العظام، و ذلك ما جاء في الآية (٢٦) من سوره العنكبوت و الآية (٧٤) من سوره هود.

و قد ورد اسم «لوط» كثيرا في آيات القرآن الكريم، و تكثر البحث في القرآن بشأنه هو و قومه عدّه مرّات، قومه المنحرفون الذين كشف القرآن الكريم (الآيات ١٦٧ إلى ١٧٣ من سوره الشعراء، و في الآيات ٧٠ إلى ٨٣ من سوره هود، و في الآيات ٥٤ إلى ٥٨ من سوره النمل و غيرها من السور) عن المصير الأليم الذي

حلّ بهم.

بحثنا يبدأ بقوله تعالى: وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

و بعد هذا البيان الإجمالى يعمد القرآن إلى التفصيل و يبيّن جوانب من قصّه لوط، حيث قال: تذكر تلك الفتره الزمنيه التى أنقذنا فيها لوطا و أهله إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ .

عدا زوجته العجوز التى جعلناها مع من بقى فى العذاب إِلَّا عَجُوزاً فِى الْغَابِرِينَ (١).

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ

الجمال القصيره-التي وردت أعلاه-تشير إلى تأريخ قوم لوط الملىء بالحوادث،و التي ورد شرحها فى سور(هود)و(الشعراء)و(العنكبوت).

«لوط» كسائر الأنبياء بدأ دعوته بتوحيد الله، ثم عمد إلى الجهاد ضدّ الفساد الموجود فى المجتمع المحيط به، خاصّه ذلك الانحراف الخلقى المعروف باللواط، و الذى ظلّ كوصمه عار لقوم لوط على طول التاريخ.

فهذا النبى العظيم عانى المراره مع قومه، و بذل كلّ ما يمتلك من جهد لإصلاح قومه المنحرفين، و منعهم من الاستمرار فى ممارسه عملهم القبيح، و لكن جهوده لم تسفر عن شىء. و عند ما شاهد أنّ أفراد قلائل آمنوا به، قرّر إنقاذ نفسه و إنقاذهم من المحيط الفاسد الذى يعيشون فيه.

و فى نهايه الأمر فقد لوط الأمل فى إصلاح قومه و عمد إلى الدعاء عليهم، حيث طلب من الله سبحانه و تعالى إنقاذه و عائلته، فاستجاب البارى عزّ و جلّ لدعائه و أنقذه و عائلته مع تلك الصفوه القليله التى آمنت به، عدا زوجته العجوز

ص: ٣٩٥

١ - ١) - (غابر) من مادّه (غبور) على وزن (عبور) و تعنى بقايا الشىء، فعند ما تتحرّك مجموعه من مكان ما و يبقى أحد أفرادها هناك يقال له (غابر) و لهذا السبب يقال لما يتبقى من التراب (غبار)، و لما تبقى من الحليب فى الثدى (غبره) على وزن (لقمه).

التي لم ترفض فقط التمسك بالتعليمات التي جاء بها، وإنما عمدت -أحيانا- إلى تقديم العون لأعدائه.

وقد عذب الله قوم لوط بأشد العذاب، إذ خسف بهم الأرض ثم أمطر عليهم حجاره من سجّيل، ليهلكوا عن آخرهم، وتمحى أجسادهم من الوجود أيضا.

و باعتبار أنّ هذه الآيات كانت مقدّمة لإيقاظ الغافلين و المغرورين، فقد أضاف القرآن الكريم وَ إِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ أَي إِنَّكُمْ تَمْرُونَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ بِجَانِبِ دِيَارِهِمُ الْخَرْبَةَ مِنْ جَزَاءِ الْعَذَابِ.

كما تَمْرُونَ مِنْ هُنَاكَ فِي اللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ وَ بِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

هذه الآيات تخاطب قوافل أهل الحجاز التي كانت تذهب ليلا و نهارا إلى بلاد الشام عبر مدن قوم لوط، و تقول: لو كان لهم أذان حيّه لسمعوا الصراخ المذهل و العويل المفزع لهؤلاء القوم المعدّيين.

لأنّ آثار ديار قوم لوط الخربة تحكى بصمت دروسا كبيره لكلّ المارّين من هناك، و تحذر من الابتلاء بمثل هذا العذاب.

نعم، إنّهُ درس ما أكثر العبر فيه، و لكنّ المعترّين منه قليل «ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار» (١).

و نظير هذا المعنى موجود في الآية (٧٦) من سورة الحجر، و التي تقول بعد بيان قصّه قوم لوط وَ إِنَّهَا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ أَي إِنَّ آثَارَهُمْ تَقَعُ دَائِمًا فِي طَرِيقِ الْقَوَافِلِ وَ الْمَشَاهِدِ الْمَارِّينِ مِنْ هُنَاكَ.

و فسرت

روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام الآية بشكل آخر، فعند ما سأله أحد أصحابه عن معنى الآية وَ إِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أجاب الإمام الصادق قائلا: «تمرّون عليهم في القرآن إذا قرأتم في القرآن

ص: ٣٩٦



فاقرأوا ما قصّ الله عليكم من خيرهم» (١).

هذا التفسير قد يكون إشاره إلى تفسير ثان، على أيّ حال فالجمع بين التفسيرين لا ضرر فيه، لأنّ آثار قوم لوط الباقية شاخصه للأبصار، إضافه إلى أنّ آيات القرآن الكريم تتطرّق لأخبار قوم لوط و العذاب الذي نزل عليهم.

\*\*\*

ص: ٣٩٧

---

(١-١) - روضه الكافي، نقلا عن نور الثقلين، المجلد ٤، صفحه ٤٣٢.

اشاره

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَيِّئٌ مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)

التفسير

اشاره

يونس في بوقه الامتحان:

الحديث هنا عن قصه نبي الله «يونس» عليه السلام وقومه التائبين، والتي هي سادس و آخر قصه تتناول قصص الأنبياء و الأمم السابقة، والذي يلفت النظر أنّ القصص الخمس التي تحدّثت عن قوم (نوح) و(إبراهيم) و(موسى و هارون) و(الياس) و(لوط) أشارت إلى أنّ تلك الأقوام لم تصغ لنصائح الأنبياء الذين بعثوا إليها و بقيت غارقة في نومها، فعمّها العذاب الإلهي، فيما أنقذ الله سبحانه و تعالى الأنبياء العظام

الذين أرسلهم إلى تلك الأقسام مع القلب القليله ممن اتبعهم.

إلا أن قضيه نبي الله يونس تنتهي أحداثها بشكل معاكس لما انتهت إليه تلك القصص، إذ أن قوم يونس صرحوا من غفلتهم و تابوا إلى الله فور مشاهدتهم دلائل العذاب الإلهي الذي سيحلّ لهم إن لم يؤمنوا، وأن الله شملهم بلطفه و أنزل عليهم بركاته الماديّه و المعنويّه، و في المقابل فإنّ نبي الله يونس ابتلى ببعض الابتلاءات و المشاكل لأنّه تعرّج في ترك قومه و هجره إيّاهم، حتّى أنّ القرآن المجيد أطلق عليه كلمه (أبق) و التي تعنى هرب العبد من مولاه! و هذه القصّه بمثابه خطاب موجّه لمشركي قريش، و إلى كلّ البشر على طول التاريخ، جاء فيه: هل تريدون أن تكونوا كالأقسام الخمسه الماضيه، أم كقوم يونس؟ و هل ترغبون في أن تكون عاقبتكم الشؤم و الألم؟ أما ترغبون في أن تنتهي عواقبكم بخير و سعادته؟ اعلموا أنّ ذلك مرتبط بما تعزمون عليه.

على أيّه حال، فإنّ ذكر هذا النبي العظيم و قصّيته مع قومه، ووردت في سور متعدده من سور القرآن المجيد (منها سور الأنبياء، و يونس، و القلم، و في هذه السوره أي الصافات) و عكست كلّ واحده منها جوانب من أوضاعه و حياته، و سور «الصافات» هذه تسلط الأضواء أكثر على قصّيه هرب يونس و ابتلاءه، و من ثمّ نجاته من بطن الحوت.

في البدايه، و كما تعودنا في القصص السابقه، فإنّ الحديث يكون عن مقام رسالته، إذ تقول الآيه: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

نبي الله «يونس» عليه السّلام كسائر الأنبياء العظام بدأ بالدعوه إلى توحيد الله و مجاهدته عبده الأصنام، و من ثمّ محاربه الأوضاع الفاسده التي كانت منتشره في مجتمعه آنذاك، إلا أنّ قومه المتعصّبين الذين كانوا يقلّدون أجدادهم الأوائل رفضوا الاستجابته لدعوته.

استمرّ يونس عليه السّلام بوعد قومه بقلب حزين لأجلهم، مريدا لهم الخير و كأنّه أب

رحيم لهم، فى حين كانوا يواجهون منطقته الحكيم بالسفسطه و المغالطه، عدا مجموعته قليله منهم، يحتمل أن لا- تتعدى الشخصين (أحدهما يسمّى بالعابد و الثانى بالعالم) آمنت برسالته.

و بعد فتره طويله من دعوته إِيّاهم إلى عباده الله و ترك عباده الأصنام، يئس يونس من هدايتهم، و كما جاء فى بعض الروايات، فإنّ يونس عليه السّلام قرّر طبقا لاقتراح الرجل العابد، مع ملاحظه أوضاع و أحوال قومه الضالّين، قرّر الدعاء عليهم (1).

و بالفعل فقد دعا عليهم، فنزل عليه الوحي و حدّد له وقت حلول العذاب الإلهى بهم، و مع حلول موعد نزول العذاب، رحل يونس- بمعيّته الرجل العابد- عن قومه و هو غاضب عليهم، و وصل إلى ساحل البحر، و شاهد سفينه عند الساحل غاصّه بالركاب فطلب منهم السماح له بالصعود إليها.

و هذا ما أشارت إليه الآيه التاليه، حيث قالت: **إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ .**

كلمه «أبق» مشتقه من (إباق) و التى تعنى فرار العبد من سيّده، إنّها لعباره عجيبه، إذ تبيّن أن ترك العمل بالأولى من قبل الأنبياء العظام ذوى المقام الرفيع عند الله، مهما كان بسيطاً فإنّه يؤدّى إلى أن يتخذ البارى عزّ و جلّ موقفا معاتبا و مؤنّبا للأنبياء، كإطلاق كلمه (الأبق) على نبيّه.

و من دون أى شكّ فإنّ نبي الله يونس عليه السّلام، معصوم عن الخطأ، و لكن كان الأجدر به أن يتحمّل آلاما اخرى من قومه، و أن يبقى معه حتّى اللحظات الأخيره قبل نزول العذاب، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم و يتوبوا إلى الله سبحانه و تعالى.

حقّا إنّه دعا قومه إلى توحيد الله أربعين عاما- ووفق ما ورد فى بعض الروايات - و لكن كان من الأجدر به أن يضيف عدّه أيام أو عدّه ساعات إلى ذلك الوقت ببقائه معهم، لذلك فعند ما ترك قومه و هجرهم شبهه القرآن بالعبد الأبق.

ص: ٤٠٠

و وفق ما ورد فى الروايات، فقد صعد يونس عليه السّلام إلى السفينه، ثمّ إنّ حوتا ضخما وقف أمام السفينه، فاتحا فمه و كأنّه يطلب الطعام، فقال ركاب السفينه أنّ هناك شخصا مذنبا معنا يجب أن يكون طعام هذا الحوت، و لم يجدوا سيلا سوى الاقتراع لتحديد الشخص الذى يرمى للحوت، و عند ما اقترعوا خرج اسم يونس، و طبقا للروايه فإنّهم اقترعوا ثلاث مرّات و فى كلّ مرّه كان يخرج اسم يونس عليه السّلام، فأمسكوا بيونس و قذفوه فى فم الحوت العظيم، و قد أشار القرآن المجيد فى آيه قصيره إلى هذه الحادثه، قال تعالى: فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ .

«سَاهَم» فى مادّه (سهم) و تعنى اشتراكه فى الاقتراع، فالأقتراع تمّ على ظهر السفينه بالشكل التالى، كتبوا اسم كلّ راكب على (سهم) ثمّ خلطوا الأسهم و سحبوا سهما واحدا، فخرج السهم الذى يحمل اسم يونس عليه السّلام.

(مدحض) مشتقّه من (دحض) و تعنى إبطال مفعول الشىء أو إزالته أو التغلّب عليه، و المراد هنا أنّ اسمه ظهر فى عمليه الاقتراع من بين بقيه الأسماء.

و ورد بهذا الشأن تفسير آخر يقول: إنّ إعصارا هبّ فى البحر عرض السفينه و من فيها من الرّكاب للخطر بسبب ثقل حمولتها، و لم يكن لهم سبيل للنجاه سوى تخفيف وزن السفينه من خلال إلقاء بعض ركبها فى وسط البحر، و عند ما اقترعوا على من يرمونه فى الماء خرج اسم يونس، و بعد رميه فى البحر ابتلعه حوت عظيم.

و قال القرآن الكريم: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ أَى إنّ حوتا عظيما التقمه و هو مستحقّ للملامه.

«التقم» مشتقّه من (الالتقام) و تعنى (البلع).

(مليم) من مادّه (لوم) و تعنى التوبيخ و العتب (و عند ما تأتى بصفه الفعل فإنّها تعطى معنى استحقاق الملامه).

و من المسلّم أنّ هذه الملامه لم تكن بسبب ارتكابه ذنبا كبيرا أو صغيرا و إنّما

بسبب تركه العمل بالأولى، واستعجاله في ترك قومه و هجرانهم.

و بعد بلعه من قبل الحوت أعطى الله سبحانه و تعالى أمرا تكوينيا إلى الحوت أن لا تلحق الأذى بيونس، إذ أنّ عليه أن يقضى فتره في السجن الذي لم يسبق له مثيل، كي يدرك تركه العمل بالأولى، و يسعى لإصلاحه.

و ورد في إحدى الروايات أنّ

«أوحى الله إلى الحوت: لا تكسر منه عظما و لا تقطع له وصلا» (١).

يونس عليه السلام انتبه بسرعة للحادث، و توجه على الفور إلى الله سبحانه و تعالى و تكامل وجوده مستغفرا الله على تركه العمل بالأولى، و طالبا العفو منه.

و نقلت الآية (٨٧) في سورة الأنبياء صورته توجه يونس عليه السلام بالدعاء الذي يسميه أهل العرفان باليونسية، قال تعالى: فَنادى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

أى إنه نادى من بطن الحوت بأن لا معبود سواك، و أنني كنت من الظالمين، إذ ظلمت نفسي و ابتعدت عن باب رحمتك.

اعتراف يونس الخالص بالظلم، و تسييحه الله المرافق للندم أدى مفعوله، إذ استجاب الله له و أنقذه من الغم، كما جاء في الآية (٨٨) من سورة الأنبياء، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ .

و نلاحظ الآن ماذا تقول الآيات بشأن يونس عليه السلام، قال تعالى: فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أى لو لم يكن من المسبِّحين لأبقيناه في بطن الحوت حتى يوم القيامة، و يعنى تبادل سجنه المؤقت إلى سجن دائم، و من ثم تبادل سجنه الدائم إلى مقبره له.

و بخصوص بقاء يونس في بطن الحوت حتى يوم القيامة (على فرض أنه ترك

ص: ٤٠٢

---

١ - ١) - تفسير الفخر الرازي، المجلد ٢٦، الصفحة ١٦٥، كما ورد نفس المعنى مع اختلاف بسيط في تفسير البرهان، المجلد ٤، الصفحة ٣٧.

تسبيح الله و التوبه إليه)فهل أنه يعنى بقاءه حيا أم ميتا،المفسرون ذكروا بهذا الشأن احتمالات متعدده منها:

أولا:بقاء الإثنين-أى يونس و الحوت-أحياء،و يونس يبقى إلى يوم القيامة مسجوناً فى بطن الحوت.

ثانيا:وفاه يونس،و بقاء الحوت حيا باعتباره قبرا متحركا لجثته يونس.

ثالثا:وفاه الإثنين،و هنا يكون بطن الحوت قبرا ليونس،و الأرض قبرا للحوت،حيث يدفن فى قلب الحوت،و الحوت يدفن فى باطن الأرض إلى يوم القيامة.

الآيه مورد البحث لا تدلّ على أى من الاحتمالات التى ذكرناها،فهناك آيات عديده فى القرآن الكريم تؤكّد موت الجميع فى آخر الزمان،لذا فإنّ بقاء يونس أو الحوت أحياء حتى يوم القيامة غير ممكن،و بهذا يعدّ الاحتمال الثالث أقرب الاحتمالات إلى الواقع (1).

و هناك احتمال آخر يقول:إنّ هذه العبارة هى كناية عن طول المدّة،و تعنى أنّه سيبقى لمدّة طويله فى هذا السجن.

و لا ننسى أنّ هذه الأمور كان يمكن أن تتحقّق لو أنّه كان قد ترك تسبيح الله و التوبه إليه،و لكن الذى حدث أنّ تسبيحه و توبته جعلاه مشمولاً بالعفو الإلهي.

و يضيف القرآن،و قد ألقينا به فى منطقته جرداء خاليه من الأشجار و النباتات، و هو مريض فَبَدَنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ .

فالحوت الضخم لفظ يونس-الذى لم يكن غذاء صالحا لذلك الحوت-على ساحل خال من الزرع و النبات،و الواضح أنّ ذلك السجن العجيب أثر على سلامه و صحّه جسم يونس،إذ أنّه تحرّر من هذا السجن و هو منهار و معتل.

ص: ٤٠٣

١-١) -الملفت للنظر أنّ المفسّر الكبير العالمه(الطبرسى)الذى غالبا ما يجمع الآراء المختلفه فى ذيل الآيات، اقتنع هنا بإيراد احتمال واحد فقط،و الذى يقول(لصار بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة).

إننا لا نعلم كم أمضى يونس من الوقت فى بطن الحوت، فمن المسلم به أنه لا يمكن تجنب المؤثرات هناك مهما كانت الفتره الزمينه التى قضاها فى بطن الحوت، صحيح أن الأمر الإلهى كان قد صدر فى أن لا يهضم يونس داخل بطن الحوت، ولكن هذا لا يعنى أن لا يتأثر بعض الشىء بمؤثرات ذلك السجن، لذا فقد كتب بعض المفسّرون أن يونس خرج من بطن الحوت و كأنه فرخ دجاجة ضعيف و هزيل جدًا لا يمتلك القدره على الحركة.

مرّه اخرى شمله اللطف الإلهى، لأن جسمه كان مريضا و متعبا، و كل عضو من أعضاء جسمه كان مرهقا و عاجزا، و كانت حراره الشمس تؤذيه، فيحتاج إلى ظل لطيف يظلل جسده. و القرآن هنا يكشف عن هذا اللطف الإلهى بالقول، إننا أنبتنا عليه شجره قرع ليستظل بأوراقها العريضة و الرطبه و **أُنْبِتْنَا عَلَيْهِ شَجْرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ** .

(اليقطين) تعنى - كما قال أصحاب اللغه و التفسير - كل نبات لا ساق له و له أوراق كبيره، مثل نبات البطيخ و القرع و الخيار و ما يشابهها. و لكن الكثير من المفسّرين و رواه الحديث أعلنوا بأن المقصود من (اليقطين) هو (القرع)، و الذى يجب الالتفات إليه أن كلمه «الشجره» فى اللغه العربيه تطلق على النباتات التى لها ساق و أغصان و التى ليس لها ساق و أغصان، و بعبارة اخرى: تشمل كل الأشجار و النباتات، و نقلوا حديثا لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، قالوا فيه: إن شخصا سأل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: إنك تحب القرع؟ فأجاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

«أجل هى شجره أخى يونس» (١).

و قيل: إن أوراق شجره القرع، إضافة إلى أنها كانت كبيره و رطبه جدًا و يمكن الاستفاده منها كظل جيد، فإن الذباب لا يتجمع حول هذه الأوراق، و لهذا فإن يونس عليه السلام التصق بتلك الأوراق كى يرتاح من حرقة الشمس و من الحشرات فى

ص: ٤٠٤



نفس الوقت، إذ أنّ بقاءه في داخل بطن الحوت أدى إلى أن يصبح جلده رقيقاً جداً و حسّاساً، بحيث يتألم إن استقرت عليه حشره.

و يحتمل أنّ الباري عزّ و جلّ يريد من هذه المرحلة إكمال الدرس الذي أعطاه ليونس في بطن الحوت، إذ كان عليه أن يحسّ بتأثير حراره الشمس على جلده الرقيق، كي يبذل جهداً و سعياً أكثر-عند ما يتسلّم القيادة في المستقبل-لإنقاذ أمته من نار جهنّم، و قد ورد هذا المضمون في روايات متعدّده (١).

نترك الحديث عن يونس و نعود إلى قومه، فبعد أن ترك يونس قومه و هو غضبان، ظهرت لقومه دلائل تبيّن لهم قرب موعد الغضب الإلهي، هذه الدلائل هزّت عقولهم بقوّه و أعادتهم إلى رشدهم، و دفعتهم إلى اللجوء للشخص (العالم) الذي كان آمن بيونس و ما زال موجوداً في المدينة، و اتّخذه قائداً لهم ليرشدهم إلى طريق التوبه.

و ورد في روايات اخرى أنّهم خرجوا إلى الصحراء، و فرّقوا بين المرأه و طفلها، و حتّى بين الحيوانات و أطفالها، و جلسوا يبكون و ينتحبون بأعلى أصواتهم، داعين الله سبحانه و تعالى بإخلاص أن يتقبّل توبتهم و يغفر ذنوبهم و تقصيرهم بعدم اتّباعهم نبي الله يونس.

و هنا أزاح الله عنهم سحب العذاب و أنزلها على الجبال، و هكذا نجا قوم يونس التائبون المؤمنون بلطف الله (٢).

بعد هذا عاد يونس إلى قومه ليرى ماذا صنع بهم العذاب الإلهي؟ و لكن ما إن عاد إلى قومه حتّى فوجئ بأمر أثار عنده الدهشه و العجب، و هو أنّه ترك قومه في ذلك اليوم يعبدون الأصنام، و هم اليوم يوحدون الله سبحانه.

القرآن يقول هنا: **وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ** كانوا قد آمنوا بالله،

ص: ٤٠٥

١-١) -تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٤٣٦، الحديث ١١٦.

٢-٢) -نقل صاحب تفسير البرهان، و في المجلد ٤، الصفحة ٣٥ هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام.

و اعدت عليهم النعم الإلهيه الماديه و المعنويه لمدّه معينه، فَأَمَّنُوا فَمَنَّعْنَاهُمْ إِيَّاهُ حِينَ .

و بالطبع فإنهم بعد توبتهم كانوا يتمتعون بإيمان بسيط، و قد ازداد بعد عوده يونس إليهم، أى ازداد إيمانهم بالله و برسوله يونس، و أخذوا ينفذون تعليماته و أوامره.

و يتبين من آيات القرآن الكريم أنّ يونس عليه السلام بعث من جديد إلى قومه السابقين، أمّا الذين قالوا: إنه بعث إلى قوم آخرين، فقولهم لا يتناسب مع ظاهر الآيات.

لأننا نقرأ من جهه قوله تعالى: فَأَمَّنُوا فَمَنَّعْنَاهُمْ إِيَّاهُ حِينَ يعنى أنّ القوم الذين بعثنا إليهم يونس كانوا قوماً مؤمنين، و أننا قد أعدنا عليهم النعم لمدّه محدوده.

و من جهه اخرى، فقد ورد نفس هذا التعبير فى سوره يونس بشأن قومه السابقين، و ذلك فى الآيه (٩٨) فَلَوْ لَا كَانَتْ قُوَّةً آمَنَتْ فَفَعَلَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْنَسُ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَنَّعْنَاهُمْ إِيَّاهُ حِينَ .

و من هنا يتضح أنّ المراد من إِيَّاهُ حِينَ هو لفته معينه، أى إلى نهايه حياتهم و حلول أجلهم الطبيعى.

سؤال يطرح نفسه: لماذا قالت الآيه المذكوره أعلاه: مِائَةٌ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ؟ و ما المقصود من يزيدون أى عدد بعد المائه ألف؟ المفسرون أعطوا تفسيرات مختلفه لها، و لكن الظاهر أنّ مثل هذه العبارات تأتي لتأكيد شىء ما، و إعطائه هاله من العظمه، و ليس لخلق حاله من التردد و الشك (١).

\*\*\*

ص: ٤٠٦

(١ - ١) - لهذا فإنّ (أو) هنا تأتي بمعنى، (بل).

## ١- عرض موجز لحياه يونس عليه السلام

(يونس) بن (متى) و يلقب ب (ذى النون) أى صاحب الحوت، و قد اعطى هذا اللقب لأن قصّته ارتبطت بالحوت، و هو من المعروفين، و على الظاهر أنه ولد بعد موسى و هارون.

و قال البعض: إنّه من أولاد (هود) و قد كلف من قبل البارى عزّ و جلّ بهدايه من تبقى من قوم ثمود.

و المنطقه التى بعث إليها كانت إحدى مناطق العراق و تسمى (نينوى) (١).

و قال البعض: إنّ بعثته كانت قبل ولاده المسيح عليه السلام بحوالى (٨٢٥) عاماً، و حالياً هناك قبر قرب مدينه الكوفه على ضفاف النهر يعرف بقبر (يونس).

و جاء فى بعض الكتب أنّ يونس كان من أبناء بنى إسرائيل و بعث إلى أهل نينوى بعد سليمان. و قد شرح كتاب (يوناه) أحد كتب التوراه العهد القديم فى بحوث مفضّله حياه النّبى يونس و تحت عنوان (يوناه بن متى). و طبقاً لما جاء فى هذا الكتاب، فإنّ يونس كان مكلفاً بالذهاب إلى مدينه (نينوى) الكبيره، و مجابهه شرور الطغاه هناك.

ثمّ تذكّر التوراه حوادث اخرى، تشبه كثيراً ما جاء فى القرآن، مع وجود اختلاف، و هو أنّ الروايات الإسلاميه تقول: إنّ يونس دعا قومه إلى التوحيد و نفّذ ما أوكل إليه فى هذا المجال، و بعد أن رفض قومه دعوته دعا عليهم و تركهم و حصل له ما حصل فى حادثه السفينه و الحوت، و لكن التوراه ذكرت عبارته غير مقبوله، إذ قالت: إنّ يونس طلب قبل بعثه إلى قومه أن يعفى من هذه المهمه، و لهذا

ص: ٤٠٧

١ - ١) - نينوى، اسم عدّه مناطق، الاولى: مدينه قرب الموصل، و الاخرى فى ضواحي الكوفه فى جهه كربلاء، و مدينه فى آسيا الصغرى، عاصمه مملكه آشور و تقع عاى ضفاف نهر دجله (دائره المعارف ده خدا) و البعض الآخر قال: إنّ نينوى هى أكبر مدن مملكه آشور الواقعه فى الضفّه الشرقيه لنهر دجله و قد بنيت مقابل الموصل (معجم قصص القرآن).

توقّف عن الدعوه و انهزم و حصلت له حادثه السفينه و الحوت.

و الذى يثير العجب أكثر أنّ التوراه تقول: إنّ يونس تألم و غضب كثيرا عند ما أزال الله سبحانه و تعالى العذاب عن قومه بعد ما أعلنوا توبتهم (١).

و جاء فى أحد فصول التوراه-أيضا- أنّ يونس بعث مرّتين، امتنع فى الاولى و ابتلى بذلك المصير المؤلم، و فى المرّه الثانيه بعث أيضا إلى المدينه (نينوى) نفسها، و كان أهلها قد تيقظوا من غفلتهم و آمنوا بالله، و تابوا إليه و شملهم العفو الإلهى، ذلك العفو الذى لم يفرح قلب يونس.

و بمقارنه ما جاء فى القرآن المجيد و الروايات الإسلاميه مع ما جاء فى كتاب التوراه الحالى يتّضح إلى أى درجه تحطّ (التوراه المحرّفه) من شأن نبي الله يونس، فأحيانا ينسب إليه عدم قبوله حمل الرساله التى كلف بها، و أحيانا غضبه و سخطه على قرار الله سبحانه و تعالى بشمول قومه التائبين بالعفو و الرحمه. و هذا يدلّ على أنّ التوراه الحاليه كتاب لا يمكن الاعتماد عليه بأى شكل من الأشكال.

على أيّه حال، فإنّ يونس من الأنبياء الكبار الذين ذكرهم القرآن بأحسن و أفضل الذكر.

## ٢- كيف بقى يونس حيا فى بطن الحوت؟

قلنا: إنّّه ليس هناك دليل واضح يبيّن كم أمضى يونس من الوقت فى بطن الحوت؟ هل أنّها كانت عدّه ساعات أم عدّه أيام أم عدّه أسابيع؟ فقد ورد فى بعض الروايات أنّه أمضى (٩) ساعات فى بطن الحوت، فيما قالت روايات اخرى: إنّّه أمضى ثلاثه أيام، و أكّدت اخرى أنّه أمضى أكثر، حتّى أنّ البعض قال: إنّّه أمضى (٤٠) يوما فى بطن الحوت.

ص: ٤٠٨

و لكن لا يوجد لدينا دليل ثابت على أى من هذه الأقوال.

و قد جاء فى تفسير على بن إبراهيم نقلا عن حديث لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام، أنّ يونس أمضى (٩) ساعات فى بطن الحوت (١).

و قال بعض المفسرين من أهل السنّه: إنّ المدّه التى أمضاها يونس فى بطن الحوت كانت ساعه واحده فقط (٢).

و كم كانت المدّه؟ فإنّ مثل هذا الأمر- من دون أى شكّ- يعدّ أمرا غير عادى، حيث إنّ الإنسان لا يستطيع أن يبقى حيّا لعدّه دقائق فى محيط فارغ من الهواء، و إذا رأينا أنّ الجنين يعيش عدّه أشهر فى بطن أمّه حيّا، فإنّما ذلك بسبب عدم عمل أجهزته التنفسيّه و حصوله على الأوكسيجين اللازم عن طريق دم والدته.

و وفقا لهذا فإنّ ما جرى ليونس إنّما هو معجزه من دون أى شكّ، و هذه ليست المعجزه الأولى التى نصادفها فى القرآن المجيد، فالبارى عزّ و جلّ- الذى حفظ إبراهيم عليه السّلام فى وسط النار، و أنقذ موسى و بنى إسرائيل من الغرق بعد أن أوجد لهم طريقا يابسا وسط البحر، و خلّص نوحا من الطوفان العظيم بواسطة سفينه بسيطه ليهبط من بعد على الأرض اليابسه بسلام- قادر على حفظ عبد من عباده المخلصين مدّه من الزمن فى بطن الحوت.

و بالطبع فإنّ وجود مثل تلك الحيتان الكبيره فى الماضى و الحاضر لا يعدّ أمرا عجيبا، إذ يوجد حاليا نوع من أنواع الحيتان يطلق عليه اسم (بالن) طولّه أكثر من (٣٠) مترا و يعدّ أكبر حيوان على وجه الأرض، و قلبه يزن طنا واحدا.

فى هذه السوره طالعنا قصص الأنبياء السابقين الذين نجوا بإعجاز من قبضه البلاء، و يونس كان آخرهم فى هذه السلسله.

ص: ٤٠٩

١- ١) - تفسير على بن إبراهيم، وفقا لما ورد فى نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحه ٤٣٦.

٢- ٢) - تفسير القرطبي، المجلد ٨، الصفحه ٥٦٧.

### ٣- دروس و عبر كبيره فى قصص صغيره:

و كما نعرف، فإن استعراض القرآن لهذه القصص يهدف إلى تربيته الإنسان، لأن القرآن ليس كتاب قصص و إنما هو كتاب هدفه بناء الإنسان و تربيته.

من هذه القصص العجيبه يمكن استخلاص الكثير من المواعظ و العبر:

أ-ترك النبي للعمل بالأولى يعدّ أمراً مهماً عند الله، و يؤدّى إلى مجازاه ذلك النبي، لأن مرتبه الأنبياء عاليه جداً، و أبسط غفله منهم تعادل ذنبا كبيرا يرتكبه عوام الناس، و لهذا السبب أطلق الله سبحانه و تعالى تسميه (الآبق) على عبده يونس فى هذه الآيه، و التى تعنى العبد الهارب.

و قد ورد فى بعض الروايات أنّ ركّاب السفينه كانوا يقولون: هناك شخص عاص بيننا! و عاقبه الأمر أنّ البارى عزّ و جلّ ابتلاه بسجن رهيب، ثمّ أنقذه منه بعد أن تاب و عاد إلى الله، و كان منهار القوى مريضاً.

ذلك ليعرف الجميع أنّ التوانى غير مقبول من أى أحد، فعظمه مرتبه أنبياء و أولياء الله إنّما يحصلون عليها من طاعتهم الخالصه لأوامر الله سبحانه و تعالى، و إلاّ فالله لا تربطه صله قريى مع أى أحد، و إنّ الموقف الحازم الذى اتّخذه الله تجاه عبده يونس يوضّح عظمه مرتبه هذا النبي الكبير.

ب-أحداث هذه القصص (و خاصّه ما ورد فى الآيه (٨٧) من سوره الأنبياء) كشفت عن سبيل نجاه المؤمنين من الغمّ و الحزن و الابتلاءات و المشاكل، و هو نفس السبيل الذى انتهجه يونس، و هو اعترافه بخطئه أمام الله و تسيّحه الله و تنزيهه و العوده إليه.

ج-هذه القصص توضح كيف أنّ قوما مذنبين مستحقّين للعذاب يستطيعون فى آخر اللحظات تغيير مسيرتهم التاريخيه، بعودتهم إلى أحضان الرحمه الإلهيه، و إنقاذ أنفسهم من العذاب، و هذا مشروط بالصحوه من غفلتهم قبل فوات الأوان،

و انتخاب شخص «عالم» قائدا لهم.

د- هذه الحادثة تبين أنّ الإيمان بالله و التوبه من الذنوب علاوه على أنّها تتسبب فى نزول الآثار و البركات المعنويه، فهى توجد النعم و الهبات الدنيويه و تجعلها فى إختيار الإنسان، و توجد حاله من العمران و البناء، و تطيل الأعمار، و نظير هذا المعنى ورد أيضا فى قصه نوح عليه السلام و الذى سنقرأ شرحه بعون الله فى تفسير سوره نوح.

ه- أخيرا فإنّ مجريات هذه القصه تستعرض قدره البارى عزّ و جلّ العظيمه التى لا يقف أمامها شىء و لا يصعب عليها شىء، إلى درجه تستطيع حفظ حياه إنسان فى فم و جوف حيوان كبير وحشى، و إخراجة سالما من هناك، هذا الأمر يبين أنّ كلّ ما هو موجود فى هذا الكون هو أداه بيده تعالى و مسخر لأوامره.

#### ٤- الجواب على سؤال:

هنا يطرح هذا السؤال: عند بيان قصص الأقسام الاخرى فى القرآن المجيد، نلاحظ أنّه عند نزول العذاب عليهم (عذاب الاستئصال الذى كان ينال كلّ الأقسام الطاغية و المتجبره) لا تكون التوبه مقبوله و الإنابه مؤثّره، فكيف استثنى قوم يونس من هذا الأمر؟ هناك إجابتان على هذا السؤال:

الأولى: هى أنّ العذاب لم يكن قد نزل بهم، لأنّهم بمجرد أن شاهدوا دلائل بسيطه تنذر بالعذاب، استغلّوا هذه الفرصه و آمنوا بالله و تابوا إليه قبل حلول البلاء.

الثانيه: أنّ عذابهم لم يكن لإهلاكهم، و إنّما كان بمثابة تنبيه و تأديب لهم قبل نزول العذاب المهلك، و هو الأسلوب الذى كان يتّبع مع الأقسام السابقه، أى تظهر لهم بعض دلائل العذاب كآخر فرصه لهم، فإن آمنوا كفّ الله عنهم العذاب، و إن بقوا على طغيانهم أنزل الله العذاب عليهم ليهلكهم عن آخرهم، كما عدّب قوم فرعون بمختلف أنواع العذاب قبل أن يغرقهم الله فى البحر.

## ٥- القرعة و مشروعيتها في الإسلام:

وردت أحاديث متعدّده بشأن القرعة و مشروعيتها في الإسلام،

فعن الإمام الصادق عليه السّلام «أى قضيه أعدل من القرعة إذا فوّض الأمر إلى الله، أليس الله عزّ و جلّ يقول: فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١)».

و هذا إشاره إلى أنّ القرعة هي طريق الحلّ الصحيح في حالة استعصاء أمر ما و عدم وجود طريق آخر لحله، و تفويض الأمر لله كما جاء في قصّه يونس حيث انطبقت تماما مع الواقع.

و هذا المعنى ورد بصراحه

في حديث لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، قال فيه: «ليس من قوم تنازعوا (تقارعوا) ثمّ فوّضوا أمرهم إلى الله إلاّ خرج لهم المحقّ» (٢).

و من يريد الاطلاع أكثر على هذه المسأله فليراجع كتاب القواعد الفقهيّه (للمؤلّف).

\*\*\*

ص: ٤١٢

---

١-١) - تفسير البرهان، المجلد ٤، الصفحة ٣٧ الحديث ٦.

٢-٢) - (الوسائل) كتاب القضاء، المجلد ١٨، باب الحكم بالقرعة في القضايا المشكله في أبواب كيفيه الحكم و أحكام الدعوى (الباب ١٣) الحديث (٥).



اشاره

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لَرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبُنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِيكِهِمْ يَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهِ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَآتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّهٗ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٦٠)

التفسير

اشاره

التهم القبيحه:

بعد استعراض ست قصص من قصص الأنبياء السابقين، واستخلاص الدروس التربويه منها، يغير القرآن موضوع الحديث، و يتناول موضوعا آخر يرتبط بمشركي مكه آنذاك، و يستعرض لنا أنماطا مختلفه من شركهم و يحاكمهم بشده، ثم يدحض بالأدله القاطعه أفكارهم الخرافيه.

و القضية هي أن مجموعه من المشركين العرب و بسبب جهلهم و سطحية تفكيرهم كانوا يقيسون الله عز و جل بأنفسهم، و يقولون: إن لله عز و جل أولادا، و أحيانا يقولون: إن له زوجة.

قبائل (جهينه) و (سليم) و (خزاعه) و (بنى مليح) كانوا يعتقدون أن الملائكة هي بنات الله عز و جل، و مجموعه اخرى من المشركين كانت تعتقد أن (الجن) هم أولاد الله عز و جل، فيما قال البعض الآخر: إن (الجن) هم زوجات الله عز و جل.

الأوهام الخرافيه هذه، كانت السبب الرئيسي لانحرافهم عن طريق الحق بصوره زالت معها كل آثار التوحيد و الاعتقاد بوحدانيه الله سبحانه و تعالى من قلوبهم.

و قد ورد في أحد الأحاديث أن النمل يتصور أن لخالقه قرنين إثنين مثلما هي تمتلك.

نعم، العقل الناقص للإنسان يدفعه إلى المقارنه، المقارنه بين الخالق و المخلوق، و هذه المقارنه من أسوأ الأسباب التي تؤدي بالإنسان إلى الضلال عن معرفه الله.

على أيه حال، فالقرآن الكريم يرد على الذين يتصورون أن الملائكة هي بنات الله بثلاث طرق، أحدها تجريبي، و الآخر عقلي، و الثالث نقلي، و في البدايه يقول، اسألهم هل أن الله تعالى خص نفسه بالبنات، و خصهم بالبنين، فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبُنُونَ .

و كيف تنسبون ما لا تقبلون به لأنفسكم إلى الله، حيث أنهم طبق عقائدهم الباطله كانوا يكرهون البنات بشده و يحبون الأولاد كثيرا، فالأولاد كان لهم دورا مؤثرا خلال الحرب و الإغاره على بقيته القبائل، في حين أن البنات عاجزات عن تقديم مثل هذه المساعده.

و من دون أي شك فإن الولد و البنت من حيث وجهه النظر الإنسانيه، و من حيث التقييم عند الله سبحانه و تعالى متساوون، و ميزان شخصيتهم هو التقوى

و الطهاره، و استدلال القرآن هنا إنما يأتي من باب (ذكر مسلمات الخصم) و من ثم ردها عليه. و شبهه هذا المعنى ورد في سور  
اخرى من سور القرآن، و منها ما جاء في الآيه (٢١ و ٢٢) من سورة النجم أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنثَىٰ. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ!

ثم ينتقل الحديث إلى عرض دليل حسي على المسأله هذه، و بشكل استفهام استنكارى، قال تعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ  
شَاهِدُونَ .

و من دون أى شك فإنّ جوابهم فى هذا المجال سلبى، إذ لم يستطع أحدا منهم الادعاء بأنه كان موجودا أثناء خلق الملائكه.

مره اخرى يطرح القرآن الدليل العقلى المقتبس من مسلماتهم الذهنيه و يقول:

أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَىٰ الْبُنَاتِ عَلَى الْبُنِينَ

هل تدركون ما تقولون و كيف تحكمون: ما لكم كيف تحكمون؟ ألم يحن الوقت الذى تتركون فيه هذه الخرافات و الأوهام  
القيحه و التافهه؟ أفلا تدركون؟ إذن أن هذا الكلام باطل من الأساس بحيث لو أن أى إنسان له ذره من عقل و درايه، و يتفكر  
فى الأمر جيداً، لأدرك بطلان هذه المزاعم.

بعد إثبات بطلان ادعاءاتهم الخرافيه بدليل تجريبى و آخر عقلى، ننتقل إلى الدليل الثالث و هو الدليل النقلى، حيث يقول القرآن  
الكريم مخاطباً إياهم: لو كان ما تزعمونه صحيحاً لذكرته الكتب السابقه، فهل يوجد لديكم دليل واضح عليه، أم لكم سلطان  
مبين .

و إذا كنتم صادقين فى قولكم فأتوا بذلك الكتاب فأتوا بكتبكم إن كنتم صادقين .

هذا الادعاء فى أى كتاب موجود؟ و فى أى وحى مذكور؟ و على أى رسول نزل؟

هذا القول يشبه بقيه الأقوال التي يخاطب بها القرآن عبده الأصنام وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ .

كلا- إنها لم ترد في الكتب السماويه، بل أنها خرافات انتقلت من جيل إلى جيل و من جهله إلى آخرين، و إنها دعاوى مرفوضه و لا أساس لها، كما أشير إليها في نهايه الآيات المذكوره أعلاه أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ .

الآيه اللاحقه تطرقت إلى خرافه اخرى من خرافات مشركى العرب، و التي تزعم بوجود نسبه بين الله عزّ و جلّ و الجنّ، فالآيه هنا لا تخاطبهم بصورة مباشره و إنما تخاطبهم بضمير الغائب، لأنهم أناس تافهون، و لا تتوفّر فيهم الكفاءه و اللياقه للردّ على زعمهم وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّه نَسَبًا .

فما هي النسبه الموجوده بين الله و الجنّ؟ وردت عدّه تفاسير مختلفه لهذا السؤال، منها:

قال البعض: إنهم كانوا ثنويين، و يعتقدون (نعوذ بالله) أنّ الله و الشيطان إخوه، الله خالق المحبّه، و الشيطان خالق الشرور.

و هذا التفسير مستبعد، لأنّ المذهب الثنوى لم يكن معروفًا عند العرب، بل كان منتشرًا في إيران خلال عهد الساسانيين.

و اعتبر البعض الآخر الجنّ هم نفس الملائكه، لأنّ الجنّ موجودات لا- تدرّكها الأبصار، و الملائكه كذلك، و لذلك أطلقوا كلمه «الجنّ» عليها. إذا، فالمراد من النسبه هي النسبه التي كان يدّعيها عرب الجاهليه من أنّ الملائكه بنات الله.

و يرد على هذا التفسير أنّ ظاهر آيات بحثنا أنّها تبحث في موضوعين، إضافة إلى أنّ إطلاق كلمه (الجنّ) على الملائكه غير وارد و خاصّه في القرآن الكريم.

و هناك تفسير ثالث يقول: إنهم كانوا يعتبرون (الجنّ) زوجات الله، فيما

يعتبرون الملائكة بناته.

و هذا التفسير مستبعد أيضا، لأنّ إطلاق كلمه «نَسب» على الزوجه غير وارد.

و التفسير الذى يعدّ أنسب من الجميع، هو أنّ المراد من كلمه (نَسب) كلّ أشكال الرابطة و العلاقه، حتّى و لو لم يكن هناك أى صله للقرابه فيها، و كما نعلم فإنّ مجموعه من المشركين العرب كانوا يعبدون الجنّ و يزعمون أنّها شركاء لله، و لهذا كانوا يقولون بوجود علاقه بينها و بين الله.

على أيه حال، فالقرآن المجيد ينفى هذه المعتقدات الخرافيه بشدّه، و يقول: إِنَّ الْجِنَّ الَّذِينَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَهَا وَيَقُولُونَ بِوَجُودِ نَسْبِهِ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ اللَّهِ، يَعْلَمُونَ جَيِّدًا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ سَيَحْضُرُونَ فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ وَ سَيَحَاسِبُونَ وَ يَجْزُونَ وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

و البعض الآخر احتمال أن يكون تفسير الآيه بالشكل التالى: إِنَّ الْجِنَّ الَّذِينَ يَغْوُونَ النَّاسَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيَحْضُرُونَ فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ لِيَحَاسِبُوا وَ يَنَالُوا جَزَاءَهُمْ.

و لكن التفسير الأوّل يعدّ أنسب (1).

و نزه الله تعالى نفسه عمّا قاله أولئك الضالّون فى صفاته تعالى، قائلا: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . و استثنى وصف عباده المخلصين (الذين وصفوه عن علم و معرفه و درايه) حيث وصفوه بما يليق بذاته المقدسه، قال تعالى: إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ .

و بهذا الشكل فإنّ من النادر أن نسمع أناسا عاديين يصفون الله سبحانه و تعالى و صفا لاثقا، كما يصفه عباده المخلصون، العباد الخالصون من كلّ أشكال الشرك و هوى النفس و الجهل و الضلال، و الذين لا يصفون البارى عزّ و جلّ إلا بما سمح

ص: ٤١٧

١-١) -الضمير(هم) يعود فى الحاله الاولى على المشركين، و فى الحاله الثانيه على (الجنّ).

لهم به (١).

و حول عبارته **عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ** فقد كان لنا بحث في نهايه الآيه (١٢٨) من هذه السوره.

نعم، فلمعرفه الله لا- ينبغى أتباع الخرافات الوارده عن أقوام الجاهليه التى يخجل الإنسان من ذكرها، بل يجب أتباع العباد المخلصين الذين يتحدثون بأحاديث تجعل روح الإنسان محلّقه فى عنان السماء، و تذيبها فى أنوار الوجدانيه، و تطهر القلب من كلّ شائبه شرك، و تمحو كلّ تجسيم و تشبيه لله من ذهن الإنسان.

ينبغى لنا مراجعه كلمات الرسول الأ- كرم صلّى الله عليه و آله و سلّم و خطب أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام، و أدعيه الإمام زين العابدين عليه السّلام فى صحيفته، كى نستنير بضياء و صفهم له جلّ و علا.

فأمير المؤمنين عليه السّلام، يقول فى إحدى كلماته: «لم يطلع العقول على تحديد صفته، و لم يحجبها عن واجب معرفته، فهو الذى تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذى الجحود، تعالى الله عما يقوله المشبهون و الجاحدون له علوا كبيرا» (٢).

و فى مكان آخر يصف الله عزّ و جلّ بالقول:

«لا- تناله الأوهام فتقدّره، و لا تتوهمه الفطن فتصوّره، و لا تدركه الحواس فتحسّه، و لا تلمسه الأيدى فتمسّه، و لا يتغيّر بحال، و لا يتبدّل فى الأحوال، و لا تبليه الليالى و الأيام، و لا يغيّره الضياء و الظلام، و لا يوصف بشيء من الأجزاء، و لا بالجوارح و الأعضاء، و لا بعرض من الأعراض، و لا بالغيريه و الأبعاض، و لا يقال له حدّ و لا نهايه، و لا انقطاع

ص: ٤١٨

١ - ١) -وفقا لهذا التفسير، فإنّ عبارته (إلا- عباد الله) استثناء منقطع من ضمير (يصفون)، و البعض قال: إنّه استثناء منقطع من ضمير (محضرون) كما ذكروا آراء مختلفه اخرى، و لكن الرأى الأوّل أنسب. و على كلّ حال فهو استثناء منقطع.

٢ - ٢) -نهج البلاغه، الخطبه ٤٩.

و لا غاية» (١).

و فى مكان ثالث يقول:

«و من قال فيم؟ فقد ضمنه، و من قال علام؟ فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شىء لا بمقارنه، و غير كلّ شىء لا بمزايله» (٢).

أمّا

الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام، فقد قال فى صحيفته السجّاديه:

«الحمد لله الأوّل بلا أوّل كان قبله، و الآخر بلا آخر يكون بعده، الذى قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين و عجزت عن نعته أو هام الواصفين» (٣).

نعم، فلمعرفه الله جيّدا علينا مراجعه نهج هؤلاء (عباد الله المخلصين) و دراسه علوم معرفه الله فى مدارسهم.

\*\*\*

ص: ٤١٩

١-١) - نهج البلاغه، الخطبه ١٨٦.

٢-٢) - نهج البلاغه، الخطبه ١.

٣-٣) - الدعاء الأوّل فى الصحيفه السجّاديه.

اشاره

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ  
الضَّافُونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ  
الْمُخْلِصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)

التفسير

اشاره

الادعاءات الكاذبه:

الآيات السابقه تحدّثت عن الآلهه المختلفه التي كان المشركون يعبدونها، أمّا الآيات-التي هي مورد بحثنا الآن-فتتابع ذلك الموضوع، حيث توضّح في كلّ بضع آيات موضوعا يتعلّق بهذا الأمر.

بدايه البحث تؤكّد الآيات على أنّ وساوس عبده الأصنام لا تؤثر على الطاهرين و المحسنين، و إنّما-قلوبكم المريضة و أرواحكم الخبيثه هي التي تستسلم لتلك الوسوس، قال تعالى: فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ .

نعم، أنتم و ما تعبدون لا تستطيعون خداع أحد بوسائل الفتنه و الفساد عن



الطريق المؤدى إلى الله **مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١)** إلا أولئك الذين يريدون أن يحترقوا فى نار جهنم إلا من هو صال الجحيم .

هذه الآيات-خلافًا لما يتصوره أتباع مذهب الجبر-دليل ضدّ هذا المذهب، وهى إشارة إلى أنّه لا يعذر أى أحد انحراف عن الطريق المستقيم، مدّعياً أنّه قد خدع، و انحرافه و عبادته للأوثان بسبب هذه الوسوس، ولذا تقول الآيات المباركة، أنتم-المشركون-لا قدره لديكم على إضلال الأشخاص و خداعهم، إلا إذا كان أولئك يتجهون بإرادتهم نحو صراط الجحيم.

و عبارته **صَالِ الْجَحِيمِ** شاهد على الكلام المذكور أعلاه، لأنّ كلمه (صالى) جاءت بصيغته اسم الفاعل، و عند ما تستخدم أى كلمه بصيغته اسم الفاعل بشأن موجود عاقل فإنّها تعطى مفهوم تنفيذ العمل بإرادته و إختياره، مثل (قاتل) و (جالس) و (ضارب)، إذن فإنّ **صَالِ الْجَحِيمِ** تعنى رغبة الشخص فى الاحتراق بنار جهنم، و بهذا تغلق كافه طرق الأعداء أمام كلّ المنحرفين.

و الذى يثير العجب أنّ بعض المفسرين المعروفين فسروا الآية بالمعنى التالى:

(إنكم لا تستطيعون خداع أحد، إن لم يكن مقدراً له الاحتراق بنار جهنم).

إن كان حقاً هذا هو معنى الآية، فلم يبعث الأنبياء؟ و لأى سبب تنزل الكتب السماويه؟ و ما معنى محاسبه و لوم و توبيخ عبده الأوثان يوم القيامة التى نصّت عليها الآيات القرآنيه؟ و أين ذهب عدل البارى عزّ و جلّ؟ نعم، يجب قبول هذه الحقيقه، وهى أنّ الإقرار بمبدأ الجبر ضدّ مبدأ الأنبياء

ص: ٤٢١

١ - ١) - التركيب النحوى لهذه الآية و التى تسبقها و الاخرى التى تأتى بعدها، و كما هو مشهور كذلك، (ما) فى جمله (ما) تعبدون) هى (ما) الموصوله معطوفه على اسم أنّ، و جمله **مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ** خبرها. و (ما) فى (ما أنتم) نافية، و ضمير (عليه) يعود على الله سبحانه و تعالى، و فى مجموعها نحصل على ما يلى (إنكم و آلهتكم التى تعبدونها لا تقدرّون على إضلال أحد على الله بسببها إلا من يحترق بنار الجحيم بسوء إختياره). و البعض الآخر اعتبر الآية **فَأِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ** كلاماً تاماً مستقلاً و تعنى أنكم و آلهتكم، ثمّ تقول فى الآية التاليه: ما أنتم بحاملين على عباده ما تعبدونه إلا من هو صال الجحيم.

تماما، و يمسخ كل المفاهيم التي بعثوا من أجل ترسيخها، و يقضى على كل القيم الإلهيه و الإنسانيه.

و من الضروري الالتفات إلى هذه النقطة و هي أنّ (صالي) مشتقّه من (صلى) و تعنى إشعال النار و الدخول فيها أو الاحتراق بها و (فاتن) اسم فاعل مشتقّه من (فتنه) و تعنى الذى يثير الفتن و الذى يضلّ الآخرين.

بعد انتهاء بحثنا حول الآيات الثلاث السابقه التى وضّحت مسأله إختيار الإنسان فى مقابل فتن و إغراءات عبده الأصنام، نواصل بحثنا حول الآيات الثلاث التاليه و التى تتناول المرتبه العاليه لملائكه الله، و تقول مخاطبه عبده الأصنام: **إِنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ بَنَاتُ اللَّهِ لَهَا مَقَامٌ مَعِينٌ، وَ الْجَمِيلُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ هِيَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهَا وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ** (١).

و تضيف ملائكه الرحمن: **وَ إِنَّا جَمِيعًا مَصْطَفُونَ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَنْتِظَارِ أَمْرِهِ، وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ**.

وَ إِنَّا جَمِيعًا نَسْبِحُهُ، وَ نَنْزَهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِسَاحَةِ كِبْرِيَاءِهِ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ.

نعم، نحن عباد الله، و قد وضعنا أرواحنا على الأَكْفِ بانتظار سماع أوامره، إنّنا لسنا أبناء الله، إنّنا ننزّه البارى عزّ و جلّ من تلك المزاعم الكاذبه و القبيحه و إنّنا منزعجين و مشمئزّين من خرافات و أوهام المشركين.

فى الحقيقه، إنّ الآيات المذكوره أعلاه أشارت إلى ثلاث صفات من صفات الملائكه.

الاولى: هى أنّ لكلّ واحد منهم مقام معين و مشخص ليس له أن يتعداه.

ص: ٤٢٢

١-١) -نقرأ فى بعض الروايات التى نقلت عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأئمه المعصومين هم المقصودون فى هذه الآيه، و من الممكن أن يكون هذا التفسير من قبيل تشبيه مقام الأئمه بالملائكه، أى كما أنّ للملائكه مقاما و تكليفا معينا، فإنّ لنا مقاما و تكليفا معينا أيضا.

و الثانية: هي أنهم مستعدون دائما لإطاعه أوامر الله سبحانه و تعالى و تنفيذها في عالم الوجود، و هذا الشيء مشابه لما ورد في الآيتين (٢٦) و (٢٧) من سورة الأنبياء بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ .

و الثالثة: أنهم يسبحون الله دائما و ينزهونه عما لا يليق بساحه كبريائه.

الآيتان إِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ تعطيان مفهوم الحصر في الأدب العربي، و بعض المفسرين قالوا في تفسير هاتين الآيتين: إن الملائكة تريد أن تقول: نحن فقط المطيعون لأوامر الله و المسبحون الحقيقيون له، و هذه إشاره إلى أن طاعه الإنسان لله تعالى و تسبيحه يعدّ لا شيء بالنسبه لطاعه و تسبيح الملائكة لله، و لا يمكن المقارنه بينهما.

و الذي يلفت الانتباه أن مجموعه من المفسرين نقلوا في نهايه هذه الآيات

حديثا عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، قال فيه: «ما في السموات موضع شبر إلا و عليه ملك يصلّي و يسبح» (١).

و

جاء في روايه اخرى: «ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم» (٢).

و

في روايه ثالثة ورد أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان جالسا مع مجموعه من أصحابه، فقال لهم: «أطت السماء و حق لها أن تاط! ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راعع أو ساجد، ثم قرأ: وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ» (٣).

العبارات المختلفه كناية لطيفه عن أن عالم الوجود مكتظ بالمطيعين لأوامر الله و المسبحين له.

الآيات الأربع الأخيره من هذا البحث تشير إلى أحد الأعدار الواهيه التي

ص: ٤٢٣

١-١) - تفسير القرطبي، المجلد ٨، الصفحه ٥٨١.

٢-٢) - المصدر السابق.

٣-٣) - (الدر المنثور) نقلا عن تفسير الميزان المجلد (١٧) الصفحه ١٨٨.

تذرع بها المشركون فيما يخص هذه القضية و عبادتهم للأصنام، و تجيب عليهم قائلة: وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١).

لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ

لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ

يقول المشركون: لا تتحدثوا كثيرا عن عباد الله المخلصين الذين أخلصهم الله لنفسه، و عن الأنبياء العظام أمثال نوح و إبراهيم و موسى، لأنه لو كان الله قد شملنا بلطفه و أنزل علينا أحد كتبه السماويه لكنا في زمرة عباده المخلصين.

و هذا مشابه لما يقوله الطلاب الكسالى الراسبون فى دروسهم، من أجل التغطية على كسلهم و عدم مئابرتهم، لو كان لدينا معلم و أستاذ جيد لكنا من الطلبة الأوائل.

الآيه التاليه تقول: لقد تحقق ما كانوا يأملونه، إذ أنزل عليهم القرآن المجيد الذى هو أكبر و أعظم الكتب السماويه، إلا أن هؤلاء الكاذبين فى ادعاءاتهم كفروا به، و لم يفوا بما قالوا، و اتخذوا موقفا معاديا إزاءه، فسيعلمون و بال كفرهم فكفروا به فسوف يعلمون (٢).

كفناكم كذبا و ادعاء، و لا تعتقدوا أنكم أكفاء للانضمام إلى صفوف عباد الله المخلصين، فكذبكم واضح، و ادعاءاتكم غير صادقه، فليس هناك كتاب خير من القرآن المجيد، و لا يوجد هناك نهج تربوى خير من نهج الإسلام، فكيف كان موقفكم من هذا الكتاب السماوى؟ فانظروا العواقب الأليمه لكفركم و عدم إيمانكم.

\*\*\*

ص: ٤٢٤

١- ١) - (إن) مخففه من الثقيله و تقديرها (و إنهم كانوا ليقولون).

٢- ٢) - فى الكلام حذف تقديره (فلما آتاهم الكتاب و هو القرآن كفروا به فسوف يعلمون عاقبه كفرهم).

اشاره

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِجِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧)

التفسير

اشاره

حزب الله هو المنتصر:

اشاره

لا-زلنا نتابع البحث في آيات هذه السوره المباركه،و التي شارفت على الانتهاء،بعد أن استعرضنا في الأبحاث السابقه جهاد الأنبياء العظام و المصاعب و العراقيل التي أثارها و أوجدها المشركون.

ففي آيات بحثنا الحالي سنتطرق لأهم القضايا الواردة في هذه السوره،و التي تصوّر الخاتمه بأفضل صورته، إذ زفت البشرى للمؤمنين بانتصار جيش الحقّ على جيش الشيطان،الوعد الإلهي الكبير هذا إنّما جاء لبعث الأمل في صفوف المؤمنين في صدر الإسلام الذين كانوا لحظه نزول هذه الآيات يرزحون تحت ضغوط أعداء الإسلام في مكّه،و لكلّ المؤمنين و المحرومين في كلّ زمان و مكان،

و لكي يكون حافظا لهم يدفعهم على نفض غبار اليأس عنهم، والاستعداد لجهاد و مقاومه جيوش الباطل وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ .

وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ

،إنها لعباره واضحه و صريحه،و إنه لوعده يقوى الروح و يبعث على الأمل.

نعم،فانتصار جيوش الحق على الباطل،و غلبه جند الله،و تقديم الله سبحانه و تعالى العون لعباده المرسلين و المخلصين،هى وعود مسلم بها و سنن قطعيه، و ذلك ما أكدته الآيه المذكوره أعلاه بعنوان سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا أَي إِنَّ هَذَا الْوَعْدَ وَ هَذِهِ السَّنَهُ كَانَتْ مَوْجُودَةً مِنْذُ الْبَدَايَةِ.

نظائر كثيره لهذا الموضوع وردت فى آيات عديده اخرى من آيات القرآن المجيد،إذ جاء فى الآيه (٤٧)من سوره الروم وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

و فى الآيه (٤٠)من سوره الحجِّ وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .

و فى الآيه (٥١)من سوره غافرٍ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

و أخيرا فى الآيه (٢١)من سوره المجادله كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَ رُسُلِي .

و بديهى أن الله قادر على كل شىء،و ليس بمخلف للوعد،و لم يكن يوما ما ليخلف وعده،و قادر على أن يفى بهذا الوعد الكبير،كما أنزل فى السابق نصره على المؤمنين به.

الوعد الإلهى من أهم الأمور التى ينتظرها السائرون فى طريق الحق باشتياق، حيث يستمدون منه القوى الروحيه و المعنويه،و يسترفدون منه نشاطا جديدا كلما أحسوا بالكلل،فتسرى دماء جديده فى شرايينهم.

\*\*\*

و هنا يطرح السؤال التالي، و هو: إن كانت مشيئة الباري عزّ و جلّ و إرادته تقضى بتقديم يد العون للأنبياء و نصره المؤمنين، فلم نشاهد استشهاد الأنبياء على طول تأريخ الحوادث البشريه، و انهزام المؤمنين فى بعض الأحيان؟ فإن كانت هذه سنّه إلهيه لا تقبل الخطأ، فلم هذه الاستثناءات؟ و نجيب على هذا السؤال بالقول:

أولاً: إنّ الإنتصار له معانٍ واسع، و لا يعطى فى كلّ الأحيان معنى الإنتصار الظاهرى و الجسمانى على العدو، فأحياناً يعنى انتصار المبدأ، و هذا هو أهمّ انتصار، فلو فرضنا أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم كان قد استشهد فى إحدى الغزوات، و شريعته عمّت العالم كلّ، فهل يمكن أن نعبر عن هذه الشهاده بالهزيمة.

و هناك مثال أوضح و هو الحسين عليه السّلام و أصحابه الكرام حيث استشهدوا على أرض كربلاء، و كان هدفهم العمل على فضح بنى اميه، الذين ادّعوا أنّهم خلفاء الرّسول، و كانوا فى حقيقه الأمر يعملون و يسعون إلى إعاده المجتمع الإسلامى إلى عصر الجاهليه، و قد تحقّق هذا الهدف الكبير، و أدى استشهادهم إلى توعيه المسلمين إزاء خطر بنى اميه و إنقاذ الإسلام من خطر السقوط و الضياع، فهل يمكن هنا القول بأنّ الحسين عليه السّلام و أصحابه الكرام خسرو المعركه فى كربلاء؟ المهمّ هنا أنّ الأنبياء و جنود الله-أى المؤمنون-تمكّنوا من نشر أهدافهم فى الدنيا و اتّبعهم أناس كثيرون، و ما زالوا يواصلون نشر مبادئهم و أفكارهم رغم الجهود المستمرّه و المنسّقه لأعداء الحقّ ضدّهم.

و هناك نوع آخر من الإنتصار، و هو الإنتصار المرحلى على العدو، و الذى قد يتحقّق بعد قرون من بدء الصراع، فأحياناً يدخل جيل معركه ما و لا يحقّق فيها أى انتصار، فتأتى الأجيال من بعده و تواصل القتال فتنتصر، كالانتصار الذى حقّقه المسلمون فى النهايه على الصليبيين فى المعارك التى دامت قرابه القرنين، و هذا

النصر يحسب لجميع المسلمين.

ثانيا: يجب أن لا ننسى أن وعد الله سبحانه و تعالى بنصر المؤمنين وعد مشروط و ليس بمطلق، و أنّ الكثير من الأخطاء مصدرها عدم التوجّه إلى هذه الحقيقه، و كلمات (عبادنا) و(جندنا) التي وردت في آيات بحثنا، و غيرها من العبارات و الكلمات المشابهه في هذا المجال في القرآن الكريم كعباره حِزْبِ اللَّهِ و الَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا و لِيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصِرُهُ و أمثالها، توضّح بسهولة شروط النصر.

نحن لا نريد أن نكون مؤمنين و لا مجاهدين و لا جنودا مخلصين، و نريد أن نتصر على أعداء الحقّ و العداله و نحن على هذه الحاله! نحن نريد أن نتقدّم إلى الإمام في مسيرنا إلى الله و لكن بأفكار شيطانيه، ثم نعجب من انتصار الأعداء علينا، فهل و فينا نحن بوعدنا حتّى نطلب من الله سبحانه و تعالى الوفاء بوعوده.

في معركة احد و وعد الرسول الأ-كرم صلّى الله عليه و آله و سلّم المسلمين بالنصر، و قد انتصروا فعلا في المرحله الاولى من المعركه، إلّا- أنّ مخالفه البعض لأوامر الرسول و تركهم لمواقعهم لهثا وراء الغنائم، و سعى البعض الآخر لبثّ الفرقه و النفاق في صفوف المقاتلين، أدّى بهم إلى الفشل في الحفاظ على النصر الذي حقّقه في المرحله الاولى، و هذا ما أدّى إلى خسرانهم المعركه في نهايه الأمر.

و بعد انتهاء المعركه جاءت مجموعه إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، و خاطبته بلهجه خاصه: ماذا عن الوعد بالنصر و الغلبه، فأجابهم القرآن الكريم بصوره لطيفه يمكنها أن تكون شاهدا لحديثنا، و هي قوله تعالى في سوره آل عمران الآيه (١٥٢): وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

ص: ٤٢٨



عبارات (فشلتهم) و(تنازعتهم) و(عصيتهم) التي وردت في الآيه المذكوره أعلاه، وضحّت بصوره جيّده أنّ المسلمين في يوم احد تخلّوا عن شروط النصر الإلهي، لذا فشلوا في الوصول إلى أهدافهم.

نعم، فالباري عزّ وجلّ لم يعد كلّ من يدعى الإسلام و أنّه من جند الله و حزب الله بأن ينصره دائما على أعدائه. الوعد الإلهي مقطوع لمن يرجو من أعماق قلبه و روحه رضى الله سبحانه و تعالى، و يسير في النهج الذى وضعه الله، و يتحلّى بالتقوى و الأمانه.

و لقد تقدّم نظير لهذا السؤال فيما يخصّ (الدعاء) و(الوعد الإلهي بالاستجابه) و تطرّقنا للإجابة عليه فيما مضى (1).

و لمواساه الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و للتأكيد على أنّ النصر النهائى سيكون حليفهم، و فى نفس الوقت لتهديد المشركين، جاءت الآيه التاليه لتقول:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ

نعم، إنّ تهديد مفعم بالمعاني و رهيب فى نفس الوقت، و يمكن أن يكون مصدر اطمئنان للمؤمنين فى أنّ النصر النهائى سيكون حليفهم، خاصّه أنّ عبارته حَتَّىٰ حِينٍ جاءت بصوره غامضه.

فإلى أى مدّه تشير هذه العبارة؟ إلى زمان الهجره؟ أم إلى حين معركة بدر؟ أم حَتَّىٰ حَتَّىٰ فتوح مكّه؟ أم أنّها تشير إلى الزمان الذى تتوفّر فيه شروط الانتفاضه النهائيه و الواسعه للمسلمين ضدّ الطغاه و المتجبرين؟ بالضبط لا أحد يدري..

و آيات اخرى وردت فى القرآن الكريم تحمل نفس المعنى، كالأيه (٨١) من سوره النساء التى تقول: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَىٰ اللَّهِ، و الآيه (٩١) من سوره الأنعام، قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

ص: ٤٢٩

و يؤكد القرآن الكريم التهديد الأول بتهديد آخر جاء في الآيه التي تلتها، إذ تقول: انظر إلى لجاجتهم و كذبهم و اعتقادهم بالخرافات، إضافة إلى حمقهم.

فإنهم سيرون جزاء أعمالهم القبيحة عن قريب وَ أَبْصَرَهُمْ فَسَوَّفَ بَبْصَرٍ رُؤُونَ و سوف ترى في القريب العاجل انتصارك و انتصار المؤمنين و انكسار و هزيمة المشركين المذله في الدنيا.

و عن تكرار أولئك الحمقى لهذا السؤال على رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم أين العذاب الإلهي الذي واعدتنا به؟ و إن كنت صادقاً، فلم هذا التأخير؟ يردّ القرآن الكريم عليهم بلهجه شديده مرافقه بالتهديد، قائلاً: أولئك الذين يستعجلون العذاب و أحياناً يتساءلون (متى هذا الوعد) و أحياناً اخرى يقولون متسائلين (متى هذا الفتح) أَ فَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ؟ فعند ما ينزل عذابنا عليهم، و نحيل صباحهم إلى ظلام حالك، فإنهم في ذلك الوقت سيفهمون كم كان صباح المنذرين سيئاً و خطيراً فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١).

استخدام عبارته (ساحه) و التي تعنى فناء البيت أو الفضاء الموجود في وسط البيت، جاء ليجسم لهم نزول العذاب في وسط حياتهم، و كيف أنّ حياتهم الطبيعيه ستتحوّل إلى حياه موحشه و مضطربه.

عبارته صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ تشير إلى أنّ العذاب الإلهي سينزل صباحاً على هؤلاء القوم اللجوجين و المتجبرين، كما نزل صباحاً على الأقسام السابقه، أو أنّها تعطى هذا المعنى، و هو أنّ كلّ الناس ينتظرون أن يبدأ صباحهم بالخير و الإحسان، إلا أنّ هؤلاء ينتظروهم صباح حالك الظلمه. أو أنّها تعنى وقت الاستيقاظ في الصباح، أي إنّهم يستيقظون في وقت لم يبق لهم فيه أي طريق للنجاه من العذاب، و أنّ كلّ شيء قد انتهى.

\*\*\*

ص: ٤٣٠

(١-١) - في الكلام حذف تقديره (فساء الصباح صباح المنذرين).

اشاره

وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَ أَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)

التفسير

اشاره

تول عنهم!

كما قلنا، فإن الآيات الأخيرة النازلة في هذه السوره جاءت لمواساه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم و المؤمنين الحقيقيين، و لتهديد الكافرين اللجوجين.

الآيتان الأوليان في بحثنا هذا، تشبهان الآيات التي وردت في البحث السابق، و تكررهما هنا إنما جاء للتأكيد، إذ تقول بلغه شديده مرفقه بالتهديد: تول عنهم و اتركهم في شأنهم لمدّه معينه وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ .

و انظر إلى لجاجه أولئك الكافرين و كذبهم و ممارساتهم العدائيه و نكرانهم لوجود الله، الذين سينالون جزاء أعمالهم عمّا قريب وَ أَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ .

التكرار- كما قلنا- جاء للتأكيد، و ذلك ليدرك أولئك الكافرون أنّ جزاءهم و هزيمتهم و خيبتهم أمر قطعى لا بد منه و سيكون ذلك عمّا قريب، و سيبتلون

بالتناجج المريره لأعمالهم، كما أن انتصار المؤمنين هو أمر قطعى و مسلم به أيضا.

أو أنه هددهم فى المره الاولى بالعذاب الدينوى، و فى المره الثانيه بجزاء و عقاب الله لهم يوم القيامه.

ثم تختتم السوره بثلاثه آيات ذات عمق فى المعنى بشأن (الله) و (الرسل) و (العالمين)، إذ تنزه الله رب العزه و القدره من الأوصاف التى يصفه بها المشركون و الجاهلون سُبحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ .

فأحيانا يصفون الملائكه بأنها بنات الله، و أحيانا يقولون بوجود نسبه بين الله و الجن، و أحيانا اخرى يجعلون مصنوعات لا قيمه لها من الحجر و الخشب بمرتبته البارى عزّ و جلّ.

و مجيء كلمه (العزه) - أى ذو القدره المطلقه و الذى لا- يمكن التغلب عليه - هنا تعطى معنى بطلان و عدم فائده كلّ تلك المعبودات المزيفه و الخرافيه التى يعبدها المشركون.

فآيات سوره الصافات تحدّثت أحيانا عن تسييح و تنزيه عباد الله الْمُخْلِصِينَ و أحيانا عن تسييح الملائكه، و هنا تتحدّث عن تسييح و تنزيه البارى عزّ و جلّ لذاته المقدّسه.

و فى الآيه الثانيه شمل البارى عزّ و جلّ كافه أنبيائه بلطفه غير المحدود، و قال:

وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

السلام الذى يوضّح السلامه و العافيه من كلّ أنواع العذاب و العقاب فى يوم القيامه، السلام الذى هو صمام الأمان أمام الهزائم و دليل للانتصار على الأعداء.

و ممّا يذكر أن الله سبحانه و تعالى أرسل فى آيات هذه السوره سلاما إلى كثير من أنبيائه و بصوره منفصله، قال تعالى فى الآيه (٧٩) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ، و فى الآيه (١٠٩) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، و فى الآيه سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ، و فى الآيه (١٣٠) سَلَامٌ عَلَى إيل ياسين .

و قد جمعها هنا فى سلام واحد موجه لكل المرسلين، قال تعالى: وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ .

و أخيرا اختتمت السوره بآيه تحمد الله وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الآيات الثلاث الأخيره يمكن أن تكون إشاره و استعراضا مختصرا لكل القضايا و الأمور الموجوده فى هذه السوره، لأن الجزء الأكبر منها كان بشأن التوحيد و الجهاد ضدّ مختلف أنواع الشرك، فالآيه الاولى تعيد ما جاء بشأن تسييح و تنزيه الله عزّ و جلّ عن الصفات التى وصف بها من قبل المشركين، و القسم الآخر من السوره يبيّن جوانب من أوضاع سبع أنبياء كبار أشارت إليها هنا الآيه الثانيه.

و الآيه الثالثه استعرضت جزءا آخر من النعم الإلهيه، و بالخصوص أنواع النعم الموجوده فى الجنّه، و انتصار جند الله على جنود الكفر، و الحمد و الثناء الذى جاء فى الآيه الأخيره، فيه إشاره لكل تلك الأمور.

المفسّرون الآخرون ذكروا تحليلات اخرى بخصوص الآيات الثلاث الوارده فى آخر هذه السوره، و قالوا: إنّ من أهمّ واجبات الإنسان العاقل معرفه أحوال ثلاثه:

الاولى: معرفه الله تعالى بالمقدار الممكن للبشر، و آخر ما يستطيعه الإنسان فى هذا المجال هو ثلاثه امور: تنزيهه و تقديسه عن كلّ ما لا يليق بصفات الالوهيه، و التى وضّحتها لفظه (سبحان).

و وصفه بكلّ ما يليق بصفات الالوهيه و الكمال، و كلمه (ربّ) إشاره دالّه على حكمته و رحمته و مالكيته لكلّ الأشياء و تربيته للموجودات.

و كونه منزّها فى الالوهيه عن الشريك و النظير، و التى جاءت فى عبارته عَمَّا يَصِفُونَ .

و القضيه الثانيه المهمّه فى حياه الإنسان هى تكميل الإنسان لنواقصه، و الذى

لا يمكن أن يتم دون وجود الأنبياء عليهم السلام، وجملة سلام على المرسلين إشاره إلى هذه القضية.

و القضية الثالثة المهمه في حياه الإنسان هي أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت؟ و الانتباه إلى نعم رب العالمين و مقام غناه و رحمته و لطفه يعطى للإنسان نوعاً من الاطمئنان و الحمد لله رب العالمين (١).

\*\*\*

## ملاحظه

## اشاره

### التفكر في نهايه كل عمل:

جاء في روايات عديده عن أئمه أهل البيت عليهم السلام «من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى (من الأجر يوم القيامة) فليكن آخر كلامه في مجلسه: سبحان ربك رب العزه عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين» (٢).

نعم، فلنختتم مجالسنا بتتزيه ذات الله، و إرسال السلام و التحيات إلى رسله، و حمد و شكر الله على نعمه، كي تمحي الأعمال غير الصالحه أو الكلمات المحرّمه التي جاءت في ذلك المجلس.

و

قد جاء في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، أنّ أحد علماء الشام حضر عند الإمام الباقر عليه السلام، فقال: جئت أسألك عن مسأله لم أجد أحدا يفسرها لي، و قد سألت ثلاثه أصناف من الناس، فقال كل صنف غير ما قال الآخر.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «و ما ذلك؟» فقال: أسألك ما أول ما خلق الله عزّ و جلّ من خلقه؟ فإنّ بعض من سأله قال:

ص: ٤٣٤

١- ١) - تفسير الفخر الرازي، المجلد ٢٦، الصفحه ١٧٣.

٢- ٢) - مجمع البيان، ذيل آيات البحث، و اصول الكافي، و من لا يحضره الفقيه نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحه ٤٤٠.

القدره. وقال بعضهم: العلم. وقال بعضهم: الروح؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «ما قالوا شيئا، أخبرك أنّ الله علا ذكره كان ولا شيء غيره، و كان عزيزا ولا عزّ، لأنّه كان قبل عزّه، وذلك قوله تعالى: **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١)**» و كان خالقا ولا مخلوق» و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة (و هو إشارة إلى أنّ ما قاله لك أولئك نفر لا يخلو من شرك و هو مشمول لهذه الآية، فإنّ الله عزّ و جلّ كان قادرا و عالما و عزيزا منذ الأزل).

نهاية سورة الصافات \*\*\*

ص: ٤٣٥

---

(١ - ١) - تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٤٤٠.





سوره ص

اشاره

مکيه و عدد آياتها ثمان و ثمانون آيه

ص: ۴۳۷



## محتويات السوره:

سوره(ص) يمكن اعتبارها مكمله لسوره الصافات، فمجمل مواضيعها يشابه كثيرا ما ورد في سوره الصافات، و لكون السوره مكئيه التزول فإن خصائصها كخصائص بقيه السور المكئيه التي تبحث في مجال البدء و المعاد و رساله الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، كما أنها تحتوى على مواضيع حساسه اخرى، و في المجموع بمثابة الدواء الشافى لكل الباحثين عن طريق الحق.

و يمكن تلخيص محتويات هذه الآيه في خمس أقسام:

الأول: يتحدث عن مسأله التوحيد و الجهاد ضد الشرك و المشركين، و مهمه نبوه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و عناد و لجاجه الأعداء تجاه الأمرين المذكورين أعلاه.

الثانى: يعكس جوانب من تأريخ تسع من أنبياء الله و من بينهم (داود) و (سليمان) و (أيوب) حيث تتحدث عنهم السوره أكثر من غيرهم، و يعكس -أيضا- المشكالات التي عانوا منها في حياتهم و خلال دعوتهم الناس إلى الله. و ذلك لكى تكون درسا مفيدا يتعظ منه المؤمنون الأوائل الذين كانوا في ذاك الوقت يرزحون تحت أشد الضغوط من قبل المشركين.

الثالث: يتطرق إلى مصير الكفره الطغاه يوم القيامة و مجادله بعضهم البعض في جهنم، و يبين للمشركين و للذين لا يؤمنون بالله إلى أين ستؤدى بهم أعمالهم.

الرابع: يتناول مسأله خلق الإنسان و علو مقامه و سجود الملائكه له، و يكشف

عن الفاصل الكبير الموجود بين سمو الإنسان و انحطاطه، كى يفهم هؤلاء المعاندون قيمه وجودهم، و أن يعيدوا النظر فى نظمهم المنحرفه ليخرجوا من زمرة الشياطين.

القسم الخامس و الأخير: يتوعّد الأعداء المغرورين بالعذاب، و يواسى رسول اللّٰه صلّى الله عليه و آله و سلّم، و يبيّن هذه الحقيقه، و هى أنّ النّبى لا يريد جزاء من أحد مقابل دعوته، و لا يريد الشقاء و الأذى لأحد.

### فضيله تلاوه سورہ (ص)

ورد فى أحد الروايات عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم «من قرأ سورہ (ص) اعطى من الأجر بوزن كلّ جبل سخره الله لداود حسنات عصمه الله أن يصرّ على ذنب صغيراً أو كبيراً» (١).

كما

ورد فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام «من قرأ سورہ (ص) فى ليله الجمعه اعطى من خير الدنيا و الآخره ما لم يعط أحد من الناس إلاّ نبي مرسل أو ملك مقرب، و أدخله الله الجنّه و كلّ من أحبّ من أهل بيته حتّى خادمه الذى يخدمه» (٢) فإذا وضعنا محتوى هذه السورہ إلى جانب فضلها و ثوابها، يتّضح لنا الارتباط و العلاقه الموجوده بين أجرها و ثوابها مع محتواها، و نؤكد مرّه اخرى على هذه الحقيقه، و هى أنّ المراد من التلاوه هنا ليست تلك التلاوه الجافّه و الخاليه من الروح، و إنّما التلاوه التى ترافق التفكير العميق و التصميم الجدى، الذين يدفعان الإنسان إلى العمل بما جاء فى هذه السورہ المباركه.

\*\*\*

ص: ٤٤٠

١- ١) - مجمع البيان بدء سورہ (ص)، المجلد ٨، الصفحه ٤٦٣.

٢- ٢) - نفس المصدر.

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِهِ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَ  
لَاتَ حِينٍ مَنَاصٍ (٣)

## أسباب النزول

وردت في كتب التفسير و الحديث أسباب متشابهه لنزول الآيات الاولى من هذه السوره، و سنستعرض أحد هذه الأسباب لكونه مفضلاً و جامعاً أكثر من الأسباب الاخرى،

ففي حديث نقله المرحوم العلامة الكليني عن الإمام الباقر عليه السلام جاء فيه: «أقبل أبو جهل بن هشام و معه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك قد آذانا و آذى آلتهنا، فادعه و مره فليكف عن آلتهنا و نكف عن إلهه.

فبعث أبو طالب إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فدعاه، فلما دخل النبي لم ير في البيت إلا مشركاً فقال: (السلام على من أتبع الهدى) ثم جلس فخبّره أبو طالب بما جاؤوا به، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «أو هل لهم في كلمه خير لهم من هذا يسودون بها العرب و يطأون أعناقهم»؟

فقال أبو جهل: نعم و ما هذه الكلمه؟ قال: «تقولون: لا إله إلا الله».

و ما إن سمعوا هذه الكلمات حتى وضعوا أصابعهم في آذانهم و خرجوا و هم يقولون: ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق، فأنزل الله في قولهم:

ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ

-إلى قوله- إِلَّا اخْتِلاقٌ (١).

## التفسير

### إشاره

### انقضاء مهله النجاه:

مرّه اخرى تمرّ علينا سوره تبدأ آياتها الاولى بحروف مقطّعه و هو حرف ص و يطرح نفس السؤال السابق بشأن تفسير هذه الحروف المقطّعه: هل هذه إشاره إلى عظمه القرآن المجيد الذي يتألف من مثل هذه الحروف المتيسّره في متناول الجميع كالحروف الهجائيه، و الذي غيّرت محتوياته مجرى حياه الإنسانيه في هذا العالم...

و أنّ قدره الله العظيمه هي التي أوجدت من هذه الحروف البسيطة تركيبا رائعا عظيما هو القرآن المجيد كلام الله، أم أنّها إشاره إلى رموز و أسرار بين الله سبحانه و تعالى و أنبيائه..

أم أنّها تعني أمورا أخرى؟ مجموعه من المفسّرين اعتبرت هنا حرف (ص) رمزا يشير إلى أحد أسماء الله، و ذلك لأنّ الكثير من أسمائه تبدأ بحرف الصاد مثل (صادق)، (صمد)، (صانع) أو أنّه إشاره إلى (صدق الله) التي اختصرت بحرف واحد.

و لا بدّ أنكم طالعتم تفسير هذه الحروف المقطّعه بصوره مفصّله في تفسير بدايات آيات سور (البقره) و (آل عمران) و (الأعراف).

ص: ٤٤٢

ثم يقسم الله تعالى بالقرآن ذى الذكر و الذى هو حقاً معجزه إلهيه و القرآن ذى الذكر (١).

فالقرآن ذكر و يشتمل على الذكر، و الذكر يعنى التذكير و صقل القلوب من صدأ الغفله، تذكّر الله، و تذكّر نعمه، و تذكّر محكمته الكبرى يوم القيامة، و تذكّر هدف خلق الإنسان.

نعم، فالنسيان و الغفله هما من أهمّ عوامل تعاسه الإنسان، و القرآن الكريم خير دواء لعالجهما.

فالقرآن الكريم يقول بشأن المنافقين فى الآيه (٦٧) من سورة التوبه: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ أَيِ إِنَّهُمْ نَسُوا اللَّهَ، و الله فى المقابل نسيهم و قطع رحمته عنهم.

و نقرأ فى نفس هذه السوره الآيه (٢٦) عن الضالّين، قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

نعم، فالنسيان هو الابتلاء الكبير الذى ابتلى به الضالّون و المذنبون، حتّى أنهم نسوا أنفسهم و قيمه وجودها، كما قال القرآن الكريم، كلام الله الناطق و لا تكونوا كالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . (٢)

فالقرآن خير وسيله لتمزيق حجب النسيان، و هو نور لإزالة الظلمات و الغفله و النسيان، حيث إنّ آياته تذكّر الإنسان بالله و بالمعاد، و تعرّف الإنسان قيمه وجوده فى هذه الحياه.

الآيه التاليه تقول لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: إذا رأيت هؤلاء لا يستسلمون لآيات الله الواضحه و لقرآنه المجيد، فاعلم أنّ سبب هذا لا يعود إلى أنّ هناك ستارا يغطّى كلام الحقّ، و إنّما هم مبتلون بالتكبر و الغرور اللذين يمنعان الكافرين من قبول

ص: ٤٤٣

١-١) -جمله و القرآن ذى الذكر جمله قسم جوابها محذوف، و تقديرها(و القرآن ذى الذكر إنّك صادق و إنّ هذا الكلام معجز).

٢-٢) -الحشر، ١٩.

الحق، كما أن عنادهم و عصيانهم -هما أيضا- مانع يحول دون تقبلهم لدعوتك بل الذين كفروا في عزه و شقاق .

«العزّه» كما قال الراغب في مفرداته، هي حاله تحوّل دون هزيمه الإنسان (حاله الذى لا يقهر) و هي مشتقّه من (عزاز) و تعنى الأرض الصلبه المتينه التى لا ينفذ الماء خلالها، و تعطى معنيين، فأحيانا تعنى (العزّه الممدوحه) المحترمه، كما فى وصف ذات الله الطاهر بالعزيز، و أحيانا تعنى (العزّه بالإثم) أى الوقوف بوجه الحقّ و التكبر عن قبول الواقع، و هذه العزّه مدله فى حقيقه الأمر.

«شقاق» مشتقّه من (شق)، و معناه واضح، ثم استعمل فى معنى المخالفه، لأنّ الاختلاف يسبب فى أن تقف كلّ مجموعه فى شق، أى فى جانب.

القرآن هنا يعدّ مسأله العجرفه و التكبر و الغرور و طى طريق الانفصال و التفرقه من أسباب تعاسه الكافرين، نعم هذه الصفات القبيحه و السيئه تعمى عين الإنسان و تصم آذانه، و تفقده إحساسه، و كم هو مؤلم أن يكون للإنسان عيون تبصر و آذان تسمع و لكنّه يبدو كالأعمى و الأصم.

فآيّه (٢٠٦) من سوره البقره تقول: **وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبْهُ جَهَنَّمَ وَ لَبِئْسَ الْمُهَادُّ** أى عند ما يقال للمنافق: اتق الله، تأخذه العصبية و الغرور و اللجاجه، و تؤدّى به إلى التوعّل فى الذنب و السقوط فى نار جهنّم و إنّها لبئس المكان.

و لإيقاظ أولئك المغرورين المغفلين، يرجع بهم القرآن الكريم إلى ماضى تأريخ البشر، ليريهم مصير الأمم المغروره و المتكبره، كى يتعظوا و يأخذوا العبر منها و كم أهلكتنا من قبليهم من قرون .

أى إنّ امما كثيره كانت قبلهم قد أهلكتها (بسبب تكذيبها الأنبياء، و إنكارها آيات الله، و ظلمها و ارتكابها للذنوب) و كانت تستغيث بصوت عال عند نزول العذاب عليها، و لكن ما الفائدة فقد تأخر الوقت! و لم يبق أمامهم متسع من الوقت



لإنقاذ أنفسهم فنادوا ولات حين مناص .

فعند ما كان أنبياء الله في السابق يعظونهم ويحذرونهم عواقب أعمالهم القبيحة، لم يكتفوا بصم آذانهم و عدم الاستماع، وإنما كانوا يستهزئون و يسخرون من الأنبياء و يعدّون المؤمنين و يقتلونهم، فبذلك أضاعوا الفرصه و دمّروا كلّ الجسور التي خلفهم، فنزل العذاب الإلهي ليهلكهم جميعاً، العذاب الذي رافقه انغلاق باب التوبه و العوده، وفور نزوله تبدأ أصوات الاستغاثة تتعالى، و التي لا تغنى عنهم يومئذ شيئاً.

و كلمه (لات) جاءت للنفي، و هي في الأصل (لا) نافية أضيفت إليها (تاء) التانيث، لتعطي معنى التأكيد (١).

«مناص» من مادّه (نوص) و تعنى الملاذ و الملجأ، و يقال: إنّ العرب عند ما كانت تقع لهم حادثه صعبه و رهيبه، و خاصّه في الحروب كانوا يكرّرون هذه الكلمه و يقولون (مناص... مناص) أى: أين الملاذ؟ أين الملاذ؟ و لأنّ هذا المفهوم يتناسب مع معنى الفرار، و أحيانا تأتي بمعنى إلى أين الفرار (٢).

على أيّه حال، فإنّ أولئك المغرورين المغفلين لم يستفيدوا من الفرصه التي كانت بأيديهم للجوء إلى أحضان الرحمه و اللطف الإلهي، و عند ما أضاعوا الفرصه و نزل عليهم العذاب الإلهي، أخذوا ينادون و يستغيثون و يبذلون الجهد للعثور على طريق نجاه لهم، و لكن كلّ هذه الجهود تبوء بالفشل، حيث أنّهم مهما بذلوا من جهد و مهما استغاثوا فإنّهم لا يصلون إلى مقصدهم.

هذه كانت سنّه الله مع كلّ الأمم السابقه، و ستبقى كذلك، لأنّ سنّه الله لا تتغيّر

ص: ٤٤٥

١ - ١) - البعض قال: إنّ (التاء) زائده و اعتبرها للمبالغه كما في كلمه (علامه) كما اعتبر البعض أنّ (لا) هنا (نافيه للجنس) و البعض شبهها ب (ليس) و على أيّه حال إضافه (التاء) إلى (لا) يوجد أحكاماً خاصّه، منها من المؤكّد أنّها تستخدم للزمان، و الاخرى أنّ اسمها أو خبرها محذوف دائماً، و تذكر في الكلام بإحدى الحالتين المذكورتين آنفاً، و طبقاً لهذا فإنّ عبارته (ولات حين مناص) تقديرها (ولات الحين حين مناص).

٢ - ٢) - مفردات الراغب، تفسير فخر الرازي، تفسير روح المعاني، كتاب مجمع البحرين مادّه (نوص).

ولا تتبدل.

و من المؤسف أنّ الناس-على الأ-غلب-غير مستعدّين للتعاضد من تجارب الآخرين، و كأنّهم راغبون في تكرار تلك التجارب المرّة، التجارب التي تقع أحيانا مرّة واحده في طول عمر الإنسان، و لا تتكرّر ثانيه، و بصوره أوضح: إنّها الاولى و الأخيره.

\*\*\*

ص: ٤٤٤

إشارة

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ (٧)

أسباب النزول

سبب نزول هذه الآيات يشبه سبب نزول الآيات السابقة، وغير مستبعد أن يكون هناك سبب واحد لنزول كل تلك الآيات.

ولكن بما أن سبب النزول المذكور لهذه الآيات يحوى مطالب جديد، نذكره كما ورد فى تفسير على بن إبراهيم، حيث جاء فيه: بعد أن أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدعوة، اجتمعت قريش إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سفه أحلامنا، و سب آلهم، وأفسد شبابنا، وفرق جماعتنا، فإن كان الذى يحمله على ذلك العدم، جمعنا له حالا حتى يكون أغنى رجل فى قريش، ونملكه علينا.

فأخبر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأجابه رسول الله قائلا: «لو وضعوا الشمس

فى يمينى و القمر فى يسارى ما تركته، و لكن كلمه يعطونى يملكون بها العرب و تدين بها العجم و يكونون ملوكا فى الجنه».

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقالوا: نعم و عشره كلمات بدلا من واحده، أى كلمه تقصد أنت؟

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «تشهدون أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله».

تضايقوا كثيرا عند سماعهم هذا الجواب، و قالوا: ندع ثلاث مائه و ستين إلهها و نعبد إلهها واحدا؟ إنه لأمر عجيب؟ نعبد إلهها واحدا لا يمكن مشاهدته و رؤيته.

و هنا نزلت هذه الآيات المباركه بل و عجبوا أن جاءهم منذر منهم و قال الكافرون هذا ساحر كذاب ... إن هذا إلا اختلاق (١).

هذا المعنى

ورد أيضا فى تفسير مجمع البيان مع اختلاف بسيط، إذ ذكر صاحب تفسير مجمع البيان فى آخر الروايه أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم استعبر بعد أن سمع جواب زعماء قريش و قال: «يا عمّ و الله لو وضعت الشمس فى يمينى و القمر فى شمالى ما تركت هذا القول حتى أنفذه أو اقتل دونه» فقال له أبو طالب: امض لأمرك، فو الله لا أخذك أبدا (٢).

\*\*\*

التفسير

إشارة

**هل يمكن قبول إله واحد بدلا من كل تلك الآلهة؟**

المغرورون و المتكبرون لا يعترفون بأمر لا يلائم أفكارهم المحدوده و الناقصه، إذ يعتبرون أفكارهم المحدوده و الناقصه مقياسا لكل القيم. لذا فعند ما رفع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لواء التوحيد فى مكه، و أعلن الانتفاضه ضد الأصنام الكبيره

ص: ٤٤٨

١-١) -تفسير على بن إبراهيم، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحه ٤٤٢ الحديث ٧.

٢-٢) -مجمع البيان، المجلد ٨، الصفحه ٤٦٥.

و الصغيره فى الكعبه، و البالغ عددها (٣٦٠) صنما، تعجبوا: لماذا جاءهم النذير من بينهم؟ وَ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ .

كان تعجبهم بسبب أنّ محمّدا صلّى الله عليه و آله و سلّم رجل منهم.. فلما ذا لم تنزل ملائكه من السماء بالرساله؟!.. هؤلاء تصوّروا أنّ نقطه القوّه هذه نقطه ضعف، فالذى يبعث من بين قوم، هو أدرى باحتياجات و آلام قومه، كما أنّه أعرف بمشكلاتهم و تفصيلات حياتهم، و يمكن أن يكون لهم أسوه و قدوه، إلّا أنّهم اعتبروا هذا الامتياز الكبير نقطه سلبيه فى دعوه الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و تعجبوا من أمر بعثته إليهم.

و أحيانا كانوا يجتازون مرحله التعجب إلى مرحله اتّهام رسول الله بالسحر و الكذب وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ .

و قلنا عدّه مرّات: إنّ اتّهامهم الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم بالسحر، إنّما نتج من جزاء رؤيتهم لمعجزاته التى لا تقبل الإنكار و تنفذ بصوره مدهشه إلى أفكار المجتمع، و اتّهامه بالكذب بسبب تحدّثه بأموّر تخالف سنّتهم الخرافيه و أفكارهم الجاهليه التى كانت جزءا من الأمور المسلّم بها فى ذلك المجتمع، و ادّعاء الرساله من الله.

و عند ما أظهر رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم دعوته لتوحيد الله، أخذ أحدهم ينظر للآخر و يقول له: تعالى و اسمع العجب العجاب أ جعلَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (١) .

نعم، فالغرور و التكبر إضافة إلى فساد المجتمع، تساهم جميعا فى تغيير بصيره الإنسان، و جعله متعجبا من بعض الأمور الواقعيه و الواضحه، فى حين يصرّ بشدّه على التمسك ببعض الخرافات و الأوهام الواهيه.

و كلمه (عجاب) على وزن (تراب) تعطى معنى المبالغه، و تقال لأمر عجيب مفرط فى العجب.

فالسفهاء من قريش كانوا يعتقدون أنّه كلّما ازدادت عدد آلهتهم إزداد نفوذهم

ص: ٤٤٩

١-١) -«الجعل» بمعنى التصيير، و هو- كما قيل- تصيير بحسب القول و الإعتقاد و الدعوى لا بحسب الواقع.

وقدرتهم، ولهذا السبب فإن وجود إله واحد يعدّ قليلاً من وجهه نظرهم، في حين - كما هو معلوم - أنّ الأشياء المتعدّدة من وجهه النظر الفلسفيه تكون دائماً محدوده، و الوجود اللامحدود واحد لا أكثر، ولهذا السبب فإنّ كلّ الدراسات في معرفه الله تنتهى إلى توحيده.

و بعد أن يئس طغاه قريش من توسّط أبى طالب فى الأمر و فقدوا الأمل، خرجوا من بيته، ثم انطلقوا و قال بعضهم لبعض، أو قالوا لأتباعهم: اذهبوا و تمسّوا أكثر بآلهتكم، و اصبروا على دينكم، و تحمّلوا المشاق لأجله، لأنّ هدف محمّد هو جرّ مجتمعنا إلى الفساد و الضياع و زوال النعمه الإلهيه عنّا بسبب تركنا الأصنام، و إنّه يريد أن يترأس علينا و انطلق المملأ منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يُراد .

«انطلق» مشتقّه من (انطلاق) و تعنى الذهاب بسرعه و التحرّر من عمل سابق، و هنا تشير إلى تركهم مجلس أبى طالب و علامات الضجر و الغضب باديه عليهم.

و(المملأ) إشاره إلى أشرف قريش المعروفين الذين ذهبوا إلى أبى طالب، و بعد خروجهم من بيته تحدّث بعضهم لبعض أو لأتباعهم أن لا تتركوا عباده أصنامكم و أثبتوا على عباده آلهتكم.

و جمله لشيء يُراد تعنى أنّ هناك أمرا يراد بنا. و لكونها جمله غامضه بعض الشيء، فقد ذكر المفسّرون لها تفاسير عديده، منها: أنّها إشاره إلى دعوه الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم، إذ اعتبرت قريش هذه الدعوه مؤامره ضدّها، و قالت: إنّ ظاهرها يدعو إلى الله، و باطنها يهدف إلى السيادة و الرئاسه علينا و على العرب، و ما هذه الدعوه إلّا ذريعه لتنفيذ ذلك الأمر، أى السيادة و الرئاسه، و دعت الناس إلى التمسك أكثر بعباده الأصنام، و ترك تحليل أمر هذه المؤامره إلى زعماء القوم، و هذا الأسلوب طالما لجأ إليه أئمّه الضلال لإسكات أصوات السائرين فى طريق الحقّ، إذ يطلقون على الدعوه إلى الله لفظه (مؤامره) المؤامره التى يجب أن يتولّى

رجال السياسة تحليلها بدقه لوضع الخطط و البرامج المنظمه لمواجهةها،و أن يمر بها عامه الناس مر الكرام من دون أن يعيروا لها أى اهتمام،و أن يتمسكوا أكثر بما عندهم،أى بأصنامهم.

و نظير هذا الحديث ورد فى قصه نوح،عند ما قال الملائ من قوم نوح لعائتهم <sup>□□□</sup> ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضل عليكم . (١)

و ذهب آخرون إلى أن المقصود من هذه العبارة هو:يا عبده الأصنام أثبتوا و استقيموا على آلهتكم،لأن هذا هو المطلوب منكم.

أما البعض الآخر فقد قال:المقصود هو أن محمدا يستهدفنا نحن،و أنه يريد جر مجتمعا إلى الفساد من خلال تركنا لآلهتنا،و فى نهايه الأمر سترال نعم عتيا و ينزل علينا العذاب! فيما احتمال البعض الآخر أن المراد هو أن محمدا لن يتوقف عن دعوته و أنه مصمم على نشرها بعزم راسخ،و لهذا فإن المحادثات معه عقيمه،فاذهبوا و تمسكوا أكثر بعقائدهم.

و أخيرا احتمال بعض المفسرين أن المقصود هو أن المصيبه ستحل بنا،و على أيه حال،علينا أن نتهيا لها و أن نتمسك أكثر بستتنا.

و بالطبع،لكون هذه الجملة لها مفهوم عام،فإن أغلب التفاسير يمكن أن تعطى المعنى المطلوب،رغم أن التفسير الأول يعد أنسب من بقيه التفاسير.

و على أيه حال،فإن زعماء المشركين أرادوا بهذا القول تقويه المعنويات المنهاره لأتباعهم،و الحيلوله دون تزعزع معتقداتهم أكثر،و لكن كل مساعيهم ذهبت أدراج الرياح.

و لخداع عوام الناس و إقناع أنفسهم،قال زعماء المشركين <sup>□□□</sup> ما سمعنا بهذا فى المله الآخره إن هذا إلا اختلاق .

ص: ٤٥١

فلو كان ادعاء التوحيد و ترك عباده الأصنام أمرا واقعيًا لكان آباؤنا الذين كانوا بتلك العظمه و الشخصيّة قد أدركوا ذلك، و كُنّا قد سمعنا ذلك منهم، لذا فهو مجرد حديث كاذب و ليست له سابقه.

و عباره الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ يحتمل أنّها تشير إلى جيل آبائهم باعتباره آخر جيل بالنسبه لهم، و يمكن أن تكون إشاره إلى أهل الكتاب و خاصّه (النصارى) الذين كانوا آخر الملل، و دينهم كان آخر الأديان قبل ظهور نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، أى إنّنا لم نعثر فى كتب النصارى على شىء ممّا يقوله محمّد، و ذلك لأنّ كتب النصارى كانت تقول بالتثليث، أمّا التوحيد الذى دعا إليه محمّد فإنّه أمر جديد.

و لكن يتّضح من آيات القرآن الكريم أنّ عرب الجاهليه لم يكونوا معتمدين على كتب اليهود و النصارى، و إنّما اعتمادهم الأساس كان على سنن و شرائع أجدادهم و آبائهم، و هذا دليل على صحّه التفسير الأوّل.

«اختلاق» مشتقّه من (خلق) و تعنى إبداء أمر لم تكن له سابقه، كما تطلق هذه الكلمه على الكذب، و ذلك لأنّ الكذاب غالبا ما يطرح مواضيع لا- وجود لها، و لهذا فإنّ المراد من كلمه (اختلاق) فى الآيه-مورد البحث- أنّ التوحيد الذى دعا إليه هذا النبىّ مجهول بالنسبه لنا و لآبائنا الأولين، و هذا دليل على بطلانه.

\*\*\*

ملاحظه

اشاره

**الخوف من الجديد!**

الخوف من القضايا و الأمور المستحدثه و الجديده كانت-على طول التاريخ- أحد الأسباب المهمّه التى تقف وراء إصرار الأمم الضالّه على انحرافاتهما، و عدم استسلامها لدعوات أنبياء الله، إذ أنّهم يخافون من كلّ جديد، و لهذا كانوا ينظرون لشرائع الأنبياء بنظره سيئه جدّا، و حتّى الآن هناك امم كثيره تحمل آثارا من هذا

ص: ٤٥٢



التفكير الجاهلى، فى الوقت الذى لم تكن فيه دعوه الرسل للتوحيد أمرا جديدا، و لا يمكن أن تكون حداته الشىء دليلا على بطلانه، فيجب أن نتبع المنطق، و نستسلم للحق أينما كان و ممن كان.

و الأمر العجيب أن مسألة الخوف من الأمر الجديد-مع شديد الأسف-قد طالت بعض العلماء أيضا- إذ يتخذون موقفا معارضا للنظريات العلميه الحديثه و يقولون: إن هذا الاختلاق .

و هذا الأمر شوهد بصورة خاصه فى تاريخ الكنيسه المسيحيه، إذ أنهم كانوا يتخذون مواقف سلبيه تجاه الاكتشافات العلميه لعلماء الطبيعه، و كان أحدهم «غاليلو» إذ تعرض لأشدد هجمات الكنيسه على أثر إعلانه عن أن الأرض تدور حول الشمس و حول نفسها، حيث كانوا يقولون: إن هذا الكلام بدعه.

و أكثر ما يثير العجب أن بعض العلماء الكبار، كانوا عند ما يتوصّلون إلى حقائق علميه جديده، يعمدون إلى البحث فى امهات الكتب لعلهم يعثرون على علماء سابقين يوافقونهم فى الرأى، و ذلك خوفا من تعرضهم لهجمات المعارضين و بهذا الأسلوب استطاع كثير من العلماء إبداء وجهه نظرهم و كأنها قديمه و ليست بجديده، و هذا أمر مؤلم جدا.

و مثال هذا الحديث يمكن مشاهدته فى كتاب (الأسفار) فيما ورد عن النظرية المعروفه ب(الحركه الجوهريه) لصدر المتألهين الشيرازى.

على أيه حال فإن طريقه التعامل مع القضايا الحديثه و الابتكارات الجديده أدى إلى وقوع خسائر كبيره فى المجتمع الإنسانى و فى عالم العلم و المعرفه، و على أصحاب العلاقه أن يعملوا بجهد لإصلاح هذا الأمر، و إزالة الرسوبات الجاهليه من أفكار الرأى العام.

إلا- أن هذا الحديث لا- يعنى قبول كل رأى جديد لكونه جديدا، حتى و لو كان بلا أساس، إذ يصبح حينئذ نفس التمسك  
بالجديد بلاء عظيما كعشق القديم، فالاعتدال الإسلامى يدعونا إلى عدم الإفراط أو التفريط فى العمل.

\*\*\*

ص: ٤٥٤

اشاره

أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)  
أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ لِمَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)

التفسير

اشاره

الجيش المهزوم:

الآيات السابقة تحدّثت عن المواقف السلبية التي اتخذها المعارضون لنهج التوحيد و الإسلام، و نواصل في هذه الآيات الحديث عن مواقف المشركين.

فمشركو مكّه بعد ما أحسّوا أنّ مصالحتهم اللامشروعه باتت في خطر، و إثر تزايد اشتعال نيران الحقد و الحسد في قلوبهم، و من أجل خداع الناس و إقناع أنفسهم عمدوا إلى مختلف الادّعاءات بمنطق زائف لمحاربه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، و منها سؤالهم بتعجب و إنكار أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .

ألم يجد الله شخصا آخر لينزل عليه قرآنه، غير محمّد اليتيم و الفقير-خاصّه

و أنّ فينا الكثير من الشبيهه و كبار السنّ الأثرياء المعروفون.

هذا المنطق لم يكن منحصرًا بذلك الزمان فقط، و إنّما يتعدّاه إلى كلّ عصر و زمان، و حتّى في زماننا، فإنّ تولّى شخص ما مسؤوليه مهمّه طفحت قلوب الآخرين بالغيظ و الحسد، و بدأت ألسنتهم بالثرثره و توجيه النقد و الطعن: ألم يكن هناك شخص آخر حتّى توكل هذه المهمه بالشخص الفلاني الذي هو من عائله فقيره و غير معروفه؟ نعم، فأهل الكتاب من اليهود و النصارى يشتركون بعض الشيء مع المسلمين، و لكن حبّ الدنيا من جهه، و حسدهم من جهه اخرى، تسببا في أنّ يتعدوا عن الإسلام و القرآن، و يقولوا إلى عبده الأصنام: إنّ الطريق الذي تسلكونه أفضل من الطريق الذي سلكه المؤمنون أ لم تر إلى الذين أوثوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ و الطاغوتِ و يقولون للذين كفروا هؤلاء أهديّ من الذين آمنوا سبيلاً. (١)

من البديهي أنّ إشكال التعجب و الإنكار المتوَلِّمه عن الخطأ في «تحديد القيم» إضافة إلى الحسد و حبّ الدنيا، لا يمكن أن تكون معياراً منطقيًا في القضاء، فهل أنّ شخصيّة الإنسان تحدّد باسمه أو مقدار ماله أو مقامه أو حتّى سنّه؟ و هل أنّ الرحمه الإلهيّة تقسم على أساس هذا المعيار؟ لهذا فإنّ تتمه الآيه تقول: إنّ مرض أولئك شيء آخر، إنّهم في حقيقه الأمر يشككون في أمر الوحي و أمر الله بلّ هم في شكّ من ذكرى .

ملاحظاتهم التي لا قيمه لها على شخصيّة الرسول ما هي إلاّ أعذار واهيه، و شكّهم و ترددهم في هذه المسأله ليس بسبب وجود إبهام في القرآن المجيد، و إنّما بسبب أهوائهم النفسيه و حبّ الدنيا و حسدهم.

و في نهايه الأمر فإنّ القرآن الكريم يهدّدهم بهذه الآيه بلّ لما يذوقوا عذاب أيّ إنّ هؤلاء لم يذوقوا العذاب الإلهي، و لهذا السبب جسروا على رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم

ص: ٤٥٦

و دخلوا المعركه ضدّ الوحي الإلهي بهذا المنطق الأجوف.

نعم، فهناك مجموعه من الناس لا- ينفع معها المنطق و الكلام، و لكن سوط العذاب هو الوحيد الذي يحطّ من تكبرهم و غرورهم، لذا يجب أن يعاقب أولئك بالعقاب الإلهي كي يشفوا من مرضهم.

و يضيف القرآن الكريم في الردّ عليهم: هل يمتلكون خزائن الرحمه الإلهيه كي يهبوا أمر النبوه لمن يرغبون فيه، و يمنعونها عمّن لا يرغبون فيه؟ أم عندهم خزائن رحمه ربك العزيز الوهاب .

فالله سبحانه و تعالى بمقتضى كونه (رب) هذا الكون و مالكه، و بارئ عالم الوجود و عالم الإنسانيه، ينتخب لتحمل رسالته شخصا يستطيع قياده الأممه إلى طريق التكامل و التريه. و بمقتضى كونه (العزيز) فإنه لا يقع تحت تأثير الآخرين و يسلم مقام رساله إلى أشخاص غير لائقين، فمقام النبوه عظيم، و الله سبحانه و تعالى هو صاحب القرار في منحه. و لكونه (الوهاب) فإنه ينفذ أى شىء يريد، و يمنح مقام النبوه لكل من يرى فيه القدره على تحمله.

مما يذكر أنّ كلمه (الوهاب) جاءت بصيغه المبالغه، و تعنى كثير المنح و العطايا، و هى هنا تشير إلى أنّ النبوه ليست نعمه واحده، و إنّما هى نعم متعدده، تتحد فيما بينها لتمكّن صاحب هذا المقام الرفيع من أداء مهمته، و هذه النعم تشمل العلم و التقوى و العصمه و الشجاعه و الشهامه.

و نقرأ فى الآيه (٣٢) من سوره الزخرف نظير هذا الكلام، قال تعالى: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَسْتَفِيدُونَ رَحْمَةً مِنَّا بِسَبَبِ نَزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ، فَبَلَّغْنَاكَ الْبَلَاغَ وَ بَيَّنَّا لَكَ الْبَيِّنَاتِ لَعَلَّكَ تَعْقِلُ. فهل أنّهم هم المسؤولون عن تقسيم رحمه رب العالمين؟ هذا و يمكن الاستفادة من كلمه (رحمه) هنا فى أنّ النبوه إنّما هى رحمه و لطف رب العالمين بعالم الإنسانيه، و حقّا هى كذلك، فلو لا بعث الأنبياء لخسر الناس الدنيا و الآخره، كما خسرها أولئك الذين ابتعدوا عن نهج الأنبياء.

الآية اللاحقة واصلت تناول نفس الموضوع، ولكن من جانب آخر، حيث قالت: **أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ** .

هذا الكلام في حقيقته يعدّ مكملًا للبحث السابق، إذ جاء في الآية السابقة: إنكم لا تمتلكون خزائن الرحمة الإلهية، كي تمنحوها لمن تنسجم أهواؤه مع أهوائكم، و الآن تقول الآية التالية لها: بعد أن تبين أنّ هذه الخزائن ليست بيدكم، و إنّما هي تحت تصرف الباري عزّ و جلّ، إذن فليس أمامكم غير طريق واحد، و هو أن ترتقوا إلى السماوات لتمنعوا الوحي أن ينزل على رسول الله و إنكم تعرفون أنّ تحقيق هذا الأمر شيء محال، و أنتم عاجزون عن تنفيذه.

و على هذا، فلا «المقتضى» تحت اختياركم، و لا قدره على إيجاد «المانع»، فما ذا يمكنكم فعله في هذا الحال؟ إذا، موتوا بغیظكم و حسدكم، و افعلوا ما شئتم..

و بهذا الشكل فإنّ الآيتين لا تكرران موضوعا واحدا كما توهمه مجموعه من المفسرين، بل إنّ كلّ واحده منهما تتناول جانبا من جوانب الموضوع.

الآية الأخيرة في بحثنا جاءت بمثابة تحقير لأولئك المغرورين السفهاء، قال تعالى: **جُنُودٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١) فهؤلاء جنود قلائل مهزومين..**

«هنالك» إشاره للبعيد، و بسبب وجودها في الآية، فقد اعتبر بعض المفسرين أنّها إشاره إلى هزيمة المشركين في معركة بدر، التي دارت رحاها في منطقته بعيدة بعض الشيء عن مكّة المكرمه.

و استخدام كلمه (الأحزاب) هنا إشاره حسب الظاهر إلى كلّ المجموعات التي وقفت ضدّ رسل الله، و الذين أبادهم الباري عزّ و جلّ، و مجتمع مكّة المشرك هو مجموعه صغيره من تلك المجموعات، و الذي سيبتلى بما ابتلوا به (الشاهد على

ص: ٤٥٨

١ - ١) - (ما) تعدّد زائده في هذه العبارة، إنّما جاءت للتحقير و التقليل، و (جند) خبر لمبتدأ محذوف، و (مهزوم) خبر ثان و العبارة في الأصل هي (هم جند ما مهزوم من الأحزاب) و البعض يعتقد بعدم وجود محذوف في الجملة و (جند) مبتدأ و (مهزوم) خبر، و لكن الرأي الأول أنسب.

هذا الحديث هو ما سيرد في الآيات القادمة التي تتطرق لهذه المسأله).

ولا ننسى أنّ هذه السوره من السور المكيه، و نزلت في وقت كان فيه عدد المسلمين قليلا- جدا، بحيث كان من اليسير على المشركين أن يبيدوهم بسهولة، قال تعالى: **تَخَافُونَ أَنَّ يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ** . (١)

و في ذلك اليوم لم تكن هنالك أيه دلائل توضح إمكانيه انتصار المسلمين، حيث لم تكن المعارك قد وقعت، و لا الانتصارات في بدر و الأحزاب و حنين قد تحققت.

و لكن القرآن قال بحزم إنّ هؤلاء الأعداء-الذين هم مجموعته صغيره- سيهزمون في نهايه المطاف.

و اليوم يبشّر القرآن الكريم مسلمي العالم المحاصرين من كلّ الجهات من قبل القوى المعتديه و الظالمه بنفس البشائر التي بشر بها المسلمين قبل (١٤٠٠) عام، في أنّ الله سبحانه و تعالى سينجز وعده في هزيمة جند الأحزاب، إن تمسك مسلمو اليوم بعهودهم تجاه الله كما تمسك بها المسلمون الأوائل.

\*\*\*

ص: ٤٥٩

١-١) سوره الأنفال، ٢٦.

اشاره

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْمَأْيَكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنَّ كُلَّ إِلَّا  
كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَ مَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فُوقِ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ  
(١٦)

التفسير

اشاره

تكفيهم صيحه سماويه واحده:

تتمه للآيه الآنفه الذكر، التي بشرت بهزيمة المشركين مستقبلا، و وصفتهم بأنهم مجموعه صغيره من الأحزاب، تناولت آيات بحثنا  
الحالي بعض الأحزاب التي كذبت رسلها، و بينت المصير الأليم الذي كان بانتظارها.

إذ تقول، إن أقوام نوح و عاد و فرعون ذى الأوتاد كانت قد كذبت قبلهم بآيات الله و رسله كذبت قبلهم قوم نوح و عاد و  
فرعون ذى الأوتاد .

كذلك أقوام ثمود و لوط و أصحاب الأيكة- أى قوم شعيب- كانت هى الاخرى



قد كذبت رسلهم وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١).

نعم، هذه هي سته مجاميع من أحزاب الجهل و عباده الأصنام، التي عملت ضدّ أنبياء الله، و رفضت قبول ما جاؤوا به من عند الله.

فقوم نوح واجهوا هذا النبي العظيم.

و قوم عاد واجهوا نبي الله «هود».

و فرعون وقف ضدّ «موسى و هارون».

و قوم ثمود وقفوا بوجه «صالح».

و قوم لوط وقفوا بوجه نبي الله «لوط».

و أصحاب الأيكة واجهوا نبي الله «لوط» ٢.

و أصحاب الأيكة واجهوا نبي الله «شعيب».

إذ كذبوا و آذوا أنبياء الله و المؤمنين و بدلوا في ذلك قصارى جهودهم، و لكن في نهايه الأمر نزل عليهم العذاب الإلهي و جعلهم كعصف مأكول.

فقوم نوح أبيدوا بالطوفان و سيول الأمطار.

و قوم عاد أبيدوا بالأعاصير الشديده.

و فرعون و أتباعه اغرقوا في نهر النيل.

و قوم ثمود اهلكوا بالصيحة السماويه.

و قوم لوط بالزلزله الرهيبه المقترنه بأمطار الحجاره السماويه.

و قوم شعيب ابيدوا بالصاعقه المهلكه التي نزلت عليهم من السحب الكثيفه التي غطت سماء المنطقه، و بهذا الشكل فإنّ (الماء) و (الهواء) و (التراب) و (النار) التي تشكّل أسس حياه الإنسان، كانت السبب في موت و إباده تلك الأقوام الطائشه و العاصيه، و جعلهم في طي النسيان، حيث لم يبق لهم أى أثر. فعلى مشركى مكّه

ص: ٤٤١

الأحزاب التي وردت في الآيتين السابقتين اللتين اعتبرتتا مشركي مكّه مجموعه صغيره من تلك المجموعات.

أن يدركوا بأنهم لا يعدّون سوى مجموعه صغيره بالنسبه إلى تلك الأقسام، فلم لا يصحون من غفلتهم.

وصف (فرعون) ب(ذى الأوتاد) أى (صاحب الأوتاد القويّ) فى الآيات المذكوره أعلاه، و فى الآية (١٠) من سوره الفجر، كناية عن قوّه حكم فرعون و الفراعنه و ثباته، و تستعمل هذه الكنايه بكثره، فيقال: الشخص الفلانى أوتاده ثابته، أو إنّ أوتاد هذا العمل ثابته، أو إنّها مثبتة بأربعة أوتاد، و ذلك لأنّ الأوتاد دائما تستخدم لتثبيت أركان الخيمه.

و البعض اعتبرها إشاره إلى كثره جيوش فرعون السائره فى الأرض و كثره أوتاد خيامهم.

و البعض الآخر قال: إنّها إشاره إلى التعذيب الوحشى الذى كان الفراعنه يعدّون به معارضيههم، إذ كانوا يربطون الأشخاص بأربعة أوتاد على الأرض أو على الخشب أو على الحائط، و كانوا يثبتون و تدين فى الرجلين، و و تدين آخرين فى اليدين و يتركون الشخص يتعذب حتّى يموت.

و أخيرا، احتمال البعض أنّ الأوتاد تعنى الأهرامات الموجوده فى أرض مصر، و التى تقوم فى الأرض كالأوتاد، و لأنّ الفراعنه هم الذين بنوا الأهرامات، فإنّ هذا الوصف ينحصر بهم فقط.

على أيه حال فإنّه لا يوجد أى اختلاف بين تلك الاحتمالات، و من الممكن جمعها لتعطى مفهوم هذه الكلمه.

أمّا (الأيكه) فإنّها تعنى الشجره، و (أصحاب الأيكه) هم قوم نبي الله «شعيب» الذين كانوا يعيشون فى منطقه خضراء بين الحجاز و الشام، و قد تمّ التطرّق إليها بصوره موسّعه فى تفسير الآية (٧٨) فى سوره الحجرات.

نعم، فكلّ قوم من هذه الأقسام كذب بما جاء به رسل الله، و أنزل العذاب الإلهى

بِحَقِّهِ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ (١).

والتاريخ بين كيف أن كل قوم من تلك الأقوام ابيد بشكل من أشكال العذاب، و كيف أن مدنهم تحوّلت إلى خرائب و أطلال خلال لحظات، و أصبح ساكنوها أجساد بلا أرواح!! فهل يتوقع مشركو مكّه أن يكون مصيرهم أفضل من مصير أولئك من جرّاء الأعمال العدائيه التي يقومون بها؟ في حين أن أعمالهم هي نفس أعمال أولئك، و سنّه الله هي نفس تلك السنّه؟ لذا فإنّ الآيه التاليه تخاطبهم بلغه التهديد الحازمه و القاطعه: ما ينتظر هؤلاء من جرّاء أعمالهم إلا صيحه سماويه واحده تقضى عليهم و تهلكهم و ما لهم من رجوع، و ما ينظر هؤلاء إلا صيحه واحده ما لها من فواقٍ .

يمكن أن تكون هذه الصيحه مماثله للصحاح السابقه التي نزلت على الأقوام الماضيه، كأن تكون صاعقه رهيبه أو زلزالا عنيفا يدمر حياتهم و ينهيها.

و قد تكون إشاره إلى صيحه يوم القيامه، التي عبّر عنها القرآن الكريم ب(النفخه الاولى في الصور).

اعترض بعض المفسّرين على التفسير الأوّل، و اعتبروه مخالفا لما جاء في الآيه (٣٣) من سوره الأنفال التي تقول: و ما كان الله ليعدّ بهم و أنت فيهم .

أمّا بالنظر إلى أنّ المشركين كانوا لا يعتقدون برسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و لا يؤمنون برسالته، بالإضافة إلى كون أعمالهم تشابه أعمال الأقوام السابقه التي أهلكت بالصحاح السماويه، لذا فعليهم أن يتوقعوا مثل ذلك المصير و في أيّ لحظه، لأنّ الآيه تتحدّث عن (الانتظار).

كما اعترض آخرون على التفسير الثاني بأنّ مشركي مكّه لن يبقوا أحياء حتّى

ص: ٤٦٣

١ - ١ - عباره (فحقّ عقاب) في الأصل (فحقّ عقابي)، و قد حذفت الياء منها، طبقا للمعمول به، و أبقيت الكسره لتدلّ عليها. (حقّ) فعل و (عقاب) فاعل، يعني أنّ عقابي و جب عليهم و سيتحقّق.

آخر الزمان كى تشملهم الصيحه.

و لكن هذا الاعتراض غير وارد، لنفس السبب الذى ذكرناه من قبل، و هو أنه لا- أحد من الناس يعلم لحظه نهايه العالم و قيام الساعه، و لذا فعلى المشركين أن يترقبوا لحظه بلحظه تلك الصيحه (١).

على أيه حال، فكأن أولئك الجهله ينتظرون العذاب الإلهى جزاء تكذيبهم و إنكارهم لآيات الله سبحانه و تعالى، و تقولهم على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم بكلام لا يليق، و إصرارهم على عباده الأصنام، و الظلم و إشاعه الفساد، العذاب الذى سيحرق حصيله أعمارهم، أو الصيحه التى تنهى كل شىء فى العالم، و تؤدى بأولئك إلى طريق لا رجعه فيه.

«فواق» على وزن (رواق) و قد ذكر أهل اللغه و التفسير عدّه معان لها منها: أنّها الفاصل بين كلّ رضعتين، إذ بعد فتره معينه من حلب الثدى بصوره كامله يعود فينزل إليه اللبن من جديد.

و قال البعض: إنّها الفاصل بين فتح الأصابع عن الثدى بعد حلبه و إعادتها لحلبه مرّه اخرى.

و بما أنّ الثدى يستريح قليلا بعد كلّ حلبه، فكلمه (فواق) يمكن أن تعطى معنى الهدوء و الراحة.

و بما أنّ هذه الفاصله من أجل عوده الحليب مرّه اخرى إلى الثدى فإنّ هذه الكلمه تعطى مفهوم العوده و الرجوع، كما يقال للمريض الذى تتحسن حالته الصحيه بأن (أفاق) و ذلك لأنه استعاد صحّته و سلامته، كما يقال لحاله السكران الذى يصحو من سكرته و للمجنون عند ما يستعيد عقله «إفاقه» عند عودتهما إلى

ص: ٤٦٤

---

١- ١) - أمّا الرأى الذى احتمله بعض المفسّرين فى أنّ المقصود هنا هو الصيحه الثانيه، و التى تطلق لإحياء الموتى و سوقهم إلى محكمه العدل الإلهيه، فإنّه أمر مستبعد جدّا، لأنه لا ينسجم مع الآيه التاليه و الآيات السابقيه.

على أيه حال، فالصيحه الرهييه ليس بعدها رجوع و لا راحه و لا هدوء و لا إفاقه، ففور شروعها تغلق كل الأبواب أمام الإنسان، و لا ينفع الندم حينئذ، إذ لا مجال لإصلاح الماضي، و لا مجيب لصراخهم.

الآيه الأخيره فى هذا البحث تشير إلى كلام آخر للكافرين حيث قالوا باستهزاء و سخرية: رَبَّنَا عَجِّلْ عَلَيْنَا الْعَذَابَ قَبْلَ حُلُولِ يَوْمِ الْحِسَابِ، وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ .

فهؤلاء المغرورون بلغ بهم الغرور حتى إلى الاستهزاء بعذاب الله و محكمته العادله، و إلى القول: لم تأخرت حصتنا من العذاب؟! لماذا لا يوفينا الله بسرعه حظنا من العذاب؟ و الأقوام السابقه كانت تضم الكثير من أمثال هؤلاء السفهاء الذين نعقوا كالحوانات فور نزول العذاب الإلهي عليهم، و لم يهتم لنعيقهم أحد.

«قط» على وزن (جنّ) تعنى قطع الشىء عرضاً، فيما تعنى كلمه (قد) و هى على نفس الوزن السابق، قطع الشىء طولاً! و كلمه (قط) هنا تعنى نصيباً أو سهماً.

و أحيانا تعنى الورقه التى يرسم عليها، أو تكتب عليها أسماء أشخاص فازوا بالجوائز.

لهذا فإن بعض المفسرين، قالوا فى تفسير الآيه المذكوره أعلاه: إن المقصود منها هو أن الله سبحانه و تعالى يسلم عباده صحائف أعمالهم قبل حلول يوم الجزاء، و هذا الكلام قيل بعد نزول آيات قرآنيه تؤكد على أن هناك مجموعه تعطى صحائفها باليد اليمنى، و مجموعه اخرى تستسلم صحائفها باليد اليسرى.

ص: ٤٦٥

١ - ١) - بعض اللغويين قالوا بوجود عدّه فروق بين كلمه (فواق) المفتوحه و (فواق) المضمومه، و البعض قال: إنهما بمعنى واحد، و من يريد توضيحاً أكثر عليه مراجعه مفردات الراغب، و تفسير روح المعانى، و الفخر الرازى، و تفسير أبى الفتوح، و القرطبي، و مصادر اللغه.

و هنا قالت مجموعه من مشرکی مکة و هي تستهزئ: ما أجمل أن تسلّم إلینا الآن صحف أعمالنا لنقرأها و نشاهد ماذا عملنا؟ علی أئیة حال، فإنّ «الجهل» و «الغرور» صفتان قبیحتان مذمومتان، و لا- تنفصل الواحدة عن الاخری، إذ أنّ الجهله مغرورون، و المغرورون جهله، و شواهد هذا الوصف كانت موجودة بكثره عند مشرکی عصر الجاهلیه.

\*\*\*

ص: ۴۶۶

اشاره

إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرِ  
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَضَّلَ الْخِطَابَ (٢٠)

التفسير

اشاره

تعلم من داود:

نبى الله داود عليه السلام أحد كبار أنبياء بنى إسرائيل و حاكما لدوله كبيره، وقد ورد ذكر مقامه العالى فى عدّه آيات بينات من القرآن الكريم.

و تتمه للبحوث السابقه التى استعرضت فيها آيات القرآن أذى المشركين لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و نسبتهم إليه ما لا- يليق به. فإنّ القرآن الكريم لمواساه رسول الله و أصحابه المؤمنين القلائل، طرح قصه داود عليه السلام، داود الذى منحه الله قدره واسع، حتّى أنّ الجبال و الطيور كانت مسخره له، ليبيّن تبارك و تعالى من خلال هذه القصه لنبىه الأكرم أنّ اللطف الإلهى إن شمل أحدا فإنّ عموم الناس لا يستطيعون عمل أى شىء إزاء هذا اللطف.



فداود-مع هذه قدره العظيمه التي منحها إِيَّاه ربّ العالمين-لم يسلم من تجريح الآخرين و بذاءه لسانهم،و في هذا الكلام مواساه للنبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ في أنّ هذه المسأله لا تنحصر بك فقط،و إنّما شاركك فيها كبار الأنبياء عليهم السلام.

ففي البدايه تقول آيات بحثنا: **إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ .**

«الأيد»بمعنى القدره،و تأتي أيضا بمعنى النعمه.

و قد توفّر المعنيان المذكوران أعلاه في داود،إذ كان يتمتع بقوّه جسديه مكنته من أن يقتل الطاغيه جالوت بضربه قوّيه واحده بواسطه حجر رماه من مقلعه على جالوت،فأسقطه من فرسه مضرجا بدمه خلال إحدى المعارك.

و قال البعض:إنّ الحجر مزّق صدر جالوت و خرج من ظهره.

أمّا من حيث قدرته السياسيه،فقد كانت حكومته قوّيه و مستعدّه دائما لمواجهه الأعداء،بكلّ قوّه و اقتدار،حتى قيل أنّ الآلاف من جنده كانت تقف على أهبيه الاستعداد من المساء حتى الصباح في أطراف محراب عبادته.

و من حيث قدرته الأخلاقيه و المعنويه و العباديه،فإنّه كان يقوم معظم الليل في عبادته الله،و يصوم نصف أيام السنه.

و أمّا من حيث النعم الإلهيه،فقد أنعم عليه البارئ عزّ و جلّ بالكثير من النعم الظاهريه و الباطنيه.

خلاصه الحديث،إنّ داود كان رجلا ذا قوّه و قدره في الحروب و العبادات و العلم و المعرفه و في السياسه،و كان أيضا صاحب نعمه كبيره (1).

«أَوَّابٌ»مشتقّه من (أوب)على وزن(قول)و تعنى العوده الاختياريه إلى أمر ما،و لكون(أوّاب)على صيغه المبالغه،فإنّها تشير إلى أنّه كان كثيرا ما يعود إلى الله سبحانه و تعالى،و كان يتوب عن أصغر غفله و ترك للأولى.

ص: ٤٦٨

١-١) - (أيد)جمع(يد)،و قد استعملت هنا لكونها مظهر القوّه و النعمه و الملك،و قد حملت كلّ هذه المعاني هنا.

و طبقا لاسلوب القرآن فى الإيجاز و التفصيل فى ذكر القضايا المختلفه، فإن الآيات الآنفه بعد أن تطرقت بصوره موجزه إلى نعم الله على داود، تشرح أنواعا من تلك النعم، قال تعالى: **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١)**.

كذلك سَخَّرْنَا له مجاميع الطيور كى تسبح الله معه **وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً**.

فكل الطيور و الجبال مسخَّره لداود و مطيعه لأوامره، و تسبح معه البارئ عزَّ و جلَّ، و تعود إليه، **كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ**.

الضمير (له) يمكن أن يعود على داود، و طبقا لهذا فإن مفهوم الجمله ينطبق مع ما ذكرناه أعلاه، و هناك احتمال وارد أيضا و هو أن ضمير (له) يعود إلى ذات الله الطاهره، و يعنى أن كل ذرات العالم تعود إليه و مطيعه لأوامره.

هناك سؤال يطرح، و هو: كيف تردّد الطيور و الجبال صوت التسييح مع داود؟ اختلف المفسِّرون فى الإجابة على هذا السؤال، و ذكروا عدّه تفاسير و احتمالات له، منها:

١- قال البعض: إن صوت داود الجذاب كان يتردّد صدها عند ما تصطدم موجاته الصوتيه بالجبال فيجذب الطيور إليه (و بالطبع فإن هذه لا تعدّ فضيله كى يتطرق إليها القرآن المجيد و بشىء من العظمه).

٢- احتمال البعض الآخر أن تسيحها كان توأما مع صوت ظاهرى، مرافقا لنوع من الإدراك و الشعور الذى هو فى باطن ذرات العالم، و طبقا لهذا الاحتمال، فإن كل موجودات العالم تتمتع بنوع من العقل و الشعور، و حينما تسمع صوت مناجاه هذا النبى الكبير تردّد معه المناجاه، ليمتج تسيحها مع تسيح داود عليه السلام.

٣- احتملوا أيضا أن هذا التسيح هو التسيح التكوينى الذى ينطق به لسان

ص: ٤٦٩

١- ١) - (معه) من الممكن أن تكون متعلّقه بقوله (يسبحن) و وفقا لهذا فإن اقتداء الجبال بداود فى التسيح يوضّح نفس ما جاء فى الآيه (١٠) من سوره سبأ **لِجِبَالٍ أَوْبَى مَعَهُ** و يمكن أن تكون (معه) متعلّقه ب(سَخَّرْنَا) و فى هذه الحاله فإن مفهوم العبارة يكون (إننا سَخَّرْنَا له الجبال) و استخدام كلمه (معه) بدلا من (له) إنما تمّ لتوضيح اشتراكهما فى التسيح.

حال كل مخلوق، ونظام خلقهم يقول: إن الله خال من العيوب والنقص، وإنه مقدس ومنزه وعالم وقادر، ويمتلك كافة صفات الكمال.

ولكن هذا المعنى لا يختص بدادود حتى يعد من مناقبه، ولهذا فإن التفسير الثاني يعد أنسب، وما ذكر فيه غير مستبعد قياساً بقدره الله.

فالمناجاة موجوده داخل جميع مخلوقات الكون، وترانيمها تتردد على الدوام في بواطنها، وقد أظهرها الله سبحانه وتعالى لدادود عليه السلام، كما في الحصاه التي كانت تسبح الله وهي في يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وتواصل الآيه التاليه استعراض نعم الله على داود عليه السلام، قال تعالى: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ أَي ثَبَّتْنَا وَأَحْكَمْنَا مَمْلَكَتَهُ، بحيث كان العصاه والطغاه من أعدائه يحسبون لمملكته ألف حساب لقوتها.

وإضافه إلى هذا فقد آتيناها الحكمة والعلم والمعرفه وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ الْحِكْمَةَ الَّتِي يَقُولُ بِشَأْنِهَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

(الحكمة) هنا تعنى العلم والمعرفه وحسن تدبير امور البلاد، أو مقام النبوه، أو جميعها.

وقد تكون «الحكمة» أحيانا ذات جانب علمي ويعبر عنها ب«المعارف العاليه»، و اخرى لها جانب عملي ويعبر عنها (بالأخلاق والعمل الصالح) وقد كان لدادود في جميعها باع طويل.

و آخر نعمه إلهيه أنعمت على داود هي تمكنه من القضاء والحكم بصوره صحيحه وعادله وَفَضَلَ الْخِطَابِ .

وقد استخدمت عبارته (فصل الخطاب) لأن كلمه «الخطاب» تعنى أقوال طرفي النزاع، أما (فصل) فإنها تعنى القطع والفصل.

وكما هو معروف فإن أقوال طرفي النزاع لا تقطع إلا إذا حكم بينهم بالعدل، ولهذا فإن العبارة هذه تعنى قضائه بالعدل.

و هناك احتمال آخر لتفسير هذه العبارة، وهو أنّ الله سبحانه و تعالى أعطى داود منطقاً قوياً يدلّ على سمو و عمق تفكيره، و لم يكن هذا خاصاً بالقضاء و حسب، بل فى كلّ أحاديثه.

حقّاً، ليس من المفروض أن ييأس أحد من لطف الله، الله الذى يستطيع أن يعطى الإنسان اللائق و المناسب كلّ تلك القوّه و القدره. و هذه ليست مواساه للنبي الأكرم و المؤمنين فى مكّه الذين كانوا يعيشون فى تلك الأيام تحت أصعب الظروف و أشدها، بل مواساه لكلّ المؤمنين المضطهدين فى كلّ مكان و زمان.

\*\*\*

بحث

إشارة

### الصفات العشر لداود عليه السلام:

ذكر بعض المفسّرين من الآيات محلّ البحث عشر مواهب إلهية عظيمة كانت لداود عليه السّلام تعكس مقام هذا النّبي و منزلته العظيمة من جهة، و تعكس خصائص الإنسان الكامل من جهة اخرى:

١- الله سبحانه و تعالى يأمر نبي الإسلام و الرحمة محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم رغم مكانته العاليه بأن يتّخذ من داود أسوه له فى تحمّل الصبر إضربْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ .

٢- القرآن وصف داود بالعبد، و فى الحقيقة أنّ أهمّ خصوصيه لداود هى عبوديته لله، قال تعالى: عِبْدَنَا ذَاوُدَ وَ نَقَرَأَ شَبِيهَ هَذَا المعنى بشأن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فى مسأله المعراج سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ... (الإسراء-١).

٣- امتلاكه للقوّه و القدره (فى طاعه البارى عزّ و جلّ و الاحتراز عن ارتكاب المعاصى و حسن تدبيره لشؤون مملكته) ذَا الْأَيْدِ وَ جاءت أيضاً بشأن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم هُوَ الَّذِي آتَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ . (١)

ص: ٤٧١

٤- وصفه بالأواب، و تعنى رجوعه المتكرر و المستمر إلى الله سبحانه و تعالى، قال تعالى: إِنَّهُ أَوَّابٌ .

٥- تسخير الجبال معه لتسبح فى الصباح و المساء، و هذا الأمر يعدّ من مفاخره، قال تعالى: <sup>□</sup> إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ .

٦- مناجاه الطيور و تسبيحها الله مع داود، و هذه من النعم التي أنعمها الله على داود، قال تعالى: وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً .

٧- استمرار الجبال و الطيور فى التسبيح مع داود، و كلّ مرّه يسبح فيها تعود و تسبح معه، قال تعالى: <sup>□</sup> كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ .

٨- أعطاه الله الملك و الحكومه التي أحكمت أسسها، إضافة إلى وضع كلّ الوسائل الماديّة و المعنويّة التي يحتاجها تحت تصرّفه وَ شَدَّدْنَا مُلْكُهُ .

٩- منحه ثروه مهمّة اخرى، و هى العلم و المعرفة التي تفوق الحدّ الطبيعي، العلم و المعرفة التي هى منبع خير كثير و مصدر كلّ بركة و إحسان أينما كانت، قال تعالى:

وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ

١٠- و أخيراً فقد منّ الله عليه بمنطق قوى و حديث مؤثّر و نافذ، و قدره كبيره على القضاء و التحكيم بصورة حازمه و عادله، قال تعالى: وَ فَضَّلَ الْخُطَابِ (١) .

حقّاً إنّ أسس أى حكومه لا- يمكن أن تصبح محكمه بدون هذه الصفات، العلم و المنطق و تقوى الله، و قدره على ضبط النفس، و نيل مقام العبودية لله.

\*\*\*

ص: ٤٧٢

اشاره

وَ هِيلُ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِيٍّ مَانَ بَعِي بَعْضُهُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعَجَةً وَ لِي نَعَجَةٌ وَ احْدَدَهُ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى تِعَاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَا هُمْ وَ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رَاكِعًا وَ أَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ (٢٥)

التفسير

اشاره

داود و الامتحان الكبير:

طرحت هذه الآيات بحث بسيط و واضح عن قضاء داود، و نتيجة لتحريف و سوء تعبير بعض الجهله فقد أثرت ضججه عظيمه في أوساط المفسرين، و كانت

أمواج هذه الضجّة من القوّة بحيث جرفت معها بعض المفسّرين، وجعلتهم يحكمون بشيء غير مقبول، ويقولون ما لا يليق بهذا النّبي الكبير.

و في هذا المجال نحاول بيان مفهوم الآيات دون شرح و تفصيل كى يفهم القارئ الكريم مفهوم الآيات بذهنيه صافيه، و بعد الانتهاء من تفسيرها باختصار نتطرّق إلى الآراء المختلفه التي قيلت بشأنها. و تتمّه للآيات السابقه التي استعرضت الصفات الخاصه بداود و النعم الإلهيه التي أنزلها البارى عزّ و جلّ عليه، يبيّن القرآن المجيد أحداث قضيه عرضت على داود.

ففى البدايه يخاطب القرآن المجيد الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم: **وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ .**

(الخصم) جاءت هنا كمصدر، و أكثر الأحيان تطلق على الطرفين المتنازعين، و تستعمل هذه الكلمه للمفرد و الجمع، و أحيانا تجمع على (خصوم).

(تسوّروا) مشتقّه من (سور) و هو الحائط العالى الذى يبنى حول البيت أو المدينه، و تعنى هذه الكلمه فى الأصل القفز أو الصعود إلى الأعلى.

«محراب» تعنى صدر المجلس أو الغرف العليا، و لأنها أصبحت محلا للعباده أخذ تدريجيّا يطلق عليها اسم المعبد. و تصطلح اليوم على المكان الذى يقف فيه إمام الجماعه لأداء مراسم صلاه الجماعه، و فى المفردات، نقل عن البعض أنّ سبب إطلاق كلمه «المحراب» على محراب المسجد، هو لكونه مكانا للحرب ضدّ الشيطان و هوى النفس.

على أيه حال، فرغم أنّ داود عليه السّلام كان محاطا بأعداد كبيره من الجند و الحرس، إلا أنّ طرفى النزاع تمكّنا- من طريق غير مألوف- تسوّر جدران المحراب، و الظهور أمام داود عليه السّلام فجأه، ففزع عند رؤيتهما، إذ دخلا عليه بدون استئذان و من دون إعلام مسبق، و ظنّ داود عليه السّلام أنّهم يكتّون له السوء، إذ دخّلوا على داود ففزع منهم .

إِلَّا أَنَّهُمَا عَمِدَا بِسُرْعِهِ إِلَى تَطْيِيبِ نَفْسِهِ وَ إِسْكَانِ رُوعِهِ، وَ قَالَا لَهُ: لَا تَخَفْ نَحْنُ مُتَخَاصِمَانِ تَجَاوِزُ أَحَدُنَا عَلَى الْآخَرِ قَالُوا لَا تَخَفْ  
خَضْمَانِ بَغْيِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ .

فاحكم الآن بيننا و لا تتحيز في حكمك و أرشدنا إلى الطريق الصحيح فاحكمم بيننا بالحق و لا تشطط و اهدنا إلى سواء الصراط

«تشطط» مشتق من (شطط) على وزن (فقط)، و تعنى البعيد جدا، و لكون الظلم و الطغيان يبعدان الإنسان كثيرا عن الحق، فكلمه (شطط) تعنى الابتعاد عن الحق، كما تطلق على الكلام البعيد عن الحقيقة.

من المسلم به أن قلق و روع «داود» قل بعض الشيء عند ما وضح الأخوان هدف مجيئهما إليه، و لكن بقى هناك سؤال واحد فى ذهنه هو، إذا كنتما لا- تكتنيان السوء، فما هو الهدف من مجيئكما إلى عن طريق غير مألوف؟ و لذلك تقدم أحدهما و طرح المشكله على داود، و قال: هذا أخى، يمتلك (٩٩) نعجه، و أنا لا أملك إلا نعجه واحده، و إنه يصر علي أن أعطيه نعجتى ليضمها إلى بقية نعاجه، و قد شدد على فى القول و أغلظ إن هذا أخى له تسع و تسعون نعجه و لى نعجه واحده فقال أكفليها و عزنى فى الخطاب .

«النعجه» هى الأنتى من الضأن. و قد تطلق على أنتى البقر الوحشى و الخراف الجبلية.

«أكفليها» مشتق من الكفاله، و هى هنا كناية عن التخلي (و معنى الجملة اجعلها لى و فى ملكيتى و كفالتى، أى امنحنى إياها).

«عزنى» مشتق من (العزه) و تعنى التغلب، و بذا يكون معنى الجملة إنه تغلب على.

و هنا التفت داود عليه السلام إلى المدعى قبل أن يستمع كلام الآخر (كما يوضحه ظاهر الآية) و قال: من البديهي أنه ظلمك بطلبه ضم نعجتك إلى نعاجه قال لقد ظلمك



و هذا الأمر ليس بجديد، إذ أنّ الكثير من الأصدقاء و المخالطين بعضهم لبعض يبغى على صاحبه، إلاّ الذين آمنوا و عملوا الصالحات و هم قلّة: وَ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَّا هُمْ (١) (٢).

نعم فالأشخاص الذين يراعون بصورة كاملة فى معاشرتهم و صداقتهم الطرف المقابل، و لا يعتدون عليه أدنى اعتداء و يؤدّون حقوق أصدقائهم و معارفهم بصورة كاملة قليلون جدّا، و هم المتزوّدون بالإيمان و العمل الصالح.

على أيّ حال، فالظاهر أنّ طرفى الخصام اقتنعا بكلام داود عليه السلام و غادرا المكان.

و لكن داود غرق فى التفكير بعد مغادرتهم، رغم أنّه كان يعتقد أنّه قضى بالعدل بين المتخاصمين، فلو كان الطرف الثانى مخالفا لادّعاءات الطرف الأوّل- أى المدعى- لكان قد اعترض عليه، إذن فسكوته هو خير دليل على أنّ القضيّة هى كما طرحها المدعى.

و لكن آداب مجلس القضاء تفرض على داود أن يترىث فى إصدار الأحكام و لا- يتعجّل فى إصدارها، و كان عليه أن يسأل الطرف الثانى أيضا ثمّ يحكم بينهما، فلذا ندم كثيرا على عمله هذا، و ظنّ أنّما فتنه البارى عزّ و جلّ بهذه الحادثة و ظنّ داود أنّما فتنناه .

و هنا أدركته طبيعته، و هى أنّه أوّاب، إذ طلب العفو و المغفرة من ربّه و خزّ راكعا

ص: ٤٧٦

- ١ - ١) - «خلطاء» جمع (خليط) و تعنى الأشخاص أو الأشياء المخلوطة بعضها مع بعض، كما تطلق على الصديق و الشريك و الجار، و رغم أنّ الظلم و الاعتداء لم يختصّ بالخلطاء، إلاّ أنّ ذكر هذه المجموعة بسبب وجود الاتّصالات المتكرّره فيما بينهم، و احتمال حدوث سوء تفاهم فيما بينهم، أو بسبب عدم توقّع حدوث أى ظلم و طغيان من قبل أولئك.
- ٢ - ٢) - تركيب الجمله هكذا (هم) مبتدأ و (قليل) خبر إنّ و (ما) زائده و ردت هنا للمبالغه فى القليل.

تائباً إلى الله العزيز الحكيم فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ .

«خَرَّ» مشتقّه من (خريرو) وتعني سقوط شىء من علو و يسمع منه الصوت مثل صوت الشلالات، كما أنّها كناية عن السجود، حيث أنّ الأفراد الساجدين يهوون من حاله الوقوف إلى السجود و يقترن ذلك بالتسبيح.

كلمه (راكعا) التي وردت في هذه الآيه، إمّا أنّها تعني السجود كما جاءت في اللغة، أو لكون الركوع مقدّمه للسجود.

على أيّه حال، فالله سبحانه و تعالى شمل عبده داود بلطفه و عفا عن زلّته من حيث ترك العمل بالأولى، كما توضّحه الآيه التاليه فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ . وَإِنَّ لَهُ مَنْزِلَ رَفِيعَ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ .

«زلفى» تعني المنزله (و القرب عند الله) و (حسن مآب) إشاره إلى الجنّه و نعم الآخره.

\*\*\*

**بحوث**

**اشاره**

**١- ما هي حقيقه وقائع قصه داود؟**

الذى وضّحه القرآن المجيد في هذا الشأن لا يتعدى أنّ شخصين تسوّرا جدران محراب داود عليه السّلام ليحتكما عنده، و أنّه فزع عند رؤيتهما، ثمّ استمع إلى أقوال المشتكى الذى قال: إنّ لأخيه (٩٩) نعجه و له نعجه واحده، و إنّ أخاه طلب منه ضمّ هذه النعجه إلى بقيه نعاجه، فأعطى داود عليه السّلام الحقّ للمشتكى، و اعتبر طلب الأخ ذلك من أخيه ظلما و طغيانا، ثمّ ندم على حكمه هذا، و طلب من الله سبحانه و تعالى أن يعفو عنه و يغفر له، فعفا الله عنه و غفر له.

و هنا تبرز مسألتان دقيقتان أيضا: الاولى مسأله الامتحان، و الثانيه مسأله الاستغفار.

ص: ٤٧٧

القرآن الكريم لم يفصل الحديث بشأن هاتين المسألتين، إلا أن الدلائل الموجودة في هذه الآيات و الروايات الإسلاميه الوارده بشأن تفسيرها تقول: إن داود كان ذا علم واسع و ذا مهاره فائقه فى أمر القضاء، و أراد الله سبحانه و تعالى أن يمتحنه، فلذا أوجد له مثل تلك الظروف غير الاعتياديه، كدخول الشخصين عليه من طريق غير اعتيادى و غير مألوف، إذ تسوّرا جدران محرابه، و ابتلائه بالاستعجال فى إصدار الحكم قبل الاستماع إلى أقوال الطرف الثانى، رغم أن حكمه كان عادلا.

و رغم أنه انتبه بسرعه إلى زلته، و أصلحها قبل مضى الوقت، و لكن مهما كان فإنّ العمل الذى قام به لا يليق بمقام النبوه الرفيع، و لهذا فإنّ استغفاره إنّما جاء لتركه العمل بالأولى، و إنّ الله شمله بعفوه و مغفرتة.

و الشاهد على هذا التفسير إضافة إلى ما ذكرناه قبل قليل - هو الآية التى تأتى مباشرة بعد تلك الآيات، و التى تخاطب داود عليه السلام: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . و هذه الآية تبين أنّ زلّه داود كانت فى كيفية قضائه و حكمه.

و بهذا الشكل فإنّ الآيات المذكوره أعلاه لا تذكر شيئا يقلل من شأن و مقام هذا النبى الكبير.

## ٢- التوراه و القصص الخرافيه بشأن داود

### إشاره

الآن نتصفح كتاب التوراه لنشاهد ماذا ذكر فيه عن هذه الوقعه، لنعثر على الأساس الذى اعتمد عليه بعض المفسرين الجهله و غير المطلعين فى تفسير هذه الآيات.

جاء فى «التوراه» و فى الكتاب الثانى «اشموئيل» الإصحاح الحادى عشر من الجمله الثانيه و حتّى السابعه و العشرين:

ص: ٤٧٨

«وكان في وقت المساء، أن داود قام عن سريره و تمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم و كانت المرأة جميله المنظر جدًا.

فأرسل داود و سأل عن المرأة فقيل: إنها (بتشيع) (١) بنت (اليعام) و زوجها (أوريّا الحثّي) (٢).

فأرسل داود رسلا و أخذها فدخلت عليه، فاضطجع معها و هي طاهره من طمئتها، ثم رجعت إلى بيتها، و حبلت المرأة فأرسلت و أخبرت داود بأنّها حبلت.

و بعد علمه بحمل (بتشيع) بعث داود برسالة إلى (يوآب) (٣) طلب منه فيها أن يبعث (أوريّا) إليه، فبعث (يوآب) (أوريّا) إليه، و فور وصوله إلى قصر داود، استفسر منه عن سلامه (يوآب) و سلامه الجيش و عن سير المعارك.

و هنا أمر داود (أوريّا) بأن يذهب إلى بيته و يغسل رجليه، فخرج أوريّا من قصر داود، و بعث داود خلفه أنواعا من الطعام، إلا أنّ أوريّا نام عند باب قصر داود مع بقيه عبيد سيده داود و لم يذهب إلى بيته، و عند ما علم داود أنّ أوريّا لم يذهب إلى بيته، قال داود لأوريا: ألم تكن قد عدت من السفر؟ فلما ذا لا تذهب إلى بيتك؟ فقال لداود: إنّ الصندوق و إسرائيل و يهودا و سيدي (يوآب) و عبيد سيدي يعيشون تحت الخيام في الصحراء؟ فهل يصحّ أن أذهب إلى بيتي لأكل و أشرب و أنام فيه؟ أقسم بحياتك أنّي لا أفعل ذلك.

و في الصباح بعث داود برسالة إلى (يوآب) بيد (أوريّا) و كتب في الرسالة يقول: اجعلوا أوريّا في وجه الحرب الشديده و ارجعوا من ورائه فيضرب و يموت، ففعل به ذلك فقتل و أخبر داود بذلك.

ص: ٤٧٩

١- ١) - (بتشيع) اسم تلك المرأة التي زعم كتاب التوراه أنّ داود رآها عاريه عند ما كان يتمشى على سطح بيته و عشقها، و هي بنت (اليعام) أحد المسؤولين حينذاك و الذي كان عبريا.

٢- ٢) - (أوريا) بتشديد الياء، اسم أحد كبار قادة جيش داود و (حتى) بتشديد الياء و كسر (الحاء) تنسب إلى (حت) ابن كنعان، و عشيره كانت تسمى (بني حث).

٣- ٣) - (يوآب) هو القائد العام لقوات داود.

فلما سمعت امرأه أوريا أنه قد مات نددت بعلها، ولما مضت المناحه أرسل داود وضمها إلى بيته و صارت له امرأه، و أما الأمر الذى فعله داود فقيح فى عينى الرب» (١).

خلاصه هذه القصه إلى هنا تكون كالآتى: فى إحدى الأيام صعد داود إلى سطح القصر فوعدت عيناه على البيت المجاور فرأى امرأه عاريه تغتسل، فأحبها، و تمكن بإحدى الطرق من جلبها إلى بيته، فاضطجع معها فحملت منه.

و زوج هذه المرأه كان أحد الضباط المشهورين فى جيش داود و كان طاهرا نقيًا، قتله داود (نعوذ بالله من هذا الكلام) بمؤامره جبانه عند ما بعثه إلى منطقه خطره جدًا فى ساحه الحرب، ثم تزوج داود زوجته.

و الآين نواصل سرد بقيه القصه على لسان التوراه الحالى إذ جاء فى الإصحاح الثانى عشر من كتاب صموئيل الثانى «أن الرب أرسل (نathan) أحد أنبياء بنى إسرائيل و مستشار داود فى نفس الوقت، و قال له: كان رجلان فى مدينه واحده، واحد منهما غنى و الآخر فقير، و كان للغنى غنم و بقر كثيره جدًا، و أما الفقير فلم يكن له شىء إلا نعجه واحده صغيره قد اقتناها و ربّاه، فجاء ضيف إلى الرجل الغنى فأبى أن يأخذ من غنمه و من بقره ليهيئ للضيف الذى جاء إليه فأخذ نعجه الرجل الفقير و هيأ لضيفه.

فحمى غضب داود، و قال ل Nathan، أقسم بالرب أن الشخص الذى ارتكب هذا العمل يستحقّ القتل، و عليه أن يردّ النعجه بأربعه أضعاف. و هنا قال Nathan لداود:

إنّ ذلك الرجل هو أنت! فانتبه داود للعمل غير الصحيح الذى قام به، فدعا الله ليتوب عليه، فتاب الله عليه، و أنزل فى نفس الوقت ابتلاءات كبيره على داود».

هذا و قد استخدمت التوراه عبارات يجلّ القلم عن ذكرها، لهذا نصرّف النظر

ص: ٤٨٠

و فى هذا الجزء من القصة التى استعرضتها التوراه يمكن للمتتبع ملاحظه ما يلى:

١-لم يأت أحد متظلمًا و شاكيا إلى داود،و إنما جاءه أحد أنبياء بنى إسرائيل، الذى هو مستشار داود فى نفس الوقت،و ذكر له قصه يستهدف منها وعظ داود، و القصة هى بشأن شخصين الأوّل غنى و الثانى فقير،الغنى يملك أعدادا كبيره من الغنم و البقر،أما الفقير فلا يملك سوى نعجه واحده صغيره،و الغنى أخذ نعجه الرجل الفقير و هياها لضيفه.

إلى هذا المقدار من القصة لا يوجد أى تطرق لتسوّر جدران المحراب و فزع داود و تخاصم الشخصين عنده،إضافه إلى طلب العفو و المغفروه.

٢-داود عليه السّلام اعتبر الغنى طاغيه و يستحقّ القتل لماذا يقتل من أجل نعجه واحده)؟! ٣-لماذا تسرّع داود عليه السّلام فى إصدار الحكم،إذ قال:يجب على الغنى أن يردّ النعجه بأربعة أضعاف؟ ٤-داود يعترف بذنبه مع زوجه أوريّا.

٥-لماذا يعفو الله عزّ و جلّ عنه و بهذه السهوله؟! ٦-الله سبحانه و تعالى يذكر عقوبات عجيبه ستطال داود من الأفضل عدم ذكرها هنا.

٧-هذه المرأة(مع ماضيها المشهور)هى امّ سليمان عليه السّلام! رغم أنّ نقل مثل هذه القصص مؤلم حقًا،و لكن ما العمل،إذ أنّ بعض الجهله غير المطلعين من المتأثرين بالروايات الإسرائيليه،أسأوا إلى تفسير القرآن الكريم الطاهر،ياقحامهم مثل هذه الروايات فيه،و لا يوجد أمامنا سبيل إلاّ ذكر أجزاء من تلك القصص الفاضحه لردّها.

١- هل يمكن اتّهام نبي مدحه الباري عزّ و جلّ في قرآنه الكريم بعشر صفات عظيمه، و دعا نبينا الأكرم محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى أن يستلهم من سيرته، هل يمكن اتّهامه بتلك التهم.

٢- هل تتطابق هذه الأراجيف مع آيات القرآن التاليه: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ .

٣- إذا ارتكب شخص عادى- و ليس أحد الأنبياء- مثل هذا العمل الإجرامى للاعتداء على زوجته ضابط و فتيّ و طاهر و مؤمن و من خلال عمليه خبيثه، بماذا سيحكم الناس عليه و ما هى عقوبته؟ فالفاسق يتنزّه عن هذا العمل الشنيع، فكيف بنبي الله داود؟ و ممّا يجدر ذكره أنّ التوراه لا تعتبر داود نبيا، و إنّما تعتبره ملكا عادلا له مكانه مرموقه، و أنّه مشيد المعبد الكبير لبنى إسرائيل.

٤- الطريف فى الأمر أنّ كتاب (مزامير داود) هو أحد كتب التوراه، و قد جمعت فيه مناجات و أحاديث داود، فهل يمكن درج أحاديث و مناجاه مثل هذا الإنسان فى طيات الكتب السماويه؟ ٥- لو طرحت هذه القصص على شخص لا يمتلك سوى القليل من العقل و الإدراك، لأعترف بأنّ قصص التوراه المحرّفه حاليا ما هى إلاّ خرافات، و أنّ أعداء نهج الأنبياء أو أشخاص جهله غير مطّلعين صاغوا مثل هذه الخرافات، فكيف يمكن أن تكون هذه الخرافات معيارا للبحث؟ نعم فعظمه القرآن المجيد تبرز من خلال خلوّه من هذه الخرافات.

### ٣- الأحاديث الإسلاميه و قصه داود عليه السلام

#### إشاره

الزوايات و الأحاديث الإسلاميه كذّبت بشدّه تلك القصص الخرافيه و القبيحه

الوارده في التوراه.

و من جمله تلك الأحاديث، ما

ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول فيه: «لا اوتى برجل يزعم أنّ داود تزوّج امرأه أورياّ إلاّ جلده حديين حدّا للنبوّه و حدّا للإسلام» (١).

لماذا، لأنّ المزاعم المذكوره تتّهم من جهه إنسانا مؤمنا بارتكاب عمل محرّم، و من جهه اخرى تنتهك حرمة مقام النبوه، و من هنا حكم الإمام بجلد من يفترى عليه عليه السلام مرّتين (كلّ مرّه ٨٠ سوطا).

كما

ورد حديث آخر لأمير المؤمنين عليه السّلام يعطى نفس المعنى، جاء فيه «من حدّثكم بحديث داود على ما يرويه القضاة ص جلده مائه و ستين» (٢).

و

في حديث آخر نقله الشيخ الصدوق في كتاب (الأمالي) عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «إنّ رضا الناس لا يملك، و ألسنتهم لا- تضبط، ألم ينسبوا داود إلى أنّه أتبع الطير حتّى نظر إلى امرأه أورياّ فهوها، و أنّه قدّم زوجها أمام التابوت حتّى قتل ثمّ تزوّج بها!» (٣).

و أخيرا،

ورد حديث في كتاب (عيون الأخبار) في باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل و المقالات قال الرضا عليه السّلام لابن الجهم: «و أمّا داود فما يقول من قبلكم فيه؟» قال: يقولون: إنّ داود كان يصلّى في محرابه إذ تصوّر له إبليس على هيئة طير أحسن ما يكون من الطيور، فقطع داود صلواته و قام يأخذ الطير إلى الدار فخرج في أثره فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه فسقط الطير في دار أورياّ بن حيان.

فأطلع داود في أثر الطير فإذا بامرأه أورياّ تغتسل؟ فلمّا نظر إليها هوها، و كان

ص: ٤٨٣

(١-١) -مجمع البيان ذيل آيات البحث.

(٢-٢) -تفسير الفخر الرازي ذيل آيات البحث.

(٣-٣) -الأمالي للشيخ الصدوق طبق ما نقله نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٤٤٦.



قد أخرج أوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدام أوريا أمام التابوت فقدم فظفر أوريا بالمشركين فصعب ذلك على داود، فكتب إليه ثانيه أن قدمه أمام التابوت فقدم فقتل أوريا و تزوج داود بامرأته.

قال: فضرب الرضا عليه السلام يده على جبهته و قال: «إنا لله و إنا إليه راجعون، لقد نسبتم نبيا من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتى خرج في أثر الطير ثم بالفاحشه، ثم بالقتل».

فقال: يا ابن رسول الله، ما كانت خطيئته؟ فقال: «ويحك إن داود عليه السلام إنما ظن أنه ما خلق الله خلقا هو أعلم منه، فبعث الله عز و جل إليه الملكين فتسورا المحراب فقال: خَصِيْمَانِ بَغِيٍّ بَعْضُهُمَا عَلِيٌّ بَغُضٍّ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تَشْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ فَعَجَّلَ دَاوُدَ عَلَى الْمَدْعَى عَلَيْهِ فَقَالَ: لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى بَعْضِهِ وَ لَمْ يَسْأَلِ الْمَدْعَى الْبَيْنَةَ عَلَى ذَلِكَ، وَ لَمْ يَقْبَلْ عَلَى الْمَدْعَى عَلَيْهِ فَيَقُولَ لَهُ: مَا تَقُولُ؟ فَكَانَ هَذَا خَطِيئَتَهُ رَسْمَ الْحَكْمِ لَا مَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ، أَلَا تَسْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ يَقُولُ: يَا دَاوُدُ إِنَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

فقال: يا ابن رسول الله، فما قصته مع أوريا؟ قال الرضا عليه السلام: «إن المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج بعده أبدا، فأول من أباح الله عز و جل له أن يتزوج بامرأه قتل بعلها داود عليه السلام فتزوج بامرأه أوريا لما قتل و انقضت عدتها، فذلك الذي شق على الناس من قتل أوريا» (١).

يستفاد من هذا الحديث أن مسأله أوريا كانت لها جذور حقيقته بسيطة، و أن داود نفذ ما جاء في رساله الإلهيه، إلا أن أعداء الله من جهه، و الجهله من جهه

ص: ٤٨٤

اخرى،إضافه إلى مؤلّفى القصص الخياليه الذين يكتبون دائما قصص عجيبه و كاذبه من جهه ثالثه،اختلفوا سيقانا و أغصانا و أوراقا لهذه القصّه كى ينّفروا الإنسان من داود.

فأحدهم قال:لا- يمكن أن يتمّ هذا الزواج ما لم تكن هنالك مقدّمات له؟ و الآخر قال:يحتمل أنّ بيت أوريا كان مجاورا لبيت داود! و أخيرا لكى يؤكّدوا أنّ داود عليه السّلام شاهد زوجه(أوريا)اصطنعوا قصّه الطير، و فى النهايه اتّهموا أحد أنبياء الله الكبار بارتكاب مختلف أنواع الذنوب الكبيره و المخزيه،و تناقلتها ألسنه الجهله و البلهاء و لو لا أنّها مذكوره فى الكتب المعروفه لكان من الخطأ ذكرها و التعرّض لها.

و بالطبع،فإنّ هذه الروايه لا تختلف عن حديث أمير المؤمنين عليه السّلام،لأنّ حديثه يشير إلى أنّها قصّه كاذبه مزيفه تنسب ارتكاب الزنا و غيرها من المحرّمات-نعوذ بالله-إلى أحد الأنبياء الكبار.

## آراء المفسرين

بعض المفسرين ذكروا آراء اخرى لقصّه داود،رغم أنّها لا تتناسب مع ظاهر آيات القرآن المجيد،فإنّنا نرى من الضرورى الإشاره إلى بعضها لإكمال البحث:

منها:أنّ داود عليه السّلام كان قد قسّم ساعات يومه وفق برنامج منظم،و لم يكن يسمح لأحد بمراجعته إلاّ- فى الساعات المخصّيه صه للمراجعته،و فى أحد الأيام تسوّر شخصان المحراب و قد اتّفقا على قتل داود أثناء فتره عبادته لله سبحانه و تعالى،تسوّرا سور المحراب،و لكن عند ما و صلا بالقرب من سور المحراب شاهدوا الجند و الحرس يحيطون به من كلّ جانب،و خوفا من أن ينكشف أمرهما، اختلقا قصّيه كاذبه،و ادّعيا أنّهما أتيا إلى داود عليه السّلام ليحكم بينهما،و شرحا القصّيه التى تطرّق إليها القرآن الكريم،و قد قضى داود عليه السّلام بينهما،و لكون الهدف من هذه

اللعبه كان قتله، فقد غضب و صم على الانتقام منهما، و لم يمض إلا وقت قصير حتى ندم داود على تصميمه هذا و استغفر الله (١).

يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان (و أكثر المفسرين تبعاً للروايات إنّ هؤلاء الخصم الداخليين على داود عليه السلام كانوا ملائكة أرسلهم الله سبحانه إليه ليمتحنه، و ستعرف حال الروايات لكن خصوصيات القصه كتسورهم المحراب و دخولهم عليه دخولا غير عادي بحيث أزعوه، و كذا تبتهه بأنه إنّما كان فتنه من الله له و ليس واقعه عاديه، و قوله تعالى بعد: فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى الظاهر في أنّ الله ابتلاه بما ابتلى لئبتهه و يسدده في خلافته و حكمه بين الناس، كلّ ذلك يؤيد كونهم من الملائكة و قد تمثّلوا في صوره رجال من الإنس.

(و المقصود من التمثّل هو عدم وجود هؤلاء الأشخاص واقعا و في الخارج، بل أنّ ذلك انعكس في ذهن داود و في إدراكه).

و على هذا فالواقعه تمثّل فيه الملائكة في صورته متخاصمين لأحدهما نعبه واحده، يسألها آخر له تسع و تسعون نعبه، و سأله القضاء فقال لصاحب النعبه الواحده: (لقد ظلمك) إلخ و كان قوله عليه السلام - لو كان قضاء منجزا - حكما منه في ظرف التمثّل، كما لو كان رأهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال و حكم فيهم بما حكم، و من المعلوم أنّ لا - تكليف في ظرف التمثّل، كما لا تكليف في عالم الرؤيا و إنّما التكليف في عالمنا المشهود، و هو عالم الماده، و لم تقع الواقعه فيه، و لا كان هناك متخاصمان و لا - نعبه و لا - نجاج إلّا - في ظرف التمثّل، فكانت خطيئه داود عليه السلام في هذا الظرف من التمثّل و لا تكليف هناك، كخطيئه آدم عليه السلام في الجنه من أكل الشجره قبل الهبوط إلى الأرض و تشريع الشرائع و جعل التكليف، و استغفاره و توبته ممّا صدر منه كاستغفار آدم و توبته ممّا صدر منه، و قد صرح الله بخلافته في

ص: ٤٨٦

---

١-١) - تفسير (الفخر الرازي) و (روح المعاني) ذكرا هذا الأمر كتوجيه و إرشاد، فيما وافق (المراغي) في تفسيره على هذا الأمر.

كلامه كما صرح بخلافه آدم عليه السلام في كلامه (١).

و لكن من المسلم به أن ظاهر الآيات يوضح أن الشكوى و الخصام كان من قبل أفراد حقيقيين لهم وجود ظاهري، و في هذه الحالة لم يكن قضاء داود ذنباً صادراً عنه، خاصه بعد أن استمع لأقوال أحدهم و حصل عنده علم و يقين في إعطاء الحكم، رغم أن الآداب المستحبه في القضاء توجب عليه أن يتأني في إصدار الحكم و لا يتعجل، و استغفاره إنما كان لتركه العمل بالأولى.

و على أيه حال، لا توجد أيه ضروره لاعتبار وقوع حادثه التحكيم هذه في ظرف التمثل أو لأجل تنبيه داود عليه السلام. و الأفضل أن نحافظ على ظاهر الآيات و تفسيرها بالترتيب الأنف الذكر الذي حفظ ظاهر الآيات دون بروز أيه مشاكل تمس مقام عصمه الأنبياء.

\*\*\*

ص: ٤٨٧

---

١ - ١) - تفسير الميزان، ج ١٧، ص ١٩٣-١٩٤.

اشاره

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمِمَّا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَابِلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)

التفسير

اشاره

احكم بالعدل و لا تتبع هوى النفس:

نواصل استعراض قصه داود، و نقف هنا على اعتبارها النهائي، حيث إن آيات بحثنا هذا هي آخر الآيات الواردة في هذه السوره بشأن داود، إذ تخاطبه بلهجه حازمه و عبارات مفعمه بالمعاني، شارحه له وظائفه و مسؤولياته الجسيمه بعد أن

وضحت مقامه الرفيع، إذ تقول: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

محتوى هذه الآيه التي تتحدث عن مقام داود الرفيع و الوظائف المهمه التي كلف بها، تبين أن القصص الخياليه و الكاذبه التي نسجت بشأن زواج داود من زوجه (أوريا) كلها كاذبه و لا أساس لها من الصّحه.

فهل يمكن أن ينتخب الباري عزّ و جلّ شخصا ينظر إلى شرف المؤمنين و المقربين منه بعين خوونه و يلوّث يده بدم الأبرياء- خليفه له في الأرض، و يمنحه حكم القضاء المطلق؟! هذه الآيه تضمّ خمس جمل كلّ واحده منها تتحدث عن حقيقه معينه:

الاولى:خلافه داود في الأرض،فهل المقصود منها خلافته للأنبياء السابقين،أم أنّها تعني خلافه الله؟المعنى الثاني أنسب و يتطابق مع ما جاء في الآيه (٣٠)من سوره البقره: وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .

بالطبع فإنّ المعنى الواقعي للخلافه لا يتعلّق بالله،لأنه يأتي في مورد وفاه شخص أو غيابه،و المراد من الخلافه هنا هو أن يكون نائبا لله بين العباد،و المنقذ لأوامر الله سبحانه و تعالى في الأرض.هذه الجمله تبين أنّ الحكومه في الأرض يجب أن تستلهم شرعيّتها من الحكومه الإلهيه،و أي حكومه لا تستلهم شرعيّتها من الحكومه الإلهيه فإنّها حكومه ظالمه و غاصبه.

الجمله الثانيه:تأمر داود قائله:بعد أن منحك الله سبحانه و تعالى هذه النعمه الكبيره،أي الخلافه،فإنّك مكلف بأن تحكم بين الناس بِالْحَقِّ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ .

و في واقع الأمر فإنّ إحدى ثمار خلافه الله هي ظهور حكومه تحكّم بالحقّ، و من هذه الجمله يمكن القول أنّ حكومه الحقّ تنشأ-فقط-عن خلافه الله،و أنّها

النتيجه المباشره لها.

أما الجملة الثالثه:فإنها تشير إلى أهم خطر يهدد الحاكم العادل، ألا وهو اتباع هوى النفس وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ .

نعم،فهوى النفس ستار سميك يغطى بصيره الإنسان،و يباعد بينه و بين العداله.

لهذا فإن الجملة الرابعه تقول:فَيُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

فأينما وجد الضلال كان لهوى النفس ضلع فى ذلك،و أينما اتبع هوى النفس فإن عاقبه الضلال.

فالحاكم الذى يتبع هوى النفس،إنما يفرط بمصالح و حقوق الناس لأجل مطامعه،و لهذا السبب فإن حكومته تكون مضطربه و مصيرها الانهيار و الزوال.

و من الممكن أن يكون ل(هوى النفس)معانى واسعه،تضم فى نفس الوقت هوى نفس الإنسان،و هوى النفس عند كل الناس،و هكذا فإن القرآن يحكم بطلان المناهج الوضعيه التى تستند على أفكار عامه الناس فى الحكم،لأن نتيجه الإثنين هو الضلال و الانحراف عن سبيل الله و صراط الحق.

و اليوم نشاهد الآثار السيئه لهذا النوع من التفكير فى عالم يسمى بالعالم المتطور و الحديث،فأحيانا نرى أشنع و أقبح الأعمال تأخذ شكلا قانونيا نتيجه الأخذ بآراء الناس،و رائحه الفضيحه فى هذا العالم قد أزكمت الأنوف،و القلم يجل عن ذكرها.

صحيح أن أسس الحكومه مستنده على الجماهير،و أن مشاركته الجميع فيها يحفظ أسسها،إلا أن هذا لا يعنى أن رأى الأكثريه هو معيار الحق و الباطل فى كل شىء و فى كل مكان.

فالحكومه يجب أن يكون إطارها الحق،و لتطبيق الحق لا- بأس بالاستعانه بطاقات أفراد المجتمع،و عبارته(الجمهوريه الإسلاميه)المتكوّنه من كلمتى (الجمهوريه)و(الإسلاميه)تعطى المعنى السابق،و عبارته اخرى فإن أصولها

مستمدّه من نهج الإسلام، و تنفيذ تلك الأصول يتمّ بمشاركه الجماهير.

و أخيراً فإنّ الجملة الخامسة تشير إلى أنّ كلّ ضلال عن سبيل الله لا ينفكّ عن نسيان يوم الحساب، و من ينسى يوم الحساب فإنّ عذاب الله الشديد ينتظره إنّ الدّين يضلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحسابِ .

و من الطبيعي أنّ نسيان يوم القيامة هو مصدر الضلال، و كلّ ضلال مرتبط بالنسيان، و هذا المبدأ يوضّح التأثير التربوي في الاهتمام بالمعاد في حياة البشر.

و لقد وردت روايات بهذا الشأن في المصادر الإسلاميّه، و منها حديث مشهور

عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و عن أمير المؤمنين عليه السّلام جاء فيه: «أيتها الناس، إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: أتباع الهوى، و طول الأمل، فأما أتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فينسى الآخرة» (١).

أليس من الأفضل كتابه هذا الحديث بماء الذهب، و وضعه أمام الجميع خاصّه الحكّام و القضاة و المسؤولين.

و

في روايه اخرى وردت عن الإمام الباقر عليه السّلام، جاء فيها: «ثلاث موبقات: شحّ مطاع، و هوى متّبع، و إعجاب المرء بنفسه» (٢).

و تتمّه للبحث الذي استعرض حال داود و خلافته في الأرض، تنطرق الآيات لأهداف خلق عالم الوجود، كي تشخّص أسباب الحكومه على الأرض التي هي جزء من ذلك العالم، و جاء في قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِإِذْنِكُمْ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

هناك مسأله مهمّه تعدّ مصدراً لكلّ الحقوق، و هي: ما الهدف من وجود الخلق؟ فعند ما ننظر إلى هذا العالم الواسع، و نوافق على أنّ هذا العالم الواسع لم يخلقه الله عبثاً، نتابع الهدف من وراء ذلك الخلق، الهدف الذي يمكن إيجازه في كلمات

ص: ٤٩١

١-١ - نهج البلاغه، الخطبه (٤٢).

٢-٢ - كتاب «الخصال» نقلاً عن نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحه ٤٥٣.



قصيره و عميقه، و هي (التكامل) و (التعليم) و (التربية) و من هنا نستنتج أنّ الحكومات عليها أن تسير وفق هذا الخُطّ، فعليها أن تثبت أسس التربية و التعليم لتكون أساس التكامل المعنوي عند الإنسان.

و بعبارة اخرى: إنّ الحقّ و العدل هما أساس عالم الوجود، و على الحكومات أن تعمل وفق موازين الحقّ و العدالة.

الجملة الأخيره من الآيه السابقه التي تطرقت إلى نسيان يوم الجزاء، متطابقه بصوره كامله مع الآيه مورد بحثنا، لأنّ هدف خلق العالم يوجب عدم نسيان يوم الجزاء و الحساب، و كما قلنا في بحث المعاد (في آخر سورہ يس) لو لم يكن هناك يوم للحساب، فإنّ خلق العالم يعدّ عبثاً.

و نهايه هذه الآيه تشير إلى خطوط واضحه تفصل بين الإيمان و الكفر، و إعتقاد المذهب الإلحادي بعدم جدوى خلق العالم هو مثال للابتلاءات التي ابتلينا بها اليوم، إذ أنّ أتباع ذلك المذهب يعلنون بصراحه أنّ خلق العالم لا فائده فيه، و لا هدف يرتجى من ورائه، فمن يفكر هكذا كيف يتمكّن من تطبيق الحقّ و العدالة في حكومته؟! الحكومه الوحيده التي تستطيع تطبيق الحقّ و العدالة، هي الحكومه التي تستلهم أفكارها و معتقداتها من المبادئ الإلهيه، و التي تقول إنّ الباري عزّ و جلّ لم يخلق العالم عبثاً و إنّما خلقه لأهداف و أغراض معينه، كي تسير الحكومات وفق تلك الأهداف، و إذا كان العالم الإلحادي قد وصل اليوم إلى طريق مسدود في شؤون الحكم و الحرب و السلام و في الإقتصاد و الثقافه، فالسبب الرئيسي يكمن في ابتعادهم عن هذا الأمر، و لهذا فإنّ أسس حكوماتهم تقوم على الظلم و التسلّط، فكم تكون الدنيا موحشه و رهيبه إذا أصبحت تدار وفق هذا النوع من التفكير العشوائي! على أيّه حال، فإنّ الباري عزّ و جلّ حكيم، و من غير الممكن أن يخلق هذا

العالم من دون هدف، فالعالم هذا مقدمه لعالم آخر أكبر و أوسع من عالمنا هذا، و هو أبدى و خالد يوضّح الأهداف الحقيقيه وراء خلق عالم الدنيا.

الآيه التاليه تضيف: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (١).

كما أنّ عدم وجود هدف من خلق العالم يعدّ أمراً مستحيلاً، فمن المستحيل أيضاً المساواه بين الصالحين و الطالحين، لأنّ المجموعه الاولى كانت تخطو خطواتها وفق أهداف خلق العالم للوصول إلى الغايه النهائيه، بينما كانت المجموعه الثانيه تسير باتجاه مخالف لمسير المجموعه الاولى.

الواقع أنّ بحث المعاد بكافّه أبعاده قد تمّ تناوله في هذه الآيه و الآيه التي سبقتها بشكل مستدلّ.

فمن جهه تقول: إنّ حكمه الخالق تقتضى أن يكون لخلق العالم هدف، و هذا الهدف لا يتحقّق بعدم وجود عالم آخر، لأنّ الأيام القلائل التي يعيشها الإنسان في هذه الدنيا لا قيمه لها بالنسبه للهدف الرئيسى الكامن وراء خلق هذا العالم الواسع.

و من جهه اخرى، فإنّ حكمه و عداله البارى عزّ و جلّ تفرض أن لا يتساوى المحسن و المسىء و العادل و الظالم، و لهذا كان البعث و الثواب و العقاب و الجنّه و النار.

و بغضّ النظر عن هذا، فعند ما ننظر إلى ساحه المجتمع الإنسانى في هذه الدنيا نشاهد الفاجر في مرتبه المؤمن، و المسىء إلى جانب المحسن، و لربّما في أكثر الأحيان نرى المفسدين المذنبين يعيشون في حاله من الرفاه و التنعم أكثر من غيرهم، فإذا لم يكن هناك عالم آخر بعد عالمنا هذا لتطبيق العداله هناك، فإن

ص: ٤٩٣

١ - ١) - بعض المفسرين قالوا: إنّ (أمّ) هنا تعطى معنى (بل) للاضراب، و هنا احتمال آخر يقول: إنّ (أم) جاءت للعطف على استفهام محذوف، و تقدير الآيه هو (أ خلقنا السموات و الأرض باطلا أم نجعل المتقين كالفجار؟).

وضع العالم هذا مخالف «للحكمة» و«للعدالة»، وهذا هو دليل آخر على مسألة المعاد.

و بعبارة اخرى، فلا إثبات مسألة المعاد-أحيانا-يمكن الاستدلال عليها عن طريق برهان (الحكمة) و أحيانا اخرى عن طريق برهان (العدالة)، فالآية السابقة استدلال بالحكمة، والآية التي بعدها استدلال بالعدالة.

الآية الأخيرة في بحثنا هذا تشير إلى موضوع يوضح-في حقيقته الأمر-الهدف من الخلق، إذ جاء في الآية الكريمة: **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .**

فتعليماته خالده، وأوامره عميقة و أصيلة، ونظمه باعته للحياة و هاديه للإنسان إلى الطريق المؤدى إلى اكتشاف هدف الخلق.

فالهدف من نزول هذا الكتاب العظيم لم يقتصر-فقط-على تلاوته و تلفظ اللسان به، بل لكي تكون آياته منبعاً للفكر و التفكير و سبباً ليقظه الوجدان، لتبعث بدورها الحركة في مسير العمل.

كلمه (مبارك) تعنى شيئاً ذا خير دائم و مستمر، أمياً في هذه الآية فإنها تشير إلى دوام استفادة المجتمع الإنساني من تعليماته، و لكونها استعملت هنا بصورة مطلقه، فإنها تشمل كل خير و سعادة في الدنيا و الآخرة.

و خلاصه الأمر، فإن كل الخير و البركة في القرآن، بشرط أن نتدبر في آياته و نستلهم منها و نعمل بها.

\*\*\*

## ملاحظتان

### إشارة

#### أ- التقوى و الفجور أمام بعضهما البعض

في الآيات المذكورة أعلاه، ورد الفساد في الأرض في مقابل الإيمان و العمل

الصالح، و الفجور (الذى يعنى تمزيق حجب الدين) فى مقابل التقوى و الورع.

هل أنّ هذين الإثنيين، يوضّحان حقيقته واحده فى عبارتين، أم أنّهما يوضّحان موضوعين؟ من غير المستبعد أن يكون الاثنان تأكيدا لمعنى واحد، لأنّ (المتّقين) هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح و (الفجّار) هم المفسدون فى الأرض.

و يحتمل فى أن تكون الجملة الاولى هى إشاره إلى الجوانب العمليه و العقائديه لكلا الطرفين، إذ تقارن بين أصحاب العقائد الصحيحه و الأعمال الصالحه و بين أصحاب العقائد الفاسده و الأعمال الخبيثه، فى حين أنّ الجملة الثانيه تشير فقط إلى الجانب العملى.

و يحتمل أيضا أنّ (التقوى و الفجور) شاهدان على كمال و نقص الإنسان، و العمل الصالح و الفساد فى الأرض شاهدان على الجوانب الاجتماعيه، و لكن التأكيد يعدّ أنسب.

## ٢- لمن تعنى هذه الآيات؟

جاء فى إحدى الروايات التى تفسّر قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَنَّهَا إشاره إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام و أنصاره، فى حين أنّ بقيه الآيه كالمفسدين فى الأرض إشاره إلى أعدائه (١).

و جاء فى حديث آخر نقله (ابن عساكر) عن ابن عباس، فى أنّ المقصودين فى الآيه الَّذِينَ آمَنُوا «على» و «حمزه» و «عبيده» الذين واجهوا فى معركة بدر كلا من «عتبه» و «الوليد» و «شيبه» و رموز جيش الكفر و الشرك (و تمكّنوا من قتلهم فى ساحه المعركه. فبهذا يكون عتبه و الوليد و شيبه هم المقصودين فى الآيه

ص: ٤٩٥

١- ١) - تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، الصفحه ٤٥٣ (الحديث ٣٧).

الواضح من معنى هذه الروايات أنّها لا تحصر مفهوم الآية في أفراد معينين، و إنّما هي بيان لأسباب النزول، أو أنّها مصداق واضح و بارز لهذه الآية.

\*\*\*

ص: ٤٩٦

---

(١ - ١) - تفسير روح المعاني، المجلد ٢٣، الصفحة ١٧١.

اشاره

وَهَبْنَا لِـدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)

التفسير

اشاره

سليمان عليه السلام يستعرض قوائمه القتاليه:

هذه الآيات تواصل البحث السابق بشأن داود عليه السلام.

فالآيه الاولى تزفّ البشرى لداود في أنه سيرزق بولد صالح هو سليمان، و سيتولّى الحكم و أعباء الرساله من بعده، و تقول: وَ هَبْنَا لِـدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

هذه الجملة تبين عظمه مقام سليمان، و يحتمل كونها ردًا على الاتهامات القبيحه و العاريه من الصحه الوارده في التوراه المحرّفه عن ولاده سليمان من زوجه أوريا، و التي كانت شائعه في المجتمع قبل نزول القرآن.

فعباره (وهبنا) من جهه و(نعم العبد) من جهه اخرى، و للتعليل (إنه أواب) أى

(الشخص المطيع لله و الممثل لأوامره، و الذى يتوب إلى البارى عزّ و جلّ إثر أبسط غفله أو زلّه) من جهه ثالثه، كلّها تدلّ على عظمه مقام هذا النّبى الكبير.

و عبارته (إنّه أوّاب) هى نفس العبارة التى جاءت بحقّ والده داود فى الآيه (١٧) من نفس السوره، و رغم أنّ كلمه (أوّاب) صيغته مبالغه و تعنى كثير الرجوع و غير محدوده، فإنّها هنا تعنى العوده لطاعه الأمر الإلهى، العوده إلى الحقّ و العداله، العوده من الغفله و ترك العمل بالأولى.

الآيه التاليه تبدأ بقصّه خيل سليمان، التى فسّرت بأشكال مختلفه، حيث أنّ البعض فسّرها بصوره سيئه و معارضه لموازن العقل، حتّى أنّه لا يمكن إيرادها بشأن إنسان عادى، فكيف ترد بحقّ نبي عظيم كسليمان عليه السلام.

و لكن المحقّقين بعد بحثهم فى الدلائل العقليّه و النقليه أغلقوا الطريق أمام أمثال هذه التفسيرات، و قبل أن نخوض فى الاحتمالات المختلفه الوارده، نفسيّر الآيات وفق ظاهرها أو (وفق أقوى احتمال ظاهرى لها) لكى نوضّح أنّ القرآن الكريم خال من مثل هذه الادّعاءات المزيّفه التى فرضت على القرآن من قبل الآخرين.

إذ يقول القرآن: إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ .

«صافنات» جمع (صافنه) و قال معظم اللغويين و المفسّرين: إنّها تطلق على الجياد التى تقوم على ثلاث قوائم و ترفع أحد قوائمها الإماميه قليلا ليمسّ الأرض على طرف الحافر، و هذه الحاله تخصّ الخيول الأصليه التى هى على أهبة الاستعداد للحركه فى أيّه لحظه (١).

«الجياد» جمع (جواد) و تعنى الخيول السريعه السير، و كلمه «جواد» مشتقّه فى الأصل من (جود)، و الجود عند الإنسان يعنى بذل المال، و عند الخيول يعنى سرعه سيرها. و بهذا الشكل فإنّ الخيول المذكوره تبدو كأنّها على أهبة الاستعداد

ص: ٤٩٨

١- ١) - و يرى البعض: إنّ (صافنات)، تستعمل للمذكّر و المؤنث، و لهذا فإنّها لا تختصّ بإنث الخيل.

للحركة أثناء حاله توقّفها، وإنّما سريعه السير أثناء عدوها.

و يستشف من الآيه مع القرائن المختلفه المحيطه بها، أنّه في أحد الأيام و عند العصر استعرض سليمان عليه السّلام خيوله الأصيله التي كان قد أعدّه الجهاد أعدائه، إذ مرّت تلك الخيول مع فرسانها أمام سليمان عليه السّلام في استعراض منسق و مرتّب. و بما أنّ الملك العادل و صاحب النفوذ عليه أن يمتلك جيشا قويًا، و الخيول السريعه إحدى الوسائل المهمّه التي يجب أن تتوفّر لدى ذلك الجيش، فقد جاء هذا الوصف في القرآن بعد ذكر مقام سليمان باعتباره نموذجًا من أعماله.

و لكي يطرد سليمان التّصوّر عن أذهان الآخرين في أنّ حبّه لهذه الخيول القويّه ناتج من حبّه للدنيا، جاء في قوله تعالى: **فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي أِنِّي أَحْبَبْتُ هَذِهِ الْخَيْلَ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ وَ تَنْفِذَ أَمْرِهِ، وَ أُرِيدُ الْاِسْتِفَادَةَ مِنْهَا فِي جِهَادِ الْأَعْدَاءِ.**

لقد ورد أنّ العرب تسمّى «الخيّل» خيرا، و

في حديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال فيه: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة» (١).

و استمرّ سليمان عليه السّلام ينظر إلى خيله الأصيله المستعدّه لجهاد أعداء الله، و هو يعيش حاله من السرور، حتّى توارت عن أنظاره حتّى **تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**.

كان هذا المشهد جميلا و لطيفا لقائد كبير مثل سليمان، بحيث أمر بإعادة عرض الخيل مرّه اخرى **رُدُّوْهَا عَلَيَّ**. و عند ما نفذت أوامره بإعادة الخيل، عمد سليمان عليه السّلام إلى مسح سوقها و أعناقها **فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ**.

و بهذا الشكل أشاد بجهود مدربي تلك الخيول، و أعرب لهم عن تقديره لها، لأنّ من الطبيعي لمن أراد أن يعرب عن تقديره للجواد أن يمسح رأس ذلك الجواد و وجهه و رقبتة و شعر رقبتة، أو يمسح على ساقه. و أبرز في نفس الوقت تعلقه

ص: ٤٩٩

١-١) -مجمع البيان في ذيل الآيات مورد بحثنا، قال البعض: إنّ (خير) الواردة في الآيه الأنفه الذكر تعنى المال أو المال الكثير، و هذا التفسير من الممكن أن يتطابق مع التفسير السابق، لأنّ مصداق المال هنا هو الخيل.



الشديد بخيله التي تساعده في تحقيق أهدافه العليا السامية، وتعلق سليمان الشديد بخيله ليس بأمر يبعث على العجب.

«طفق» باصطلاح النحويين من أفعال المقاربه، وتأتى بمعنى «شرع».

«سوق» هى جمع (ساق) و(أعناق) جمع (عنق) ومعنى الآية هو أن سليمان شرع بمسح سوق الجياد و أعناقها.

ما ذكرناه بشأن تفسير هذه الآية يتطابق مع ما ذهب إليه بعض المفسرين كالفخر الرازى، كما تمت الاستفادة من بعض ما ورد عن العالم الشيعى الكبير السيد المرتضى، إذ قال فى كتابه (تنزيه الأنبياء) فى باب نفي الادعاءات الباطله و المحرّمه التى ينسبها بعض المفسرين و رواه الحديث إلى سليمان (إنّ الله تعالى ابتداء الآية بمدحه و الثناء عليه فقال: نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ فلا يمكن أن يثنى عليه بهذا الثناء ثم يتبعه من غير فصل بإضافه القبيح إليه، و أنّه يتلّهى بعرض الخيل عن فعل المفروض عليه من الصلاه، و الذى يقتضيه الظاهر أنّ حبه للخيل و شغفه بها كان عن إذن ربّه و بأمره و بتذكيره إيّاه، لأنّ الله تعالى قد أمرنا بإرباط الخيل و إعدادها لمحاربه الأعداء، فلا ينكر أن يكون سليمان عليه السّلام مأمورا بمثل ذلك) (١).

أمّا العلّامه المجلسى فقد ذكر فى كتابه (بحار الأنوار) فى باب النبوه، تفسيراً لهذه الآيات يشابه كثيراً ما ذكر أعلاه (٢).

على أيّه حال -وفق هذا التفسير- لم يصدر من سليمان أى ذنب، و لم يحدث أى خلل فى ترتيب الآيات، و لا تبدو أيّه مشكله حتّى نعمد إلى توضيحها (٣).

و الآن نستعرض تفاسير اخرى لمجموعه من المفسرين بشأن هذه الآيات و أشهرها، ذلك التفسير الذى يعود بالضمير فى جملتى (توارت) و(ردّوها) إلى

ص: ٥٠٠

١- ١) -تنزيه الأنبياء، الصفحه ٩٣.

٢- ٢) -بحار الأنوار، المجلد ١٤، الصفحه ١٠٤.

٣- ٣) -طبقاً لهذا التفسير فإنّ الضمير فى عبارتى (توارت) و(ردّوها) يعود على الخيل الماهره و الحاذقه (الصافنات الجياد).

(الشمس) التي لم ترد في تلك الآيات، ولكنهم استدلوا عليها من كلمة (العشى) (التي تعنى آخر النهار بعد الزوال) الموجوده في آيات بحثنا.

و بهذا الشكل فإن الآيات تعطى المفهوم التالي، إن سليمان كان غارقا في مشاهده الخيل و الشمس قد غربت و استترت خلف حجاب الأفق، فغضب سليمان كثيرا لأنه لم يكن قد صلى صلاه العصر، فنادى ملائكه الله، و دعاها إلى ردّ الشمس، فاستجابت له الملائكه و ردتها إليه، أى رجعت فوق الأفق، فتوضأ سليمان (المراد بمسح السوق و الأعناق هو أداء الوضوء الذى كان حينذاك يعمل به وفق سنّه سليمان، و بالطبع فإن كلمه (المسح) تأتي أحيانا في لغه العرب بمعنى الغسل) ثم صلى.

البعض ممن ليس لديهم الاطلاع الكافى تحدّثوا بأكثر من هذا، و نسبوا أموراً سيئته و محرّمه اخرى إلى هذا النبى الكبير، عند ما قالوا: إن المقصود من جمله فَطَفِقَ مَسِيحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ هو أنه أمر بضرب سوق و أعناق الخيل بالسيف، أو أنه نفذ هذا الأمر بشخصه، لأنها شغلته عن ذكر الله و الصلاه.

طبعى أن بطلان التفسير الأخير لا يخفى على أحد، لأنّ الخيول لا ذنب لها كى يقتلها سليمان بحدّ السيف، فإن كان هناك ذنب فقد ارتكبه هو، لأنه كان غارقا في مشاهده خيله، و نسى صلاته.

و أحيانا فإن قتل الخيل إسراف إضافه إلى كونه جريمه، فكيف يمكن أن يصدر مثل هذا العمل المحرّم من نبى، أمّا الروايات التى وردت من المصادر الإسلاميه بشأن هذه الآيه فإنّها تنفى - بشدّه - هذه التهمه الموجهه إلى سليمان عليه السلام.

أمّا التفاسير السابقه التى قالت بنسيان سليمان و غفلته عن أداء صلاه العصر، فهى موضع السؤال التالى، هل يمكن لنبى معصوم أن ينسى واجبا مكلفا به؟ رغم أن استعراضه للخيول كان واجبا آخر مكلفا به، إلا إذا كانت الصلاه - كما قال

البعض -صلاه مندوبه أو مستحبّه، و نسيانها لا يسبّب أيّه مشاكل، و لكن إن كانت صلاه نافله فلا ضروره إذن لردّ الشمس.

إذا انتهينا من هذا، فهناك إشكالات اخرى وردت بشأن هذا التفسير.

١- كلمه (الشمس) لم تأت بصوره صريحه فى الآيات، فى حين أنّ الخيل الصّافنات الجياد جاء ذكرها صريحا، و نرى من المناسب أن نعود بالضمير على شىء صرّحت به الآيات.

٢- عبارته عن ذكر ربّي ظاهرها يعنى أنّ حبّ هذه الخيل إنّما هو ناشئ من ذكر و طاعه أمر الله، فى حين -طبقا للتفسير الأخير- تعطى كلمه (عن) معنى (على) و يكون معنى العبارة، إنّى آثرت حبّ الخيل على حبّ ربّي، و هذا المعنى مخالف لظاهر الآيه.

٣- الأعبج من كلّ ذلك هى عبارته رُدُّوها علىّ التى تحمل صفه الأمر، فهل يمكن أن يخاطب سليمان البارى عزّ و جلّ أو ملائكته بصيغه الأمر، أن ردّوا علىّ الشمس، كما يخاطب عبده أو خدمه.

٤- قضيه ردّ الشمس، رغم أنّها فى مقابل قدره البارى عزّ و جلّ تعدّ أمرا يسيرا، إلاّ أنّها تواجه بعض الإشكالات بحيث جعلتها أمرا لا يمكن قبوله من دون توفر أدلّه واضحه عليها.

٥- الآيات المذكوره أعلاه تبدأ بمدح و تمجيد سليمان، فى حين أنّ التفسير الأخير لها يعطى معنى الذمّ و التحقير.

٦- إذا كانت الصلاه المتروكه واجبه، فتعليقها يعدّ أمرا صعبا، أمّا إذا كانت نافله فلا داعى لردّ الشمس.

السؤال الوحيد المتبقى هنا، هو أنّ هذا التفسير ورد فى عدّه روايات فى مصادر الحديث، و إذا دققنا جيّدا فى إسناد هذه الأحاديث، يتضح لنا أنّها جميعا

تفتقد السند الموثوق المعتبر، وأن أكثر هذه الروايات موضوعه.

أليس من الأفضل صرف النظر عن تلك الروايات غير الموثوقة، وإرجاع علمها إلى أصحابها، وتقبّل كلّ ما بيّنه ظاهر الآيات بذهنيه صافيه و متفتّحه، لنريح أنفسنا من عناء الإشكالات الفارغه.

\*\*\*

ص: ٥٠٣

اشاره

وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْنَا عَلَيَّ كُوزَيْيَهٗ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِيْدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ  
الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَ عَوَاصٍ (٣٧) وَ آخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي  
الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ (٤٠)

التفسير

اشاره

الامتحان الصعب لسليمان و ملكه الواسع:

هذه الآيات تتحدّث عن أحداث اخرى من قصّه سليمان، و تبين أنّ الإنسان مهما امتلك من قوّه و قدره، فإنّها ليست منه، بل إنّ كلّ ما عنده هو من الله سبحانه و تعالى، هذا الموضوع يزيل حجب الغرور و الغفله عن عين الإنسان، و يجعله يشعر بصغر حجمه قياسا إلى هذا الكون.

القسم الأوّل من الآيات يتطرّق إلى أحد الامتحانات التي امتحن الله بها عبده

سليمان، الامتحان في ترك العمل بالأولى، وكيف توجه بعدها سليمان بقلب خاشع إلى الله سبحانه و تعالى طالبا منه العفو و التوبه لتركه العمل بالأولى.

إيجاز محتوى الآيات، سمح مرّه اخرى لنا سجي قصص الخيال أن ينسجوا قصصا خياليه وهميه اخرى، و يلصقوا التّهم بهذا النّبي الكبير ما لا يليق بالنّبوه، و يتنافى مع مقام العصمه، و يتنافى أساسا مع المنطق و العقل، و هذا بحدّ ذاته إمتحان للمحقّقين في علوم القرآن، فلو أنّا اكتفينا بما طرحه آيات القرآن لما بقيت ثغره لنفوذ الخرافات و الأباطيل.

الآيه الاولى في بحثنا هذا تقول: **وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ .**

«الكرسى» يعنى الأريكه ذات الأرجل القصيره، و يبدو أنّه كان للسلطين نوعان من الكراسى، الأوّل: له أرجل قصيره يستخدم في الأوقات العاديه، و الثانى: له أرجل أطول يستخدمها السلطين في اجتماعاتهم الرسميه، و يطلق على الأوّل اسم (كرسى) و على الثانى اسم (عرش).

«الجسد» يعنى الجسم الذى لا روح فيه، و كما يقول الراغب في مفرداته: إنّ لها مفهوما أكثر محدوديه من مفهوم الجسم، لأنّ كلمه الجسد لا تطلق على غير الإنسان إلا نادرا، و لكن كلمه الجسم لها طابع عام.

يستفاد من هذه الآيات بصوره عامّه أنّ موضوع إمتحان سليمان كان بواسطه جسد خال من الروح القى على كرسية و أمام عينيه، أمر لم يكن يتوقّعه، و آماله كانت متعلّقه بشيء آخر، و القرآن لا يعطى تفصيلات اخرى في هذا المجال.

و قد أورد المفسّرون و المحدثون تفسيرات متعدّده في هذا المجال، أفضلها و أوضحها ما يلي:

إنّ سليمان عليه السّلام كان متزوجا من عدّه نساء، و كان يأمل أن يرزق بأولاد صالحين شجعان ليساعدوه في إداره شؤون البلاد و جهاد الأعداء، فحدّث نفسه

يوما قائلا: لأطوفنّ على نسائي كي ارزق بعدد من الأولاد لعلهم يساعدونني في تحقيق أهدافي، و لكونه غفل عن قول (إن شاء الله) بعد تمام حديثه مع نفسه، تلك العبارة التي تبين توكل الإنسان على الله سبحانه و تعالى في كلّ الأمور و الأحوال، فلم يرزق سوى ولد ميت ناقص الخلقه جيء به و القى على كرسي سليمان عليه السلام.

سليمان عليه السلام غرق- هنا- في تفكير عميق، و تألم لكونه غفل عن الله لحظه واحده و اعتمد على قواه الذاتيه، فتاب إلى الله و عاد إليه.

و هناك تفسير آخر يمكن طرحه بعد التفسير الأول و هو: إنّ الله سبحانه و تعالى امتحن سليمان بمرض شديد، بحيث طرحه على كرسيه كجسد بلا روح من شدّه المرض، و عبارة (جسد بلا روح) مألوفه و دارجه في اللغة العربية إذ تطلق على الإنسان الضعيف و العليل.

و في نهايه الأمر تاب سليمان إلى الله، و أعاد الله إليه صحته، و عاد كما كان قبل مرضه (و المراد من (أناب) هنا عوده الصحه و العافيه إليه).

بالطبع هناك إشكال ورد على هذا التفسير إذ أنّ عبارة (ألقينا) كان يجب أن تأتي بصوره (ألقيناه) حتّى تتناسب مع التفسير المذكور أعلاه، يعني أنّا ألقينا سليمان على كرسيه جسدا بلا-روح، في حين أنّ هذه العبارة لم ترد في الآية بتلك الصوره، و تقديرها مخالف للظاهر.

عبارة (أناب) في هذا التفسير جاءت بمعنى عوده الصحه و العافيه إليه، و هذا أيضا مخالف للظاهر، أمّا إذا اعتبرنا أنّ معنى (أناب) هو التوبه و العوده إلى الله، فإنّها لا تلحق أي ضرر بالتفسير، و لهذا فإنّ الشيء الوحيد المخالف لظاهر الآية- هنا- هو حذف ضمير عبارة (ألقيناه).

القصص الكاذبه و القبيحه التي تحدّثت عن فقدان خاتم سليمان، و عثور أحد الشياطين عليه، و جلوس ذلك الشيطان على عرش سليمان، كما ورد في بعض الكتب التي لا يستبعد أن يكون مصدرها هو كتاب (التلمود) اليهودي المليء

بالخرافات الإسرائيلييه بما لا يتناسب مع العقل و المنطق.

و هذه القصص -في حقيقه الأمر- دليل انحطاط أفكار مبتدعيها، و لهذا فإنّ المحققين المسلمين أينما ذكروها أعلنوا بصراحه زيفها و كونها مجرد اختلاقات، و قالوا: إنّ مقام النبوه و الحكومه الإلهيه غير مرتبط بالخاتم، و لم يستردّ البارى عزّ و جلّ النبوه من أحد أنبيائه بعد أنّ بعثه بها، حتّى يبعث الشيطان بصوره نبي ليجلس مكان سليمان (٤٠) يوما يحكم فيها بين الناس و يقضى بينهم (١).

على أيه حال، فإنّ القرآن الكريم -من خلال الآيه التاليه- يكرّر الحديث بصوره مفصّله حول قضيه توبه سليمان التى وردت فى آخر عباره تضمّنتها الآيه السابقه: قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.\*\*\*

**هنا يطرح سؤالان:**

**اشاره**

### **١- هل يستشفّ البخل من طلب سليمان عليه السلام**

ذكر المفسّرون أجوبه كثيره على هذا السؤال، الكثير منها لا يتطابق مع ظاهر الآيات، و الجواب الذى يبدو أكثر تناسبا و منطقيه من بقيه التفاسير هو أنّ سليمان طلب من البارى عزّ و جلّ أن يهب له ملكا مع معجزات خاصّه، كى يتميّز ملكه عن بقيه الممالك، لأننا نعرف أنّ لكلّ نبي معجزه خاصّه به، فموسى عليه السلام معجزته العصا و اليد البيضاء، و معجزه إبراهيم عليه السلام عدم إحراق النار له بعد أن القى فيها، و معجزه صالح عليه السلام الناقه الخاصّه به، و معجزه نبينا الأكرم محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم هو القرآن المجيد، و سليمان كان ملكه مقترنا بالمعجزات الإلهيه، كتسخير الرياح و الشياطين له مع

ص: ٥٠٧

---

١ - ١) - و للإيضاح أكثر فى أنّ كتب اليهود هى مصدر مثل هذه الخرافات، يراجع كتاب (أعلام القرآن) موضوع سليمان فى القصص الصفحه ٣٩٢.



مميّزات اخرى.

و هذا الأمر لا يعدّ عيباً أو نقصاً بالنسبة للأنبياء الذين يطلبون من الله أن يؤيّدهم بمعجزه خاصّه، كي يبرهنوا للناس على صدق نبوتهم، ولهذا فلا يوجد أى مانع فى أن يطلب الآخرون ملكاً أوسع و أكبر من ملك سليمان، و لكن لا تتوفر فيه الخصائص التى أعطيت لسليمان.

و الدليل على هذا الكلام الآيات التالیه، و التى هى فى الحقيقة- تعكس استجابته البارئ عزّ و جلّ لطلب سليمان، و تحدّث عن تسخير الرياح و الشياطين لسليمان، و كما هو معروف فإنّ هذا الأمر هو من خصائص ملك سليمان.

و من هنا يتّضح جواب السؤال الثانى الذى يقول، وفقاً لعقائدنا نحن المسلمون، فإنّ ملك المهدي (عجل الله تعالى فرجه) سيكون ملكاً عالياً، و بالنتيجة سيكون أوسع من ملك سليمان. لأنّ ملك المهدي (عجل الله تعالى فرجه) مع سعته و خصائصه التى تميّزه عن بقيه الممالك، فإنّه يبقى من حيث الخصائص مختلفاً عن ملك سليمان، و ملك سليمان يبقى خاصّاً به. خلاصه الأمر أنّ الحديث لم يختصّ بزياده و نقصان و توسعه ملكه و طلب الإختصاص به، و إنّما اختصّ الحديث بكمال النبوه و الذى يتمّ بوجود معجزات خصوصيه، لتميّزه عن نبوه الأنبياء الآخرين، و سليمان كان طلبه منحصرًا فى هذا المجال.

و

لقد ورد فى بعض الروايات المنقوله عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السّلام فى ردّه على سؤال يقول: إنّ دعوه سليمان فيها بخل، إذ جاء فى الحديث أنّ أحد المقرّبين عن الإمام الكاظم عليه السّلام و هو على بن يقطين سأل الإمام عليه السّلام قائلاً: أ يجوز أن يكون نبي الله عزّ و جلّ بخيلاً؟ فقال: «لا».

فقلت له: فقول سليمان عليه السّلام: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي مَا وَجَّهَهُ وَ مَعْنَاهُ؟

ص: ٥٠٨

فقال: «الملك ملكان: ملك مأخوذ بالغلبة و الجور و إجبار الناس، و ملك مأخوذ من قبل الله تعالى كملك آل إبراهيم و ملك طالوت و ذى القرنين، فقال سليمان عليه السلام:

هب لى ملكا لا- ينبغى لأحد من بعدى أن يقول إنه مأخوذ بالغلبة و الجور و إجبار الناس، فسخر الله عزّ و جلّ له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، و جعل غدوّها شهرا و رواحها شهرا، و سخر الله عزّ و جلّ له الشياطين كلّ بناء و غوّاص، و علم منطق الطير و مكنّ فى الأرض، فعلم الناس فى وقته و بعده أنّ ملكه لا- يشبه ملك الملوك المختارين من قبل و المالكين بالغلبة و الجور.

قال: فقلت له: فقول رسول الله: «رحم الله أخى سليمان بن داود ما كان أبخله»؟ فقال: «لقوله عليه السلام و جهان: أحدهما: ما كان أبخله بعرضه و سوء القول فيه، و الوجه الآخر يقول: ما كان أبخله إن كان أراد ما كان يذهب إليه الجهال» (1).

الآيات التالية تبين- كما قلنا- موضوع استجابته الله سبحانه و تعالى لطلب سليمان و منحه ملكا يتميز بامتيازات خاصه و نعم كبيره، يمكن إيجازها فى خمسة أقسام:

1- تسخير الرياح له بعنوان واسطه سريعه السير، كما تقول الآيه: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ .

من الطبيعى أنّ الملك الواسع الكبير يحتاج إلى واسطه اتّصال سريعه، كى يتمكن صاحب ذلك الملك من تفقّد كلّ مناطق مملكته بسرعه فى الأوقات الضرورية، و هذا الامتياز منحه البارى عزّ و جلّ لسليمان عليه السلام.

أمّا كيف كانت الرياح تطيع أوامره؟ و بأى سرعه كانت تسير؟ و على أى شىء كان سليمان و أصحابه يركبون أثناء انتقالهم من مكان إلى آخر عبر الرياح؟

ص: ٥٠٩

و ما هي العوامل التي كانت تحفظهم من السقوط و من انخفاض و ارتفاع ضغط الهواء، و غيرها من المشاكل.

خلاصه الأمر: ما هي هذه الواسطه السريه و ذات الأسرار الخفيه التي كانت موضوعه تحت تصرف سليمان في ذلك العصر؟ تفاصيل هذه التساؤلات ليست واضحة بالنسبه لنا، و كل ما نعرفه أن تلك الأمور الخارقه توضع تحت تصرف الأنبياء لتسهل لهم القيام بمهامهم. و هذه القضايا ليست بقضايا عاديه، و إنما هي نعم خارقه و معجزات، و هذه الأشياء تعدّ شيئاً بسيطاً في مقابل قدره الباري عزّ و جلّ، و ما أكثر المسائل التي نعرف أصلها في الوقت الذي لا نعرف أي شيء عن جزئياتها.

و هنا يطرح سؤال، و هو: كيف يمكن أن تتطابق عبارته (رخاء) الواردة في هذه الآيه، و التي تعني (اللين) مع عبارته (عاصفه) و التي تعني الرياح الشديده و الواردة في الآيه (٨١) من سوره الأنبياء: **وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**.

لهذا السؤال جوابان:

الأول: وصف الرياح بالعاصفه لبيان سرعه حركتها، و وصفها بالرخاء لبيان حركتها الهادئه و الرتيبه، أي إنّ سليمان و أصحابه لم يكونوا يشعرون بأيّ انزعاج من جرّاء حركه الرياح السريعه، فهي كالوسائل السريعه السير الموجوده حالياً، التي يشعر الإنسان معها كأنه جالس في إحدى غرف بيته، بينما تسير به تلك الوسيله بسرعه عاليه جدّاً.

و قد ذكر بعض المفسّرين جواباً آخر على ذلك السؤال، و هو: إنّ هاتين الآيتين تشيران إلى نوعين من الرياح سخّرها الله سبحانه و تعالى لسليمان، إحداهما كانت سريعه السير، و الثانيه بطيئه.

٢- النعمه الاخرى التي أنعمها الباري عزّ و جلّ على عبده سليمان عليه السّلام، هي

تسخير الموجودات المتمرده و وضعها تحت تصرف سليمان لتنجز له بعض الأعمال التي يحتاجها و الشياطين كَلِّ بِنَاءٍ وَ غَوَاصٍ  
(١).

أى إنَّ مجموعه منها مشغله فى البرِّ ببناء ما يحتاج إليه سليمان من أبنيه، و اخرى مشغله بالغوص فى البحر.

و بهذا الشكل فإنَّ الله وضع تحت تصرف سليمان قوّه مستعدّه لتنفيذ ما يحتاج إليه، فالشياطين-التي من طبيعتها التمرد و العصيان-سخرت لسليمان لتبني له، و لتستخرج المواد الثمينه من البحر.

و مسأله تسخير الشياطين لسليمان و تنفيذها لما يحتاج إليه، لم ترد فى هذه الآيه فقط، و إنما وردت فى عدّه آيات من آيات القرآن المجيد، و لكن فى بعض الآيات-كالآيه التي هى مورد بحثنا و الآيه (٨٢) من سوره الأنبياء استخدمت كلمه (الشياطين) فيها، فيما استخدمت كلمه (الجنّ) فى الآيه (١٢) من سوره سبأ.

و كما قلنا سابقا فإنَّ (الجنّ) موجودات مخفيه عن أنظارنا، و لها عقول و شعور و قدره، و بعضها مؤمن و بعضها الآخر كافر، و لا يوجد هناك أى مانع من أن توضع -بأمر من الله- تحت تصرف بعض الأنبياء، لتنجز له بعض الأعمال.

و هناك احتمال وارد أيضا، و هو أنّ كلمه الشياطين لها معنى واسع قد يشمل حتّى العصاه من البشر، و قد استخدم هذا المعنى فى الآيه (١١٢) من سوره الأنعام، و بهذا الترتيب فإنَّ الله سبحانه و تعالى منح سليمان قوّه جعلت حتّى المتمردّين العصاه ينصاعون لأوامره.

٣-النعمة الاخرى التي أنعمها البارى عزّ و جلّ على سليمان، هى سيطرته على مجموعه من القوى التخريبيّه، لأنّ هناك من بين الشياطين من لا فائده فيه، و لا سبيل أمام سليمان سوى تكبيّهم بالسلاسل، كى يبقى المجتمع فى أمان من

ص: ٥١١

١- ١) - (الشياطين) معطوفه على (الريح) و التي هى مفعول (سخرنا)، و (كلّ بِنَاءٍ وَ غَوَاصٍ) بدل من الشياطين.

شورهم، كما جاء في القرآن المجيد وَ آخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (١).

«مقرنين» مشتقّه من (قرن) وهى تشير إلى ربط الأيدي و الأرجل أو الرقاب بالسلاسل.

«أصفاد» جمع (صفد) على وزن (مطر) وتعنى القيود التى تكبل بها أيدي السجناء.

وقال البعض: إنَّ عبارته مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ تعنى الجامعه التى تجمع بين الرقبه و اليدين، و هذا المعنى قريب من معنى «مقرنين» اللغوى و أكثر مناسبة له.

و هناك رأى آخر محتمل، و هو أنَّ المقصود من هذه العبارة هو أنَّ كلَّ مجموعه منهم مغلوله بسلسله واحده.

و هنا يطرح هذا السؤال: إن كان المراد من الشياطين هم شياطين الجنّ، فإنَّ أولئك لهم جسم شفاف لا يتناسب مع استخدام الأغلال و السلاسل و القيود.

لهذا قال البعض: إنَّها كناية عن اعتقال و منع تلك الشياطين من أداء أى نشاط تخريبى، و إن كان المقصود من الشياطين هم المتمردون و العصاة من بنى آدم فإنَّ الأغلال و القيود تبقى محافظه على مفهومها الأصلى، أى إنَّ استخدامها هنا وارد.

٤- النعمه الرابعه التى أنعمها الله سبحانه و تعالى على نبيه سليمان هى إعطاؤه الصلاحيات الواسعه و الكامله فى توزيع العطايا و النعم على من يريد، و منعها عمن يريد حسب ما تقتضيه المصلحه، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

عبارة بِغَيْرِ حِسَابٍ إمَّا أن تكون إشاره إلى أنَّ البارئ عزَّ و جلَّ قد أعطى لسليمان صلاحيات واسعه لن تكون مورد حساب أو مؤاخذه، و ذلك لصفه العدالة التى كان يتمتع بها سليمان فى مجال استخدام تلك الصلاحيات، أو أنَّ العطاء الإلهى لسليمان كان عظيما بحيث أنه مهما منح منه فإنه يبقى عظيما و كثيرا.

و قال بعض المفسرين: إنَّ هذه العبارة تخصّ فقط -الشياطين المقرنين

ص: ٥١٢

١-١) -«آخرين» معطوفه على (كلّ بناء) وهى بمثابة مفعول (سخرنا)، و (مقرنين) صفه ل (آخرين).

بالأصفاد، وتخطب سليمان بأنه يستطيع إطلاق سراح أى منهم (إن رأى فى ذلك صلاحاً، وإبقاء من يشاء فى قيوده إن رأى الصلاح فى ذلك).

إلا أن هذا المعنى مستبعد، لأن لا يتلاءم مع ظاهر كلمه (عطائنا).

٥- والنعمه الخامسه والأخيره التى من الله سبحانه وتعالى بها على سليمان، هى المراتب المعنويه اللائقه التى شملته، كما ورد فى آخر آيه من آيات بحثنا وإن له عندنا لرؤفى وحسن مآب .

هذه الآيه- فى الحقيقه- هى الرد المناسب على أولئك الذين يدنسون قدسيه أنبياء الله العظام بادعاءات باطله وواهيه يستقونها من كتاب التوراه الحالى المحرّف، وبهذا الشكل فإنها تبرئ ساحته من كل تلك الاتهامات الباطله والمزيّفه، وتشيد بمرتبته عند البارئ عزّ وجلّ، حتّى أن عبارته حُسن مآب التي تبشّره بحسن العاقبه والمنزله الرفيعه عند الله، هى- فى نفس الوقت- إشارة إلى زيف الادعاءات المحرّفه التى نسبتها كتب التوراه إليه، و التى تدعى أن سليمان انجرّ فى نهايه الأمر إلى عباده الأصنام إثر زواجه من امرأه تعبد الأصنام، وعمد إلى بناء معبد للأصنام، إلا أن القرآن الكريم ينفي و يدحض كل تلك البدع والخرافات.

\*\*\*

## ملاحظتان

### إشاره

#### ١- الحقائق التى تبينها لنا قصه سليمان

من دون أى شكّ، إن القرآن الكريم يهدف من ذكر تاريخ الأنبياء إتمام برامج التريبيه من خلال عكس عين الحقائق فى هذه القصص.

و من جمله الأمور التى رسمتها قصه سليمان، ما يلى:

أ: إن إمساكه بزمام امور مملكه قويّه ذات إمكانيات مادّيّه واقتصاديّة واسعاه

ص: ٥١٣

و حضاره ساطعه لا تتنافى مع المقامات المعنويه و القيم الإلهيه و الإنسانيه، كما ذكرت ذلك الآيات المذكوره أعلاه بعد انتهائها من سرد النعم الماديّه التي أجزلها الله على سليمان، إذ يقول القرآن المجيد: **وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** .

و

في حديث ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قال فيه: «أرأيتم ما أعطى سليمان بن داود من ملكه؟ فإن ذلك لم يزد إلا تخشعاً، ما كان يرفع بصره إلى السماء تخشعاً لربه» (1). ب: لإداره شؤون مملكته كبيره متراميه الأطراف، يجب توفر وسيله سريعه للاتصال، كما ينبغي الاستفاده من الطاقات المختلفه، و الحيلولة دون نفوذ القوى المخزبه، و الاهتمام بالقضايا العمرانيه، و الحصول على الأموال عن طريق استخراج الثروات من البرّ و البحر، و وضع الإمكانيات تحت تصرف الولاه و العمال المناسبين و الجديرين بتسلم المناصب، كلّ هذه الأمور عكستها قصه سليمان بصوره واضحه.

ج: الاستفاده من القوى البشريه بأقصى حدّ ممكن، بل و يمكن الاستفاده حتى من الشياطين، إذ يمكن توجيهها و إرشادها للطريق الصحيح، و غلّ و تصفيد المتبقي منها الذي لا يستفاد منه.

## ٢- سليمان في القرآن و التوراه

القرآن المجيد وصف نبي الله سليمان في الآيات المذكوره أعلاه بأنه إنسان طاهر و صاحب قيم و مدبرّ و عادل.

في حين وصفه كتاب التوراه الحالي المحرّف (و العياذ بالله) بأنه رجل فاجر مطيع لهوى نفسه و ذو نقاط ضعف كثيره. و العجيب في الأمر أنه استعرض إلى جانب هذه الصفات الكاذبه و المزيفه مناجاه سليمان لربه و أشعاره الدينيه و أمثاله

ص: ٥١٤

و حكمه، و التي تشهد على أنه رجل حكيم و حَزْ، و هذا تناقض عجيب يشاهد في كتاب التوراه المحرّف الحالى.

و لمن يريد الاطلاع أكثر بهذا الشأن يمكنه مراجعه تفسير الآيات ١٢ و ١٣ و ١٤ من سوره سبأ، و الذى جاء تحت عنوان (صور سليمان فى القرآن و كتاب التوراه الحالى المحرّف).

ص: ٥١٥



اشاره

وَ اذْكَرْ عَيْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) اذْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَ هَبْنَاهُ لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)

التفسير

اشاره

حياه أيوب المليئه بالحوادث و العبر:

الآيات السابقه تحدثت عن سليمان عليه السلام و عن القدره التي منحها إياه البارئ عزّ و جلّ، و التي كانت بمثابة البشرى لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و لمسلمى مكّه الذين كانوا يعيشون تحت ضغوط صعبه.

آيات بحثنا هذا تتحدّث عن أيوب الذي كان أنموذجا حيا للصبر و الاستقامه، و ذلك لتعطى درسا لمسلمى ذلك اليوم و يومنا الحاضر و غدا، درسا فى مقاومه مشاكل و صعاب الحياه، و لتدعوهم إلى الاتّحاد و التعاون، كما وضّحت العاقبه المحموده للصبر و الصابرين.

و أيوب هو ثالث نبي من أنبياء الله تستعرض هذه السوره (سوره ص) جوانب من حياته، و هي بذلك تدعو رسولنا الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى تذكّر هذه القصّه، و حكايته للمسلمين، كي يصبروا على المشاكل الصعبة التي كانت تواجههم، و لا يأسوا من لطف و رحمه الله.

اسم «أيوب» أو قصّيته وردت في عدّه سور من سور القرآن المجيد، منها الآية (١٦٣) في سوره النساء، و الآية (٨٤) في سوره الأنعام التي ذكرت اسمه في قائمه أنبياء الله الآخرين، و بينت و أثبتت مقام نبوّته، بخلاف كتاب التوراه الحالّي الذي لم يعتبره من الأنبياء، و إنّما اعتبره أحد عباد الله المحسنين و الأثرياء و ذا عيال كثيرين.

كما أنّ الآيات (٨٣) و (٨٤) في سوره الأنبياء استعرضت بصوره مختصره جوانب من حياه أيوب عليه السّلام، أمّا آيات بحثنا هذه فإنّها تستعرض حياته بصوره مفصّله أكثر من أيّ سوره اخرى من خلال أربعة آيات:

فالأولى تقول: **وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ .**

«نصب» على وزن (عسر)، و (نصب) على وزن (حسد)، و كلاهما بمعنى البلاء و الشرّ.

هذه الآية تبيّن أولاً - علوّ مقام أيوب عند الباري عزّ و جلّ، و ذلك من خلال كلمه «عبدنا»، و ثانياً فإنّها تشير بصوره خفيّه إلى الابتلاءات الشديده التي لا تطاق، و إلى الألم و العذاب الذي مسّ أيوب عليه السّلام.

و لم يرد في القرآن الكريم شرحاً مفصّلاً لما جرى على أيوب عليه السّلام، و إنّما نقرأ في كتب الحديث المعروفه و التفاسير تفاصيل هذه القصّه.

ففي تفسير نور الثقلين نقرأ أنّ أبا بصير سأل الإمام الصادق عن بليّه أيوب التي ابتلى بها في الدنيا لأيّ علّه كانت؟ (لعلّ السائل كان يظنّ أنّ أيوب ابتلى بما ابتلى

به لمعصيه ارتكبتها) فأجاب عليه السلام

بقوله: «لنعمه أنعم الله عزّ وجلّ عليه بها في الدنيا و أدّى شكرها، و كان في ذلك الزمان لا يحجب إبليس دون العرش، فلما صعد و رأى شكر نعمه أيّوب عليه السّلام حسده إبليس، فقال: يا ربّ، إنّ أيّوب لم يؤدّ إليك شكر هذه النعمه إلاّ بما أعطيته من الدنيا، و لو حرّمته دنياه ما أدّى إليه شكر نعمه أبدا، فسلّطني على دنياه حتّى تعلم أنّه لم يؤدّ إليك شكر نعمه أبدا».

(و لكي يوضّح الباري عزّ و جلّ إخلاص أيّوب للجميع، و يجعله نموذجا حيّا للعالمين حتّى يشكروه حين النعمه و يصبروا حين البلاء، سمح الباري عزّ و جلّ للشيطان في أن يتسلّط على دنيا أيّوب).

«فقال له الباري عزّ و جلّ: قد سلّطتك على ماله و ولده، قال: فانحدر إبليس فلم يبق له مالا و لا ولدا إلاّ أعطبه (أى أهلكه) فازداد أيّوب لله شكرا و حمدا. قال:

فسلّطني على زرعه يا ربّ، قال: قد فعلت، فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق، فازداد أيّوب لله شكرا و حمدا، فقال: يا ربّ سلّطني على غنمه، فسلّطه على غنمه فأهلكها، فازداد أيّوب لله شكرا و حمدا، فقال: يا ربّ سلّطني على بدنه فسلّطه على بدنه ما خلا عقله و عينيه، فنفخ فيه إبليس فصار قرحه واحده من قرنه إلى قدمه، فبقى في ذلك دهرا طويلا يحمد الله و يشكره».

(و لكن وقعت حادثه كسرت قلبه و جرحت روحه جرحا عميقا، و ذلك عند ما زارته مجموعه من رهبان بنى إسرائيل).

«و قالوا له: يا أيّوب لو أخبرتنا بذنبك لعلّ الله كان يهلكنا إذا سألناه، و ما نرى ابتلاك بهذا الابتلاء الذي لم يبتل به أحد إلاّ من أمر كنت تستره؟ فقال أيّوب عليه السّلام:

و عزّه ربّي لم ارتكب أى ذنب، و ما أكلت طعاما إلاّ و يتيم أو ضعيف يأكل معي» (١).

ص: ٥١٨

١ - ١) - هذه الروايه وردت في تفسير نور الثقلين نقلا- عن تفسير على بن إبراهيم، و نفس المضمون ورد في (تفسير القرطبي) و (الفخر الرازي) و (الصافي) و غيرها مع اختلاف بسيط.

حقًا إنَّ شماته أصحابه كانت أكثر ألما عليه من أيّته مصيبه اخرى حلّت به، و رغم هذا لم يفقد أيّوب صبره، و لم يلوّث شكره الصافي كالماء الزلال بالكفر، و إنّما توجه إلى البارئ عزّ و جلّ و ذكر العبارة التي ذكرناها آنفا، أى قوله تعالى:

أَنْتَى مَسْنَى الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ

و لكونه خرج من الامتحان الإلهي بنتيجه جيّده، فتح البارى عزّ و جلّ -مرّه اخرى- أبواب رحمته على عبده الصابر المتحمّل أيّوب، و أعاد عليه النعم التي افتقدها الواحده تلو الاخرى، لا بل أكثر ممّا كان يمتلك من المال و الزرع و الغنم و الأولاد، و ذلك كى يفهم الجميع العاقبه الحسنه للصبر و التحمّل و الشكر.

بعض كبار المفسّرين، احتملوا أنّ الوسوس التي وسوس بها الشيطان فى قلب أيّوب هى المقصوده من أذى و عذاب الشيطان لأيّوب، إذ كان يقول له أحيانا: لقد طالت فتره مرضك، و يبدو أنّ ربّك قد نسيك! و أحيانا كان يقول له: ما زلت تشكر الله رغم أنّه أخذ منك النعم العظيمه و السلامه و القوّه و القدره! يحتمل أنّهم ذكروا هذا التفسير لكونهم يستبعدون إمكانيه تسلّط الشيطان على الأنبياء كأَيّوب، و لكن مع الانتباه إلى أنّ هذه السلطه: أوّلا: كانت بأمر من الله.

و ثانيا: محدوده و مؤقته. و ثالثا: لامتحان هذا النّبى الكبير و رفع شأنه، فلا إشكال فى ذلك.

على أيّته حال، قيل: إنّ فتره ألمه و عذابه و مرضه كانت سبع سنين، و فى روايه اخرى قيل: إنّها كانت (١٨) سنه، و حالته و صلت إلى حدّ بحيث تركه أصحابه و حتّى أقرب المقربين إليه، عدا زوجته التي صمدت معه و أظهرت وفاءها له. و هذا شاهد على وفاء بعض الزوجات! و أشدّ ما أذى و ألم روح أيّوب عليه السّلام من بين ذلك الأذى و العذاب الذى مرّ به، هو شماته أعدائه، لذا فقد جاء فى إحدى الروايات أنّ أيّوب عليه السّلام سئل بعد ما عافاه

اللّٰه، أى شىء كان أشدّ عليك ممّا مرّ؟ فقال: شماته الأعداء.

فى النهايه خرج أيّوب عليه السّلام سالما من بودقه الامتحان الإلهى، و نزول الرحمه الإلهيه عليه يبدأ من هنا، إذ صدر إليه الأمر  
أرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ .

«اركض» مشتقّه من (ركض) على وزن (فقر و تعنى دكّ الأرض بالرجل، و أحيانا تأتي بمعنى الركض، و هنا تعطى المعنى الأوّل.

فاللّٰه الذى فجّر عين زمزم فى صحراء يابسه و حارقه تحت أقدام الطفل الرضيع إسماعيل، هو الذى أصدر أمرا بتفجّر عين بارده  
لأيّوب ليشرب منها و يغتسل بمائها للشفاء من كافّه الأمراض التى أصابته (الظاهريه و الباطنيه).

و يرى البعض أنّ تلك العين عباره عن ماء معدنى صالح للشرب، و فيه شفاء لكلّ الأمراض، و مهما كان فإنّه من لطف اللّٰه و  
رحمته النازله على نبيه الصابر المقاوم أيّوب عليه السّلام.

(مغتسل) يعنى الماء الذى يغسل به، و قال البعض: إنّها تعنى محلّ الغسل، لكنّ المعنى الأوّل أصحّ.

و على أيّه حال، فإنّ وصف ذلك الماء بالبارد، قد يكون إشاره إلى التأثيرات الخاصّه التى يتركها الماء البارد على سلامه  
الجسم، و ذلك ما أثبتته الطبّ الحديث اليوم. إضافة إلى أنّه إشاره لطيفه إلى أنّ كمال ماء الغسل يتمّ إن كان طاهرا و نظيفا كماء  
الشرب.

و الشاهد على هذا ما جاء فى الروايات من استحباب شرب جرعه من الماء قبل الاستحمام به (1).

النعمة المهمّه الاولى التى أعيدت على أيّوب هى العافيه و الشفاء و السلامه، أمّا بقيّه النعم التى أعيدت عليه، فاستعرضها القرآن  
المجيد

ص: ٥٢٠

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ

و عن كيفية عوده عائلته إليه؟ وردت تفاسير متعدده، أشهرها يقول: إنهم كانوا أمواتا فأحياهم الله مره اخرى.

و لكن البعض قال: إنهم كانوا قد تفرقوا عنه أيام ابتلائه بالمرض، فجمعهم الله إليه بعد برئه.

و يحتمل أن جميعهم أو بعضهم ابتلى بمختلف أنواع الأمراض، و قد شملتهم الرحمه الإلهيه و عادت إليهم صحتهم و عافيتهم، ليجتمعوا مره اخرى حول أيوب.

أما قوله تعالى: وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ، فإنها إشاره إلى تناسلهم و زياده عددهم إلى الضعف، و بهذا إزداد عدد أبناء أيوب إلى الضعف.

و رغم أن الآيات لا تتطرق إلى إعاده أموال أيوب إليه، و لكن الدلائل كلها تبين أن البارئ عزّ و جلّ أعاد إليه أمواله و أكثر من السابق.

الذى يلفت النظر فى آخر الآيه-محلّ البحث-أنّ هدف إعادته النعم الإلهيه على أيوب تحدّد بأمرين:

الأول: (رحمه منّا) و التى كان لها صبغه فرديه، و فى الحقيقه إنّها مكافأه و جائزه من البارئ عزّ و جلّ لعبده الصابر المقاوم أيوب.

و الثانى: إعطاء درس لكلّ أصحاب العقول و الفكر على طول التاريخ لأخذ العبر من أيوب، كى لا يفقدوا صبرهم و تحمّلهم عند تعرّضهم للمشاكل و الحوادث الصعبه، و أن لا يياسوا من رحمه الله، بل يزيّدوا من أملهم و تعلقهم به.

المشكلة الوحيدده التى بقيت لأيوّب عليه السلام هى قسمه بضرب زوجته، إذ كان قد أقسم أتيّام مرضه لئن برىء من مرضه ليجلّدن امرأته مائه جلده أو أقلّ لأمر أنكره عليها، و لكن بعد ما برىء من مرضه رغب أيوب فى العفو عنها احتراماً و تقديراً لوفائها و لخدماتها التى قدّمتها إليه أتيّام مرضه، و لكن مسأله القسم بالله كانت تحول دون ذلك.

و هنا شمل البارئ عزّ و جلّ أيوب عليه السلام مرّه اخرى بألفافه و رحمته، و ذلك عند ما أوجد حلاً لهذه المشكله المستعصيه على أيوب وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُثْ .

«ضغث» تعنى ملء الكفّ من الأعواد الرقيقه، كسيقان الحنطه و الشعير أو الورد و ما شابهها.

و عن الأمر الذى أنكرته زوجته أيوب على زوجها و التى تدعى (ليا) بنت يعقوب، فقد اختلف المفسرون فى تفسيره...

فقد نقل عن (ابن عيّاس) أنّ الشيطان ظهر بصورته الطبيعیه لزوجہ أيوب، و قال لها: إننى أعالج زوجك بشرط أن تقولى حينما يتعافى: إننى الوحيد الذى كنت السبب فى معافاته، و لا- أريد أى اجره على معالجته... الزوجه التى كانت متألمه و متأثره بشده لاستمرار مرض زوجها وافقت على الاقتراح، و عرضته على زوجها أيوب فيما بعد، فتأثر أيوب كثيرا لوقوع زوجته فى شرك الشيطان، و حلف أن يعاقب زوجته.

و قال البعض إنّ أيوب بعث زوجته لمتابعه عمل ما، فتأخّرت فى العوده إليه، فتأثر أيوب الذى كان يعانى من آلام المرض، و حلف أن يعاقب زوجته.

على أيه حال، فإنّ زوجته كانت تستحقّ الجزاء من هذا الجانب، أمّا من جانب وفائها و خدمتها أيوب طوال فتره مرضه فإنّه يجعلها تستحقّ العفو أيضا.

حقّا إنّ ضربها بمجموعه من سيقان الحنطه أو الشعير لا تعطى مصداقا واقعيًا لحلفه، و لكنّه نفذ هذا الأمر لحفظ احترام اسم الله، و الحيلولة دون إشاعه مسأله انتهاك القوانين، و هذا الأمر ينفذ فقط بشأن الطرف الذى يستحقّ العفو، و فى الموارد الاخرى التى لا تستحقّ العفو لا يجوز لأحد القيام بمثل هذا العمل (1).

ص: ٥٢٢

---

١- ١) - نظير هذا المعنى ورد فى باب الحدود الإسلاميه و تنفيذها بحقّ المرضى المذنبين (كتاب الحدود أبواب حدّ الزنا).

الآيه الأخيره فى بحثنا هذا-التي هى بمثابه عصاره القصه من أولها حتى آخرها-تقول: **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .**

و من الواضح أنّ دعاء أيوب البارئ عزّ و جلّ، و طلبه دفع الوسوس الشيطانيه عنه، و رفع البلاء و المرض عنه، كلّ هذه لا تتنافى مع مقام صبره و تحمّله، ذلك الصبر و التحمّل الذى استمرّ لمده سبع سنين، و فى روايات اخرى لمده ثمانيه عشر عاما-للأوجاع و الأمراض و الفقر و العسر و استمرار الشكر.

الذى يلفت النظر فى هذه الآيه أنها أعطت ثلاثه أوصاف لأيوب، كلّ واحد منها إن توفّر فى أى إنسان فهو إنسان كامل.

أولاً:مقام عبوديته.

ثانياً:صبره و تحمّله و ثباته.

ثالثاً:إنابته المتكرّره إلى الله.

\*\*\*

**بحوث**

**اشاره**

**١-دروس مهمه فى قصه أيوب**

رغم أنّ قصه هذا النبى الصابر أدرجت فى أربع آيات فى هذه السوره، إلاّ أنّها وضّحت حقائق مهمه، منها:

أ-الامتحان الإلهى واسع و كبير جدّا و يشمل حتى الأنبياء الكبار، إذ يكون امتحانهم أشدّ و أصعب من الآخرين، لأنّ طبيعه الحياه فى هذه الدنيا بنيت على هذا الأساس، و من دون هذا الامتحان فإنّ الإمكانيات و الطاقات الكامنه فى الإنسان لا تتفجّر.

ب-الفرج بعد الشدّه نقطه اخرى تمكن فى مجريات هذه القصه، فعند ما تشتدّ أمواج الحوادث و البلاء على الإنسان و تحيط به من كلّ جانب، عليه أن لا ييأس

ص: ٥٢٣



و يفقد الأمل، وإنما عليه أن يدرك أنها بدايه تفتح أبواب الرحمة الإلهيه عليه، كما

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام: «عند تناهى الشدّه تكون الفرجه، و عند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء» (١)

ج-مجريات هذه القصّه توضّح بصوره جيده بعض غايات البلاء و الحوادث الصعبه فى الحياه، و تجيب على من يرى فى وجود الآفات و البلايا تناقضا مع برهان النظم فى بحوث التوحيد، لأنّ وجود مثل هذه الحوادث الصعبه و الشديده فى حياه الإنسان-من أنبياء الله الكبار و حتّى عموم الناس-يعدّ أمرا ضروريا، فالامتحان-كما ذكرنا-يفجّر طاقات الإنسان الكامنه، و يوصله فى آخر الأمر إلى التكامل فى وجوده.

لذا

فقد ورد فى الروايات الإسلاميه عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثمّ الذين يلونهم، الأمثل فالأمثل» (٢)

كما

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ فى الجنّه منزله لا يبلغها عبد إلّا بالابتلاء» (٣).

د-أحداث هذه القصّه تعطى درسا فى الصبر لكلّ المؤمنين الواقعيين الرساليين، الصبر و التحمّل الذى يعقبه الظفر و الانتصار فى كلّ المجالات، و نيل المقام المحمود و المنزله الرفيعه عند البارئ عزّ و جلّ.

ه-أحيانا يكون إمتحان شخص ما، هو إمتحان فى نفس الوقت لأصدقائه و للمحيطين به، كى يعرف حجم صداقتهم و محبّتهم إيّاه، و مقدار وفائهم له، فعند ما فقد أيوب أمواله و ثرواته و صحّته تفرّق عنه أصحابه، و لم يكتفوا بالابتعاد عنه، و إنّما اتّحدت ألسنتهم مع ألسنه أعدائه فى الشماته به و إلقاء اللائمه عليه، و كشفوا

ص: ٥٢٤

١-١) -نهج البلاغه، قصار الكلمات، الكلمه ٣٥١.

٢-٢) -سفينه البحار مادّه (بلاء) المجلّد الأوّل، الصفحه ١٠٥.

٣-٣) -المصدر السابق.

بفعلتهم هذه عن حقيقه أنفسهم، و كما لاحظنا فإنَّ أيُّوب كان يتألَّم من جراح ألسنتهم أكثر من تألِّمه من مرضه، و الشعر المعروف يقول:

جراحات السنان لها التيام

و لا يلتام ما جرح اللسان

جراح الكلام ليس لها التتام.

و-أحبَّاء الله ليسوا من يذكر الله عند الرخاء، و إنّما أحبَّاء الله الواقعيون هم أولئك الذين يذكرون الله دائما في السراء و الضراء، و في البلاء و النعمه، و في المرض و العافيه، و في الفقر و الغنى، و إنّ تأثيرات الحياه الماديّه لا- تترك على إيمانهم و أفكارهم أدنى أثر.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام في خطبته الخاصّه بوصف المتّقين التي بيّنها لصاحبه المخلص «همام» و استعرض فيها أكثر من (١٠٠) صفه للمتّقين، قال في إحدى تلك الصفات:

«نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء».

ز-هذه القصّه أكّدت مرّه اخرى حقيقه أنّ فقدان الإمكانيات الماديّه، و نزول المصائب، و حلول المشاكل و الفقر، لا تعنى عدم شمول الإنسان بلطف البارئ عزّ و جلّ، كما أنّ امتلاك الإمكانيات الماديّه ليس دليلا على بعد الإنسان عن الله سبحانه و تعالى، و إنّما يمكن أن يكون الإنسان عبدا مقربا لله مع امتلاكه للكثير من الإمكانيات الماديّه، بشرط أن لا يكون عبدا لأمواله و أولاده و مقامه الدنيوي، و إنّ فقدها لا يفقد الصبر معها.

## ٢-أيُّوب عليه السّلام في القرآن و التوراه

رغم أنّ البارئ عزّ و جلّ أشاد بالروح الكبيره لهذا النّبي الكبير الذي هو مظهر الصبر و التحمّل في قرآنه المجيد في أوّل القصّه الخاصه به و في آخرها. فإنّ قصّه هذا النّبي الكبير-مما يؤسف له-لم تحفظ من أيدي الجهله و الأعداء، حيث دسّوا فيها خرافات تافهه لا تليق بمقامه المحمود المتزّه عنها و المطهر منها، و من تلك

الخرافات القول بأنّ الدود غطى بدنه أثناء فتره مرضه، و تعفن جسده، بحيث أنّ أهل قريته ضاقوا به ذرعا و أخرجوه من قريتهم.

و دون أدنى شكّ، فإنّ مثل هذه الروايات مزيّفة رغم ورودها في طيّات كتب الحديث، لأنّ رساله الأنبياء تفرض أن يكون النّبي المرسل- في أي زمان- بعيدا عن مثل تلك التّقولات، كي ينجذب إليه الناس برغبه و شوق، و أن لا تتوفر فيه أشياء تكون سببا لتنفّرهم فيه و ابتعادهم عنه، كالأمراض و العيوب الجسديه و الأخلاق السيئه، لأنّها تتناقض مع فلسفه الرساله، فالقرآن المجيد يقول بشأن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم في الآيه (١٥٩) من سوره عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .

و هذه الآيه دليل على أنّ النّبي يجب أن لا- يكون بحاله تجعل المحيطين به يتفرّقون عنه. و لكن ورد في التوراه جزء خاص بأَيُّوب و قبل موضوع (مزامير داود) و هذا الجزء يشتمل على (٤٢) فصلا، كلّ فصل يشرح مواضيع مختلفه، و قد وردت في بعض الفصول مواضيع سيئه و قبيحه، و منها ما ورد في الفصل الثالث و الذي يقول: إنّ أَيُّوب كان كثير الشكوى، في حين أنّ القرآن الكريم كان يعظّم و يشيّد بمقام صبره و تحمّله.

### ٣- إطلاق صفه (أواب) على الأنبياء الكبار

ثلاثه أنبياء كبار أطلقت عليهم صفه (أواب) في هذه السوره، و هم: داود و سليمان و أَيُّوب، و في سوره (ق) في الآيه (٣٢) أطلق هذا الوصف على كلّ أهل الجنّه، قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ .

هذه العبارات تبين أنّ مقامه في المقام الأعلى، و عند ما نرجع إلى مصادر اللغه نشاهد أنّ كلمه (أواب) مشتقه من كلمه (أوب) و تعنى الرجوع و العوده.

و هذا الرجوع و العوده (خاصّه و أنّ كلمه (أواب) هي اسم مبالغه تعنى كثره

الرجوع و تكراره) يشير إلى أنّ الأوابين حسّاسون جدّاً تجاه الأسباب و العوامل التي تبعدهم عن الله، كالرزق و بريق الزخارف الدنيوية في أعينهم، و وساوس النفس و الشيطان، و إن ابتعدوا لحظه واحده عن الله عادوا إليه بسرعه، و إن غفلوا عنه لحظه تذكروه و سعوا في جبرانها.

هذه العوده يمكن أن تكون بمعنى العوده إلى طاعه أوامر الله و اجتناب نواهيه، أى أنّ أوامره هي مرجعهم و سندهم أينما كانوا.

و كلمه (أواب) التي جاءت في الآيه العاشره من سوره سبأ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالْخَاصَّةَ** بداود-أيضا-تعطى معنا آخر، و هو ترديد الصوت، إذ أنّ الأوامر صدرت إلى الجبال و الطيور أن رددى الصوت مع داود، و لهذا فإنّ (أواب) تعنى كلّ من يردّد الأوامر الإلهيه و التسبيح و الحمد الذى تردده كلّ موجودات الكون حسب قوانين الخلقه، و ممّا يذكر أنّ أحد معانى كلمه (أيوب) هي (أواب).

\*\*\*

اشاره

وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْحٰقَ وَ يَعْقُوبَ اُولَى الْاَيْدِي وَ الْاَبْصَارِ (٤٥) اِنَّا اَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَ اِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْاَخْيَارِ (٤٧) وَ اذْكُرْ اِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ دَا الْكِفْلَ وَ كُلًّا مِّنَ الْاَخْيَارِ (٤٨)

التفسير

اشاره

الأنبياء الستة:

متابعه للآيات السابقة التي تطرقت باختصار إلى حياه (داود) و(سليمان) و بصورة أكثر اختصارا لحياه (أيوب) إذ بينت أهم النقاط البارزه فى حياه هذا النبى الكبير، و تستعرض آيات بحثنا هذا أسماء ستّ من أنبياء الله، و توضّح بصورة مختصره بعض صفاتهم البارزه التى يمكن أن تكون أنموذجا حيا لكلّ بنى الإنسان.

و الذى يلفت الانتباه، هو أنّ هذه الآيات استعرضت ستّ صفات مختلفه لأولئك الأنبياء الستّ، و لكلّ صفة معناها و مفهومها الخاصّ بها.

فى البدايه تخاطب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْحٰقَ

مقام العبوديه هو أول ميزه لأولئك الأنبياء، وحقاً فإن كل شيء جمع في هذه الصفه فالعبوديه لله تعنى التبعية المطلقه له، و تعنى الاستسلام الكامل لإرادته، و الاستعداد لتنفيذ أوامره فى كل الأحوال.

العبوديه لله تعنى عدم الاحتياج لغيره، و عدم التوجه لسواه، و التكفير بلطفه و رحمته فقط، هذا هو أوج تكامل الإنسان و أفضل شرف له.

ثم تضيف الآيه: أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ .

إنه لتعبير مثير للعجب؟ أصحاب الأيدي و الأبصار! «أيدي» جمع (يد)، و(أبصار) جمع (بصر).

الإنسان يحتاج إلى قوتين لتحقيق أهدافه، الأولى قوه الإدراك و التشخيص، و الثانيه حسن الأداء. و بعبارة اخرى: يجب عليه الاستفادة من (العلم) و(القدره) للوصول إلى أهدافه.

و قد وصف البارئ عزّ و جلّ أنبياءه بأنهم ذوو إدراك و تشخيص و بصيره قويّه، و ذوو قوه و قدره كافيه لإنجاز أعمالهم.

إن هؤلاء الأنبياء على مستوى عال من المعرفة، و أنّ مستوى علمهم بشريعه الله و أسرار الخلق و خفايا الحياه لا يمكن تحديده.

أمّا من حيث الإراده و التصميم و حسن الأداء، فإنهم غير كسولين أو عاجزين أو ضعفاء، بل هم أشخاص ذوو إراده قويّه و تصميم راسخ، إنهم قدوه لكلّ السائرين فى طريق الحقّ، فبعد مقام العبوديه الكامل لله تعالى، لتسلّحوا بهذين السلاحين القاطعين.

و ممّا يستنتج من هذا الحديث أنه ليس المراد من اليد و العين أعضاء الحسّ التى يمتلكها غالبيه الناس، لأنّ هناك الكثيرين ممّن يمتلكون هذين العضوين لكنهم لا يمتلكون الإدراك و الشعور الكافى، و لا القدره على التصميم، و لا حسن

الأداء في العمل، وإتّما هي كناية عن صفتين هما (العلم و القدرة).

أما الصفه الرابعه لهم فيقول القرآن بشأنها: **إِنَّا أَخْلَصْنَاَهُمْ بِخَالِصِهِ ذِكْرِي الدَّارِ (١)**.

نعم، إنهم يتطلعون إلى عالم آخر، وأفق نظرهم لا ينتهي عند الحياه الدنيا و لذاتها المحدوده، بل يتطلعون إلى ما وراءها من حياه أبدية و نعيم دائم، ولهذا يبذلون الجهد و يسعون غايه السعي لنيلها.

و على هذا فإنّ المراد من كلمه (الدار) هي الدار الآخرة، لأنّه لا توجد دار غيرها، و إن وجدت فما هي إلاّ جسر أو ممرّ يؤدّي إلى الآخرة في نهايه الأمر.

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون المراد من الدار هنا دار الدنيا، و عباره ذِكْرِي الدَّارِ إشاره إلى الذكر الحسن الباقي لأولئك الأنبياء في هذه الدنيا، و هذا الاحتمال مستبعد جدّاً، و خاصّه أنّ كلمه (الدار) جاءت بشكل مطلق، و كذلك لا- تتناسب مع كلمه (ذكرى).

و البعض الآخر احتمل أنّ المراد هو ذكرهم الحسن و الجميل في دار الآخرة، و هذا مستبعد أيضاً.

و على أيّه حال، فلعلّ الإنسان يتذكّر الآخرة بين حين و آخر، خاصّه عند وفاه أحد أصدقائه أو مشاركته في مراسم التشييع أو مجالس الفاتحه، و هذا الذكر ليس خالصاً و إتّما هو مشوب بذكر الدنيا، أما عباد الله المخلصون فإنّ لهم توجّها خالصاً و عميقاً و مستمراً بالنسبه للدار الآخرة، فهي على الدوام تتراءى أمام أعينهم، و عباره (خالصه) في الآيه إشاره إلى هذا المعنى.

الصفتان الخامسة و السادسة جاءتا في الآيه التاليه وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ

ص: ٥٣٠

١- ١) - (ذكرى الدار) من الممكن أن تكون خيراً لمبتدأ محذوف، و تقدير عباره (هي ذكر الدار)، و من الممكن أن تكون بدلا من (خالصه).

إنَّ إيمانهم و عملهم الصالح كانا السبب في اصطفاء الباري عزَّ و جلَّ لهم من بين الناس لأداء مهام النبوءه و حمل الرساله، و عملهم الصالح وصل إلى درجه.

استحقَّقوا بحقَّ إطلاق كلمه (الأخيار) عليهم، فأفكارهم سليمة، و أخلاقهم رفيعة، و تصرفاتهم و أعمالهم طوال حياتهم متزَّنه، و لهذا السبب فإنَّ بعض المفسِّرين يستفيدون من هذه العبارة و أنَّ الله سبحانه و تعالى اعتبر أولئك أخيارا من دون أى قيد و شرط، كدليل على عصمه الأنبياء، لأنه متى ما كان وجود الإنسان كلَّه خيرا، فمن المؤكَّد أنه معصوم (٢).

عبارة (عندنا) مليئه بالمعاني العميقه، و تشير إلى أنَّ اصطفاءهم و اعتبارهم من الأخيار لم يتمَّ وفق تقييم الناس لهم، التقييم الذى لا يخلو من التهاون و غضَّ النظر عن كثير من الأمور، و إنما تمَّ بعد التحقُّق من كونهم أهلا لذلك و بعد تقييمهم ظاهريا و باطنيا.

و بعد أن أشارت الآيه السابقه إلى مقام ثلاثه أنبياء بارزين، تشير الآيه التاليه، إلى ثلاثه آخرين، إذ تقول: **وَ أَذْكَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلُّ مِّنَ الْأَخْيَارِ .**

فكلَّ واحد منهم كان مثالا و أسوه في الصبر و الاستقامه و طاعه أوامر الباري عزَّ و جلَّ، خاصَّه «إسماعيل» الذى كان على استعداد كامل للتضحيه بروحه في سبيل الله، و لهذا السبب اطلق عليه لقب (ذبيح الله) و هو الذى ساهم مع والده إبراهيم عليه السَّلام في بناء الكعبه الشريفه و تثبيت أسس التجمُّع العظيم الذى يتمَّ في موسم الحجِّ كلَّ عام.

و استعراض آيات القرآن الكريم لحياه أولئك العظام ليستلهم منها

ص: ٥٣١

١- ١) - (مصطفين) (بفتح الفاء) جمع مصطفى، و في الأصل كانت (مصطفين) حذفت ياؤها الاولى فأصبحت (مصطفين).

٢- ٢) - تفسير الفخر الرازى، المجلد ٢٦، الصفحه ٢١٧.



رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَكُلِّ الْمُسْلِمِينَ الْعِبْرِيَّةِ، وَمَطَالَعَهُ حَيَاةَ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْعِظَامِ تَوَجُّهُ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَتَبْعَثُ فِيهِ رُوحَ التَّقْوَى وَالتَّضَحِّيَّةِ وَالْإِيثَارِ، وَتَجْعَلُهُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ صَابِرًا صَامِدًا أَمَامَ الْمَشَاكِلِ وَالْحَوَادِثِ الصَّعْبَةِ.

عبارته كُلُّ مَنْ الْأَخْيَارِ تَشِيرُ إِلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الثَّلَاثَةَ (إِسْمَاعِيلَ، وَالْيَسَعَ، وَذُو الْكِفْلِ) تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ كَافَّةً الصِّفَاتِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا الْأَنْبِيَاءَ الثَّلَاثَةَ السَّابِقُونَ (إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ) الَّذِينَ أُطْلِقَتْ عَلَيْهِمُ الْآيَةُ السَّابِقَةُ صِفَةً (الْأَخْيَارِ)، كَمَا أَنَّ (الْخَيْرَ الْمَطْلُوقَ) لَهُ مَعَانٍ وَاسِعَةٌ تَشْمَلُ (النَّبُوَّةَ) وَالْأَدَارَ الْآخِرَةَ) وَ(مَقَامَ الْعِبُودِيَّةِ) وَالْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ.

أَمَّا (الْيَسَعَ) فَقَدْ وَرَدَ اسْمُهُ مَرَّتَيْنِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، إِحْدَاهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَالْآخَرَى فِي الْآيَةِ (٨٦) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يُوَضِّحُ أَنَّهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ وَمِنَ الَّذِينَ يَقُولُ عَنْهُمْ الْقُرْآنُ فِي آيَاتِهِ: وَ كَلَّا فَضَلَّلْنَا عَلَيَّ الْعَالَمِينَ . (١)

الْبَعْضُ يَعْتَقِدُ أَنَّ (الْيَسَعَ) هُوَ (يُوشَعَ بْنِ نُونٍ) أَحَدُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمَعْرُوفِينَ، وَقَدْ دَخَلَتِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ عَلَى اسْمِهِ كَمَا أُبْدِلَتِ الشَّيْنُ بِالسَّيْنِ، وَدَخُولُ الْأَلْفِ وَاللَّامِ عَلَى الْاسْمِ غَيْرِ الْعَرَبِيِّ (وَهَذَا اسْمٌ عِبْرِيٌّ) أَمْرٌ غَيْرٌ جَدِيدٍ، فَمِثْلُهَا مِثْلُ (إِسْكَندَرَ) الَّتِي تَلْفِظُ وَتَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ (الإِسْكَندَرَ) إِذْ هُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّقْرِيبِ.

فِي حِينِ أَنَّ الْبَعْضَ يَعْتَبَرُهَا كَلِمَةً عَرَبِيَّةً مُشْتَقَّةً مِنْ (يَسَعَ) وَالَّتِي هِيَ فِعْلٌ مُضَارِعٌ مُشْتَقٌّ مِنْ (وَسَعَتْ) وَتَحْوِيلُهُ إِلَى اسْمٍ أَضْيَفٍ إِلَيْهِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ.

الْآيَةُ (٨٦) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ بَيَّنَّتْ أَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَكِنْ لَمْ تَبَيِّنْ إِنْ كَانَ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَمْ لَا؟ أَمَّا فَصَلِّ الْمَلُوكَ فِي كِتَابِ التَّوْرَةِ فَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَنَّ اسْمَهُ (الْيَسَعَ) بِنِ (شَافَاتِ)، وَمَعْنَى (الْيَسَعَ) فِي اللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ هُوَ (النَّاجِي) فِيمَا تَعْنَى (الشَّافَاتِ) (الْقَاضِي).

ص: ٥٣٢

و قد اعتبر قسم آخر أنه (الخضر) و لم يتوفّر بعد أى دليل واضح على هذا القول.

و اعتبر قسم آخر أنه (ذو الكفل) و هذا الكلام مخالف بوضوح لما جاء فى الآيه مورد بحثنا، لأنّ ذا الكفل معطوفا على اليسع.

و على أيّه حال، فإنّ اليسع هو نبي له مقام رفيع و ذو استقامه، و ما ذكرناه بشأنه كاف للاستلهم منه.

و أمّا (ذو الكفل) فهو أيضا معروف بأنّه أحد أنبياء الله، و ذكره ورد مع أنبياء آخرين فى الآيه (٨٥) من سوره الأنبياء، و جاء بالضبط بعد اسم إسماعيل و إدريس. و البعض يعتقد أنّه من أنبياء بنى إسرائيل، و أنّه من أبناء أتوب و اسمه الحقيقى (بشر) أو (بشير) أو (شرف) و البعض يرى أنّه (حزقيل) و ذو الكفل هو لقب اطلق عليه (١).

و حول تسميه (ذى الكفل) بهذا الاسم (الكفل يعنى النصيب) و يعنى (الكفاله و التعهّد) و ردت عدّه تفاسير، منها:

قال البعض: إنّهُ سمى بذى الكفل لأنّ الله سبحانه و تعالى أنزل عليه نصيبا و افرا من الثواب و شمله برحمته الواسعه.

و قال بعضهم: لأنّه التزم بتعهّده بقيام الليل بالعباده، و صيام النهار، و عدم السخط من قضاء الله، و بهذا اطلق عليه هذا اللقب.

و بعض آخر قال: سمى بذى الكفل لأنّه تكفّل بمجموعه من أنبياء بنى إسرائيل، و أنقذهم من ملوك زمانهم الجبارين.

و على أيّه حال، فإنّ ما فى حوزتنا اليوم من معلومات عن نبي الله ذى الكفل

ص: ٥٣٣

---

١ - ١) - أعلام القرآن و تفسير القرطبي و تفسير روح البيان و تفسير الميزان، كلّ منها أشارت إلى جزء من الموضوع المذكور أعلاه.

يدلّ على استقامته فى طريق طاعه و عباده الله، و مقاومه الجبايره، و أنه نموذج بارز ليومنا الحاضر و ما بعده، رغم أنّ البعد الزمنى بيننا و بينهم يحول دون المعرفه الدقيقه لتفاصيل أحوالهم.

\*\*\*

ص: ٥٣٤

إشاره

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مِآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْتَحَنَةٍ لَهُمْ أَلْوَابٌ (٥٠) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثَرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)

التفسير

إشاره

هذا ما وعد به المتقون:

آيات هذه السوره انتقلت بنا إلى شكل آخر من الحديث، إذ أخذت تقارن بين المتقين و العصاه المتجبرين، و تشرح مصير كل منهما يوم القيامة، و هي بصوره عامه تكمل بحوث الآيات السابقه.

في البدايه، و كخلاصه لشرح حال الأنبياء السابقين و النقاط المضيئه في حياتهم، تقول الآيه: [هَذَا ذِكْرٌ \(١\)](#).

نعم، لم يكن الهدف من بيان مقاطع من تأريخ أولئك الأنبياء الرائع و المثير سرد بعض القصص، و إنما الهدف الذكر و التذكّر، كما أكدت عليه بدايه هذه السوره

ص: ٥٣٥

١- ١) - قال بعض المفسرين في تفسير هذه العبارة: إن المراد من الذكر الجميل هم الأنبياء السابقون.

فالهدف هو إيقاظ الأفكار، ورفع المستوى العلمى، وزياده قوّه المقاومه و الصمود لدى المسلمين الذى نزلت إليهم هذه الآيات (١).

ثم أخرجت الأمور من طابعها الخاص و بيان أوضاع و أحوال الأنبياء، إلى طابعها العام، لتشرح بصورة عامه مصير المتقين، إذ تقول: وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٢).

بعد هذه الآيه القصيره ذات المعانى الخفيه و التى توضّح تماما حال المتقين بصورة مختصره، يعمد القرآن المجيد مجدداً إلى اتباع أسلوبه الخاص، و هو أسلوب الإيجاز و التفصيل، ليشرح ما فاز به المتقون جَنَاتٍ عَدْنٍ مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٣).

«جَنَاتٍ» إشاره إلى حدائق الجنّه، و(عدن) تعنى الاستقرار و الثبات، و لهذا اطلق على المنجم الذى تحوى أعماقه أنواع الفلزات و المواد الثمينه كلمه (معدن).

و على أيّه حال فالعباره هنا تشير إلى خلود حدائق الجنّه.

و عباره مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ إشاره إلى أنّهم لا يتكلّفون حتّى بفتح أبواب الجنّه، إذ أنّها تفتح بدون عناء لاستقبال أهل الجنّه، إذ أنّ الجنّه بانتظارهم، و عند ما تراهم تفتح لهم أبوابها و تدعوهم للدخول إليها.

ثمّ تبيّن الهدوء و السكينه التى تحيط بأهل الجنّه، إذ تقول: مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ (٤). أى إنّهم متكئون على سرر فيها، و قد هيئت

ص: ٥٣٦

١- ١) -مجموعه من المفسّرين اعتبرت (هذا ذكر) إشاره إلى أنّ كلّ ما قيل بشأن الأنبياء من ذكر خير و ثناء جميل كان إشاره إلى أولئك، فيما تستعرض الآيات التاليه مرتبتهم فى الآخره، و لكن هذا المعنى مستبعد، و ظاهر الآيات لا يتناسب مع ما ذكرناه أعلاه.

٢- ٢) -«مآب» تعنى المرجع، و إضافه (حسن) إلى (مآب) من قبيل إضافه الصفه إلى الموصوف.

٣- ٣) -«جَنَاتٍ عَدْنٍ» بدل أو عطف بيان (مآب).

٤- ٤) -الضمير (فيها) يعود فى كلاً- الحاليتين على (جَنَاتٍ عَدْنٍ) و وصف الفاكهه بأنّها كثيره دليل على وصف (الشراب) بهذا الوصف. (متكئين) حال للضمير (لهم).

لهم مختلف أنواع الفاكهه و الأشربه، و إنهم متى ما طلبوها فإنها تأتيهم فى الحال.

و هنا يطرح سؤال هو: هل أن هناك من يحمل تلك الفاكهه، و الأشربه و يقدمها لأهل الجنة، أم أنها تأتيهم من دون أن يحملها أحد إليهم؟ كلا الاحتمالين واردان.

و التأكيد على «الفاكهه» و «الشراب» لعلّه إشارة إلى أن الفاكهه هى أكثر غذاء أهل الجنة رغم وجود أنواع اخرى من الغذاء ذكر فى بعض آيات القرآن المجيد، كما هو الحال فى عالم الدنيا إذ أن الفاكهه تشكّل أفضل و أسلم غذاء للإنسان.

صفه (كثيره) تشير إلى وجود أنواع مختلفه من الفاكهه، و أنواع متعدده أيضا من الشراب الطاهر الذى يتوفّر فى الجنة، و ذلك ما أشارت إليه أيضا آيات مختلفه فى القرآن المجيد.

بعد هذا تتطرق الآيات للزوجات الصالحات فى الجنة، إذ تقول: **وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُنثَاءٌ**.

«الطرف» جفن العين، و أحيانا يأتى بمعنى النظر، و وصف آخر نساء الجنة بقاصرات الطرف (أى ذوات النظرات القصيره) يشير إلى اقتصار نظرهنّ على أزواجهنّ فقط، و حبّهن و عشقهنّ لهم و عدم تفكيرهم بسواهم، و هذه من أفضل مزايا و حسنات الزوجات.

و قال مفسّرون آخرون: إنّها تعنى التغطيه بالخمير الذى يطفى على العين جمالا.

و لا يوجد مانع يحول بين جمع المعنيين.

كلمه (أتراب) تعنى (الأقران)، و هو وصف لنساء الجنة، فاقتران عمر الزوج و الزوجه- أى تساويهما- يضاعف من المحبّه بين الزوجين، أو أنه صفه لنساء أهل الجنة، و إنّهنّ جميعا شابات و فى عمر واحد (1).

ص: ٥٣٧

١- ١) - (أتراب) جمع (ترب) على وزن (شعر).

الآية الأخرى في هذا البحث تشير إلى النعم السبع التي يغدقها البارئ عزّ وجلّ على أهل الجنّة، والتي وردت في الآيات السابقة، قال تعالى: **هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ** .

وعد لا يخلف، ويبعث في نفس الوقت على النشاط لمضاعفة الجهد، نعم إنّه وعد من الله العظيم.

و للتأكيد على خلود هذه النعم، جاء في قوله تعالى: **إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (١)** .

أى أنّ النعم في الجنان خالده ولا تنفذ ولا تزول كما في الحياه الدنيا، و أنّها تزداد دائما من خزائن الله المملوءه و غير المحدوده، ولا يظهر عليها أى نقص، لأنّ الله أراد ذلك.

\*\*\*

ص: ٥٣٨

---

١-١) - (نفاد) تعنى (فناء) و إباده، و (اللام) فى (لرزقنا) جاءت للتأكيد.

اشاره

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِيْنَ لَشَرَّ مَا ب (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسَّ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَ آخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ  
(٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ (٦٠)  
قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)

التفسير

اشاره

و هذه هي عاقبه الطغاه!

الآيات السابقة استعرضت النعم السبع و غيرها من النعم التي يغدقها البارئ عز و جل على عباده المتقين، أما آيات بحثنا فإنها تستخدم أسلوب المقارنه الذي كثيرا ما استخدمه القرآن الكريم، لتوضيح المصير المشؤوم و العقوبات المختلفه التي ستنال الطغاه و العصيين، قال تعالى: هَذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِيْنَ لَشَرَّ مَا ب (١) .

ص: ٥٣٩

(١ - ١) - كلمه (هذا) مبتدأ و خبرها محذوف، و تقديرها هو (هذا الذي ذكرناه للمتقين).



فالمتمتقون لهم (حسن مآب)، و لهؤلاء العاصين الطغاه (شر مآب).

ثم تعمد آيات القرآن المجيد إلى الاستفادة من أسلوب الإيجاز و التفصيل، إذ تقول: **جَهَنَّمَ يَصِلُونَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (١)**. أى إنَّ جَهَنَّمَ هى المكان المشؤوم الذى سيردونه، و إنَّهم سيحترقون بنيرانها، فإيا لها من فراش سىء.

و الظاهر أنَّ عبارته (يصلونها) (أى يدخلون فى جَهَنَّمَ و يحترقون بنيرانها) يراد منها بيان أن لا يتصوّر أحدهم أنَّه سيرى جَهَنَّمَ من مسافه بعيدة، أو أنَّه سيستقرّ بالقرب منها، كلاً، بل إنَّه سيرد إلى داخلها، و لا يتصوّر أحدهم أنَّه سيعتاد على نار جَهَنَّمَ و من ثمَّ يستأنس بها، كلاً، فإنَّه يحترق فيها على الدوام.

«مهاد» كما قلنا من قبل، تعنى الفراش المهيأ للنوم و الاستراحة، كما تطلق على سرير الطفل.

و بالطبع فإنَّ الفراش هو مكان استراحه، و يجب أن يكون مناسباً فى كلِّ الأحوال -لوضع الشخص و ملائمة لرغبته، و لكن كيف سيكون حال الذين خصّصت لهم نار جَهَنَّمَ فراشاً؟! ثم تتطرق الآيات إلى أنواع اخرى من العذاب الإلهى، إذ تقول: **هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَاقٌ (٢)**. أى يجب عليهم أن يشربوا الحميم و الغساق.

«الحميم» هو الماء الحارّ الشديد الحرارة، و الذى هو أحد أنواع أشربه أهل جَهَنَّمَ، و يقابل (الشراب الطهور) الذى ذكرته الآيات السابقة المخصّص لأهل الجنّة.

و كلمه (غساق) من (غسق) على وزن (رمق) و تعنى شدّه ظلمات الليل. أمّا ابن عبّاس فقد فسّرها بأنّها شراب بارد جدّاً (بحيث إنَّ برودته تحرق و تجرح أحشاء

ص: ٥٤٠

١ - ١) - (جَهَنَّمَ) عطف بيان أو بدل من (شر مآب)، و (يصلونها) حال لها.

٢ - ٢) - هذه الجملة فى الأصل كانت هكذا (هذا حميم و غساق فليذوقوه)، و للتأكيد وضعت عبارته (فليذوقوه) بين المبتدأ و الخبر. بعض المفسّرين احتملوا أنّ (هذا) خبر لمبتدأ محذوف كما أنّ (حميم و غساق) كذلك، و لكن يبدو أنّ الاحتمال الأوّل أدقّ و أطف.

الإنسان) ولكن ليس هناك في مفهوم هذه الكلمه ما يدلّ على هذا المعنى، غير مقارنتها بالحميم و هو الماء الحارّ الشديد الحرارة، و هذه المقارنه قد تكون منشأ هذا الاستنباط.

و قال الراغب في مفرداته: إنَّ (عَسَاق) تعنى القيح الذى يسيل من جلود أهل جهنّم و من الجراحات الموجوده فى أجسامهم.

و لا- بدّ أن يكون لونه الغامق هو السبب فى إطلاق هذه الكلمه عليه، لأنّ الذى يحترق فى نار جهنّم لا يبقى منه سوى هيكل محروق و قيح أسود اللون.

على أيّه حال، فإنّ ما يستشفّ من بعض الكلمات هو أنّ (عَسَاق) تعنى الرائحه الكريهه النتنه التى تزعج الآخرين.

و فسّره البعض الآخر بأنّه أحد أنواع العذاب الذى لم يطلع عليه أحد سوى الله، و ذلك لأنهم ارتكبوا ذنوبا و مظالم شديده لم يطلع عليها أحد سوى الله، فلذلك جعل عقوبتهم سرّيه و غير معروفه، مثلما وعد البارئ عزّ و جلّ المتّقين بنعم لم يكشف عنها و أخفاها عنهم، لإخفائهم أعمالا صالحه كانوا يقومون بها فى الحياه الدنيا، و ذلك ما ورد فى الآيه (١٧) من سوره السجده: **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**.

آيات بحثنا تشير مرّه اخرى إلى نوع آخر من أنواع العذاب الأليم و آخر من شكليه أزواج (١). أى أنّ هناك عذاب آخر غير ذلك العذاب.

«أزواج» تعنى الأنواع و الأقسام، و هذه إشاره موجزه إلى أنواع اخرى من العذاب لا- تختلف عن أنواع العذاب السابقه، و لكن آيات القرآن لم تفصح هنا عن أنواعها و قد لا يستطيع أحد فى هذه الدنيا فهمها و إدراكها.

و فى الحقيقه فإنّ هذه تقابل عباره بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ الوارده فى الآيات السابقه،

ص: ٥٤١

١- ١) - (آخر) هى صفه لموصوف محذوف يكون مبتدأ و (أزواج) مبتدأ ثان، و (من شكله) خبرها، و تقديرها (و عذاب آخر أزواج من شكله).

التي تشير إلى أنواع مختلفه من النعم و فواكه الجنه. و يمكن أن يكون هذا التشابه في الشده و الألم، أو من جميع الجهات.

و آخر عذاب لهم أن جلساءهم في جهنم ذوو ألسنه بذيئه لا تنطق إلا بالقيح من الكلام، فعند ما يرد رؤساء الضلال النار، و يرون بأعينهم تابعيهم يساقون نحو جهنم يخاطب بعضهم البعض و يقول له: هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ (1).

فيجيونهم لا مَرَحِبًا بِهِمْ .

ثم يضيفون إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ .

و عبارته هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ مقترنه بالآيات التاليه، و تنقل أحداث أثمه الضلال، إذ يخاطب بعضهم البعض فور ما يرون أتباعهم يساقون إلى جهنم، بالقول: أولئك سيحشرون معكم.

بعض المفسرين قال: إنه خطاب توجّهه الملائكه إلى أئمه الكفر و الضلال.

إلا أن المعنى الأول يعد أكثر تناسبا.

«مرحبا» كلمه ترحيب للضيف، و ضدها «لا-مرحبا» و مصدر هذه الكلمه «رحب»-على وزن محو-بمعنى المكان الواسع، و المراد هو: ادخل فالمكان واسع و مناسب.

«مقتحم» من (اقتحام) و تعنى الدخول في شىء بمشقه و بصعوبه و خوف، و غالبا ما تعطى معنى الدخول في شىء من دون أى اطلاع و علم مسبق.

و توضّح هذه العبارة أن متبعى سبيل الضلال يردون نار جهنم الرهيبه نتيجة تركهم البحث و التفكير، و أتباعهم لأهوائهم، إضافة إلى تقليدهم الأعمى لأبائهم الأولين.

و على أيه حال، فإن الصوت يصل إلى مسامع الأتباع الذين يغضبون من كلام أئمه الضلال، و يلتفتون إليهم قائلين: قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَحِبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبَسَّ الْقَرَارُ .

ص: ٥٤٢

(١-١) - هنا يوجد محذوف تقديره: (يقول رؤساء الضلال لبعضهم لبعض هذا فوج مقتحم معكم).

الجملة الأخيره فَبَشَّرَ الْقَارُونَ تَقَابِلَ جَذَابِ عِذْنِ الْوَارِدِ بِحَقِّ الْمُتَّقِينَ، وَ هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَصَابِ الْعَظِيمِ الَّتِي حَلَّ بِهَمَّ، وَ هُوَ أَنَّ جَهَنَّمَ لَيْسَتْ بِمَكَانٍ مُؤَقَّتٍ لَهُمْ، وَ إِنَّمَا هِيَ مَقَرٌّ دَائِمٌ. وَ أَرَادَ الْأَتْبَاعُ مِنْ جَوَابِهِمُ الْقَوْلَ: بَأَنَّ مِنْ حَسَنِ الْحِطِّ أَنْكُمْ (أَيَّ أُمَّةِ الضَّلَالِ وَ الشَّرْكِ) مُشْتَرِكُونَ مَعْنَى فِي هَذَا الْأَمْرِ. وَ هَذَا يَشْفِي غَلِيلَ قُلُوبِنَا (وَ كَأَنَّهُمْ شَامِتُونَ بِأَثْمَتِهِمْ) أَوْ هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ جَرِيْمَتَكُمْ بِحَقِّنَا جَرِيْمَةَ عَظِيمَةٍ، لِأَنَّ جَهَنَّمَ سَتَكُونُ مَقَرًّا دَائِمًا لَنَا وَ لَيْسَتْ مَكَانًا مُؤَقَّتًا.

لَكِنَّ الْأَتْبَاعَ لَا يَكْتَفُونَ بِهَذَا الْمَقْدَارِ مِنَ الْكَلَامِ، لِأَنَّ أُمَّةَ الضَّلَالِ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا السَّبَبَ الْمُبَاشِرَ لِارْتِكَابِهِمُ الذُّنُوبَ، وَ لِذَا فَإِنَّهُمْ يُعْتَبَرُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَرِيْمَةِ الْحَقِيقِيْنَ، وَ هُنَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى الْبَارِئِ عَزَّ وَ جَلَّ قَائِلِينَ: قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ.

العذاب الأول لأنهم أضلوا أنفسهم، و الثاني لأنهم أضلونا.

مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِثْلَهُ لَمَّا وَرَدَ فِي الْآيَةِ (٣٨) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ الَّتِي تَقُولُ: رَبَّنَا هُوَ الَّذِي أَضَلُّونَا فَأَتَيْهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ رَغْمَ أَنَّ تَمَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَيَّ الْآيَةِ (٣٨) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ تَقُولُ: إِنَّ لِكُلِّهِمَا عَذَابًا مُضَاعَفًا (لِأَنَّ الْأَتْبَاعَ هُمُ الْأَدَاءُ التَّنْفِيْذِيَّةُ لِأُمَّةِ الضَّلَالِ، وَ هُمُ الَّذِينَ هَيَّؤُوا الْأَرْضِيَّةَ لِشَرِّ الْفَسَادِ وَ الضَّلَالِ).

عَلَى أَيِّهِ حَالٌ، لَا يُوْجَدُ شَكٌّ فِي أَنَّ عَذَابَ أُمَّةِ الضَّلَالِ أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ عَذَابِ الْآخَرِينَ، رَغْمَ أَنَّ لِجَمِيعِ عَذَابِ مُضَاعَفًا.

نَعَمْ، هَذِهِ هِيَ نَهَايَةُ كُلِّ مَنْ عَقَدَ الصَّدَاقَةَ مَعَ الْمُنْحَرِفِينَ وَ بَايَعَهُمْ عَلَى السَّيْرِ فِي طَرِيقِ الضَّلَالِ وَ الْإِنْحِرَافِ، فَإِنَّهُمْ عِنْدَ مَا يَرُونَ نَتَائِجَ أَعْمَالِهِمُ الْوَحِيمَةَ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَ يَتَخَاصِمُونَ فِيْمَا بَيْنَهُمْ.

وَ الْمَلْفَتُ لِلنَّظَرِ هُنَا أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَذَكُرُ النِّعْمَ الَّتِي يَغْدِقُهَا الْبَارِئُ عَزَّ وَ جَلَّ

على المتقين كانت أكثر تنوعاً من الآيات التي استعرضت عذاب الطغاه المتجبرين. إذ أشارت آيات القسم الأول إلى سبع نعم، بينما أشارت آيات القسم الثاني إلى خمسة أنواع من العذاب، يحتمل أن يكون السبب هو سبق رحمه الله لغضبه «يا من سبقت رحمته غضبه».

\*\*\*

ص: ٥٤٤

اشاره

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَا هُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)

التفسير

اشاره

تخاصم أهل النار:

آيات بحثنا تواصل استعراض الجدال الدائر بين أهل جهنم، الذي كان بعضه قد ورد في الآيات السابقة، و تتحدث عن مجادلات اخرى فيما بينهم ينكشف من خلالها أسفهم العميق و تألمهم الشديد و حسرتهم.

تقول اولى تلك الآيات: وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ .

نعم، فعند ما يبحث أفراد اتبعوا أئمة الضلال، أمثال أبى جهل و أبى لهب، عن أشخاص آخرين مثل عمّار بن ياسر و خباب و صهيب و بلال، فى نار جهنم يرجعون إلى ذاتهن متسائلين، و يستفسرون من الآخرين: أين أولئك الأشخاص؟ إذ كنا نعتبرهم مجموعه من الفوضويين و الأشرار و المفسدين فى الأرض، يسعون إلى الإخلال بأمن و هدوء المجتمع و القضاء على مفاخر الأولين، يبدو أنّ اتهامنا

إياهم كان باطلا.

و تضيف الآيات نقلا عن أهل جهنم: **أَتَّخَذْنَاَهُمْ سَخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ** .

نعم، إننا كنا نسخر من هؤلاء الرجال العظماء ذوى المقام الرفيع، و نصفهم بالأشرار، و أحيانا نصفهم بأوصاف أدنى من ذلك، و نعتبرهم أناسا حقراء لا يستحقون أن ننظر إليهم، و لكن اتضح لنا الآن أن جهلنا و غرورنا و أهواءنا هي التي أسدلت على أعيننا ستائر حجب الحقيقة عنا، فهؤلاء كانوا من المقربين لله و مكانهم الآن فى الجنة.

مجموعه من المفسرين ذكروا تفسيرا آخر لهذه الآية، إذ قالوا: إن مسأله سخريتهم إشاره إلى أحوالهم فى عالم الدنيا، و جمله أم **زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ** إشاره إلى أحوالهم فى جهنم، و تعنى هنا أن أبصارنا فى هذا المكان و بين هذه النيران و الدخان لا يمكنها رؤيتهم. و لكن المعنى الأول أصح.

و من الضرورى الالتفات إلى أن أحد أسباب عدم إدراك الحقائق هو عدم أخذها بطابع الجدّ إضافة إلى الاستهزاء بها، إذ يجب على الدوام مناقشه الحقائق بشكل جدى للوصول إليها.

ثم تخرج الآية الأخيره بالنتيجه التى تمخض عنها الجدل بين أهل جهنم، و تؤكد على ما مضى بالقول: **إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ (١)**.

فأهل جهنم مبتلون فى هذه الدنيا بالخصام و النزاع و الحروب. فالنزاع و الجدل يتحكم بهم، و فى كل يوم يتخاصمون مع هذا و ذاك.

و فى يوم القيامة، ذلك اليوم الذى تبرز فيه الأسرار و ما تخفيه الصدور، تراهم يتنازعون فيما بينهم فى جهنم، فأصدقاء الأمس أعداء اليوم، و التابعون فى الأمس صاروا معارضين اليوم، و يبقى -فقط- خطّ التوحيد و الإيمان، خطّ

ص: ٥٤٦

١- ١) - (تخاصم أهل النار) بيان ل (ذلك).

الوحده و الصفاء فى هذا العالم و ذاك.

الجدير بالذكر أنّ أهل الجنّة متكثون على الأسرّه، و يتحدّثون فيما بينهم بكلام ملؤه المحبّه و الصدق، كما ورد فى آيات مختلفه من آيات القرآن الحكيم، بينما تجد أهل النار يعيشون حاله من الصراع و الجدال، إذن فتلك نعمه كبيره، و هذا عذاب أليم! \*\*\*

#### ملاحظه

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال لأبى بصير «يا أبا محمّد، لقد ذكركم الله إذ حكى عن عدوّكم فى النار بقوله: وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعِدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ. اتَّخَذْتَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ. و الله ما عنى و لا أراد بهذا غيركم، صرتم عند أهل هذا العالم شرار الناس، و أنتم و الله فى الجنّه تحبرون و فى النار تطلبون» (١).

\*\*\*

ص: ٥٤٧

---

١- ١) - روضه الكافى، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحه ٤٦٧.



اشاره

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْتَ مَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)

التفسير

اشاره

إنما أنا نذير:

البحوث السابقة التي تناولت موضوع العقاب الأليم الذي سينال أهل جهنم، و الاخرى التي استعرضت العذاب و العقاب الدنيوى الذى نزل بالأمم الظالمه البائده، كلها كانت تحمل طابع إنذار و تهديد للمشركين و العاصين و الظالمين.

أما آيات بحثنا فتتابع ذلك البحث، إذ جاء فى اولى آياتها قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ.

صحيح أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مبشّر أيضا، و أنّ القرآن الكريم يحوى كلا الأمرين، أى الإنذار و البشرى، و لكن بما أنّ البشرى تخصّ المؤمنين فإنّ الإنذار يخصّ المشركين و المفسدين، و الحديث هنا يخصّ المجموعه الأخيره، و اعتمد فيه على

ثُمَّ يَضِيفُ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

كلمه (القَهَّار) وردت فى هذه العبارة، كى لا- يغتَرَّ أحد بلطف الله، و يظنُّ أنه يعيش فى مأمن من قهر الله، و لكى لا- يغرق فى مستنقع الكفر و ارتكاب الذنب.

و تطرح دلائل توحيد الخالق جَلَّ و علا فى الالهيه و العبوديه بشكل مباشر، و تضيف رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ .

فى الواقع هناك ثلاث صفات من صفات البارئ عزَّ و جلَّ ذكرت فى هذه الآيه، و كلَّ واحده منها جاءت لإثبات مفهوم ما.الاولى «ربوبيته» لعالم الوجود، و مالكيته لكلِّ هذا العالم، المالك المدبِّر لشؤون عالم الوجود، فهو الوحيد الذى يستحقُّ العباده و الأصنام لا تملك من أمورها شيئاً و لو بمقدار ذرّه.

و الصفه الثانيه (عزّته) و كما هو معروف فإنَّ كلمه (العزیز) تطلق فى اللغه على من لا يغلب، و على من بإمكانه فعل ما يشاء، و بعبارة اخرى: هو الغالب الذى لا يمكن لأحد التغلّب عليه.

فمن يمتلك مثل هذه القدره كيف يمكن الفرار من قبضه قدرته؟! و كيف يمكن النجاه من عذابه؟! الصفه الثالثه هى (غفار) و كثير الرحمه، بحيث أنّ أبواب رحمته مفتوحه أمام المذنبين، كى لا يتصوّروا أنّ كلمتى (القَهَّار و العزیز) تعطيان مفهوم غلق أبواب الرحمه و التوبه أمام عباده. إذ أنّ إحداهما جاءت لبيان (الخوف) و الثانيه لبيان (الرجاء)، و انعدام حاله التوازن بين الحالتين السابقتين (أى الخوف و الرجاء) يؤدّى إلى عدم تكامل الإنسان، و ابتلائه بالغرور و الغفله و الغرق فى دوّامه اليأس و فقدان الأمل.

و بعبارة اخرى فإنَّ وصف البارئ عزَّ و جلَّ ب(العزیز) و(الغفار) دليل آخر على توحيد تعالی فى الالهيه، لأنّه الوحيد الذى يستحقُّ العباده و الطاعه،

وإضافه إلى ربوبيته فإنه يمتلك القدره على المعاقبه، وإضافه إلى امتلاكه للقدره على المعاقبه، فإن أبواب رحمته و مغفرته مفتوحه للجميع.

ثم يخاطب البارئ عزّ و جلّ نبيّه الأكرم في عبارته قصيره و قويّه قلّ هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون .

فما هو هذا النبأ الذي أشارت إليه الآيه و وصفته بأنه عظيم؟ هل هو القرآن المجيد؟ أم أنه رساله النبيّ؟ أم هو يوم القيامة و مصير المؤمنين و الكافرين؟ أم هو توحيد الله؟ أم كلّ هذه الأمور؟ و لكون القرآن مشتملا على كلّ تلك الأمور، و هو الجامع بينها، و أنّ المشركين أعرضوا عنه، لذا فإنّ المعنى الأول أنسب.

نعم، فهذا الكتاب السماوي العظيم هو نبأ عظيم، و عظمته كعظمه الكون، و هو نازل من قبل خالق هذا الكون، أي من الله الخالق العزيز الغفار و الواحد القهار.

النبأ الذي لم يتقبل عظمته الكثير من الناس حين نزوله، فمجموعه سخرت منه و استهزأت به، و اخرى اعتبرته سحرا، و مجموعه ثالثه اعتبرته شعرا، و لكن لم يمض بعض الوقت حتّى كشف هذا النبأ العظيم عن أسرارته، ليغيّر مسيره التاريخ البشرى، و يظلّ العالم بظله، و ليوجد حضاره عظيمه و مضيئه في كلّ المجالات، و ممّا يسترعى الانتباه أنّ الإعلان عن «النبأ العظيم» تمّ في هذه السوره المكيه في وقت كان فيه المسلمون -على ما يبدو- في أشدّ حالات الضعف و العجز، و كأنّ أبواب النصر و النجاه مغلقة أمامهم.

و ممّا ينبغي ذكره أنّ عظمه هذا النبأ العظيم ليست واضحه حتّى يومنا هذا للعالم بصوره عامه، و للمسلمين بصوره خاصه، و المستقبل سيوضّح تلك العظمه.

وقوله تعالى: أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ما زال صادقاً حتى يومنا الحاضر، فإعراض المسلمين عنه تسبب في عدم ارتوائهم من هذا المنبع العذب الذى يفتح بالفيض الإلهى الكامل، و إلى عدم التقدم على الآخرين بالاستفاده من أنواره المشعه، و إلى عدم الرقى إلى قمم الفخر و الشرف.

ثم تقول الآيه، مقدمه لسرد قصه خلق آدم، و المكانه الرفيعه التى يحتلها الإنسان الذى سجدت له كافه الملائكه: مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى لا- علم لى بالمناقشات التى دارت بين الملائه الأعلى و ملائكه العالم العلوى بخصوص خلق الإنسان، حيث أن العلم يأتينى عن طريق الوحى، و الشىء الوحيد الذى يوحى إلى هو أننى نذير مبين إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين .

و رغم أن الملائكه لم تناقش و تجادل البارئ عز و جل، و لكن ذلك المقدار من الكلام الذى قالوه عند ما أخبرهم البارئ عز و جل بأنه سيجعل فى الأرض خليفه، فقالوا: أ تخلق فيها من يفسد فيها و يفسك الدماء؟ فأجابهم قائلاً: إني أعلم ما لا تعلمون: و إذ قال رَبُّكَ لِلْمَلَأِ كَهَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْمَأْرَضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَ تَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، (١) مثل هذا النقاش أطلق عليه اسم (التخاصم) و هى تسميه مجازيه، و قد كانت هذه مقدمه للآيات التالیه التى تتحدث عن خلق آدم.

و ثمه احتمال وارد أيضا هو أن عبارته بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ لها مفهوم أوسع يشمل حتى الشيطان، لأن الشيطان كان حينئذ فى زمره الملائكه، و نتيجة تخاصمه مع البارئ عز و جل و اعتراضه على إرادته الله طرد إلى الأبد من رحمه الله.

و قد وردت روايات متعدده فى كتب الشيعه و السنه بهذا الخصوص، جاء فى إحداها أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سأل أحد أصحابه: «أ تدرى فيما يختصم الملائه الأعلى؟»

ص: ٥٥١

فأجاب رسول الله «اختصموا في الكفارات و الدرجات، فأمرًا الكفارات فإسباغ الوضوء في السبرات، و نقل الأقدام إلى الجماعات، و انتظار الصلاة بعد الصلاة، و أما الدرجات فإنشاء السلام، و إطعام الطعام، و الصلاة في الليل و الناس نيام» (1).

و بالطبع فإن هذا الحديث لم يذكر أنه ناظر إلى تفسير الآية المذكوره أعلاه، رغم تشابه بعض عباراته مع عبارات الآية، و على أيه حال، يستفاد من الحديث أن المراد من (اختصموا) هو أنهم تباحثوا و تناقشوا، و لا يعنى الجدل في الحديث.. فهم تباحثوا و تناقشوا بشأن أعمال الإنسان و الأعمال التي تكون كفاره لذنوبهم و تزيد من درجات الإنسان و ترفع من شأنه، و يمكن أن يكون بحثهم حول عدد من الأعمال التي تعدّ مصدرا لتلك الفضائل، أو بشأن تعيين حدّ و ميزان للدرجات الناتجه عن تطبيق الإنسان لتلك الأعمال، و بهذا الشكل يكون الحديث تفسيراً ثالثاً للآية، و هو مناسب من عدّه جوانب، و لكنّه لا يتناسب مع الآيات التاليه، إذ ربّما كان المقصود هو بحث و مناقشات الملائكه في موارد اخرى، و ليس ذلك المتعلّق بالآيه.

و الجدير بالذكر أن معنى عدم علم النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم هو أنّي لم أكن أعلم ذلك من نفسي، لأنّ علمي ليس من قبل نفسي و إنّما ينزل عليّ عن طريق الوحي.

\*\*\*

ص: ٥٥٢

---

١ - ١) - «مجمع البيان» في ذيل آيات البحث، كما ورد هذا الحديث في تفسير الدرّ المنثور نقلا عن مجموعه كبيره من صحابه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم مع بعض الاختلافات.

اشاره

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَأِئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٣) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٤) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٥) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ (٧٦) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٧) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٨) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٧٩) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨٠) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨١) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٢)

التفسير

اشاره

تكثر الشيطان و طرده من رحمه الله!

هذه الآيات - كما قلنا - توضيح لاختصاص (الملا الأعلى) و(إبليس) و بحث

حول مسأله خلق آدم عليه السلام، و بصره عامه فإن الهدف من توضيح هاتين المسألتين:

أولاً: تذكير الإنسان بقيمه وجوده، و سجود كل الملائكة لجدّه آدم، فكيف بالإنسان الذى كرمه البارئ عزّ و جلّ كلّ هذا التكريم يقع أسيراً فى حبائل الشيطان و هوى النفس؟ و كيف ينسى قيمه وجوده، أو يسجد لأصنام صنعها من الحجر و الخشب؟! من المعروف أنّ أحد الأساليب المؤثره فى التربيّه، هو إعطاء شخصيه للأفراد الذين يتلقون التربيّه. و بعبارة أصحّ: تذكيرهم بشخصيتهم الرفيعة و قيمه وجودهم، فإن تذكروا هذا الأمر، أحسّوا بأنّ الذلّه و الحقاره لا تلقيان بهم، فيتجنّبوا تلاقيا.

ثانياً: إنّ عناد الشيطان و غروره و تكبره و حسده تسببت فى سقوطه من مقامه الشامخ الرفيع إلى الحضيض، و غرقه بوحل اللعنه و إلى الأبد، و يمكن أن يكون هذا المثل عبره لكلّ لجوج و مغرور ليعتبر و يترك ممارسات الشيطان.

ثالثاً: تعريف بنى آدم بعدوّهم الكبير الذى أقسم الشيطان على إغوائهم، كى يكونوا جميعاً على حذر منه و يجتنبوا السقوط فى حبائل أسره.

كلّ هذه الأمور، هى تكمله للأبحاث السابقه، و على أيّه حال فإنّ الآيه الاولى تذكر بإخبار الله عزّ و جلّ ملائكته بأنّه سيخلق بشرا من الطين: **وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ .**

و لكى لا- يتصوّر البعض أنّ أصل خلق الإنسان هو ذلك الطين و حسب أضافت الآيه التاليه: **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .**

و بهذا الشكل انتهت عمليه خلق الإنسان، و ذلك بعد امتزاج روح البارئ عزّ و جلّ الطاهره مع التراب. فخلق موجود عجيب لم يسبق له مثيل، و لم توضع لرقبته و انحطاطه أيّه حدود. الموجود الذى زوده البارئ عزّ و جلّ باستعدادات

خارقه تجعله لائقا لخلافه الله، و الذي سجدت له الملائكة بأجمعها فور اكتمال عمله خلقه فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .

إِلَّا أَنَّ إِبْلِيسَ كَانَ الْوَحِيدَ الَّذِي أَبِي أَنْ يَسْجُدَ لِأَدَمَ لِتَكْبِرِهِ وَ تَمَرُّدِهِ وَ طُغْيَانِهِ، وَ لِهَذَا السَّبَبِ أَنْزَلَ مِنْ مَقَامِهِ الرَّفِيعِ إِلَى صَفُوفِ الْكَافِرِينَ: إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

نعم، فالتكبر و الغرور من أقبح الأمور التي يبتلى بها الإنسان، إذ أنّهما يسدلان الستار على عينه و بصيرته، و يحرمه من إدراك الحقائق و فهمها، و يؤدّيان به إلى التمرد و العصيان، و يخرجانه أيضا من صفوف المؤمنين المطيعين لله إلى صف الكافرين الباغين و الطاغين، ذلك الصف الذي يترأسه إبليس و يقف في مقدمته.

و هنا استجوب الباري عزّ و جلّ إبليس: قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي مِنْ الْبَدِيهِى أَنْ عِبَارَهُ (يَدَى) لَا تَعْنِي الْأَيْدَى الْحَقِيقِيَّةَ الْمَحْسُوسَةَ، لِأَنَّ الْبَارِيَّ عَزَّ وَ جَلَّ مَنْزَهُ عَنْ كَافَّةِ أَشْكَالِ الْجِسْمِ وَ التَّجْسِيمِ، وَ إِنَّمَا «اليد» هنا كناية عن القدره، و من الطبيعي أنّ الإنسان يستعمل يديه ليظهر قدرته على إنجاز العمل، و كثيرا ما تستخدم اليد بهذا المعنى فى محادثاتنا اليوميّه، إذ يقال: إنّ البلد الفلانى بيد المجموعه الفلانيه، أو إنّ المسجد الفلانى بنى على يد الشخص الفلانى، و أحيانا يقال: إنّ يدى قصيره، أو إنّ يدك مملوءه، اليد فى كلّ تلك الجمل ليس المقصود منها اليد الحقيقيه التى هى أحد أعضاء الجسم، بل كناية عن القدره و السلطه و التمكن.

و من هنا فإنّ الإنسان ينفذ أعماله المهمه بكلتا يديه، و استخدامه كلتا يديه يبيّن اهتمامه و تعلقه بذلك العمل، و مجيء هذه العبارة فى الآيه المذكوره أعلاه إنّما هو كناية عن الاهتمام الخاصّ الذى أولاه الباري عزّ و جلّ لعملية خلق الإنسان.

ثمّ تضيف الآيه: أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ أَى أ كَانَ عَدَمَ سَجُودِكَ لِأَنَّكَ اسْتَكْبَرْتَ، أَمْ كُنْتَ مِنَ الَّذِينَ يعلو قدرهم عن أن يؤمروا بالسجود؟!



و من دون أى شك فإنه لا أحد يستطيع أن يدعى أن قدرته و منزلته أكبر من أن يسجد لله (أو لآدم بأمر من الله) و بهذا فإن الاحتمال الوحيد المتبقى هو الثانى، أى التكبر.

و قال بعض المفسرين: إن كلمه (عالين) تعنى -هنا- الأشخاص الذين يسرون دوما فى طريق الغرور و التكبر، و طبقا لهذا فإن معنى الآيه يكون: هل أنك استكبرت الآن، أم كنت دائما هكذا؟! و لكن المعنى الأول أنسب.

إلا- أن إبليس اختار- بكل تعجب- الشق الثانى، و كان يعتقد بأنه أعلى من أن يؤمر بذلك، لذلك قال- بكل وقاحه- أثناء تبيانه أسباب معارضته لأوامر البارئ عز و جل: قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

و علل إبليس عدم سجوده لآدم و عصيانه أمر الله بالمقدمات التاليه:

أولا: إننى خلقت من نار، أما هو فقد خلق من طين، و هذه حقيقه صرح بها القرآن المجيد فى الآيتين ١٤ و ١٥ من سوره الرحمن: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ .

ثانيا: إن الشئ المخلوق من النار أفضل من الشئ المخلوق من التراب، لأن النار أشرف من التراب.

ثالثا: لا يحق لأحد أن يأمر مخلوقا بالسجود لمخلوق آخر دنى منه.

و خطأ إبليس يكمن فى المقدمتين الأخيرتين، و ذلك من عدّه وجوه:

أولا: لأن آدم لم يكن ترابا فقط، و إنما نفخت فيه الروح الإلهيه، و هذا هو سبب عظمته، و إلا فأين التراب من كل هذا الفخر و الاستعداد و التكامل؟ ثانيا: التراب ليس بأدنى من النار، و إنما هو أفضل منها بكثير، لأن كل الحياه أصلها من التراب، فالنباتات و كل الموجودات الحيّه بأجمعها تستمدّ غذاءها و مصدر حياتها من التراب، و كل المعادن الثمينه مخفيه فى وسط التراب، خلاصه

الأمر أنّ التراب هو مصدر كلّ أنواع البركه، والنار رغم أهميتها الكبرى فى الحياه فإنها لا تبلغ أبدا أهميه التراب، وإنما يستفاد منها فى الوسائل الترابيه، وقد تكون أداه خطره و مدمره. والأهم من ذلك أنّ المواد التى يستفاد منها لإشعال النيران كالخطب و الفحم و النفط هى من بركه الأرض.

ثالثا: المسأله، هى مسأله إطاعه أوامر الله سبحانه و تعالى و تنفيذها، لأنّه خالقنا و نحن عبده و يجب أن نطبّق أوامره.

و على أيّيه حال، لو أمعنا النظر فى أدلّه إبليس لرأينا فيها كفرا عجيبا، لأنّه بكلامه أراد نفي حكمه الله، و التقليل من شأن أوامره (نعوذ بالله)، و هذا الموقف المخزى لإبليس دليل على جهله التام، لأنّه لو كان قد اعترف بأنّ عدم سجوده إنّما كان لهوى هو هوى النفس، أو أنّ غروره و تكبره حالا- بينه و بين السجود لآدم، و ما إلى ذلك لكان الأمر أهون، إذ أنّه يكون هنا قد أقرّ بارتكاب ذنب واحد، إلّا أنّه بكلامه هذا و لتبرير عصيانه، عمد إلى نفي حكمه البارئ عزّ و جلّ و علمه و معرفته، و هذا يوضّح سقوطه إلى أدنى درجات الكفر و الانحطاط.

المخلوق مقابل خالقه يفتقد الاستقلال، إذ أنّ كلّ ما لديه هو من خالقه، و لهجه كلام إبليس توضح أنّه كان يريد استقلالا و حكما فى مقابل حكم البارئ عزّ و جلّ، و هذا مصدر آخر من مصادر الكفر.

و يمكن القول أنّ أسباب ضلال الشيطان، تعود إلى عدّه امور منها الغرور و التكبر و الجهل و الحسد، و هذه الصفات القبيحه اتّحدت و أسقطته إلى الحضيض بعد سنين طوال من مرافقه الملائكه، و كأنّه كان معلّما لهم.. أسقطته من أوج الفخر إلى أدنى الحضيض، و ما أخطر هذه الصفات القبيحه أينما وجدت!! و كما

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى إحدى خطبه فى نهج البلاغه: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل و جهده الجهيد و كان قد عبد الله ستّه آلاف سنه... عن كبر ساعه واحده فمن ذا بعد إبليس

يسلم على الله بمثل معصيته» (١).

نعم، فعملية بناء قصر عظيم قد تستغرق سنوات عديدة، ولكن عملية تدميره قد لا تستغرق سوى لحظات بتفجير قبله قويه.

وهنا وجب إخراج هذا الموجود الخبيث من صفوف الملائم الأعلى و ملائكة العالم العلوى، فخاطبه البارئ عزّ و جلّ بالقول: قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .

الضمير (منها) فى عبارة فَأَخْرِجْ مِنْهَا إِمَّا أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى صَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ إِلَى الْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ، أَوْ إِلَى الْجَنَّةِ، أَوْ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ.

نعم، فيجب إخراج هذا الخبيث من هنا، فهذا المكان مكان الطاهرين و المقرّبين، و ليس بمكان المذنبين و العاصين ذوى القلوب المظلمه.

«رجيم» من (رجم)، و بما أنّ لازمها الطرد، فقد وردت بهذا المعنى هنا.

ثمّ أضاف البارئ عزّ و جلّ: وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ فأنت خارج و مطرود من رحمتى إلى الأبد.

المهم أنّ الإنسان عند ما يرى النتائج الوخيمه لأعماله السيئه عليه أن يستيقظ من غفلته، و أن يفكر فى كيفية إصلاح ذلك الخطأ، و لا- شىء أخطر من بقاءه راكبا لموج الغرور و اللجاجه و استمراره فى السير نحو حافه الهاويه، لأنّه فى كلّ لحظه يتعد أكثر عن الصراط المستقيم، و هذا هو نفس المصير المشؤوم الذى وصل إليه إبليس.

و هنا تحوّل (الحسد) إلى (عداء)، العداء الشديد و المتأصل، كما قال القرآن:

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

هذه الآيه تبيّن أنّ الشيطان طلب من الله سبحانه و تعالى أن يمهلّه، فهل طلب أن يمهلّه ليسكب عبرات الحسره و الندامه على ما فعله من قبل، أم أنّه طلب مهله لإصلاح عصيانه القبيح؟

ص: ٥٥٨

كَلَّا إِنَّهُ طَلَبَ مِنَ الْبَارِئِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَمَهِّلَهُ إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ كَيْ يَنْتَقِمَ مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُدْفَعَهُمْ جَمِيعًا إِلَى طَرِيقِ الضَّلَالِ، رَغْمَ عِلْمِهِ بِأَنَّ إِضْلَالَهَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ سَوْفَ يَضِيفُ لِدُنُوبِهِ حَمَلًا ثَقِيلًا جَدِيدًا مِنَ الذُّنُوبِ، وَيَغْرَقُهُ فِي مَسْتَنْقَعِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، كُلِّ ذَلِكَ بِسَبَبِ اللِّجَاجِ وَالتَّكْبُرِ وَالعُرُورِ وَالحَسَدِ، فَمَا أَكْثَرَ المَصَائِبِ الَّتِي تَتَوَلَّدُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ.

و فِي الْحَقِيقَةِ، إِنَّهُ كَانَ يَرِيدُ الِاسْتِمْرَارَ فِي إِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ حَتَّى آخِرِ فِرْصِهِ مَتَاحَهُ لَهُ، لِأَنَّ فِي يَوْمِ البَعْثِ تَسْقُطُ التَّكَالِيفُ عَنِ الْإِنْسَانِ، وَ لَا مَعْنَى هُنَاكَ لِلوَسَاوِسِ وَ الإِغْوَاءَاتِ، إِضَافَةً إِلَى هَذَا فَقَدْ طَلَبَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْقِيَهُ حَيًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، رَغْمَ أَنَّ كُلَّ الْمَوْجُودِينَ فِي الْعَالَمِ يَمُوتُونَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

و هُنَا اقْتَضَتْ مَشِيئَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ -بِدَلَالِئِ سَنَشِيرِ إِلَيْهَا- أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَطَلْبِ إبْلِيسَ، وَ لَكِنْ هَذِهِ الِاسْتِجَابَةُ كَانَتْ مَشْرُوطَةً وَ لَيْسَتْ مُطْلَقَةً، كَمَا تَوَضَّحَهُ الْآيَةُ التَّالِيَةُ: **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ .**

وَ لَكِنْ لَيْسَ إِلَى يَوْمِ البَعْثِ الَّذِي تَبْعَثُ فِيهِ الْخَلَائِقُ، وَ إِنَّمَا إِلَى زَمَانٍ مَعْلُومٍ، قَالَ تَعَالَى: **إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .**

وَ هُنَا أُعْطِيَ الْمُفَسِّرُونَ آرَاءَ مُخْتَلِفَةً بِشَأْنِ تَفْسِيرِ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ حَيْثُ قَالَ الْبَعْضُ: إِنَّهُ يَوْمُ نَهَايَةِ الْعَالَمِ، لِأَنَّ كُلَّ الْمَوْجُودَاتِ الْحَيَّةِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ تَمُوتُ، وَ تَبْقَى ذَاتُ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةِ فَقَطْ، كَمَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ (٨٨) مِنْ سُورَةِ الْقَصَصِ: **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ وَ بِهَذَا الشَّكْلِ فَقَدْ اسْتَجِيبَ لِحِزِّهِ مِنْ مَطَالِبِ إبْلِيسَ.**

وَ الْبَعْضُ الْآخَرُ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَ لَكِنْ هَذَا الْإِحْتِمَالُ لَا يَتَلَاءَمُ مَعَ ظَاهِرِ آيَاتِ بَحْثِنَا الَّتِي يَتَّضِحُ مِنْهَا أَنَّ الْبَارِئَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْتَجِبْ لِكُلِّ مَطَالِبِيهِ، كَمَا أَنَّ هَذَا الْإِحْتِمَالُ لَا يَتَلَاءَمُ حَتَّى مَعَ بَقِيَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنِ مَوْتِ الْجَمِيعِ مَعَ نَهَايَةِ هَذَا الْعَالَمِ.

وَ قَالَ الْبَعْضُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ يَحْتَمِلُ أَنَّهَا تُشِيرُ إِلَى زَمَانٍ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ

و لكن التفسير الأول أنسب من بقيه التفاسير، وقد وردت روايه فى تفسير البرهان نقلا عن الإمام الصادق عليه السلام، و تقول بأن إبليس يموت فى الفتره ما بين النفخه الاولى و الثانيه (١).

هنا كشف إبليس عما كان يضمه فى داخله، و عن الهدف الحقيقى لطلبه البقاء خالدا إلى زمن معين إذ: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

القسم بالعزّه يراد منه الاستناد على القدره و الاستطاعه، و التأكيدات المتتاليه فى الآيه (القسم من جهه، و نون التوكيد الثقيله من جهه اخرى، و كلمه أجمعين من جهه ثالثه) تبين أنه مصمم بصوره جديّه على المضى فى عمله، و أنه سيبقى إلى آخر لحظه من عمره ثابتا على عهده بإغواء بنى آدم.

و بعد قسمه انتبه إبليس إلى هذه الحقيقه، و هى أنّ هناك مجموعه من عباد الله المخلصين لا يمكن كسبهم بأى طريقه إلى داخل منطقته نفوذ، لذلك أجبر على الاعتراف بعجزه فى كسب أولئك فقال: إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ .

أولئك الذين يسيرون فى طريق المعرفه و العبوديه لك بصدق و إخلاص و صفاء، إنك دعوتهم إليك، و أخلصتهم لك، و جعلتهم فى منطقته أمنك، و هذه هى المجموعه الوحيده التى لا- أتمكّن من الوصول إليها، أمّا البقيه فإنّ بإمكانى إيقاعهم فى شباكى.

حدس و ظنّ إبليس كان صحيحا، إذ أنه أوجد العراقيل لكلّ واحد من بنى آدم عدا المخلصين الذين نجوا من فخاخه و ذلك ما أكده القرآن المجيد فى الآيه (٢٠) من سوره سبأ: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ .

\*\*\*

## ١- فلسفه وجود الشيطان

هناك مسائل مهمه تطرح بشأن الآيات المذكوره أعلاه، منها مسأله خلق الشيطان، و سبب سجود الملائكه لآدم، و سبب تفضيل آدم على الملائكه، و الشيطان على من سيتسلط، و ما هي نتيجة التكبر و الغرور، و ما المقصود من الطين و روح الله، و مسأله خلق آدم و خلقه المستقل في مقابل فرضيات تكامل الأنواع؟ و مسائل اخرى من هذا القبيل تم تناولها و بصوره مفضي له في التفسير الأمثل في ذيل الآيه (٣٤) من سوره البقره، و في ذيل الآيه (٢٦) من سوره الحجر، و في ذيل الآيه (١١) من سوره الأعراف.

نعود مره اخرى إلى السؤال الأول الخاصّ بشأن فلسفه خلق الشيطان، فالكثير يتساءل إن كان الإنسان خلق من أجل التكامل و نيل السعاده عن طريق عبوديته لله، فما هي أسباب وجود الشيطان الذي هو موجود مدمر يعمل ضدّ تكامل الإنسان؟ و هو في نفس الوقت موجود ذكي، مكار، يثير العداوه و البغضاء. إلا أننا لو تفكرنا قليلا فسوف ندرك أنّ وجود هذا العدو عامل مساعد لدفع التكامل الإنساني إلى الإمام و تقدّمه.

لا نذهب بعيدا، فقوات المقاومه التي تدافع دائما و بشده ضدّ العدو تزداد قوه يوما بعد آخر..

و القاده و الجنود المدربون الأقوياء هم الأشخاص الذين يقاتلون الأعداء بعنف في المعارك الكبيره.

و السياسي المحنك القوى هو الذي يتمكن في الأزمات السياسيّه الشديده أن يتصدى للأعداء الأقوياء و يتغلب عليهم.

و أبطال المصارعه الكبار هم الذين نازلوا مصارعين أقوياء أشداء، إذن فلم العجب من أنّ عباد الله الكبار يجاهدهم المستمر المرير ضدّ الشيطان، يصبحون

أقوياء يوما بعد آخر.

فعلماء اليوم قالوا بشأن فلسفه وجود الميكروبات: لو لا وجود هذه الميكروبات لكان جسم الإنسان ضعيفا عديم الإحساس، و يحتمل أيضا توقّف نمو الإنسان بسرعه بحيث لا يتجاوز طوله الثمانين سنتيمترا، و لكان جميع البشر على شكل أقزام صغار، و بهذا الشكل فإنّ مبارزه جسم الإنسان للميكروبات المهاجمه تعطيه قوّه و قدره على النمو.

و كذلك الحال بالنسبه إلى روح الإنسان فى جهادها ضدّ الشيطان و هوى النفس.

و هذا لا- يعنى أنّ الشيطان مكلف بإغواء عباد الله، فالشيطان كان طاهرا فى بدايه خلقه، كبقية الموجودات، و لكن الانحراف و الانحطاط و التعاسه التى أصيب بها إنّما كان برغبته و إرادته، و بهذا فإنّ البارئ عزّ و جلّ لم يخلق إبليس منذ اليوم الأوّل شيطانا، و إنّما إبليس هو الذى أراد أن يكون شيطانا، و فى نفس الوقت فإنّ ممارساته الشيطانيه لا- تجلب الضرر لعباد الله المخلصين إطلاقا، بل قد تكون سلما لرفيتهم و سموهم.

و فى النهايه يبقى هذا السؤال: لماذا تمّت الموافقه على طلبه فى البقاء حيا، و لماذا لم يهلك فى تلك اللحظه؟ جواب هذا السؤال هو ما ذكرناه أعلاه، و بعبارة اخرى:

إنّ عالم الدنيا هذا هو ساحه للاختبار و الامتحان (الاختبار الذى هو وسيله لتربيته و تكامل الإنسان) و كما هو معروف فإنّ الاختبار لا يتمّ من دون مواجهه عدو شرس و مجابهه مختلف أنواع الأعاصير و المشاكل.

و بالطبع، إن لم يكن هناك شيطان، فإنّ هوى النفس و وساوسها هى التى تضع الإنسان فى بودقه الاختبار، و لكن حراره هذه البودقه تزداد بوجود الشيطان، لأنّ الشيطان سيكون فى هذه الحاله العامل الخارجى المؤثر على الإنسان، و هوى النفس و الوسوس ستكون العامل الداخلى.

ص: ٥٦٢

## ٢- نيران الأنانية و الغرور تحرق رأسمال الوجود

من الأمور الحسّاسه جدّا التي تلفت النظر فى قضيه طرد إبليس من رحمه الله، هو مدى تأثير عاملى الأنانية و الغرور على سقوط و تعاسه الإنسان، إذ يمكن القول بأنّهما من أهمّ و أخطر عوامل الانحراف. وقد تسبّبا-فى لحظه واحده-فى هدم عباده ستّه آلاف سنه، و إنّهما كانا السبب وراء تدنّى موجود كان فى صفّ ملائكه السماء الكبار إلى أدنى درجات الشقاء، و يستحقّ لعنه الله الأبدية.

الأنانية و الغرور يحجبان الحقيقه عن بصر الإنسان، فالأنانية مصدر الحسد، و الحسد مصدر العداوه و البغضاء، و البغضاء سبب إراقه الدماء و ارتكاب الجرائم.

الأنانية تدفع الإنسان إلى الاستمرار فى ارتكاب الخطأ، و تحبّط-فى نفس الوقت-مفعول أى عامل للصحوه من الغفله، أى تحوّل بين ذلك العامل و بين الإنسان.

الأنانية و العناد يسلبان فرصه التوبه و إصلاح الذات من الإنسان، و يغلقان أمامه كلّ أبواب النجاه، و خلاصه الأمر فإنّ كلّ ما نقوله حول خطر هذه الصفات القبيحه و المدمومه يعدّ قليلا.

و كم هو جميل

قول أمير المؤمنين عليه السّلام: «فعدو الله إمام المتعصّيين، و سلف المستكبرين، الذى وضع أساس العصبيه، و نازع الله رداء الجبريه، و أدرع لباس التعزّز، و خلع قناع التذلل ألا ترون كيف صغّره الله بتكبره؟ و وضعه بترفعه؟ فاجعله فى الدنيا مدحورا، و أعدّ له فى الآخره سعيرا». (١)

\*\*\*

ص: ٥٦٣



اشاره

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مِمَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

التفسير

اشاره

آخر حديث بشأن إبليس!

آيات بحثنا هي آخر آيات سوره (ص)، و في الحقيقة هي خلاصه لكل محتوى هذه السوره، و نتيجه للأبحاث المختلفه التي تناولتها السوره.

في البدايه ردًا على تهديد إبليس في إغواء كل بني آدم عدا المخلصين منهم - يجيبه البارئ عزّ و جلّ بالقول: قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (١) أقسم بالحق، و لا أقول إلا الحقّ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

ص: ٥٦٤

١ - ١) - تركيب هذه الجملة له عدّه احتمالات، فمن الممكن أن تكون (الحقّ) مبتدأ و (قسمى) خبر محذوف للمبتدأ، و من الممكن أن يكون (قولى) خبره (فالحقّ قولى) و يوجد احتمال آخر هو أن (الحقّ) خبر مبتدأ محذوف و التقدير (هذا هو الحقّ) أو (أنا الحقّ).

فما ورد في بدايه السوره إلى هنا حق، و الذى ورد بشأن أحوال الأنبياء الكبار فى هذه السوره بسبب حروبهم و جهادهم حق، و الحديث فى هذه السوره عن القيامه و العذاب الأليم الذى سينزل بالطغاه و النعم التى سيغدقها البارئ عزّ و جلّ على أهل الجنّه حق، و نهايه السوره حق، و الله سبحانه يقسم بالحقّ و يقول الحقّ بأنّه سيملاً جهنّم بالشیطان و أتباعه، و ذلك جواب قاطع على كلام إبليس بشأن إغوائه بنى الإنسان، و بهذا وضح البارئ عزّ و جلّ تكليف الجميع.

على أيّ حال، فإنّ هاتين الجملتين تشتملان على الكثير من التأكيد، فتؤكّدان مرتين على مسأله (الحقّ) و تقسمان بها، و عباره (لأملأنّ) رافقتها نون التوكيد الثقيله و (أجمعين) تأكيد مجدّد على كلّ ذلك، لكى لا يبقى لأحد أدنى شكّ و ترديد بهذا الشأن، إذ لا سبيل لنجاه الشيطان و أتباعه، و الاستمرار بالسير على خطاه يؤدّى إلى جهنّم.

و فى نهايه هذا البحث يشير البارئ عزّ و جلّ إلى أربعة امور فى عدّه عبارات قصيره و واضحه؟ ففى المرحله الاولى يقول: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .

و بهذا وضع النّبى الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم حدّاً لذرائع المتذرّعين، و بيّن أنّه لا- يتغى من وراء ذلك سوى نجاه و سعاده البشر، و أنّه لا- يريد منهم أىّ جزاء مادى أو معنوى، و لا استحسان و لا شكر، و لا مقام و لا حكومه، و إنّما أجرى على الله، كما ذكرت ذلك آيات اخرى فى القرآن المجيد كالآيه (٤٧) من سوره سبأ، و التى تقول: إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ .

و هذه هى إحدى دلائل صدق رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، لأنّ الداعيه الكذّاب إنّما يدعو للوصول إلى أطماع شخصيّه، و هذه الأطماع تظهر بشكل أو بآخر من خلال حديثه، و العكس ما نراه فى شخصيّه رسولنا الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم.

و فى المرحله الثانيه يقول: أنا لست من المتكلّفين، فكلامى مستند على الأدلّه

و المنطق، و لا يوجد فيه أى تكلف، و عباراتي واضحة و كلامى خال من الغموض و اللفّ و الدوران و مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ .

و فى الواقع فإنّ المرحله الاولى تتناول أوصاف الداعيه، و المرحله الثانيه تتطرق لسبل الدعوه و محتواها.

□  
□<sup>□</sup> أما المرحله الثالثه فتبين الهدف الأصلى من هذه الدعوه الكبيره من نزول هذا الكتاب السماوى إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

نعم، المهمّ هو أن يوقظ الناس من غفلتهم و يجعلهم يتعمقون فى التفكير، لأنّ الطريق واضح، و علاماته ظاهره، و الفطره السليمه فى داخل الإنسان تمثّل دافعا قوياّ تدفع الإنسان إلى سبيل التوحيد و التقوى، فالمهمّ هو الصحوه، و هذه هى الرساله الرئيسيه للأنبياء و لكتبهم السماويه.

هذه العبارة وردت مرّات عديده فى القرآن، و كلّها تبين أنّ محتوى دعوه الأنبياء فى كلّ المراحل يتناسب مع الفطره التى فطرنا عليها الباري عزّ و جلّ، و أنّ الإثنين يسيران معا إلى الأمام.

و أمّا فى المرحله الرابعه و الأخيره، فإنّه يهدّد المعارضين و المخالفين بعبارة قصيره غزيره المعنى: وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .

يقول: من الممكن أن لا تأخذوا هذا الكلام مأخذ الجدّ، و تمرّون به مرّ الكرام، إلاّ أنّه سيثبت لكم عاجلا صدق كلامى، سيثبت فى هذا العالم فى ساحات قتال الإسلام ضدّ الكفر، و فى ساحات العمل الاجتماعى و الفكرى، و فى العالم الآخر بواسطه العذاب الإلهى الأليم الذى ستعدّبون به، خلاصه الأمر أنّ السوط الإلهى مهياّ للنزول على المستكبرين و الظالمين.\*\*\*

## من هو المتكلف؟

قرأنا في الآيات المذكوره أعلاه أنّ إحدى مفاخر رسولنا الأكرم صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أنّه غير متكلف، وفي الروايات الإسلاميه المزيد من الأبحاث التي توضّح علامات المتصنّع والمتظاهر بما ليس فيه، ومنها:

ورد حديث في (جوامع الجامع) عن رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم، قال فيه: «المتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم» (١) ! وروى مثله في الخصال عن الصادق عليه السلام عن لقمان في وصيته لابنه.

كما

ورد حديث آخر وهو من وصايا الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم لأمر المؤمنين عليه السلام «المتكلف ثلاث علامات: يتملق إذا حضر، ويغتاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة» (٢).

إضافه إلى ذلك

روى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، جاء فيه: «المتكلف مخطئ وإن أصاب، والمتكلف لا يستجلب في عاقبه أمره إلاّ الهوان، وفي الوقت إلاّ- التعب والعناء والشقاء، والمتكلف ظاهره رياء وباطنه نفاق، وهما جناحان بهما يطير المتكلف، وليس في الجملة من أخلاق الصالحين، ولا من شعار المتقين المتكلف في أي باب، كما قال الله تعالى لنبيّه قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين» (٣).

من مجموع هذه الزوايات يتّضح-بصوره جيّده- أنّ المتكلفين خارجون عن جادّه الحقّ والعداله والصدق والأمانه، وأنهم لا يرون الحقائق أمام أعينهم، ويتشبثون بالأوهام والخيال، يتبثون بأمور ليسوا على اطلاع بها، ويتدخلون

ص: ٥٦٧

١-١) -جوامع الجامع نقلا عن تفسير الميزان، المجلد ١٧، الصفحه ٢٤٣.

٢-٢) -نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحه ٤٧٣.

٣-٣) -المصدر السابق.

بأمور لا يعرفونها، لهم ظاهر و باطن، و حضورهم و غيابهم متضاداً، يتعبون أنفسهم و يجهدونها، و لكنهم لا يحصلون سوى الخيبه و الخسران، أما المتقون و الصالحون فإنهم مطهرون من هذه الصفه و منزّهون عنها.

إلهى! وفقنا لتطهير أنفسنا من كل آثار التكلف و النفاق و التمرد و الطغيان.

إلهى! اجعلنا فى صفوف المخلصين الذين يستظلون بظلّ حمايتك و حفظك، و الذين يئس الشيطان منهم.

إلهى! ارزقنا اليقظه و الذكاء، كى نسارع فى إحياء محتوى هذا القرآن الكبير، و تعبئه كافه القوى الإسلاميه فى أنحاء العالم، و نسير فى طريقك بقلب و لسان واحد، لكسر شوكة أعداء الحقّ و الحقيقه.

أمين يا ربّ العالمين.

\*\*\* «انتهت سوره(ص)» «و انتهاء المجلد الرابع عشر»

ص: ٥٦٨

































بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩